شبكة الألوكة
www.alukah.net

مكتبة الأستاذ الدكتور محمد بن تركي التركي

مخطوطة

عنوان العبر وديوان المبتدأ والخبر

المؤلف

عبدالرحمن بن محمد بن محمد (ابن خلدون)

الملاحظات

- أصل هذه النسخة في مكتبة ليدن، في هولندا.

شبكة الألوكة
www.alukah.net

L. W.

Het watermerk van het papier = Briquet no 4835 ⟶ MS. datum post quem 1561 A.D. (p.e: fol 26).

Gijsen Kouwenhoven

oct. 1972.

شبكة الألوكة
www.alukah.net

3 1/2 Dal.

هذا كتاب عيون العبر في أحوال العالم والأمم
وأحوال المبتدأ والخبر على طريق العبرة
والعجايب ورموز خلقة العالم
لابن خلدون
رحمه الله

كتاب عنوان العبر وديوان المبتدا والخبر

تأليف الشيخ الامام العالم العلامة العمدة

أبو زيد عبد الرحمن ولي الدين بن خلدون

غفر الله له ولجميع المسلمين

امين

ملكية استنا خارجي رحمه الله
تملكت بعد لطف الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

قال شيخنا واستاذنا الامام العالم العلامة ابو زيد عبد الرحمن ولي الدين بن خلدون
الحمد لله الذي له العزة والجبروت وبيده الملك والملكوت وله الاسماء الحسنى والنعوت الذي
يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والارض ولا يفوت انشأ ناشئ الارض بدءا واستعمرنا فيها اجيالا
وسير لنا منها ارزاقا وقسما تكفلنا الارحام والبيوت والرزق والقوت وتبلينا الايام والوقوت
وتعبر بنا الاجال التي خط علينا كأنها الموقوت وله البقاء والثبوت وهو الحي الذي لا يموت والصلوة
والسلام على سيدنا ومولانا محمد النبي العربي المكتوب في التوراة والانجيل المنعوت الذي محض فصاله الكون
قبل ان يتعاقب الاحاد والثبوت ويتباين رحل والبهموت وتمهد بصدقه الحمام والعنكبوت والنحل
والحوت صلى الله واصحابه الذين لهم في نصرة دينه الاثر البعيد والصيت والشمل الجميع في مظاهرته
ولعدوهم الشمل الشتيت صلى الله عليه وعليهم ما اتصل للاسلام جد المبحوث وانقطع بالكفر حبله
المبتوت وسلم كثيرا اما بعد فان فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الامم والاجيال
وتشد اليه الركائب والرحال وتسمو الى معرفته السوقة والاقيال وتنافس فيه الملوك والاقيال
وتتساوى في فهمه العلماء والجهال اذ هو في ظاهره لا يزيد على اخبار عن الايام والدول والسوابق من القرون
الاول تمتع بها الاقوال وتصرف فيها الامثال وتطرف فيها الاندية اذا غصها الاحتفال
وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الاحوال واتسع للدول النطاق فيها والجمال وعمر الارض
حتى تأذن لهم الارحال وكان منهم الزوال وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق
وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق فهو لذلك اصيل في الحكمة عريق وجدير بان يعد في علومها وخليق
وان نقول المؤرخ في الاسلام قد استوعبوا اخبار الانام وجمعوها وسطروها في صفحات
الدفاتر واودعوها وخلطها المنطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها او ابتدعوها وزخرف من
الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها واتفق لتلك الاثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها واداوها
الينا كما سمعوها ولم يلاحظوا اسباب الوقائع والاحوال ولم يراعوها ولا رفضوا ترهات الاحاديث
ولا دفعوها فالتحقيق قليل وطرف التنقيح في الغالب كليل والغلط والوهم نسيب للاخبار
وخليل والتقليد عريق في الادميين وسليل والتطفل على الفنون عريض طويل ومرعى الهمل
بين الانام وبيل والحق لا يقاوم سلطانه والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه والناقل انما
عمله هو وينقل والبصيرة تنقد الصحيح اذا تمقل والعلم يحلوها صفحات الصواب ويصقل
هذا وقد دون الناس في الاخبار واكثروا وجمعوا تواريخ الامم والدول في العالم
وسطروا والذين ذهبوا بفضل الشهرة والامامة المعتبرة واستفرغوا وادين من قسلهم
في صفحهم المتأخرة فهم قليلون لا يكادون يجاوزون عدد الانامل كالاحكام العوامل مثل ابن
اسحاق والطبري وابن الكلبي ومحمد بن عمر الواقدي وسيف بن عمر الاسدي والمسعودي
وغيرهم من المشاهير المميزين عن الجماهير وان كان في كتب المسعودي والواقدي من المطعن والمغمز
ما هو معروف عند الابيات ومشهور بين الحفظة الثقات الا ان الكافة اختصتهم بقبول

اخبارهم

اخبارهم واقتفاء سننهم في التصنيف واتباع اثارهم والناقد البصير مسطاس نفسه في ترسمهم فيما
ينقلون واعتبارهم فللعمران طبايع في احواله ترجع اليها الاخبار وتحمل عليها الروايات والاسناد
ثم ان اكثر التواريخ لهؤلاء عامة المناحي والمسالك لعموم الدولتين صدر الاسلام في الافاق والممالك
وتطاولها البعيد من الغايات في الملك والمتاركة ومن هؤلاء من اوعب ما قبل الملة من الدول والايام
والامم العمم كالمسعودي ومن نحا منحاه وجاء من بعدهم من عدل عن الاوطان طلاق الى التقييد
وقصر في العموم والاحاطة عن الناي والبعيد فقيد شوارد عصره واستوعب اخبار افقه وقطره واقتصر
على احاديث دولته ومصره كما فعل ابن حيان مؤرخ الاندلس والدولة الاموية لهاذين الرقيق مؤرخ
افريقية والدول التي كانت بالقيروان ثم لم ترأيت من بعد هؤلاء الا مقلد وبليد الطبع والعقل او
سبلة ينبو عن ذلك المنوال ويحتذي منه بالمثال ويذهل عما احاطته الايام من الاحوال
واستبدلت به من عوايد الامم والاجيال فتحلون الاخبار عن الدول وحكايات الوقايع في العصور
الاول صورا قد تجردت من موادها وصنائعا انبتت من اعمادها ومعارف تستنكر للجهل بطارقها
وتلاد انامي حوادث لم تعلم اصولها وانواع لم يعتبر اجناسها فلا تحققت فصولها يكررون في
موضوعاتهم الاخبار المتداولة باعيانها ابتاعا لمن عنى من المتقدمين بشانها ويغفلون امر الاحوال
الناشئة في دولها بما اعوز عليهم من ترجمانها فتسجم صفحهم عن بيانها ثم اذا تعرضوا الذكر الدولة
تسقطوا اخبارها نسقا محافظين على نقلها وربما اوصدقا لا يتعرضون لمبدايتها ولا يذكرون النشيت
الذي رفع منه رايتها ولا طرف من آيتها ولا لمحة الوقوف عند غايتها فيبقى الناظر متطلعا بعد الى مبادي
الدول ومرابيها مفتشا عن اسباب تراجمها او تعاقبها باحثا عن المقنع في بيانها او تناسبها حسبما
تذكر ذلك كله في مقدمة الكتاب ثم جاء آخرون باوفاط الاختصار وذهبوا الى الاكتفاء باسماء الملوك
والاقتصار مقطوعة عن الانساب والاخبار موضوعة عليها اعداد ايامهم بحروف الغبار كما فعله
ابن رشيق في ميزان العمل ومن اقتفى هذا الاثر من العمل وليس يعتبرها ولا مقال ولا عد لهم نبوت
ولا اشتمال لما ذهبوا بالفوايد واخلوا بالمذاهب المعروفة للمؤرخين والعوايد **ولما**
طالعت كتبا للقوم وسبرت غورا لامس اليوم بهتت عين القريحة من سنة الغفلة او النوم
وسمت التصنيف من نفسي وانا المفلس احسن السوم **فانشأت** في التاريخ كتابا رفعت فيه عن
احوال الناشيء من الاجيال حجابا وفصلته في الاخبار والاعتبار بابا بابا وابديت فيه
لاولية العمران والدول علالا وانسابا وقصرته على اخبار الجيلين اللذين عمروا المعمور في هذه
الاعصار وملوا اكناف الضواحي منه والامصار وما كان لهم من الدول اطوال او قصار
ومن سلف لهم من الملوك والانصار وهما العرب والبربر اذ هما الجيلان اللذان عرف بالمغرب
ما وراءهما وطال فيه على الاحقاب مثواهما حتى لا يكاد يتصور عنه منتواهما ولا عرف اهله من اجيال
الادميين سواهما فهذبت مناحه تقديبا وقومته لافهام العلماء والخاصة تقريبا وسلكت
في ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا واخترعته من بين المناحي مذهبا عجيبا وطريقة مبتدعة
واسلوبا وشرحت فيه من احوال العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الانساني من الطوارئ

ACAD.LVGD

الذاتية ما يمنعك بعلل الكوائن واسبابها وتعرفك كيف دخل اهل الدول من ابوابها حتى تتزع عنك التقليد
بيدك وتقف على احوال ما قبلك من الايام والاجيال وما بعدك ورتبته على مقدمة وثلاثة
كتب المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع بمغالط المؤرخين

الكتاب الاول في العمران

وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنايع والعلوم
وما لذلك من العلل والاسباب

الكتاب الثاني في اخبار العرب

واجيالهم ودولهم منذ مبدأ الخليقة الى هذا العهد وفيه الالمام ببعض من عاصرهم من الامم المشاهير
ودولهم مثل النبط والسريانيين والفرس وبني اسرائيل والقبط ويونان والروم

الكتاب الثالث في اخبار البربر

ومن اليهم من زناتة وذكر اولهم واجيالهم وما كان لهم ببلاد المغرب خاصة من الملك والدول ولما كان
مشتملا على اخبار العرب والبربر من اهل المدر والوبر والامام بمن عاصرهم من الدول والبربر وافصح
بالذكرى والعبر في مبادي الاحوال وما بعدها من الخبر

سميته ديوان العبر وديوان المبتدا والخبر

في ايام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر ولم اترك شيئا في اولية الاجيال والدول
ومعاصر الامم الاول واسباب التصرف والحول في القرون الخالية والملل وما يعرض في العمران من
دولة ومدينة وجيل وعزة وذلة وكثرة وقلة وعلم وصناعة وكسب واضاعة واحوال
متقلبة ومشاهدة وبدو وحضر وحاصل ومستطرف الا واستوعبت جملة واوضحت براهينه وعلله
فجاء هذا الكتاب فذا بما تضمنته من العلوم الغريبة والحكم المحجوبة القريبة وانا من بعد ما
موقن بالقصور بين اهل العصور معترف بالعجز عن المضاء في مثل هذا القضاء راعث من اهل البدو
البيضاء والمعارف المتسعة الفضاء النظر بعين الانتقاد لا بعين الارتضاء والتعمد لما يعترون
عليه بالاصلاح والاغضاء فالبضاعة بين اهل العلم مزجاة والاعتراف من اللوم منجاة والحسنى من
الاحوال مرتجاة والله اسأل ان يجعل اعمالنا خالصة لوجهه وموجبة لغفرانه الوكيل

المقدمة في فضل علم التاريخ

وتحقيق مذاهبه والالماع بما يعرض للمؤرخين من المغالط والاوهام وذكر بعض اسبابها اعلم
ان فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفايدة شريف الغاية اذ هو يثقفنا على احوال الماضين من
الامم في اخلاقهم والانبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم حتى يتم فايدة الاقتداء في

ذلك

ذلك الحق يزود في احوال الدين والدنيا فهو محتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر
وثقب يفضيان بصاحبها الى الحق ويكفيان به عن المزلات والمغالط لان الاخبار اذا اعتمد فيها محض النقل
ولم تحكم اصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال في الاجتماع الانساني ولا قيس الغائب
منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق وكثيرا
ما وقع للمؤرخين والمفسرين وائمة النقل في كثير من حكايات الوقايع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا
او سمينا لم يعرضوها على اصولها ولا قاسوها باشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع
الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الاخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط سيما في احصاء
الاعداد من الاموال والعساكر اذا عرضت في الحكايات اذ هي مظنة الكذب ومطية الهذيان ولا بد في
ردها الى الاصول وعرضها على القواعد وهذا كما نقل المسعودي وكثير من المؤرخين في حشود بني اسرائيل
وان موسى عليه السلام احصاهم في التيه بعد ان اجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما
فوقها فكانوا ستمائة الف او يزيدون ويدخل في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعها لمثل هذا
العدد من الحيوان فلكل مملكة من الممالك حصة من الحامية يتسع لها ويقوم بوظايفها ويضيق عما فوقها
تشهد بذلك العوايد المعروفة والاحوال المألوفة ثم ان مثل هذه الحشود البالغة الى هذا العدد
يبعد ان يقع بينها زحف وقتال فضيق ساحة الارض عنها وبعدها اذا اصطفت عن مدى البصر مرتين
او ثلاثا او ازيد فكيف يقتتل هذان الفريقان او تكون غلبة احد الصفين وشيء من جوانبه لا يشعر
بالجانب الآخر والحاضر يشهد لذلك فالماضي اشبه بالاتي من الماء بالماء ولقد كان ملك الفرس
ودولتهم اعظم من ملك بني اسرائيل بكثير يشهد بذلك ما كان من غلب بخت نصر لهم والتهامه بلادهم
واستيلائه على امرهم وتخريب بيت المقدس قاعدة ملتهم وسلطانهم وهو من بعض عمال مملكة فارس
يقال انه كان من مرزبان المغرب من تخومها وكانت مما لكهم من العراقين وخراسان وما وراء
النهر والاتراك اوسع من ممالك بني اسرائيل ومع ذلك فلم يبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد
ولا قريبا منه واعظم ما كانت جموعهم بالقادسية مائة وعشرين الفا كلهم متبوع على ما نقله سيف
قال وكانوا في اتباعهم اكثر من مائتي الف وعن عايشة والزهري ان جموع رستم التي زحف فيها
لسعد بالقادسية اثنا عشر الفا كلهم متبوع وايضا فلو بلغوا مثل هذا العدد لاتسع نطاق
ملكهم واتسع امده ولتهم فان العمالات والممالك في الدول على نسبة الحامية والقبيل العاصمين
بها في قلتها وكثرتها حسبما يتبين في فصل الملك من الكتاب الاول والقوم لم يتسع ملكهم الى عمر
الاردن وفلسطين من الشام وبلاد يثرب وخيبر من الحجاز على ما هو المعروف وايضا فالذي
بين موسى واسرائيل انما هو اربعة اما على ما ذكره المحققون فانه موسى بن عمران بن يصهر
او يصهر بن قاهث بفتح الهاء او كسرها ابن لاوي بكسر اللام او فتحها ابن يعقوب وهو اسرائيل الله
هكذا نسبه ابن اسحق والمدة بينهما على ما نقله المسعودي قال دخل اسرائيل مصر مع ولده
الاسباط واولادهم حين انتوا الى يوسف سبعين نفسا وكان مقامهم بمصر الى ان خرجوا مع موسى
الى التيه مائتين وعشرين سنة تداولهم ملوك القبط من العراعنة وبعد ان بتبع السئل

في اربعة اجيال الى مثل ذلك العدد وان زعموا ان عدد تلك الجيوش انما كان في زمن سليمان ومن بعده فبعيد ايضا اذ ليس بين سليمان واسرائيل الا احد عشر ابا فانه سليمان بن داود بن ايشاي ابن عويد ويقال عويد بن باعز ويقال بوعز ابن سلمون بن يحشون بن عميناذاب ويقال حميناذب بن رام بن حصرون ويقال حسرون بن فارس ويقال بيرس بن يهودا ابن يعقوب ولا يستغرب النسل في احد عشر من اولاد الى مثل هذا العدد الذي زعموه الهم الى المئين والالاف وربما يكون واما ان يتجاوز الى ما فوقهما من عقود الاعداد فبعيد واعسر ذلك في الحاضر المشاهد والقهب المعروف تحذر عهم باطلا وتعلمهم كاذبا والذي ثبت في الاسرائيليات ان جنود سليمان كانت اثني عشر الفا خاصة وان معربانه كانت الفان واربعمائة فرس مرتبطة على ابوابه هذا هو الصحيح من اخبارهم ولا يلتفت الى خرافات العامة منهم وفي ايام سليمان عليه السلام وملكه كان عنفوان دولتهم واتساع ملكهم هذا وقد يحدث الكافة من اهل العصر اذا افاضوا في الحديث عن عساكر الدول التي تعهدهم او قريبا منه وتقاوضوا في الاخبار عن جيوش المسلمين او النصارى اوحذوا في احصاء اموال الجبايات وخرج السلطان وتفقات المترفين وبضايع الاغنياء الموسرين توغلوا في العدد وتجاوزوا حدود العوائد وطاوعوا وساوس الاعراب فاذا استكشف اصحاب الدواوين عن عساكرهم واستنبطت احوال اهل الثروة في بضايعهم وفوائدهم واستجليت عوائد المترفين في نفقاتهم لم يجد معشار ما يعدونه وما ذلك الا لولوع النفس بالغرابة وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة عن المعقب والمنتقد حتى لا يحاسب نفسه على خطا ولا عمد ولا بطيء بها في الخبر بتوسط ولا عدالة ولا يرجع الى بحث وتفتيش فيرسل عنانه ويسيم في مراتع الكذب لسانه ويشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الحق ويحسب انها صفقة خاسرة **ومن الحكايات المدخولة** للمؤرخين ما يقولونه كان في سنة عكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة اخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه وانه لكلفه بمكانهما من معاقرته اياهما الخمر اذن لهما في عقد النكاح دون الخلوة حرصا على اجتماعهما في مجلسه وان العباسة تحيلت عليه في التماس الخلوة به لما استغلها من حبه حتى وافقها زعموا في حالة سكر فحملت ووشى بذلك للرشيد فاستغضب وهمهمات ذلك من منصب العباسة في دينها واتوها وجلالها واما بنت عبد الله بن عباس ليس بينها وبينه الا اربعة رجال هم اشراف الدين وعظماء الملة من بعده العباسة بنت محمد المهدي ابن عبد الله ابي جعفر المنصور بن محمد التجاد ابن علي ابي الخلفا ابن عبد الله بن عباس ترجمان القرآن ابن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ابنة خليفة اخت خليفة محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وامامة الملة ومهبط الوحي ومهبط الملايكة من سائر جهاتها قريبة عهد سداد العروبية وسداجة الدين البعيدة عن عوايد الترف ومراتع الفواحش فاين يطلب الصون والعفاف اذا ذهب عنها اواين توجد الطهارة والزكاء اذا افتقد من بيتها وكيف تلم بنسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم تملك جده من الفرس او تولاه جدها من عمومة الرسول واشراف

قريش وغايته ان حدث دولتهم بضبعه وضبع ابيه واستخلصتهم ورقتهم الى منازل الشريف
وكيف يسوغ من الرشيد لن يضمر الى موالي الاعاجم على بعد همته وعظم ابايه ولو نظر المتامل
في ذلك نظر المنصف وقاس العباسه بابنه ملك من اعاظم ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع موا
من موالي دولتها وفي سلطان قومها واستكره وج في تكذيبه وان قدر العباسه بابنه ملك والرشيد
من الناس وانما ملك الرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم اموال الحماية حتى كان الرشيد
سلط السر من ماله فلا يصل اليه فغلبوه على امره وشركوه في سلطانه ولم يكن له معهم متصرف
في امور ملكه فعظمت اثارهم وبعد صيتهم وعمروا امرات الدولة وحططها بالروسا من ولدهم
وصنايعهم واحتاروهما عن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم يقال
انه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة عشر رئيسا من بين صاحب سيف وصاحب قلم راحموا
في اهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح لمكان ابيهم حتى من كفالة هرون ولي عهده وخليفة
حتى سبب في حجر ودرج من عشه وغلبه على امره وكان يدعوه يا ابت فتوجه الاثار من السلطان
اليهم وعظمت الدالة معهم وانبسط الجاه عندهم وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب
وصرفت عليهم الامال وتحفت اليهم من اقصى النحوم هدايا الملوك وتحف الامرا وتسربت
الى جرايهم في سبيل التراف والاستمالة اموال الحماية وافاضوا في رجال الشيعه وعظماء القرابة
العطا وطوقوهم المن وكسبوا من سوماب الاسراف المعدم وفكوا العاني ومدحوا بما لم يمدح به
خليفتهم واسنوا العطايا الجوايز والصلات واسنوا على القرى والضياع من الضواحي والاقاصي
في سايرا لممالك حتى اشقوا البطانه واحقدوا الخاصه واغصوا اهل الولايه فكشفت لهم وجوه
المنافسه والحسد ودبت الى مهادهم الوثبه من الدولة عقارب السعايه حتى لقد كان بنو الحظيه
اجل الجعفر من اعظم الساعين عليهم لم تقطعهم لما وقر في نفوسهم من الحسد عواطف الرحم ولا وزعهم
اواصر القرابة وقال ذلك عند محذوهم فواشي الغيبة والاستكاف من الحجى والانفه وكان من
الحقود التي بعثتها منهم صغاير الدالة وانتهى بها الاصرار على شانهم الى كابر المخالفة كقصتهم
في يحيى بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب اخي محمد المهدي الملقب بالنفس الزكية
الخارج على المنصور ويحيى هذا هو الذي استزله الفضل بن يحيى من بلاد الديلم على امان
الرشيد لخطهم وبذل لهم فيه الف الف درهم على ما ذكره الطبري ودفعه الرشيد الى جعفر وجعل
اعتقاله بداره والى بطوه لحبسه مدة ثم حسبة الدالة على تحلية سبيله والاستبداد بحمل
عقاله حرما لدماء اهل البيت بزعمه ودالة على السلطان في حكمه وساله الرشيد عنه لما وشى
به اليه فقطع وقال الطلقه فابدي له وجه الاستحسان واسرها في نفسه فاوجد السبيل
بذلك على نفسه وقومه حتى ثل عرشهم واكفيت عليهم سماؤهم وخسفت الارض بهم وبدارهم
وذهبت سكفا ومثلا للاخرين ابامهم ومن تامل اخبارهم واستقصى سير الدولة وسيرهم
وجد ذلك محقق الاثر ممهد الاسباب وانظر الى ما بقله ابن عبد ربه في مفاوضة الرشيد
عم جده داود بن علي في سبب نكبتهم وما ذكره في باب الشعراء من كتاب العقد في محاورة

الامين للرشيد وللفضل بن يحيى وسمرهم تفهم انه انما قتلهم الغيرة والمنافسة في الانفراد من الخلافة دون نفسه وكذلك ما تحمل به اعداؤهم من البطانة فيما دسوه من الشعر للمغنيين احتيالا على الشايع بالخليفة وتحريك حفايظه لهم وهو قوله

ليت هذا الخزن ما نعد ... وشفت انفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة ... انما العاجز من لا يستبد

وان الرشيد لما سمعها قال اي والله عاجز حتى يعتوا بامثال هذه كامن عبرته وسلطوا عليهم باس انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال

واما ما نموه به الحكاية

من معاقرة الرشيد الخمر وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلما والاولياء ومحاورته للفضيل بن عياض وابن السماك والعمري ومكاتبة سفيان وكتابه من مواعظهم ودعائه بمكة في طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على اوقات الصلوات وشهود الصبح الاول

وفيما حكى الطبري

وغيره انه كان يصلي في كل يوم مايه ركعة نافلة ولقد زجر ابن ابي مريم مضحكه سمره حين تعرض له بمثل ذلك في الصلاة لما سمعه يقول ومالي لا اعبد الذي فطرني وقال والله ما ادري لم قاما لك الرشيد ان ضحك ثم التفت اليه مغضبا وقال يا ابن ابي مريم في الصلاة ايضا اياك اياك والقرآن والدين ولك ما شيت بعدهما وايضا فقد كان من العلم والسذاجة بمكان لقرب عهده من سلفه المتعلمين لذلك ولم يكن بينه وبين جده ابي جعفر بعيد زمن انما خلفه علاما وقد كان ابو جعفر بمكان من العلم والدين قبل الخلافة وبعدها وهو القايل لمالك حين اشار عليه بتاليف الموطا يا ابا عبد الله انه لم يبق على وجه الارض اعلم مني ومنك وانى قد شغلتني الخلافة فضع انت للناس كتابا يلتزمون به تجنب فيه رخص ابن عباس وشدايد ابن عمر ووطيه للناس يوطيه قال مالك والله لقد علمني التاليف يومئذ ولقد ادركه ابنه المهدي ابو الرشيد هذا وهو يتورع عن كسوة الجديد لعياله من بيت المال ودخل عليه يوما وهو مجلسه بياشر الخياطين في ارقاع الخلقان من ثياب عياله فاستنكف المهدي من ذلك وقال يا امير المومنين على تكسو هذا العيال اما هذا ابن عطاك فقال لك ذلك ولم يعبده عنه ولا سمح بالانفاق فيه من اموال المسلمين فكيف يليق بالرشيد على قرب العهد من هذا الخليفة وابوته ومازى عليه في امثال هذه السيرة في اهل بيته والتحلق بها ان يعاقر الخمر او يجاهر بالسكر وقد كانت حال الاشراف من العرب الجاهلية في اجتناب الخمر معلومة ولم تكن الكرم تجرهم وكان سرها مذمة عند الكثير منهم والرشيد واباوه كانوا على نهج من اجتناب المذمومات في دينهم ودنياهم والتحلي بالمحامد واوصاف الكمال ورعات العرب

وانظر ما نقله الطبري

والمسعودي في قصة جبريل بن بختيشوع الطبيب حين احضر له السمك في مايدته فحماه عنه امر صاحب المايدة بحمله الى منزله وقطن الرشيد وارتاب به ودس خادمه حتى عاينه يتناوله فاعاد ابن بختيشوع للاعتذار ثلاث قطع من السمك في ثلاثة اقداح خلط احدها بالسم المعالج بالتوابل والبقول والبوارد والحلوا وصب على الثاني ما مثله وعلى الثالث خمرا صرفا وقال في الاول والثاني هذا طعام امير المومنين ان خلط السمك بغيره وان لم يخلطه وقال

فى السالك المخلوط بالخمر هذا طعام ابن يحيشوع ودفعها الى صاحب المائدة حتى اذا انتبه الرشيد واحضر للتوبيخ
احضر الاقداح فوجد صاحب الخمر قد اختلط وامتاع وبقيت ووجد الاخرين قد فسدا وتغيرت رائحتهما وكانت
له فى ذلك معجزة وسنن من ذلك ان حال الرشيد فى اجتناب الخمر كانت معروفة عند كافة واهل مائدته ولقد
ثبت عنه انه عمد عبس الى نواس لما بلغه من ادمانه فى المعاقرة حتى تاب واقلع • واما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر
على مذهب اهل العراق وفتاويهم فيه معروفة واما الخمر فلا سبيل الى اباحته بها ولا تشتد الاخبار الواهية
فيها فلم يكن الرجل يحث يواقع محرما من اكبر الكبائر عند اهل الملة ولقد كان اولئك القوم كلهم يتجاهرون من
حب الترف والشرف فى ملابسهم ومراكبهم وسائر شئونهم ولا يتهمون لما كانوا عليه من ضعف البداوة وسذاجة
الدين التى لم يغادروها بعد فما ظنك بما تخرج عن الاباحة الى الحظر • وعن الجلية الى الحرمة ولقد اتفق المؤرخون
الطبرى والمسعودى وغيرهم ان جميع من سلف من خلفاء بنى امية وبنى العباس انما كانوا يركبون بالحلية
الحقيقية من الفضة فى المناطق والسيوف • واللجم والسروج وان اول خليفة احدث الركوب بحلية
الذهب هو المعتز بن المتوكل ثامن الخلفاء من بعد الرشيد ولما هو السبعين من لدن وفاته وهكذا كان
حالهم ايضا فى ملابسهم فما ظنك بمشاربهم • ويتبين ذلك مما من هذا اذا فهمت طبيعة الدولة فى اولها
من البداوة والعضاضة كما يشرح فى مسائل الكتاب الاول ان شاء الله • وناسب هذا او قريبا منه ما
يقولونه كافة عن يحيى بن اكثم قاضى المامون وصاحبه • وانه كان يعاقر المامون الخمر وانه سكر ليلة مع
شربه فدفن فى الريحان حتى افاق **ويستدون على لسانه**

• يا سيدى وامير الناس كلهم • قد جار فى حكمه من كان يسقينى •
• انى عدلت عن الساقى فصيرنى • كما تراه سليب العقل والدين •

وحال ابن اكثم والمامون فى ذلك من حال الرشيد • وشرابهم انما كان النبيذ • ولم يكن محظورا عندهم
واما السكر فليس من شانهم وصحابة المامون انما كانت جلة فى الدين • وقد ثبت انه كان ينام
معه فى البيت • ويقل فى فضائل المامون وحسن عشرته انه انتبه ذات ليلة عطشان فقام يتحسس
ويلتمس الاناء محافة ان يوقظ ابن اكثم **واثبت** انهما كانا يصليان الصبح جميعا فان هذا من
المعاقرة **وايضا** فيحيى بن اكثم كان من علية اهل الحديث • وقد عدله اهل الصحاح وخرجوا عنه
فالقدح فيه قدح فى جميعهم • وكذلك ينبرى المجان بالميل الى العلمان بهتانا على الله وفرية
على العلماء • ويستدون فى ذلك الى اخبار القصاص الواهية التى لعلها من افتراء اعدائه فانه كان
محسدا فى كماله • وحلبه للسلطان وكان مقامه من العلم والدين مترفعا عن مثل ذلك **ومن**
امثل عن الحكايات ما نقله عن عبد ربه صاحب العقد من حديث الزنبيل فى سبب
اصها المامون الى الحسن بن سهل فى بذته بوران وانه عثر فى تلك الليالى فى تطوافه بسكك
بغداد فى زنبيل مدلى من بعض السطوح بمعاليق وجدل مغارة النمل من الجرو فاقتعده
وتناول المعاليق فاهترت وذهب به صعدا الى مجلس شانه كذا ووصف من زينة فرشه
وتشييد ابنيته • وجمال رواشه ما يسوق الطرف • ويملك السمع وان امراة برزت
له من خلل الستور فى ذلك المجلس رابعة الجمال • فتانة المحاسن فحيته ودعته الى المنادمة

فلم يزل يعاقره الخمر حتى الصباح ورجع الى اصحابه بمكانهم من انتظاره وقد شغفته حبا بعنه على الامام
الى اياها وان هذا كله من حال المامون المعروفه في دينه وعلمه واقتفائه سنن الخلفا الراشدين من
ابايه واخذه بسير الخلفا الاربعة اركان الملة ومناظرة العلما وحفظه حدود الله في صلواته واحكامه
فكيف يصح عنه احوال الفساق المشتهرين في الطواف بالليل وطروق المنازل وعميان السمر
سبيل عميان الاعراب وان ذلك من منصب بيت الحسن من سهل وسرها وما فعل بدار ابيها من الصون
والعفاف وامثال هذه الحكايات كثيرة وفي كتب المؤرخين معروفه واغا يبعث على وضعها
والحدث بها الاتهماك في اللذات المحرمة وهتك قناع المروات المروة ويتعللون بالتاسي بالقوم
فيما يوبخ من طاعة لذاتهم فلذلك كثيرا تراهم ما يلهجون باشباه هذه الاخبار وسمعون عنها عند
تصفحهم لاوراق الدواوين ولو ايتسوا بهم في غير هذا من احوالهم وصفات الكمال اللايقة بهم المشهورة
عنهم لكان خيرا لهم لو كانوا يعلمون ولقد عوتبت يوما بعض الامراء من ابناء الملوك في كلفه بتعلم
الغنا وهو لوحده بالاوتار وقلت له ليس هذا من شانك ولا يليق بمنصبك فقال لي افلا ترى الى
ابراهيم بن المهدي كيف كان امام هذه الصناعة ورئيس المغنين في زمانه فقلت له يا سبحان الله
وهلا تاسيت بابيه واخيه او ما رايت كيف قعد ذلك بابراهيم عن مناصبهم فصم عن عذلي واعرض
ومن الاخبار الواقعة ما يذهب اليه الكثير من المؤرخين في الانبات في العبيدين خلفا الشيعة
بالغيرة وان الغائرة من بعثهم عن اهل البيت صلوات الله عليهم والطعن في نسبهم الى اسماعيل الامام
ابن جعفر الصادق يعتمدون في ذلك على احاديث لفقت للمستضعفين من خلفا بني العباس
اليهم بالمدح وتفننا في الثنا حسما ذكر بعض هذه الاحاديث في اخبارهم ويعقلون عن
التنطق بشواهد الواقعات واولة الاحوال التي اقتضت خلاف ذلك من تكذيب دعواهم والرد عليهم فانهم
متفقون في صدهم عن مبتداء دولة الشيعة ان ابا عبد الله المحتسب لما دعى بكامه للرضى من
آل محمد واشتهر خبره وعلم بحركته على عبيد الله المهدي وابنه ابي القاسم حسبما علم انفسهما قهرا من المشرق
محل الخلافة واجارا بمصر وانهما خرجا من الاسكندرية في زي التجار وممى خبرهما الى علي النوشري
عامل مصر والاسكندرية فشرح في طلبهما الخيالة حتى اذا ادركا حتى خالطا على تابعهما لما التمسوا به
من الاشارة والزي فاقبلوا الى المغرب وان المعتضد اوعز الى الغالبة امر افريقية بالغيرة وان
ويسيء مدرار امر اساسه باحد الافاق عليهما واذكاء العيون في طلبهما فعثر السبع صاحب سجلماسه
من آل مدرار على حقيقة مكانهما ببلده واعتقلهما مرصاة للخليفة هذا اجمل ان يظهر الشيعة على الاغالبة
بالغيرة ان كان بعد ذلك ما كان من ظهور دعوتهم بافريقية والمغرب ثم بالمن ثم بالاسكندرية
ثم بمصر والشام والحجاز وقاسموا بني العباس في ممالك الاسلام شق الاقليم وكادوا ان
يلحوا عليهم مواطنهم ويدبلوا من امرهم ولقد اظهر دعوتهم ببغداد وعزاها الامير البساسيري
من لديلم المتغلبين على خلفاء بني العباس في مغاصبة حرت بينه وبين امراء العجم وخطبائهم على منابرها
حولا كريتا وما زال خلفاء بني العباس يعصون مكانهم وهو ولهم وملوك بني امية وراء البحر
يبادرون بالويل والحرب بينهم وكيف يتم هذا كله لدعي في النسب مكذب في اصحاب الامر واعتبر

حال

حال المرتطى اذ كان دعيا في انتسابه كيف تلاشت دعوته • وتفرق اتباعه • وطهر سريعا على جمتهم ومكرهم فساءت عاقبتهم • وذاقوا وبال امرهم • ولو كان امر العبيديين كذلك لعرف ولو بعد مهلة •

• فما كل من عند امرء من خليقة • ولو خالها تخفى على الناس تعلم •

فقد اتصلت دولتهم نحوا من مائتين وسبعين سنة • وملكوا مقام ابراهيم ومصلاه ومولد الرسول ومدفنه • وموقف الحجيج • ومهبط الملايكة • ثم انقرض امرهم وشيعتهم في ذلك كله على اتم ما كانوا عليه من الصناعية لهم • والحب فيهم واعتقادهم بسبب الامام ابراهيم بن جعفر الصادق • ولقد حرجوا مرارا لعدو ذهاب الدولة • ودروس اثرها • واعلن الى بدعتهم بعض باسماء صبيان من اعقابهم يزعمون استحقاقهم للخلافة • ويدعون الى تعيينهم بالوصية ممن سلف قبلهم من ائمتهم • ولو ارتابوا في نسبهم لما ركبوا اعناق الاخطار في الانتصار لهم • فصاحب البدعة لا يلبس في امره • ولا يشبه في بدعته ولا يكذب نفسه فيما ينتحله • **والعجب** من العامي ابي بكر الباقلاني شيخ المتكلمين الجمح الى هذه المقالة فان كان ذلك لما كانوا عليه من الالحاد في الدين • والتعمق في الرافضة فليس وضع من يسمم تدافع في صدر بدعتهم والاثبات منتسبهم بالذي يعتني عنهم من الله شيئا في كفرهم فقد قال تعالى لنوح عليه السلام في شان ابنه انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح فلا تسالني ما ليس لك به علم **وقال** صلى الله عليه وسلم لفاطمة تعيظها يا فاطمة اعملي فلن اغني عنك من الله شيئا • ومتى عرف امر وقضية او استيقن امرا وجب عليه ان يصدع به والله يقول الحق وهو يهدي السبيل • والقوم كانوا في مجان لظنون الدول لهم • وتحت رقبة من الطغاة لتوقر شيعتهم وانتشارهم في القاصية بدعوتهم وتكرر خروجهم مرة بعد اخرى فلا ترث رجالاتهم بالاختفاء ولم يكادوا يعرفون • كما قال

قل

• فلو تسأل الايام ما اسمي ما درت • وابن مكاني ما عرفن مكاني •

حتى لقد سمى محمد بن اسمعيل الامام جد عبيد الله المهدي بالمكتوم سمته بذلك شيعتهم لما انتقلوا عليه من اخفائه حذرا من المتغلبين عليهم فتوصل شيعة آل العباس بذلك عند ظهورهم الى الطعن في نسبهم وارد لقول العبد الراي الضليل الى المستضعفين من حلفائهم • واعجب به اولياؤهم وارتاءه دولهم المتولون حروبهم مع الاعداء يدفعون به عن انفسهم وسلطانهم معرة العجز عن المقاومة والمدافعة لمن غلبهم على الشام ومصر والحجاز من البربر الكاسرين شيعة العبديين واهل دعوتهم فنقله الاخباريون كما سمعوه ورووه حسما وقعوا • والحق من وراءه والدولة والسلطان سوق العالم تجلب اليه بضايع العلوم والصنايع • ويلتمس فيه ضوال الحكم • ويحدى اليه ركاب الروايات والاخبار وما نفق فيها نفق عند الكافة • فان تنوقت الدولة عن التعسف والميل • والاخذ والاستفتاء • وسلكت النهج الاقوم • ولم تجر عن قصد السبيل • نفق في سوقها الابريز الخالص • والعجين المصفى • وان ذهبت مع الاغراض والحقود • وتاهت بسماسر الهوى والباطل نفق البهرج • والزايف • والناقد البصير قسطاس نظره • وميزان تحته وملمسه • ومثل

هذا وقد منه كثيرا ما يتناجى به الطاعنون في نسب ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن
ابن علي بن ابي طالب رضوان الله عليهم وصلاته وسلامه الامام بعد ابيه بالمغرب الاقصى ويعرضون
بعرض الحديث لنطعن في الحمل المحلف عن ادريس الاكبر انه لداشد بلاء فتهم الله وابعدهم ما اجهلهم اما
يعلمون ان ادريس الاكبر كان اصاره في البربر وانه مذ دخل المغرب الى ان توفاه الله عز وجل في البدو وان
حال البادية في مثل ذلك عز حافيه اذ لا مكان لهم يتأتى فيه الريب واحوال حرمهم اجمعين بمرأى من
جارانهم ومسمع من جيرانهم لتلاصق الجدران وتطامن البنا وعدم التواصل بين المساكن وقد
كان راشد يتولى خدمة الحرم او جمع من بعد مولاه بمشهد من اوليائهم وشيعتهم ومراقبة من كافتهم
وقد اتفق مرابرة المغرب الاقصى عامة على بيعة ادريس الاصغر بن بعد ابيه واتوه طائعين عن
رضى واصفاق وبايعوه على الموت الاحمر وحاصادوه بحار المنايا في حروبه وغزواته ولو حدثوا
انفسهم بمثل هذه الريبة او قرعت اسماعهم ولو من عدو كاشح او منافق مرتاب لحلفوا عن ذلك ولو
بعضهم فلا والله انما صدرت هذه الكلمات من بني العباس انفسهم ومن بني الاغلب عمالهم كانوا بافريقية
وولاتهم وذلك انه لما فر ادريس الاكبر الى المغرب من وقعة فخ او عن الهادي الى الاغالبة ان يتعقبوا
له بالمراصد وبذلوا غلبة العيون فلم يظفروا به وخلص الى المغرب فتم امره وظهرت دعوته وظهر
الرشيد من بعد ذلك على ما كان من وافح مولاتهم وعاملهم على الاسكندرية من سديد السنع للعلوية
وادنائه في نجاة ادريس الى المغرب فقتله ودس السماح من موالي المهدي ابيه للتحيل على قتل
ادريس فاظهر اللحاق به والبراءة من بني العباس موالية فاشتمل عليه ادريس وخلطه بنفسه
وناوله في بعض خلواته سما استمكن به ووقع خبر هلكه من بني العباس احسن المواقع المرجى من قطع
اسباب الدعوة العلوية بالمغرب واقتلاع جرثومتها ولما تاد اليهم خبر الحمل المحلف لادريس فلم
يكن الاكلا ولا واذا بالدعوة قد عادت والشيعة بالمغرب قد ظهرت ودولتهم بادريس
ابن ادريس تجددت وكان ذلك عليهم ابكى من وقع السهام وكان الغسل والهرم قد تولت بزولة
المغرب عن ان اسموا الى القاصية فلم يكن مسمى قدرة الرشيد على ادريس الاكبر وتمكنه من قاصية
المغرب واستمال البربر عليه الا التحيل في املاكه بالسموم فعند ذلك فزعوا الى اوليائهم من
الاغالبة باوفر بقية في سد تلك الفرجة من ناحيتهم وحسم الداء المتوقع بالدولة من قبلهم واقتلاع
تلك العروق قبل ان نسج منهم سحاطتهم بدلك المامول ومن بعد من حلفائهم وكان الاغالبة
عن مرابرة المغرب الاقصى اعجز وتملكها من الرتبول على ملوكهم احوج لما طوق الخلافة من استوا
الممالك على سدتها واستطالهم صهوة التغلب عليها وتصريفهم احكاما طوع اعراضهم في رجالها
وحياتها واهل خططها وسائر نقضها وابرامها كما قال شاعرهم

خليفة في قفص ... بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له ... كما يقول الببغا

فحتى هؤلاء الامراء الاغالبة بواد الاستعانات وتلهوا بالمعاوس وطوروا باحتقار المغرب
واهله وطوروا بالارغاب بسلطان ادريس الخارج به ومن قام مقامه من اعقابه بخاطبونهم تجاوزن

عن هذا المحروم من عمله • وسعدون بكثة في بختهم وهدايتهم • ومرتفع جاياتهم • بعرصتها باستقلاله • وهو بلا باشتداد شوكته • وتعطيها لما دفعوا اليه من مطالبته ومراسه • ولهذا بدا بتقلد الدعوة ان الجؤا اليه • وطورا تطعون في نسب ادريس بمثل ذلك التعريض الكاذب تخفيضا لشانه لا يالون بصدقه من كذبه لبعد المسافة • وان عقول من خلف من عصبة بني العباس وما لكهم العجم في القبول من كل قائل • والسمع لكل ناعق • ولم يزل هذا دابهم حتى انتهز من امر الغالبة • فرعت بهن الكلمة الشنعاء اسماع الغوغاء • وصرعليها بعض الطاعنين اذ فيه واعتداد ريعة الى النيل من خلفهم عند المنافسة • ومالهم قبحهم الله والعدول عن مقاصد الشريعة فلا تعارض فيها بين المقطوع والمظنون • وادريس ولد على فراش ابيه فالولد للفراش على ان تربة اهل البيت عن مثل هذا من عقايد الايمان • فالله سبحانه قد اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا فقراش ادريس طاهر من الدنس • ومنزه عن الرجس بحكم القرآن • ومن اعتقد خلاف هذا فقد باء بآثامه • وولج الكفر من بابه وانما اطبت في هذا الرد سد الابواب الريب • ودفعا في صدر الحاسد لما سمعته اذناي من قائله المعمد عليهم القادح في نسبهم بفريته • ونقل عن ذلك بعض مورخي العرب ممن انحرف عن اهل البيت • وارتاب في الايمان باسلفهم والا فالحمل منزه عن ذلك معصوم منه • ونفي العيب حيث يستحيل العيب لكني جادلت عنهم في الجموع الدنيا وارجو ان يجادلوا عني يوم القيمة • ولتعلم ان اكثر الطاعنين في نسبهم انما هم الحسدة لاعقاب ادريس هذا من منتهم الى اهل البيت او دخيل فيهم فان ادعاء هذا النسب الكريم دعوى سرف عريض على الامم والاجيال من اهل الآفاق فتعرض التهمة فيه • ولما كان نسب بني ادريس مولاه بموطنهم من فاس وسائر ديار المغرب قد بلغ من الشهرة والوضوح مبلغا لا يكاد يلحق ولا يطمع احد في دركه اذ هو متقل الامة • والجيل من الخلف عن الامة والجيل من السلف وبيت جدهم ادريس محفظ فاس • ومؤسسها بين سورها ومسجده لصق محلتهم ودورهم وسيفه منتضى بوابل المادنة العظمى من قرار بلدهم وغير ذلك من اثاره التي جاورت اخبارها حدود التواتر مرات وكادت تلحق بالعيان • فاذا نظر غيرهم من اهل هذا النسب الكريم الى ما اتاهم الله من امثالها • وما عضد سر فيهم النبوي من جلال الملك الذي كان لسلفهم بالمغرب • واستيقن انه معزول عن ذلك وانه لا سبع مداحديم ولا يصعده وان غاية امر المنتمين الى البيت الكريم ممن لم تحصل له امثال هذه الشواهد لن يسلم لهم حالهم لان الناس مصدقون في انسابهم • وبون ما بين العلم • والظن • واليقين • والتسليم • فاذا علم ذلك من تقسبه غض بوثيقه • وود كثير منهم لو يرد ولهم عن سر فهم ذلك سوقة ووضعا حسدا من عند انفسهم فيرجعون الى العناد وارتكاب اللجاج والبهت مثل هذا الطعن القايل والقول المكذوب تعللا بالمساواة في الظنة والمشابهة في تطرق الاحتمال • وهيهات لهم ذلك فليس في العرف فيما تعلم من اهل هذا البيت الكريم من يبلغ في صراحة نسبه ووضوحه مبالغ اعقاب ادريس هذا من آل الحسن وكبراؤهم لهذا العهد هو اعمران مقاس من ولد يحيى الجوطي بن محمد

ان يحيى العدام بن القاسم بن ادريس بن ادريس وهم سنا اهل البيت هنالك والساكنون بت جرم
ادريس وهم السيادة على اهل المغرب كافة حسبما ذكرتم عنده كما الا ارسة ان شاء الله تعالى
وتلحق بهذه المقالات الفاسدة والمذاهب الفاسدة ما بيتنا وله ضعفة الراي
من فقهاء المغرب من القدح في الامام المهدي صاحب دولة الموحدين ونسبته الى السعودة
والتلبيس فيما اتاه من القيام بالتوحيد الحق والنعي على اهل البغي قبله وتكذيبهم لجميع مدعياته
في ذلك حتى فيما يزعم الموحدون اتباعه من انتسابه في اهل البيت **واما حمل** الفقهاء خصوصا
على تكذيبه ما كمن في نفوسهم من حسده على شانه فانهم لما راوا امر انتصبهم مناهضة في العلم
والفتيا وفي الدين بزعمهم ثم امتاز عنهم بانه متبوع الراي مسموع القول موطوء العقب نفسوا
ذلك عليه وعضوا دلك منه بالقدح في مذاهبه والتكذيب لمدعياته وايضا فكانوا يوبسون
من ملوك لمتونة اعدايه نحلة وكرامة اذ لم يكن لهم من غيرهم لما كانوا عليه من السذاجة وانتحال
الديانة فكان لحملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة والانتصاب للسودد كل في بلده وعلى
قدره في قومه فاصبحوا وفي ذلك شيعة لهم وحربا لعدوهم ونعموا على المهدي ما جاءه من خلافهم
والتوثب عليهم والمناصبة لهم تشيعا للمتونة وتعصبا لدولتهم ومكان الرجل غير مكانهم وحاله
على غير معتقدانهم وما اطلك برجل يقم على الدولة ما تقم من احوالهم وخالف اجتهاده فقهاءهم فنادى
في قومه ودعى الى جهادهم بنفسه فاقتلع الدولة من اصولها وجعل عاليها سافلها اعظم ما كانت
قوة واشد سوكة واعز انصارا واحاميه ولسا فطنت في ذلك من اتباعه نفوس لا يحصيها
الا خالقها قد باعوه على الموت وقوة بانفسهم من الملكة وتقربوا الى الله باتلاف مهجتهم
في اظهار تلك الدعوة والتعصب لتلك الكلمة حتى علت على الكلم وذالت بالعدوتين من الدول
وهو حال من التقشف في الحصر والصبر على المكاره والتعلل من الدنيا حتى قبضه الله وليس على
شيء من الحظ والمتاع حتى الولد الذي ربما يحنح النفوس اليه ونخادع عن تمنيه فليت شعري ما الذي
قصد بذلك ان لم يكن وجه الله وهو لم يحصل له حظ من الدنيا في عاجله ومع هذا فلو كان قصده
غير صالح لما تم امره وانتسخت دعوته سنة الله التي قد خلت في عباده **واما انكارهم** بسبب
في اهل البيت فلا يعضد حجتهم مع انه ان ثبت انه ادعاه وانتسب اليه فلا دليل يقوم على بطلان
كان الاصل ان الناس مصدقون في انسابهم وان قالوا ان الرياسة لا تكون على قوم في غير
اهل جلدتهم كما هو الصحيح حسبما بانى في الفصل الاول من هذا الكتاب والرجل قد راس سائد
المصامدة ودانوا باتباعه والانقياد اليه والى عصابته من هرغة حتى تم امر الله في دعوته
فاعلم ان هذا النسب الفاطمي لم يكن امر المهدي يتوقف عليه ولا اتبعه الناس بسببه
وانما كان اتباعهم له بعصبية الهرغية والمصمودية ومكانه منها ورسوخ شجرته فيها وكان ذلك
النسب الفاطمي عندهم خفيا قد درس عند الناس وبقي عنده وعند عشيرته بيننا قلونه بينهم
فيكون النسب الاول كانه انسلخ منه وليس جلده هؤلاء وظهر فيها وما يضرع الانساب الاول
في عصبيته اذ هو مجهول عند اهل العصابة ومثل هذا واقع كثيرا اذا كان النسب الاول خفيا

وانظر

وانظر قصة عرفجة وجرير في رياسة جيلة حتى سارع مع جرير رياستهم عند عمر رضي الله عنه حسبما هو مذكور وستفهم منه وجه الحق والله الهادي الى الصواب **وقد ذكرنا** ان نخرج عن غرض الكتاب بالاطناب في هذه المغالط فقد زلت اقدام كثير من الاساطين والمؤرخين الفاظ في امثال هذه الاحاديث والاراء وعلت بافكارهم ونقلها عنهم الكافة من صفعة الغلط والغفلة عن القياس والتنوه ثم ايضا كذلك من عرجت ولا دوية واندرجت في محفوظاتهم صحاري من التاريخ واهيا مختلطا وما طره مرتبكا وعد من مباحي العامة فاذن لحتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبايع الموجودات واختلاف الامم والبقاع والاعصار في السير والاخلاق والعوايد والنحل والمذاهب وسائر الاحوال والاحاطة بالحاصل من ذلك ومماثلة مابينه وبين الغايب من الوفاق او بون ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منه والمختلف والقيام على اصول الدول والملل ومبادي ظهورها واسباب حدوثها ودواعي كونها واحوال القايمين بها واخبارهم حتى يكون مستوعبا لاسباب كل حادث واقفا على اصل كل خبر وحينئذ يعرض الخبر المنقول على ما عنده من القواعد والاصول فان وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا واخذ به واستغنى عنه وما استكبر القدماء علم التاريخ الا لذلك حتى انتحله الطبري والبخاري وابن اسحق من قبلهما واماثلهم من علماء الامة وقد دخل الكذب على هذا السر فيه حتى صار انتحاله مهملة واستخف العوام ومن لا رسوخ له في المعارف مطالعته وحمله والخوض فيه والتطفل عليه فاختلط المرعي بالهمل واللباب بالقشر والصادق بالكاذب والى الله عاقبة الامور **ومن الغلط الخفي** في التاريخ الذهول عن تبدل الاحوال في الامم والاجيال بتبدل الاعصار ومرور الايام وسوالف الدهور وشديد الحقاد لا يتبع الابعد احقاب متطاولة فلا يكاد يتفطن له الا الاحاد من اهل الخليقة وذلك ان احوال العالم والامم وعوايدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر انما هو اختلاف على الايام والازمنة وانتقال من حال الى حال وكما يكون ذلك في الاشخاص والاوقات والاعصار فكذلك يقع في الافاق والاقطار والازمنة والدول سنة الله التي قد خلت في عباده **وقد كانت في العالم** امم الفرس الاول والسريانيين والنبط والتبابعة وبني اسرايل والقبط وكانوا على احوال خاصة بهم في دولهم وما يكتبهم وسياستهم وصنايعهم ولغاتهم واصطلاحاتهم وسائر مشاركاتهم مع ابناء جنسهم واحوال اعمارهم للعالم فشهد مما اثارهم ثم جاء من بعدهم الفرس الثانية والروم والعرب والفرنجة فتبدلت تلك الاحوال وانقلبت بها العوايد الى ما يجانسها ويشابهها والى ما بينهما ويباعدها ثم جاء الاسلام بدولة مضر فانقلبت تلك الاحوال اجمع انقلابة اخرى وصارت الى ما اكثره متعارف لهذا العهد باصدة الخلف عن السلف ثم درست دولة العرب وايامهم وذهبت الاجيال الذين شيدوا عزتهم ومهدوا ملكهم وصار الامر في ايدي سوايهم من العجم مثل الترك بالمشرق والبربر بالمغرب فذهبت بذهابهم

أمم وانقلبت احوالها وعوائدها بحسب ما شاهدته فاعمل امرها والسبب الشايع في تبدل الاحوال والعوائد ان عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه كما يقال في الامثال الحكمية الناس على دين الملك واهل الملك والسلطان اذا استولوا على الدولة والامر فلابد ان يترعوا الى عوائد من قبلهم ويأخذون الكثير منها ولا يعقلون عوائد جيلهم مع ذلك فيقع في عوائد الدولة بعض المخالفة لعوائد الجيل الاول فاذا جاءت امة اخرى من بعدهم ومزجت من عوائدهم وعوائدها خالفت ايضا بعض الشيء وكانت للاولى اشد مخالفة ثم لا يزال التدريج في المخالفة حتى ينتهي الى المباينة بالجملة فاذا مت الامم والاجيال تعاقب في الملك والسلطان لا يزال المخالفة في العوائد والاحوال واقعة والقياس والمحاكمات للانسان طبيعة معروفة ومن الغلط غير مأمونة تحرص مع الذهول والغفلة عن قصده وتقوح به عن مرامه وربما سمع السامع كثيرا من اخبار الماضين ولا يستطلع ما وقع من تغير الاحوال وانتقالها فيحرفها على الاول وحمله على ما عرف وقسمها بما شاهد وقد يكون الفرق بينهما كثيرا فيقع في مهواة من الغلط في هذا الباب

فمن هذا الباب

ما يغلط المؤرخون من احوال الحجاج وان اباه كان من المعلمين مع ان التعليم لهذا العهد من جملة الصنايع المعاشية البعيدة من اعتزاز اهل العصبية والعلم مستضعف مسكين منقطع الجذم فيشرف الكثير من المستضعفين اهل الحرف والصنايع العاسة الى منزل الرتب التي ليست لها باهل ويعدونها من المكرمات لهم وتذهب بهم وساوس الطامع وربما انتطح فيها من ايدهم فسقطوا في مهواة الهلكة والتلف ولا يعلمون استحالة ذلك في حقهم وانهم اهل حرف وصنايع للمعاش وان التعليم صدر الاسلام والدولة لم يكن كذلك ولم يكن العلم بالجملة صناعة انما كان تلقا لما سمع من الشارع وتعليما لما جمل من الدين على جهة البلاغ فكان اهل الانساب والعصبية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه على معنى التبليغ الجاري على وجه التعليم الصناعي اذ هو كما بهم المنزل على الرسول منهم وبه هداتهم والاسلام دينهم قاتلوا عليه وقتلوا فاختصوا به بين الامم وشرفوا فيحصون على تبليغ ذلك وتعليمه للامة لا يقصدهم عنه لامة الكبر ولا زعمهم عادل الا نفة وليس هذا لذلك لعب النبي صلى الله عليه وسلم كبار اصحابه مع وفود العرب يعلمونهم حدود الاسلام وما جاءه به من شرايع الدين بعث في ذلك من اصحابه العشرة فمن بعدهم فلما استقر الاسلام ورسخت عروق الملة حتى تناولها الامم البعيدة من اندرج فيها واستحالت بمرور الايام احوالها وكثر استنباط الاحكام الشرعية من النصوص لتعدد الوقايع وتلاحقها فاحتاج الى قانون يحفظ من الخطاء وصار العلم ملكة تحتاج الى التعلم فاصبح من جملة الصنايع والحرف كما يأتي ذكره في فضل العلم والتعليم ويختص اهل العصبية بالقيام بالملك والسلطان وقد فقع للعلم من قام به من سوائهم واصبح حرفة للمعاش وسمحت نفوس المترفين واهل السلطان من المتصدي للتعليم واختص استحالة بالمستضعفين وصار مستحلة محتقرا عند اهل العصبية والملك والحجاج بن يوسف كان من سادات ثقيف واشرافهم ومكانهم من عصبية العرب ومناهضة قريش في الشرف ما علمت ولم يكن تعلمه للقرآن على ما هو الامر عليه لهذا العهد من انه حرفة للمعاش وانما كان على ما وصفناه من الامر الاول في الاسلام ومن هذا الباب ايضا ما يتوهمه المتصفحون لكتب التاريخ اذا سمعوا احوال القضاة وما كانوا عليه من الرياسة في الحروب وقود العساكر وتراميهم بهم وساوس الهمم الى مثل تلك الرتب يحسبون

رن الناس في خصة القضا هذا العهد على ما كان عليه من قبل ويطعون بابن ابي عامر حاجب هشام المسدد عليه • وابن عباد من ملوك الطوايف باشبيلية اذا سمعوا ان آباءهم كانوا قضاة انهم مثل القضاة لهذا العهد ولا يشطون لما وقع في رتبة القضا من مخالفة العوايد كما بيناه في فصل القضا من الكتاب الاول • وابن ابي عامر وابن عباد كانوا من قبايل العرب القايمين بالدولة الاموية بالاندلس واهل عصبيتها وكان مكانهم فيها معلوما • ولم يكن يسلم لما نالوه من الرياسة والملك بخطة القضا كما في لهذا العهد بل انما كان القضا في الامر القديم لاهل العصبيات من قبل الدولة وغيرها كما في الوزارة لعهدنا بالمغرب •

والنظر حرن جمعهم حروبهم بالعساكر في الصوايف وتقليدهم عظايم الامور التي لا تقلد الا لمن له الغنا فيها بالعصبية فيغلط السامع في ذلك ويحمل الاحوال على غير ما هي • واكثر ما يقع في هذا الغلط ضعفا البصاير من اهل الاندلس لهذا العهد لفقدان العصبية في مواطنهم منذ اعصار بعيدة بفنا العرب ودولهم بها وخروجهم عن ملكة اهل العصبيات من البربر فبقيت انسابهم العربية محفوظة والذريعة الى العز من العصبية والناصر معقودة • بل صار وا من جملة الرعايا المنقادين الذين تعتدهم العهر ورسموا الدولة يحسبون ان انسابهم مع مخالطة الدولة هي التي تكون لهم بها الغيب والتحكم فيجد اهل الحرف منهم والصنايع متصدين لذلك ساعين في نيله • فاما من باشر احوال القبايل العصبية ودولهم بالعدوة المغربية • وكيف تكون التغلبة بين الامم والعشاير بقل ما يغلطون في ذلك او يحيطون في اعتباره **ومن هذا الباب ايضا** ما يسلكه المورخون عند ذكر الدول وسنوملوكها فيذكرون اسمه ونسبه وامه وابناه وبناته وعمته وخاله وكاتبه وحاجبه • ووزيره • كل ذلك تقليد لمورخي الدولتين من غير تنطن لمقاصدهم • والمورخون لذلك العهد كانوا يصنعون تواريخهم لاهل الدولة وابنايها • منسوقون الى سير سلفهم • ومعرفة أحوالهم ليقتفوا اثارهم • ويسلكوا على منوالهم • حتى في اصطناع الرجال من خلف دولتهم وتقليد الخطط والمراتب لابناء صنايعهم ودولهم • والقضاة ايضا كانوا من اهل عصبية الدولة وفي عداد الوزرا كما ذكرنا ذلك فيحتاجون الى ذكر ذلك كله • واما حين تباينت الدول وتباعد ما بين العصور ووقف الغرض على معرفة الملوك بانفسهم خاصة • وسنب الدول بعضها من بعض في قوتها وغلبها ومن كان بناهضها من الامم او يقصر عنها فما الفايدة للمصنف لهذا العهد في ذكر الابناء والبنات • ونقش الخاتم • واللقب • والقاضي والوزير • والحاجب من دول قديمة لا تعرف فيها اصولهم • ولا اسنابهم • ولا مقاماتهم • انما حمل على ذلك التقليد والغفلة عن مقاصد المولفين الاقدمين • والذهول عن حرى الاغراض من التاليف اللهم الا ذكر الوزراء الذين عظمت اثارهم • وعظمت على الملوك اخبارهم • كالحجاج • والبرامكة • وبني سهل بن نوبخت • وابن طاهر • وكافور الاخشيدي • وابن ابي عامر • وامثالهم • فغير بكر الاتباع باياهم والاشارة الى احوالهم لانتظامهم في عداد الملوك **ولنذكر هنا** فايدة تحتم كلامنا بها في هذا الفصل وهي ان التاريخ انما موده ذكر الاخبار الخاصة بعصر او صقع فاما ذكر الاحوال العامة للافاق والاجيال والاعصار فمنواس للمورخ يبتني عليه اكثر مقاصده • ويتبين به اخباره • وقد كان الناس يفردونه بالتاليف

كما فعله المسعودي في كتاب مروج الذهب شرح فيه احوال الامم والاقاليم لعهده في عصر الثلاثين
والثلثمائة غربا وشرقا وذكر كلهم وعوائدهم ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك
والدول وفرق شعوب العرب والعجم فصار اماما للمؤرخين يرجعون اليه واصلا يعولون
في تحقيق الكثير من اخبارهم عليه ثم جاء البكري من بعده فعمل مثل ذلك في المسالك والممالك
خاصة دون غيرها من الاحوال لان الامم والاحوال لعهده لم يقع فيه كثير انتقال والاعظم تغير
واما لهذا العهد وهو اخر المائة الثامنة فقد انقلبت احوال المغرب الذي نحن شاهدوه وبدلت
بالجملة واعتاض من اجيال البربر اهله على القدم بمن طرا فيه من لدن المائة الخامسة من اجيال العرب
بما كثروهم وغلبوهم وانتزعوا عامة الاوطان من ايديهم وشاركوهم فيما بقي من البلدان لملكتهم هذا
الى ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف عهد المائة الثامنة من الاقة السماوية في الطاعون
الجارف الذي يحيف الامم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها وجاء الدول
على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظلالها وقلل من جدتها واوهن من سلطانها وبداعت الى
النقلاض والاضمحلال احوالها واستعص عمران الارض باستعصاء البشر فخربت الامصار والمصانع
وقدرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وبدلت
المساكن وكاني بالمشرق وقد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه وكانما
تنادي لسان الكون في العالم بالحلول والانقباض فبادر اليها الاجابة والله وارث الارض ومن عليها
واذا تبدلت الاحوال جملة فكانما تبدل الخلق من اصله وتحول العالم باسره وكانه خلق جديد
ونشاة مستانفة وعالم محدث فاحتاج لهذا العهد من يبدون احوال الخليقة والاقاليم واحوالها
والعوائد والنحل التي تبدلت لاهلها ويقفو مسلك المسعودي لعصره ليكون اصلا يقتدي
من يأتي من المؤرخين من بعده واني اذكر في كتابي هذا ما امكنني منه في هذا القطر المغربي اما صريحا
او مدرجا في اخباره وتلويحا لاختصاص قصدي في التاليف بالمغرب واحوال اجياله واممه وذكر
ممالكه ودوله دون ما سواه من الاقطار ولعدم اطلاعي على احوال المشرق واممه وان الاخبار
المتناقلة لا تفي في كنه ما اريده منه والمسعودي انما استوفى ذلك لبعد رحلته وتقلبه في البلاد
كما ذكر في كتابه مع انه لما ذكر المغرب قصر في استيفاء احواله وفوق كل ذي علم عليم ومرد العلم
كله الى الله والبشر عاجز قاصر والاعتراف متعين واجب ومن كان الله في عونه تيسرت عليه
المذاهب واتجحت عليه المساعي والمطالب ونحن اهلون لعون الله فيما رمناه من اغراض التاليف والله
المسدد والمعين وعليه التكلان وقد بقي علينا ان نقدم مقدمة في كيفية وضع الحروف التي ليست
من لغة العرب اذا عرضت في كتابنا هذا واعلم ان الحروف في النطق كما ياتي في شرحه
بعدي كيفيات للاصوات الخارجة من الحنجرة تعرض من تقطيع الصوت بمقرع الفاه واطراف
اللسان مع الحلق او الحنك او الاضراس او بمقرع الشفتين ايضا فتتغاير كيفيات الاصوات
بتغاير ذلك المقرع وتحي الحروف متمايزة في السمع وتتركب منها الكلمات الدالة على ما في الضمائر
وليست الامم كلها متساوية في النطق بتلك الحروف فقد تكون لامة من الحروف ما ليس لامة اخرى

والحروف

والحروف التي نطقت بها العرب ثمانية وعشرون حرفا كما علمت ونجد للعبرانيين حروفا ليست في لغتنا وكذلك للفرنج والترك والبربر وغيرهم ومن العجم ثم ان اهل الكتاب من العرب اصطلحوا في الدلالة على حروفهم المسموعة باوضاع حروف مكتوبة متميزة باشخاصها كوضع الف وبا وجيم وزاي وطا الى آخر الثمانية والعشرين فاذا عرض لهم الحرف الذي ليس من حروف لغتهم بقي مهملا عن الدلالة مغفلا عن البيان ورسمه بعض الكتاب بشكل الحرف الذي يكتنفه من لغتنا قبله او بعده وليس ذلك بكاف في الدلالة بل هو تغيير للحرف عن اصله ولما كان كاتبنا مشتملا على اخبار البربر وبعض العجم وكانت تعرض لنا في اسمائهم او بعض كلماتهم حروف ليست من لغة كاتبنا ولا اصطلاح اوضاعها اضطررنا الى بيانه ولم نكتف برسم الحرف الذي يليه كما قلناه لانه عندنا غير واف بالدلالة عليه فاصطلحت في كتابي هذا على ان اصنع ذلك الحرف العجمي بما يدل على الحرفين اللذين يكتنفانه ليتوسط القارئ بالنطق به بين مخرجي ذينك الحرفين فتحصل بادنى وانما اقتبست ذلك من رسم المصحف حروف الاسماء كالصراط في قراءة خلف فان النطق بصاده فيها متوسط بين الصاد والزاي فوضعوا الصاد ورسموا في داخلها شكل الزاي ودل ذلك عندهم على التوسط بين الحرفين فكذلك رسمت انا كل حرف متوسط بين حرفين من حروفنا كالكاف المتوسطة عند البربر بين الكاف الصريحة عندنا والجيم مثل اسم ملكين فاصنعها كافا وانقطها بنقطة الجيم واحدة من اسفل فدل ذلك على انه متوسط بين الكاف والجيم وهذا الحرف اكثر ما يجيء في لغة البربر وما جاء من غيره فعلى هذا القياس اصنع الحرف المتوسط بين حرفين من لغتنا بالحرفين معا ليعلم القارئ انه متوسط فينطق به كذلك فتكون قد دللنا عليه ولو وضعناه برسم الحرف الواحد عن احد شبيه لكنا قد صرفناه عن مخرجه الى مخرج الحرف الذي من جنسه وغيرنا لغة القوم فاعلم ذلك والله الموفق

وما يعرض فيها من البدو والحضر والنقلة والكسب والمعاش والعلوم والصنائع وغيرها وما لذلك من العلل والاسباب اعلم انه لما كانت حقيقة التاريخ انه خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعته ذلك العمران من الاحوال مثل التوحش والتانس والعصبيات واصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما نشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما تتحلة البشر باعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال ولما كان الكذب مطروقا للخبر بطبيعته وله اسباب تقتضيه فمنها التشيعات للآراء والمذاهب فان النفس اذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر اعطته حقه من التمحيص والتطرق حتى يتبين صدقه من كذبه واذا طرقها تشيع لرأي او نحلة قبلت ما يوافقها من الاخبار لاول وهلة وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله ومن الاسباب المقتضية للكذب في الاخبار ايضا الثقة بالناقلين ومحمل ذلك يرجع الى التعديل والتجريح ومنها الذهول عن المقاصد كثيرا من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين او سمع وينقل الخبر على ما في ظنه

وتحسينه فيقع في الكذب ومنها توهم الصدق وتوكيده وانما يجري الاكثر من جهة الثقة بالناقلين ومنها
الجهل بتطبيق الاحكام على الاحوال لاجل ما يداخلها من التلبيس في الصنع فيفعلها المحترز كما ذكرنا وهي بالتصنع على
غير الحق في نفسه ومنها تقرب الناس في الاكثر لاصحاب الحيلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الاحوال
واشاعة الذكر بذلك فيستفيض الاخبار بها على غير حقيقة فالنفوس مولعة بحب الثنا والناس متطاولون
الى الدنيا واسبابها من جاه او ثروة ولسهولة الاكثر بواعثهم في الفضائل وكما ذكرنا ومن الاسباب
المقتضية ايضا الجهل بطبايع الاحوال في العمران فان كل حادث من الحوادث ذاتا كان او فعلا لابد له
من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من احواله فاذا كان السامع عارفا بطبايع الحوادث والاحوال
في الوجود ومقتضياتها اعانه ذلك على تمييز الصدق من الكذب وهذا الباب في التمحيص من كل
وجه يعرض وكثيرا ما يعرض للناسين قبول الاخبار المستحيلة وينقلونها ونوقع عنهم كما نقله المسعودي
عن الاسكندر لما صد عنه دواب البحر عن بناء الاسكندرية وكيف تحمد ما يكون الحسب وفي باطنه صدق الزجاج
وغاص فيه الى قعر البحر حتى كتب صور تلك الدواب الشيطانية التي رآها وعمل بما يشابهها من احجار معدة
ونصبها هذا البنيان فغرق تلك الدواب حين خرجت وعاينها وكم له نظاير في حكاية طويلة من
احاديث خرافة مستحيلة من قبيل اتخاذ التابوت الزجاجي ومصادمة البحر وامواجه ومن قبيل
ان الملوك لاجل انتهائها على مثل هذا الغرر ومن اعتمده منهم فقد عرض نفسه للهلكة واستفاض
العقد واجتماع الناس الى غيره وفي ذلك تلافه ولا ينتظرون به رجوعه من غرره ذلك طوفة عين
ومن قبيل ان الجنون لا تعرف لها صورة ولا مثال تختص بها انما هي قادرة على الاشكال وما يذكر من كراهة
الروس لها فانما المراد به الشناعة والتهويل لا انه حقيقة وهذه كلها قادحة في تلك الحكاية والقادح
المحيل لها من طريق الوجود بأبين من هذا كله ان المنغمس في الماء ولو كان في الصدوف يضيق عليه الهواء
للتنفس الطبيعي ويتسخن لسرعة لقلة فيفقد ما هية الهواء البارد المعدل لمزاج الرية والروح القلبي
ويهلك مكانه وهذا هو السبب في هلاك اهل الحمامات اذا طبقت عليهم عن الهواء البارد والمتدلين
في الآبار والمطامير العميقة المهوى اذا سخن هواؤها بالعفونة ولم يداخلها الرياح فيحللها فان المتدلي
فيها يهلك لحينه وهذا السبب يكون موت الحوت اذا فارق البحر فان الهواء لا يكفي في تعديل حرارته
ريئته اذ هو حار والماء الذي يعدله بارد فيسهل الحر على روح الحيوان ويهلك دفعة ومنه هلاك
المصعوقين وامثال ذلك **ومن الاخبار المستحيلة** ما نقله المسعودي ايضا في
مثال الزرزور الذي يرومة مجمع البحرين في يوم معلوم من السنة حاملة للزيتون ومنه
تحذون رئتهم **وانظر** ما بعد ذلك عن المجرى الطبيعي في اتحاد الزيت **ومنها ما نقله**
البكري في بناء المدينة المسماة ذات الابواب تحيط بأكثر من ثلاثين مرحلة وتشتمل على عشرة الاف باب
والمدن انما احدثت للحصن والاعتصام كما بأتي وهذه خرجت عن ان يحاط بها فلا يكون فيها حصن
ولا معتصم وما نقله المسعودي ايضا **وفي حديث مدينة النحاس** وانها مدينة كلها من
نحاس بعجب اسحاسه طرقها موسى بن نصير في غزوته الى المغرب وانها مغلقة الابواب وان الصاعد
اليها من اسوارها اذا اشرف على الحايط صفق ورمى بنفسه فلا يرجع آخر الدهر في حديث مستحيل من خرافات

النقاص وصحرا بحلماسه قد نقضها الركاب والادلاء ولم يقفوا لهذه المدينة على خبر • ثم ان هذه الاحوال
التي ذكرناها فلها مستعمل عادة ومناف للامور الطبيعية في بناء المدن واختطاطها وان المعاون غايته
الموجود منها ان يصرف في الابنية والحرث • واما الشديد مدسه منها فكما تراه من الاستحالة وامثال
ذلك كثير وتحصيله انما هو معرفة طبايع العمران ومواضع الوجوه واوضاعها في تحيص الاخبار وتمييز
صدقها من كذبها • واذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الاخبار ان ننظر في اجتماع البشري
الذي هو العمران • وتميز ما يلحقه من الاحوال لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضا لا يعتد به • وما امكن
ان يعرض له واذا فعلنا ذلك كان لنا قانون في تمييز الحق من الباطل في الاخبار والصدق من الكذب
بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه • وحينئذ فاذا سمعنا عن امة من الامم او الواقعة في العمران علمنا بالحكم بقبوله
مما يحكم بتزييفه وكان لنا ذلك معيارا صحيحا يحتذي به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه
وهذا هو غرض هذا الكتاب الاول من تاليفنا وكان هذا علما مستقلا بنفسه فانه ذو موضوع وهو العمران
البشري والاجتماع الانساني • وذو مسايل وهو بيان ما يلحقه من العوارض والاحوال لذاته واحدة بعد اخرى
وهذا شان كل علم من العلوم وضعيا كان او عقليا • واعلم ان الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة
غريب النزعة عزيز المطلب اعثر عليه النحث واداى اليه الغوص وليس من علم الخطابة الذي هو احد الكتب
المنطقية فان موضوع الخطابة انما هو الاقوال المقنعة النافعة في استمالة الجمهور الى رايي او صدهم عنه ولا هو ايضا
من علم السياسة المدنية او السياسة المدنية هي تدبير المنزل او المدينة بما يجب بمقتضى الاخلاق والحكمة
ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه فقد خالف موضوعه موضوع هذين الفنين اللذين ربما
يشبهانه وكان علم مستنبط النشاة • ولعمري لم اقف على الكلام في هذا لاحد من اهل الخليقة مما اوذي
لغفلتهم عن ذلك وليس الظن بهم او لعلهم كتبوا في هذا الغرض واسقط وفي ولم يصل الينا فالعلوم
كثيرة والحكما في امر النوع الانساني متعددون • وما لم يصل الينا من العلوم اكثر مما وصل فاين
علوم الفرس التي امر عمر محوها عند الفتح • واين علوم الكلدانيين واهل بابل وما ظهر عليهم من انارها
وتنايجها • واين علوم القبط والسريانيين من قبلهم • وانما وصل الينا علوم امة واحدة وهم يونان
طاصة لكلف المامون باحوالهم لعنتهم واقتداره على ذلك بكثرة المترجمين وبذل الاموال فيها
ولم نقف على شيء من علوم غيرهم • واذا كانت كل حقيقة متعلقة طبيعة يصلح ان يبحث عما يعرض لها
من العوارض لذاتها • وجب ان نكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم بحسبه لكن الحكماء لعلهم
انما الاحطوا في ذلك العناية بالثمرات وهذا انما مرة فما رايت في الاخبار فقط وان كانت مايلة في
ذاتها وباخصاصها سريعة لكن مرة بصحيح الاخبار وبي ضعيفة فلهذا يجروا والله اعلم • ومحا
اوتيتم من العلم الا قليلا • وهذا الفن الذي لاح لنا النظر فيه يجد منه مسايل يجري بالعرض
لاهل العلوم في براهين علومهم وهي من جنس مسايله بالموضوع والمطلب مثل ما ذكره الحكما في اثبات
النبوة من ان البشر متعاونون في وجودهم فيحتاجون فيه الى الحاكم والوازع • ومثل ما ذكر في اصول
الفقه في باب اثبات اللغات ان الناس محتاجون للعبارة عن المقاصد فطبعه التعاون والاجتماع
واسنان العبارات احق • ومثل ما يذكره الفقها في تعليل الاحكام الشرعية بالمقاصد في ان الزنا

مخلط ١ فساب مفسد للنوع وان القتل مفسد ايضا للنوع وان الظلم مؤذن بخراب العمران المقتضى فساد
النوع وعرفت ذلك من سائر المقاصد الشرعية في الاحكام فانها كلها مبنية على المحافظة على العمران وكان لها النظر
فيما تعرض له وهو ظاهر من كلامنا هذا في هذه المسايل المتعلقة وكذلك ايضا تتبع اليا التيل من مسايله في كلمات متفرقة
لحكما الخليقة لكنهم لم يستوفوه من كلام الموبذان لبهرام بن بهرام في حكاية البوم التي نقلها المسعودي انها الملك
ان الملك لا يتم عزه الا بالشريعة والقيام بطاعته والشرف تحت امره ونهيه ولا قوام للشريعة الا بالملك
ولا عز للملك الا بالرجال ولا قوام للرجال الا بالمال ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ولا سبيل الى العمارة
الا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب وجعل له قيما وهو الملك ومن كلام
انوشروان في هذا المعنى يعتضد الملك بالجند والجند بالمال والمال بالخراج والخراج بالعمارة
والعمارة بالعدل والعدل باصلاح العمال واصلاح العمال باستقامة الوزراء ورأس الكل استفقد
الملك امور رعيته بنفسه واقدار على تأديتها حتى يمدها ولا يمكنه وفي الباب المنسوب لارسطو في
السياسة المتداول بين الجمهور خرز صالح منه الا انه غير مستوفى ولا معطى حقه من البراهين ومختلط بغيره وقد
اشار في ذلك الكتاب الى هذه الكلمات التي نقلناها عن الموبذان وانوشروان وجعلها في الدايرة الغربية التي
أعظم القول فيها وهي قول العالم لسان سياسة الدولة الدولة سلطان يعضده السنة السنة سياسة
يحرسها الملك الملك نظام يعضده الجند الجند اعوان يكفلهم المال المال
رزق يجمعه الرعية الرعية عبيد يشملهم العدل العدل مألوف وبه قوام العالم العالم بستان ثم يرجع الى اول
الكلام فهذه ثمان كلمات حكمية سياسية ارتبط بعضها ببعض وارتدت اعجازها على صدورها واتصلت في
دايرة لا يتبين طرفها وهي خير يعثوره عليها وعظم من فوايدها وانت اذا تاملت كلامنا في فصل
الملك والدول واعطيته حقه من التصفح والتفهم عرفت في اثنايه على تفسير هذه الكلمات وتفصيل
اجمالها مستوفا مبينا باوعب بيان واوضح دليل وبرهان اطلعنا الله عليه من غير تعلم ارسطو
ولا افادة الموبذان وكذلك تجد في كلام ابن المقفع وما سيتطرق في رسايله من ذكر السياسات
الكثير من مسايل كتابنا هذا غير مبرهنة كما برهناه انما عليها في الذكر على منحى الخطابة في اسلوب الترسيل
وبلاغة الكلام وكذلك صوم القاضي ابو بكر الطرسوسي على هذا الغرض في كتاب سراج الملوك
وبوبه على ابواب تقرب من ابواب كتابنا ومسايله لكنه لم يصادف فيه الرمية ولا اصاب الساكلة
ولا استوفى المسايل ولا اوضح الادلة انما سلوك الباب للمستهل ثم نستكثر من الاحاديث والاثار
وسقل كلمات متفرقة لحكماء الفرس مثل بزرجمهر والموبذان وحكماء الهند والمأثور عن ابناء
وهرمس وعن هرمس من اكابر الخليقة ولا نكشف عن التحقيق فنأتي ولا نوقع بالبراهين الطبيعية
حجابا انما هو سهل ورعيب سهيل بالمواعظ وكانه حرم على الغرض ولم يعاوده ولا احقق قصده
ولا استوفي مسايله ونحن الهمنا الله الى ذلك الهاما واعزنا على علم جليل اس نكره وجهينه جبن
فان كنت قد استوفيت مسايله ومررت عن سائر الصنايع اقطاره واحاط فيوضي من الله
وهداية وان فاتني شيء فمن احصايه او اشتهت بغير مسايله فللناظر المحقق اصلاحه ولي الفضل
اني نهجت له السبيل واوضحت له الطريق والله يهدي بنوره من يشاء فنحن الان

بين في هذا الكتاب ما تعرض للبشر في اجتماعهم من احوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع من وجوه برهانية يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة وتدفع بها الاوهام وترتفع الشكوك ويتبين لماذا كان الانسان مخالفا عن سائر الحيوانات بجواص تحصل بها العلوم والصنائع التي هي نتيجة الفكر الذي يمتاز به عن الحيوانات وشرف بوصفه على المخلوقات ومنها الحاجة الى الحكم الوازع والسلطان القاهر او لا يكون وجود دون ذلك من بين الحيوانات كلها الا ما ينال عن النحل والجراد وهذه وان كان لها مثل ذلك فبطريق الهامي لا بفكر وروية ومنها السعي في المعاش والاعتمال في تحصيله من وجوهه والاكتساب لما جعل الله فيه من الافتقار الى الغذاء في حياته وبقائه وهداه الى التماسه وطلبه قال تعالى اعطى كل شيء خلقه ثم هدى ومنها العمران هو التساكن والتنازل في مصر او حلة للانس بعشرة والاقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش وما يتبعه ومن هذا العمران ما يكون بدويا وهو الذي يكون في الضواحي والجبال وفي الحلل المنتجعة للقفار واطراف الرمال ومنه ما يكون حضريا وهو الذي بالامصار والقرى والمدن والمدائن للاعتصام بها من الحصن بحدرانها وله في كل هذه الاحوال امور تعرض من حيث الاجتماع عروضا ذاتيا له فلا جرم انحصر الكلام في هذا الكتاب في ستة فصول الاول في العمران البدوي على الجملة واصنافه ووسط من الارض الثاني في العمران البدوي وذكر القبائل والامم الوحشية الثالث في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية الرابع في العمران الحضري والبلدان والامصار الخامس في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه السادس في العلوم واكتسابها وتعلمها وقدمت العمران البدوي لانه سابق على جميعها كما يتبين لك بعد وكذا تقديم الملك على البلدان والامصار واما تقديم المعاش فلان المعاش ضروري طبيعي ولعل العلم كمال او حاجي والطبيعي اقدم من الكمالي وجعلت الصنائع مع الكسب لاظهامه بتعقل الوجوه ومن حيث العمران كما سبق بعد

والله الموفق

الفصل الاول وفيه مقدمات الاول

في ان الاجتماع للانسان ضروري ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الانسان مدني بالطبع اي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم وهو معنى العمران وبيانه ان الله سبحانه خلق الانسان وركبه على صورة لا تتم حياته وبقاؤه الا بالغذاء وهداه الى التماسه بفطرته وما ركب فيه من القدرة على تحصيله الا ان قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه ولو فرضنا منه اكل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا فلا تحصل الا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ وكل واحد من هذه الاعمال الثلاثة يحتاج الى مواعين وآلات لا تتم الا بصناعات متعددة من حداد ونجار مثلا انه ياكله حامل من غير علاج فهو يحتاج ايضا في تحصيله حبا الى اعمال اخرى اكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدرس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل ويحتاج كل واحد من هذه الى آلات متعددة وصنائع كثيرة اكثر من الاولى بكثير ويستحيل ان يوفي بذلك كله او بعضه قدرة الواحد فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من ابناء جنسه لتحصيل القوت له ولهم فيحصل

بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لاكثر منهم باضعاف • وكذلك يحتاج كل واحد منهم ايضا في الدفاع عن نفسه
الى الاستعانة بابناء جنسه • لان الله سبحانه لما ركب الطباع الحيوانية فيها وقسم القدر بينها حصل خطوط
الحيوانات المعجم من القدرة اكمل من حظ الانس فقدرة الفرس مثلا اعظم بكثير من قدرة الانسان وكذا
قدرة الحمار والثور • وقدرة الاسد والفيل اضعاف من قدرته • ولما كان العدوان طبيعيا في الحيوان
جعل لكل واحد منها عضو تختص بمدافعة ما يصل اليه من عادية غيره وجعل للانسان عوضا من ذلك كله
الفكر واليد فاليد ممتنعة للصنائع بخدمة الفكر والصنائع تحصل له الالات التي تنوب له عن الخوارج
المعدة في سائر الحيوانات للدفاع مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة والسيوف الناسبة
عن المخالب الجارحة والرماح البانية عن البرات الحاسية الى غير ذلك وغيره مما ذكره جالينوس في كتاب
منافع الاعضاء فالواحد من البشر لا يقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سيما المفترسة فهو عاجز
عن مدافعتها وحده بالحيلة ولا تفي قدرته ايضا باستعمال الالات المعدة للمدافعة لكثرتها وكثرة الصنائع
والمواضع المعدة لها فلابد في ذلك كله من التعاون عليه بابناء جنسه ومالم يكن هذا التعاون فلا يحصل
له قوت ولا غذاء ولا تتم حياته لما ركبه الله عليه من الحاجة الى الغذاء في حياته ولا يحصل له ايضا دفاع عن
نفسه لفقدان السلاح فيكون فريسة للحيوانات • وبعاجله الهلاك عن مدى حياته ويبطل نوع
البشر واذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة وتمت حكمة الله في بقائه
وحفظ نوعه فاذن هذا الاجتماع ضروري للنوع الانساني والالم يكمل وجودهم وما اراده الله من
اعتمار العالم بهم واستخلافه اياهم • وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعا لهذا العلم وفي
هذا الكلام نوع اثبات للموضوع في نفسه الذي هو موضوع له وهذا وان لم يكن واجبا على صاحب الفن
لما تقرر في الصناعة المنطقية انه ليس على صاحب علم اثبات الموضوع في ذلك العلم فليس ايضا من
الممنوعات عندهم فيكون اثباته من البرعات • والله الموفق بفضله ثم هذا الاجتماع اذا حصل
للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم فلابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية
من العدوان والظلم ولست السلاح التي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية في
وقع العدوان بينهم لانها موجودة لجميعهم فلابد من شيء اخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا
يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم والهامهم فيكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون
له عليهم العلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل احد الى غيره بعدوان وهذا هو معنى الملك
وقد تبين لك بهذا انه خاصة للانس طبيعية لا بد لهم منها • وقد يوجد في بعض الحيوانات العجم على
ما ذكره الحكماء كما في النحل والجراد لما استقرى فيها من الحكم والانقياد له والاتباع لرئيس من انحائها
متميز عنهم في جثته وجثمانه الا ان ذلك موجود لغير الانسان بمقتضى الفطرة والهداية لا بمقتضى
الفكرة والسياسة اعطى كل شيء خلقه ثم هدى • ويريد الفلاسفة على هذا البرهان حيث يحاولون
اثبات النوع بالدليل العقلي وانها خاصة طبيعية للانسان فيقررون هذا البرهان الى غايته
وهو انه لابد للبشر من الحكم الوازع ثم يقولون بعد ذلك وذلك الحكم يكون لشرع مفروض
من عند الله تعالى يأتي به واحد من البشر يكون ممتازا عنهم بما لودع الله فيه من خواص هذا البيت

يتبع التعليم لهم والقبول منه حتى يتم الحكم فيهم وعليهم من غير انكار ولا استريب وهذه القصة المريدة للحكماء غير طبيعية كما سواه اذ الوجود وحياة البشر قد تتم من دون ذلك مما يفرضه الحاكم لنفسه اما بالعصبية التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادته فاهل الكتاب والمشبهون للانبياء قليلون بالنسبة الى المجوس الذين ليس لهم كتاب فانهم اكثر اهل العالم ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والآثار فضلا عن الحياة وكذلك هي لهم لهذا العهد في الاقاليم المنحرفة الى الشمال والجنوب بخلاف جيوب البشر فوصى دون وادع البتة فانه ممتنع وبهذا تبين لك غلطهم في وجوب النبوات وانه ليس بعقلي وانما مدركه الشرع كما هو مذهب السلف من الائمة • والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق والهداية •

المقدمة الثانية في وسط العمران من الارض

والاشارة الى بعض ما فيه من البحار والانهار والاقاليم انه قد تبين في كتب الحكماء الناظرين في احوال العالم ان شكل الارض كري وانها محفوفة بعنصر الماء كانها عنه طافية عليه فالخارج من الماء عن بعض جوانبها لما اراده الله من تكوين الحيوانات فيها • وعمرانها بالنوع البشري الذي له الخلافة على سائرها وقد تبين من ذلك ان الماء تحت الارض وليس بصحيح وانما التحت الطبيعي على الارض وسط كرتها الذي هو مركزها والكل بطليه بما فيه من الثقل وما عدا ذلك من جوانبها والماء المحيط بها فهو فوق وان فصل في شيء منها انه تحت فبالاضافة الى جهة اخرى عنه وهذا الذي اخبر عنه الماء من الارض هو الربع من سطح كرتها في دائرة احاط العنصر المائي بها من جميع جهاتها بحر البحيرة المحيط ويسمى ايضا لبلابة بتخفيف اللام الثانية • ويسمى اقانوس اسماء اعجمية وتعالى له البحر الاخضر والاسود ثم ان هذا المنكشف من الارض للعمران فيه القفار والخلاء كثير من عمرانه والخالي من جهة الجنوب منه اكثر من جهة الشمال • واما المعمور منه بقعة مبتدئ من اخر جانب الشمال على شكل سطح كري ينتهي من جهة الجنوب الى خط الاستواء ومن جهة الشمال الى خط مستقيم وراءه اكيال قاصلة بينه وبين الماء العنصري الذي يمنعها سد يأجوج ومأجوج • وينتهي من المشرق والمغرب الى عنصر الماء ايضا بقطعتين من الدائرة المحيطة • وسبب خلاء المجهول فيما ذكروه افراط الحرفيه بارتفاع الشمس عامة الفصول الى سامتة الرؤوس وما حولها فلا تزال اشعتها على الزوايا القائمة او قريبا منها فتكثر الضوء • ولعظم الحر والجانب الشمالي لافراط البرد فيه بعكس ذلك وهو هبوط الشمس ووصول شعاعها الى الارض على الزوايا المنفرجة فتقل الضوء فتعظم البرد لان الضوء سبب الحر والتسخين • واذا خرجت كيفيات الحرارة والبرودة عن حدها فسد التكوين فلذلك عما كان ما وراء خط الاستواء من الجنوب عندهم خلاء فقط ومعنى خط الاستواء الخط الذي تسامت الشمس رؤوس اهله عند حلولها نقطتي الحمل والميزان • وهو من المشرق الى المغرب • وذلك انه تبين في موضعه من كتب الحركات الفلكية ان فلك الشمس ليس على قطب الفلك المحرك لسائر الافلاك بحركته اليومية بل القطبان مختلفتان والمعتبر في عمل الآلات كلها قطب الفلك المحرك الذي تعتين بحركته الزمان والدهور وكل فلك فتحته دائرة هي اعظم دوائره واوسعها فتكون دائرة الشمس المنقسمة بروجها الاثني عشر

مقاطعة لدايرة المحرك ومن تقطتي التقاطع ابتدئت قسمة البروج فجعلت احداهما لراس الحمل ومقابلتها لراس الميزان واختلف
وضع الشمس بالنسبة الى الارض فجاز ان تتحرك دايرة المحرك ولدايرة سمت الرؤوس سواكانت دايرة الفلك المحرك ام لا فاختلف الحر
والبرد باختلاف وضعها وانقسمت الازمنة بالفصول لما اراده الله من حصول التكوين في عالم العناصر ثم ان الامر
كما تقرر في كتب الآلات هو الفرق بين ما يرى من السما وما يرى فلكل دايرة من الفلك ايضا ما يعم الدوايرة
المحيطة بهم وهي مسامتة لرؤوسهم فلذلك وقعا الفلك المحرك على ذلك الافق كانت دايرة المعدل هي المسامتة لهم
فتكون الشمس بمسامتهم في تقطتي الحمل والميزان مرتين في السنة وابعد بعدا في ميلها عن مسامتهم حلولها براس
السرطان والجدي وهناك يقل الحر وكثير فيما قرب من المسامتة فيكون لاهل ذلك الافق صيفان وشتاءان
وزمان صيفهم اقرب طولا لان المسامتة في زمنين وكلما قربت منها فلد حكمها والميل في ذلك الافق ليس بكثير فيكون
زمان الحر اطول عدة من زمان البرد لانه في تزجي الحمل والثور وتطيرها من الحوت والدلو ومقابل هذه الاربعة
فيكون ثمانية اشهر والبرد في اربعة الا انه قليل في كميته ايضا واما هو بالنسبة الى الحر الموجود عندهم فلذلك
كان الحر في هذا الافق كثيرا جدا وكل ليس حارا عن حد التكوين وليس هو بافق واحد بل هي افاق ذاهبة من المغرب
الى المشرق والخط الواصل بين جميعها هو خط الاستوا الذي امتنع التكوين فيما وراه من الجنوب لافراط الحر فاذا
ارتفع القطب الشمالي على افق بحسب مقدار ما تزول الجنوبي مثله وتزلت دايرة الفلك المحرك عن المسامتة
مثله ايضا وهو معنى العرض للبلد فلا تزال الفصول اثنين اثنين في كل سنة ما دامت المسامتة فيما بين
تقطتي الحمل والسرطان لان كل تقطة يعرض فيها المسامتة من هذه التقطة تعرض في تطيرها الى بعدها من
السرطان مثلها فاذا هبط راس السرطان في الافق المعروض عن المسامتة صار فصل الحر والبرد واحدا
واحدا وصار للاعتدال فصلان احدهما ما خرج الى الحر عن البرد ومن عند انهم فساد التكوين فيما وراه الاستواء
والعرض في الافق الذي تسامت فيه راس السرطان اربعة وعشرون في تمامه وما ادناها وهو عدد ميل
الشمس من تقطة راس الحمل الذي هو دايرة المحرك فما زاد من العروض على الاربعة والعشرين لا تسامت الشمس فيه
رؤوس اهله ولا تزال في انحطاط الى ان تنتهي في الانحطاط عن السمت الذي في دايرة المحرك الى ستين
وما زاد عليها فيعم البرد عامة الازمنة ويخرج عن حده فيفسد التكوين ايضا وذلك في جانب الشمال
والحكم على خلافها وذلك خط الاستواء براهين ليس هذا موضع بسطها ثم ان المخبرين عن هذا المعمور وحواليه
وما فيه من الامصار والمدن والجبال والبحار والانهار والقفار والرمال مثل بطلميوس في
كتاب الجغرافيا وصاحب كتاب رجار من بعده فنحن واهذا المعمور سبعة اقسام لسموتها السبع
الاقاليم حدود وهمية بين المشرق والمغرب متساوية في العرض مختلفة في الطول فالاقليم الاول
اطول مما بعده وكذا الثاني الى اخرها فيكون السابع اقصرها كلها لما اقتضاه وضع الدايرة الثانية
من انحسار الماء عن كرة الارض وكل واحد من هذه الاقاليم عندهم منقسم بعشرة اخرا من المغرب
الى المشرق على التوالي وفي كل جزء اخبر عن احواله واحوال عمرانه وذكروا ان هذا البحر
المحيط يخرج منه من جهة المغرب في الاقليم الرابع البحر الرومي المعروف ببدا في خليج متضايق في
عرض اثني عشر ميلا او نحوها ما بين طنجة وطريف ويسمى الزقاق ثم يذهب مشرقا ويفسح الى عرض
سبعة اميال ونهاية في اخر الجزء الرابع من الاقليم الرابع وعليه هناك سواحل الشام وعليه من جهة

الجنوب سواحل المغرب اولها طنجه عند الخليج ثم افريقيه ثم برقة الى الاسكندريه ومن جهة الشمال
سواحل القسطنطينيه ثم البنادقه ثم رومه ثم الافرنجه ثم الاندلس الى طريف عند الزقاق قبالة
طنجه ويسمى هذا البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة عامره كاريا مثل اقريطش وقبرص
وصقليه ومیورقه وسردانيه وذابه قالوا ويخرج منه في جهة الشمال بحران
احدهما من خليجين احدهما مسامت للقسطنطينيه يمتد من هذا البحر متضايقا في عرض رمية السهم
وعن القسطنطينيه في عرض اربعة اميال ثم يتسع ورآها في عرض ستين ميلا ويسمى هنالك
بحر بنطس ويخرج من هنالك في مذهبه قليلا الى ناحية الشرق فيمر بارض هرقليه وينتهي
الى البحر الخزريه على الف وثلثمايه ميل من مبدايه وعليه من الجانبين امم من الروم والترك وبرجان
والروس ويسمى خليج القسطنطينيه وبحر بنطس والبحر الثاني من هذا البحر الرومي يخرج في
بلاد الروم على سمت الشمال فاذا انتهى الى ستت انحل اخرف في سمت المغرب الى بلاد البنادقه
وينتهي الى افطلايه على الف ومايه ميل من مبدئه وعلى صقليه من البنادقه والروم وغيرهم امم
ويسمى خليج البنادقه قالوا وينساح من هذا البحر المحيط ايضا من جهة الشرق على ثلاث عشره درجه
في الشمال من خط الاستواء بحر عظيم منبسط يمر الى الجنوب قليلا حتى ينتهي الى الاقليم الاول
ثم يمر فيه مغربا الى ان ينتهي في البحر الخامس منه الى بلاد الحبشه والزنج على اربعة الاف وخمسمايه
فرسخ من مبدايه ويسمى البحر الصيني والهندي والحبشي وعليه من جهة الجنوب بلاد الزنج وبلد
برسوا الذي ذكرها امرء القيس في شعره ويسمى ابن البربر الذين بهم قبائل المغرب ثم تلك سفالة
وارض واق واق وامم اخرى ليس بعدهم الا القفار والخلا وعليه من جهة الشمال الصين
من مبدايه ثم الهند ثم السند ثم سواحل اليمن من الاحقاف وزبيد وعيرا ثم بلاد الحبشه
عند نهايته وبعدهم الزنج قالوا ومما يخرج من هذا البحر الحبشي بحران اخران يخرج احدهما من
نهايته عند باب المندب متضايقا متضايقا ثم يمر مستمرا الى ناحية الشمال ومعرجا قليلا
الى ان ينتهي الى مدينة القلزم في الحر الخامس من الاقليم الثاني على الف واربعمايه ميل من مبدايه
ويسمى بحر القلزم وبينه وبين فسطاط مصر ثلاثة مراحل وعليه من جهة الشرق سواحل اليمن ثم
الحجاز وجده ثم مدين وايله وفاران عند نهايته ومن جهة الغرب سواحل الصعيد وعيذاب
وسواكن وزالع ثم بلاد البجه عند مبدئه واخره عند القلزم ليسامت البحر الرومي عند الاسكندريه
وبينهما نحو ست مراحل وما زال الملوك في الاسلام وقبله يروون حرق ما بينهما ولم يتم ذلك والبحر
الثاني من هذا البحر الحبشي يخرج ما بين بلاد السند والاحقاف من اليمن ويمر الى ناحية الشمال
مغربا قليلا الى ان ينتهي الى الابلة من سواحل البصره في الحر السادس من الاقليم الثاني وعلى اربعمايه
فرسخ من مبدايه ويسمى بحر فارس وعليه من جهة الشرق سواحل السند ومكران وكرمان وفارس
والابلة عند نهايته ومن جهة الغرب سواحل البحرين واليمامه وعمان والشحر والاحقاف عند
مبدايه وفيما بين بحر فارس والقلزم هي جزيرة العرب كما ذاخله من البر في البحر المحيط لها
البحر الحبشي من الجنوب وبحر القلزم من الشرق وبحر فارس من الغرب ويفضي الى العراق

اما ينتهي الى البحر الاسود
وهو غربي بحر الخزريه
ولا اتصال بينهما

فيما بين الشام والبصرة على الف وخمسمائة ميل منها وصاك الكوفة والقادسية وبغداد وايوان كسرى
والحيرة وورادت امم العاجم من الترك وغيرهم وفي جزيرة العرب بلاد الحجاز في جهة الغرب منها
وبلاد اليمامة والبحرين وعمان في جهة الشرق منها وبلاد اليمن في جهة الجنوب منها وسواحله على البحر
الحبشي قالوا وفي هذا المعمور بحر آخر منقطع عن سائر البحار في ناحية الشمال وبارض الديلم يسمى بحر جرجان
طول الفصيل في عرض ستمائة في عمرية اذربيجان والموصل وفي شرقية الترك وخوارزم وفي جنوبيه
طبرستان وفي شماليه ارض الخزر والآلان هذه جملة البحار المشهورة التي ذكرها اهل الجغرافيا قالوا وفي
هذا المعمور انهار كثيرة اعظمها اربعة الفرات ودجلة والنيل والنهر المسمى بحكون

فاما النيل فمبداه من جبل عظيم وراء خط الاستواء ست عشرة درجة وعلى سمت الجزء الرابع
من الاقليم الاول ويسمى جبل القمر والاعلم في الارض جبل اعلامه يخرج منه عيون كثيرة فيصب بعضها
في بحيرة هنالك وبعض في اخرى ثم يخرج الفارق من البحيرتين فتصب كلتاهما في بحيرة واحدة عند خط الاستواء
وعلى عشرة مراحل من الجبل ويخرج من هذه البحيرة ثم ان نهران يذهب احدهما الى ناحية الشمال على سمته ويمر ببلاد النوبة ثم بلاد مصر فاذا جاوزها تشعب في شعب متقاربة يسمى كل منها خليجا وتصب كلها في
البحر الرومي عند الاسكندرية ويسمى نيل مصر وعليه الصعيد من شرقيه والواحات من غربيه
ويذهب الآخر منعطفا الى المغرب على سمته الى ان يصب في البحر المحيط وهو نيل السودان وامم كلهم على
صفتهم **واما الفرات** فمبداه من بلاد ارمينية في الجزء السادس من الاقليم الخامس ويمر
جنوبا في ارض الروم وملطية الى منبج ثم يمر بصفين ثم بالرقة ثم بالكوفة الى ان ينتهي الى البطائح التي
بين البصرة وواسط ومن هنالك تصب في البحر الحبشي وتجلب اليه في طريقها انهار كثيرة ويخرج
منها نهار اخرى تصب في دجلة واما دجلة فمبدؤها عين بلاد خلاط من ارمينية ايضا ويمر
على سمت الجنوب بالموصل واذربيجان وبغداد الى واسط فتفترق في خلجان تصب كلها في
بحيرة البصرة وتنفضي الى البحر الحبشي وهو في الشرق عن نهر الفرات وتجلب اليه انهار كثيرة عظيمة
من كل جانب وفيما بين الفرات ودجلة من اول جزيرة الموصل فبالة الشام من عدوتي الفرات
وبالة اذربيجان من عدوتي دجلة **واما نهر جيحون** فمبدؤه من بلخ في الجزء الثامن
من الاقليم الثالث من عيون هناك كثيرة وتنجلب اليه انهار عظام ويذهب من الجنوب الى الشمال
فيمر ببلاد خراسان ويخرج منها الى بلاد خوارزم في الجزء الثامن من الاقليم الخامس فيصب في
بحيرة الجرجانية التي باسفل مدينتها وهي مسيرة شهر في ميله والها تصب نهر فرغانة والشاش
الآتي من بلاد الترك وعلى غربي نهر جيحون بلاد خراسان وخوارزم وعلى شرقيه بلاد بخارى
والرمد وسمرقند ومن هنالك الى ما وراء بلاد الترك وفرغانة والخزر بجبته وامم الاعاجم
وقد ذكر ذلك كله بطليموس في كتابه والشريف في كتاب رجاد وصوروا في الجغرافيا
جميع ما في المعمور من الحيات والبحار والاودية واستوفوا من ذلك ما لا حاجة لنا به لطوله
ولان عنايتنا انما هي بالمغرب الذي هو وطن البربر وبالاوطان التي للعرب
من الشرق والله واهب المعونة

المؤلف

المقدمة الثالثة في المعتدل من الاقاليم

والمخوف وتباين الهوي في الوان البشر والكثير من احوالهم • قد بينا ان المعمور من هذا المنكشف من الارض انما هو وسطه لافراط الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال • ولما كان الجانبان من الجنوب والشمال متضادين في الحر والبرد وجب ان تتدرج الكيفية من كليهما الى الوسط فيكون معتدلا فالاقليم الرابع اعدل العمران والذي حنا فيه من الثالث • والخامس اقرب الى الاعتدال • والاول والسابع ابعد بكثير فلهذا كانت العلوم والصنايع والمباني واللابس والاقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الاقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر اعدل اجسامًا • والوانًا • واخلاقًا • واحوالا فهم على غاية من التوسط في مساكنهم • وملابسهم واقواتهم • وصنايعهم يتخذون البيوت المتخذة بالحجارة المنمقة بالصنايع ويتباعون في استجادة الآلات والمواعين • ويذهبون في ذلك الى الغاية ويوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب والفضة • والنحاس والحديد • والرصاص والقصدير • ويتصرفون في معاملاتهم بالنقدين العزيزين • ويبعدون عن الاسراف في عامة احوالهم وهؤلاء اهل المغرب والشام • والعراقين • والسند والصين • وكذلك الاندلس ومن قرب منها من الفرنجة والجلالقة • ومن كان معهم مولدا او تربيا منهم في هذه الاقاليم المعتدلة • ولهذا كان العراق • والشام اعدل هذه كلها لانها وسط من جميع الجهات • واما الحجاز • واليمن • وان كانت مائلة عن الوسط الا ان هواء الحجاز لما عدل من هوائها فالحق بالمعتدل من الوسط

والذي يليها الثانية بعيد ان من الا

واما الاقاليم البعيدة من الاعتدال مثل الاول والثاني • والسادس • والسابع فالابعد من الاعتدال في جميع احوالهم • فبناؤهم بالطين • والقصب • واقواتهم من الذرة • والعدس • وملابسهم من وراق الشجر يخصفونها عليهم او الجلود • واكثرهم عرايا من اللباس • وفواكه بلادهم وادمها عزيزة التكوين مائلة الى الاحراق • ومعاملاتهم بغير الجزيئين من نحاس او حديد او جلود يتبادلونها للمعاملات • واخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم حتى يقل عن الكثير من السودان اهل الاقليم الاول انهم ياكل بعضهم بعضا وكذا الصقالبة والسقب في ذلك انهم لبعدهم عن الاعتدال يعرب عرض امزجتهم واخلاقهم من عرض الحيوانات العجم ويبعدون عن الانسانية بمقدار ذلك وكذا احوالهم في الديانة ايضا فلا يعرفون نبوة ولا يدينون لشريعة الا من قرب منهم من جوانب الاعتدال وهو في الاقل النادر مثل الحبشة المجاورين لليمن الدانين بالنصرانية فيما قبل الاسلام وبالاسلام لهذا العهد مثل اهل مالي • وكوكو المجاورين لارض المغرب الدانين بالاسلام لهذا العهد يقال انهم دانوا به في المائة السابعة • ومثل من دان بالنصرانية من امم الصقالبة والروس في الشمال • ومن سوى هؤلاء من اهل تلك الاقاليم المحرقة جوبًا • وشمالا فالدين مجهول عندهم • والعلم مفقود بينهم وجميع احوالهم بعيدة من احوال الانسانية قريبة من احوال البهائم وخلق ما لا تعلمون • ولا يعترض على هذا القول • بوجود اليمن • وحضرموت • والاحقاف

وبلاد اليمن والحجاز واليمامة وما اليها من جزيرة العرب في الاقليم الاول والثاني فان جزيرة العرب كلها احاطت بها البحار من الجهات الثلاث كما ذكرناه وكان لرطوبتها اثر في رطوبة هوائها فنقص ذلك من اليبس والانحراف الذي يقتضيه الحر وصار فيها بعض الاعتدال لسبب رطوبة البحر وقد توهم بعض الناس ممن لا علم له بطبايع الكائنات ان السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من ابيه ظهر اثرها في لونه وفي جعل الله من الرق في عقبه ويتعاون في ذلك حكاية من خرافات القصاص وهذه غفلة عن طبيعة الحر والبرد واثرهما في الهواء وفيما يتكون منه من الحيوانات وذلك ان هذا اللون شمل اهل الاقليم الاول والثاني من مزاج هوائهم الحرارة المتضاعفة بالجنوب فان الشمس تسامت رؤسهم مرتين في كل سنة قريبة احداهما من الاخرى فتطول المسامتة عامة الفصول ويكثر الضوء والاشراق عليهم الشديد عليهم فتسود جلودهم لافراط الحر وتطير هذين الاقليمين فيما يليها من الشمال الاقليم السادس والسابع لشمل سكانها ايضا لون البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال اذ الشمس لا تزال بافقهم في دائرة مرأى العين او ما قرب منها ولا ترتفع الى المسامتة ولا ما قرب منها فيضعف الحر فيها ويشتد البرد عامة الفصول فتبيض الوان اهلها وينتهي الى الزعورة ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من رقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعور وتوسطت بينهما الاقاليم الثلاثة الخامس والرابع والثالث وكان لهاتين الاعتدال الذي هو مزاج التوسط حظ وافر والرابع اليها في الاعتدال غاية لها بينة في التوسط كما قدمناه فكان لاهله من الاعتدال في خلقهم وخلقهم ما اقتضاه مزاج اهويتهم وتبعه من جانبيه الثالث والخامس وان لم يبلغا غاية التوسط لميل هذا قريبا الى الجنوب الحار وهذا قليلا الى الشمال البارد الا انهما ينتهيان الى الانحراف وكانت الاقاليم الاربعة منحرفة وامثلا كذلك في خلقهم وخلقهم فالاول والثاني للحر والسواد والثالث والسادس والسابع للبرد والبياض وسمي سكان الجنوب من الاقليمين الاول والثاني باسم الحبشة والزنج والسودان اسما مرادفا على الامة المتصفين بالسواد وان كان اسم الحبشة مختصا منهم بمن نحاه مكة واليمن والزنج عن نحاه بحر الهند ولديت هذه الاسامي من اجل انتسابهم الى آدمي اسود لاحام ولا غيره وقد نجد من السودان اهل الجنوب من يسكن الربع المعتدل او السابع المنحرف الى البياض فيبيض الوان اعقابهم على التدريج مع الايام وبالعكس فيمن يسكن من اهل الشمال او الرابع بالجنوب فيسود الوان اعقابهم ويدل ذلك دليل على ان اللون تابع لمزاج الهواء قال ابن سينا في ارجوزته في الطب

بالزنج حر غير الاحسادا ... حتى كسى جلودها سوادا
والصقلب اكسب البياضا ... حتى عدت جلودها بيضا

واما اهل الشمال فلم يسموا باعتبار الوانهم لان البياض كان لونا لاهل بلاد اللغة الواضعة للاسماء فلم يكن فيه عارض يحمل على اعتباره في التسمية لموافقته واعتياده ووجدنا سكانه من الترك والصقالبة والطغرغز والخزر واللان والكرمن الفرنجة ويأجوج ومأجوج اسما متفرقة واجيالا متعددة مسمين باسما مستوعة واما اهل الاقاليم الثلاثة المتوسطة اهل الاعتدال في خلقهم وخلقهم

وسيرهم وكانت الاحوال الطبيعية للاعتمار لديهم من المعاش والمساكن والصنايع والعلوم والديانات والملل فكانت فيهم النبوات والملك والدول والشرايع والعلوم والبلدان والامصار والمباني والعمارة والصنايع الغايبة وسايرالاحوال المعتدلة واهل هذه الاقاليم الدين وقفنا على اخبارهم مثل العرب والروم وفارس وبنواسرايل واليونانيين واهل الهند والصين ولما راى النسابون اختلاف هذه الامم بسماتها وسعايرها حسبوا ذلك لاجل الانساب فجعلوا اهل الجنوب كلهم السودان من ولد حام وارتابوا في الوانهم فتكلفوا لتلك الحكاية الواهية وجعلوا اهل الشمال كلهم اوكثيرهم من ولد يافث واكثر الامم المعتدلة وهم اهل الوسط المتحلون للعلوم والصنايع والملل والشرايع والسياسة والملك من ولد سام وهذا الزعم وان صادف الحق في انتساب مولاء وليس ذلك بقياس مطرد انما هو اخبار عن الواقع لان تسمية اهل الجنوب بالسودان والحبشان من اجل انتسابهم الى حام الاسود وما اداهم الى هذا الغلط الا اعتقادهم ان التميز للاسم انما يقع بالانتساب فقط وليس كذلك فان التميز للجيل واللامة يكون للنسب في بعضهم كالعرب وبني اسرايل والفرس ويكون بالجهة والسمت كما للزنج والحبشان والصقالبة والسودان ويكون بالعوايد والسعاير مع النسب كما للعرب ويكون لغير ذلك من احوال الامم وخواصهم وممايزاتهم فتعميم القول في اهل جهة معينة من جنوب او شمال بانهم من ولد فلان المعروف لما شملهم من لون او نحلة او سمة وحدث لذلك الاذهب انما هو من الاغاليط التي وقع فيها الغفلة عن طبايع الاكوان والجهات وان هذه فلا تبدل في الاعقاب ولا يجب استمرار سنة الله التي قد خلت في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا

المقدمة الرابعة في اخلاق البشر

قد رايناهم من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع موصوفين بالحمق في كل قطر والسبب الصحيح في ذلك انه تقرر في موضعه من الحكمة ان طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشيه وطبيعة الحزن بالعكس وهي انقباضه وتكاثفه وتقرر ان الحرارة مفشية للهوا والبخار محللة له زايدة في كميته ولهذا نجد المنتشي من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها سورة الحمر في الروح من مراجه فيتفشى الروح وتجي طبيعة الفرح وكذلك نجد المستحمين بالحمامات اذا استفسوا في هوايه وانفصلت حرارة الهوا بارواحهم فتسخن لذلك حدث لهم فرح وانبعثت البكر منهم بالغنا الناشي عن السرور ولما كان السودان ساكنين في الاقليم الحار واسبوا الحر على امزجتهم وفي اصل تكوينهم كان في ارواحهم من الحرارة على نسبة ابدانهم واقليمهم فتكون ارواحهم بالقياس الى ارواح اهل الاقليم الرابع اشد حرا فتكون اكثر تفشيا فتكون اسرع فرحا وسرورا واكثر انبساطا ويجي الطيش على اثر هذه وكذلك يلحق بهم قليلا اهل البلاد البحرية لما كان هوايها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من اضواء بسيط البحر واسعته كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح والخفة موجودة اكثر من

بلاد التلال والجبال الباردة وقد يجد يسيرا من ذلك في اهل البلاد الحرة من الاقليم الثالث
لتوفر الحرارة فيها وفي هوائها لانطباع رقة في الحبوب عن الارياف والتلول واعتبر ذلك ايضا باهل
مصر فانها في مثل عرض البلاد الحرة او قريبا منها كيف غلب الترح عليهم والحمقة والغفلة عن العواقب
حتى انهم لا يدخرون اقوات سنتهم ولا شهرهم وعامة مآكلهم من اسواقهم ولما كانت فاس من بلاد
العرب بالعكس منها في التوغل في التلول الباردة كيف ترى اهلها مطوقين اطواق الحمق
وكيف فرطوا في تطلب العواقب حتى ان الرجل منهم ليدخر اقوات سنين من حبوب الحنطة ويباكر الاسواق
لشراء قوته ليومه مخافة ان يزداد سعرا من متجره وسمع ذلك في الاقاليم والبلدان تحدث في
الاخلاق انواعا من كيفيات الهوا والله الخلاق العليم والبلدان تحدث وقد تعرض
المسعودي سمع عن السبب في خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم وحاول
تعليله فلم يات فيه بشيء ونقل عن جاسوس ويعقوب بن اسحاق الكندي ان ذلك لضعف
ادمغتهم وما شاعه من ضعف عقولهم وهذا كلام لا محصل له ولا برهان فيه والله يهدي من يشاء

المقدمة الخامسة في اختلاف العمران

في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الاثار في ابدان البشر واخلاقهم اعلم ان
هذه الاقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد له الخصب ولا كل سكانها في رغد من العيش بل فيها ما يوجد فيه
خصب العيش من الحبوب والادم والحنطة والفواكه لذكاء المنابت واعتدال التربة ووفور العمران
وفيها الارض الحرة التي لا تنبت زرعا ولا عشبا بالجملة فسكانها في شظف من العيش مثل اهل الحجاز
وجنوب اليمن ومثل الملثمين من صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب واطراف الرمال فيما بين البربر
والسودان فان هؤلاء يقتاتون الحبوب والادم جملة واغا اقواتهم الالبان واللحوم
ومثل العرب ايضا الجاثمين في القفار فانهم وان كانوا ياخذون الحبوب والادم من التلول
الا ان ذلك في الاحايين وتحت رقبة من حاميها وعلى الافلاك لعلة وجدهم فلا يتوصلون منها
الا الى سد الخلة اوقاتها فضلا عن الرغد والخصب وتجدهم يقتصرون في غالب احوالهم على
الالبان ولقوتهم من الحنطة احسن معاش وتجدهم مع ذلك هؤلاء الفاقدين للحبوب والادم من اهل
القفار احسن حالا في جسومهم واخلاقهم من اهل التلول المتمتعين في العيش فالوانهم اصفى وابدانهم انقى
واشكالهم اتم واحسن واخلاقهم ابعد من الاعوجاج واديانهم اثقب في المعارف والادراكات هذا
امر تشهد له التجربة في كل جيل منهم فكثيرا ما بين العرب والبربر فيما وصفناه وبين الملثمين واهل
التلول تعرف ذلك من خبره والسبب في ذلك والله اعلم ان كثرة الاغذية ورطوباتها تولد في
الجسم فضلات رديئة ينشاعها بعد انطباره في غريزته وكثرة الاخلاط العافنة العفنة ويتبع
ذلك انكفاف الالوان وقبح الاشكال من كثرة اللحم كما قلناه وتعطي الرطوبات على الاذهان والافكار
مما يصعد الى الدماغ من ابخرتها الرديئة فتجيء البلادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة واعتبر
ذلك في حيوان العفر وسواحل الجدب من الغزال والمها والنعام والزرافة والحمر الوحشية
والبقر مع امثالها من حيوان التلول والارياف والمراعي الخصبة كيف تجد منها نوعا بعيدا في صفاته

ادمها وحسن رونقها واشكالها وتناسب اعضائها وحدة مدارکها فالغزال اخو المعز والزرافة
اخو البعير والحمار والبقر هو الحمار والبقر والثور بينهما مراتب وما ذاك الا لاجل ان الحضب
في البدو فعل في ابدانهم من الفضلات الردية والاخلاط الفاسدة ما ظهر عليه اثره والجوع
فحيوان القفر حسن في خلقها واشكالها ما شاء واعتبر ذلك في الادميين ايضا فانا نجد اهل الاقاليم
المخصبة العيش الكثيرة الزرع والضرع والادم والفواكه متصفين اهلها غالبا بالبلادة في ذواتهم
والحشونة في اجسامهم وهذا شان البربر المتغمسين في الادم والحنطة مع المتقشفين في عيشهم المقتصرين
على الشعير والذرة مثل الصامدة منهم وعامة واهل السوس فتجد هؤلاء احسن حالا في عقولهم
وجسومهم وكذا اهل بلاد المغرب على الجملة المتغمسين في الادم والبر مع الاندلس المعقود بارضهم
السمن جملة وغالب عيشهم الذرة فتجد اهل الاندلس من ذكاء العقول وحدة الافهام وقبول
التعليم ما لا يوجد لهم وكذا اهل الضواحي من المغرب بالجملة مع اهل الحضر والامصار فان اهل
الامصار وان كانوا مكثرين منهم من الادم ومخصبين في العيش الا ان استعمالهم اياها بعد العلاج
بالطبخ والتلطيف بما يخلطون معها مذهب لذلك غلظها ويرق قوامها وعامة ما كلهم لحمان الضان
والدجاج ولا يغبطون الثمن من سمن الادم لتعاهده فتقل الرطوبات لذلك في اغذيتهم ويخف ما
يؤدية الى اجسامهم من الفضلات الردية فلذلك تجد جسوم اهل الامصار احسن من جسوم البادية
المخصبين في العيش والطف بخلاف اهل البادية المتعودين للجوع فانهم لفضلات في اجسامهم
ولا لطيفة واعلم ان اثر هذا الخضب في البدن واحواله ليظهر حتى في حال الدين والعبادة
فتجد المتقشفين من اهل البادية والحاضرة ممن باشرته حد نعمة بالجوع والحمى في عن الملاد احسن دينا واقبالا
على العبادة من اهل الترف والخضب وكذلك تجد هؤلاء المخصبين العيش المتغمسين في طيبانه لا من اهل
البادية ولا من اهل الحواضر والامصار اذا نزلت بهم الستون واحدتها المجاعات يسرع اليهم الهلاك اكثر
من غيرهم مثل برابرة المغرب واهل مدينة فاس ومصر فيما يلفنا لا مثل العرب اهل القفر والضحاء
ولا مثل اهل بلاد النخل الذين غالب عيشهم الشعير واهل الاندلس الذين غالب عيشهم البر ولا مثل اهل
اربعيه لهذا العهد الذين غالب عيشهم الشعير واهل الاندلس الذين غالب عيشهم الذرة فان هؤلاء
وان احدتهم الستون والمجاعات فلا ينال منهم ما ينال من اولئك ولا يكثر فيهم الهلاك بالجوع بل ولا يتبدد
والسبب في ذلك والله اعلم ان المتغمسين في الخضب المتعودين للادم والسمن خصوصا كسب لهم
من ذلك رطوبة فوق رطوبتها الاصلية المراحة حتى تحاوز حدها فاذا حولفت بها العادة بفقد الادم وقلة
الاقوات واستعمال الخشن منها عمد المالوف اسرع الى المعا اليبس والانكماش وهو عضو ضعيف في
العادة فيسرع اليه المرض ويهلك صاحبه دفعة لانه من العامل فالهالكون في المجاعات انما قتلهم السبع
المعجل والسابق الجوع الحادث اللاحق واما المتعودون للعيمة وترك الادم والسمن فلا تزال
رطوبتهم الاصلية واقفة عند حدها من غير زيادة ولا نقصان فليست الا لبقية الجسم الاعدية الطبيعية فلا تسرع في معاهم
بتبدل الاغذية يبس ولا الجاف فيسلمون في الغالب من الهلاك الذي يعرض لغيرهم بالخضب وكثرة
الادم في المآكل واصل هذا كله ان يعلم ان الاعدية وابلاها او تركها انما هو بالعادة ثم يعود نفسه

عداوة لأمة ساوله صار له مألوفا وصار الخروج عنه والتبدل به داء مالم يخرج عن عرض العداء
بالجملة كالسموم والبيوع وما أفرط في الأخراف فإنما وحد فيه التعدي والملاءمة فقصر غذاء
مألوفا بالعادة فاذا اعتاد الانسان نفسه باستعمال اللين والبقل عوضا من الحنطة حتى صار له دينا
فقد حصل له ذلك غذاء واستغنى به عن الحنطة والحبوب من عيرشك وكذا من عود نفسه الصبر
على الجوع والاستغناء عن الطعام كما ينقل عن أهل الرياضات فانا نسمع عنهم في ذلك أخبارا غريبة يكاد
ينكرها من لا يعرفها والسبب في ذلك العادة فان النفس اذا ألفت شيئا صار من جملتها وطبيعتها
لانها كثيرة التلون فاذا حصل لها اعتياد الجوع بالتدريج والرياضة فقد حصل ذلك عادة وطبيعة
لها وما يتوهم الاطباء من ان الجوع مهلك فليس على ما يتوهمونه الا اذا حملت النفس عليه جملة واحدة
وقطع عنها الغذاء بالكلية فانه حينئذ يحتدم المعاء ويتولد المرض الذي يحتي معه الهلاك واما
اذا كان ذلك تدريجا ورياضة باقلال الغذاء شيئا فشيئا كما فعله المتصوفة فهو معزول عن الهلاك
وهذا موجود حتى في الرجوع عن هذه الرياضة فانه اذا رجع به الى الغذاء الاول دفعة واحدة خيف
عليه الهلاك وانما يرجع به كما بدا في الرياضة بالتدريج **ولقد شاهدنا** من يصبر على
الجوع اربعين يوما وصاعدا وحضر اشياخنا مجلس السلطان ابي الحسن وقد رفع اليه امر اثنان من
اهل الجزيرة الخضراء وزنده حبستا انفسهما عن الاكل جملة منذ سنين ووقع اختبارهما وشاع امرهما
واتصل على ذلك قالما الى ان هلكا **وراينا كثيرا** من اصحابنا من يقتصر على اكلية شاة من
المعزى يلتهم نيئها في بعض النهار ويكون ذلك غذاءه واستدام على ذلك نحو عشرة سنة وعيشهم
كثير ولا يستنكرون ذلك **واعلم** ان الجوع اصلح للبدن من اكثار الاغذية بكل وجه لمن قدر
عليه او على الاقلال منها وان لنا شواهد في الاجسام والعقول في صفاتها وصلاحها كما قلناه واعتبر
ذلك بانكار الاغذية التي تحصل عنها في الجسوم فقد رأينا المعتدين بلحوم الحيوانات الفاخرة العظيمة
الجثمان نشأ اجيالهم كذلك وهذا مشاهد في اهل البادية مع اهل الحاضرة والمعتدون بألبان
الابل ولحومها ايضا كذلك مع ما يتوخى في اخلاقهم من الصبر والاحتمال والقدرة على حمل الاثقال
الموجود ذلك للابل ونشأ معائهم ايضا على نسبة معاء الابل في الصحة والبعد فلا يطرقها الورم
ولا الضعف ولا يلتهما من مضار الاغذية ما ينال غيرهم فيشربون البيوغات لاستطلاق بطونهم
غير محموده كالحنظل قبل نضجه والدرياس والفربيون ولا ينال معائهم منها ضرر وهي لوشا وغذاء
اهل الحضر الرقيقة معائهم مما تشتمل عليه من لطيف الاغذية فكان الهلاك اسرع اليهم من طرفة العين
لما فيها من السمية **ومن تأثير الاغذية في الابدان** ما ذكره اهل الملاحة وشاهده اهل التجربة
ان الدجاج اذا غذيت بالحبوب المطبوخة في بعر الابل ثم واتخذ بيضها ثم حضنت عليه جاء الدجاج منها
اعظم ما يكون وقد يستغنون عن تغذيتها وطبخ الحبوب بطرح ذلك البعر مع البيض المحضن فيجيء دجاجها
في غاية العظم وامثال ذلك فاذا رأيتها هذه الآثار من الاغذية في الابدان فلا شك ان
للجوع ايضا اثرا في الابدان لان الضدين على نسبة واحدة في التأثير او عدمه فيكون تأثير الجوع
في نقاء الابدان من الزيادات الفاسدة والرطوبات المختلطة المفسدة للجسم والعقل كما كان الغذا

شبكة الألوكة www.alukah.net

مؤثرا في وجود ممكن وعزل ۞ والله محيط بعلمه ۞

المقدمة السادسة في أوصاف العبد

اعلم ان الله سبحانه اصطفى من البشر اشخاصا فضلهم بخطابه ۞ وفطرهم على معرفته وجعلهم وسائط بينهم وبين عباده يعرفونهم لهدايتهم ويأخذون بالمحاب منهم عنها لهم وكان فيما بلغني اليهم من المعارف وعلى السنتهم الاخبار بوقوع كائنات مغيبة عن البشر لا سبيل الى معرفتها الا منهم كما قال صلى الله عليه وسلم الا واني لا اعلم الا ما علمني الله واختص جبريل في ذلك بالصدق دائما لانه من عند الله وكل ما هو من عند الله فهو حق لا يشوبه الباطل وما هو من عند غير الله فخلط مختلط ياطله وابطله قوله صلى الله عليه وسلم لما سال ابن صياد وقد قيل له عنه ما قيل يسأله عن خالبه في ذلك فقال ما بي صادق وكاذب فقال خلط عليك الامر فكذا قال صلى الله عليه وسلم في الرؤيا وجعل الملائكة اصنافا رؤيا من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان فخص الي من الله والملك بالحق والتي من الشيطان بالكذب وبي اصغاث احلام فكل ما هو من عند الله فهو حق هذا محصل امر الوحي على الجملة وليعضهم في شرح امر الوحي مسلك آخر وهو ان الوحي هو ارتفاع حجاب الحس لصفة الانبياء بفطرة فطرهم الله عليها وبني على حالة اكمل من حالات سائر المدركين للغيب بمراتب لا تتناهى اذ هو مفارق الظاهر والباطن جميعا وسائر ما يروح من الله في قال فطرته اولا وفي حال ادراكه ثانيا فلا يعتريه منتهى مداركهم وعلامتهم ان توجد لهم في حال الوحي غشية من الحاضرين مع غطيط كانها غشي او اغماء في راي العين ولبث منهم برهة حتى حقيقة اما بي استغراق في لقاء الملك الروحاني اما لادراكه المناسب له الذي لا يعرف كنهه او مشاهدته في صورة شخصية يخاطبه بما جاءه به من عند الله ثم تنجلي عنه تلك الحالة وقد وعى ما القي عليه قال صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن الوحي احيانا يا نبي مثل صلصلة الجرس وهو اشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال واحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فاعي ما يقول وقد يدركه اشد ذلك من الشدة والغطيط ما لا يعتبر عنه ففي الحديث كان مما يعالج من التنزيل شدة وقالت عائشة كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا وقال تعالى انا سنلقي عليك قولا ثقيلا ولهذه الحالة في تنزل الوحي كان المشركون يرمون الانبياء بالجنون ويقولون له رامي او تابع من الجن ومن علامته ايضا ان توجد لهم قبل الوحي حالة الركاد ومحانة المذمومات والرجس اجمع كانه معطور على التنزه عنها والحذر منها وكانها مناسبة لحالة تلك حتى من المستقذرات الحسية فقد كان صلى الله عليه وسلم لا يقرب البصل ولا الثوم وقيل له في ذلك فقال اني اناجي من لا تناجي وانظر لما اجرى صلى الله عليه وسلم خديجة بحال الوحي اول ما فجئه وارادت اختباره فقالت له اجعلني بينك وبين يديك فلما فعل ذلك ذهب عنه فقالت له انه ملك وليس بشيطان ومعناه انه لا يقرب النساء وكذا سالته عن احب الثياب اليه ان ياتيه فيها فقال له البياض والخضرة فقالت انه ملك بمعنى ان

الحمرة والبياض من الوان الحور والملائكة والسواد من الوان البشرة والشياطين وامثال ذلك
واما الرؤيا وهي من خواص البشر ومن اوضح الادلة على وجود الروح المجرد وهي موجودة
فيهم على العموم ولا يخلو عنها احد منهم بل كل واحد من الامانيين فقد رأى في نومه ما صدق له
في يقظته مرارا عديدة وحصل له على القطع ان النفس مدركة للغيب ولا بد واذا جاز ذلك
في عالم النوم فلا يمتنع في غيره من الاحوال لان الذات المدركة واحدة وخواصها موجودة في كل
حال **واما السبب** المختص بالنوم في ارتفاع حجاب الحس فهو ان الروح الحيواني الذي مركزه
في القلب وهو البخار اللطيف المنبعث مع الدم في الشرايانات والعروق الذي يعطي الحس
والحركة ويتعلق به النفس الناطقة من بين المواد الجسمانية فاذا حوى الجسم حال التعب والملال
بكرة السعي والتردد وعشية الليل والبرد طلب الجسم الراحة والسكون والدفء
فيطلبها الروح الحيواني كذلك فينحبس عن الحس الظاهر الذي فيه تعبه وسعيه فاذا انحبس
عن الحس الظاهر رجع الى القوى الباطنة وخفت الشواغل من الحس الظاهر ولم يبق له الا القوى
الباطنة من البدن فتكون حال شواغله اخف فربما التفت لعبته الى عالمه الروحاني مع مشاركة
القوى الباطنة الرديئة لكل لحمتها بحد السبيل الى تلك اللمحة فيدرك من صور الاشياء التي في
عالم الغيب وحصلها وباحدها الخيال كما قلناه اولا وعلة قصورها في القوالب المعهودة
لديه وتصاحبه الى اليقظة فيخبر بها هذا حال النوم وسببه وهو خاصية للنفس الانسانية
في ارتفاع حجاب الحس ثم انا نجد في النوع الانساني اشخاصا يخبرون بالكائنات قبل وقوعها
بطبيعة فيهم تميزوا بها صنفهم عن سائر الناس ولا يرجعون في ذلك الى صناعة ولا استدلوا عليه
بانار من النجوم ولا غيرها انما تجد مدادهم في ذلك بمقتضى جبلتهم وفطرهم التي فطروا عليها
وذلك مثل الكهان والعرافين والناظرين في الاجسام الشفافة كالمرايا وطسوس الماء
والناظرين في قلوب الحيوان واكبادها وعظامها واهل الطرق بالحصا والحبوب من الحنطة والنوا
وهذه كلها موجودة في عالم الانسان لا ينكر احد وجودها ولا انكارها والنفس الانسانية لها ان
تنال من الغيب وذلك انها ذات روحانية موجودة بالقوة من بين سائر الروحانيات وانما
تخرج من القوة الى الفعل بالبدن واحواله وهذا امر مدرك لكل احد وكل ما بالقوة فله مادة
وصورة وصورة هذه النفس التي بها سميت وجودها هي عين الادراك والعقل فهي موجودا ما لا
بالقوة مستعدة للادراك وقبول الصور الكلية والجزئية ثم يتم لها وجودها بالفعل
بمصاحبة البدن وما يعوقها بور ودمدركاته الجزئية المحسوسة عليها وما تتفرع عنها من شدة
الادراكات من المعاني الكلية فتنعقل الصورة مرة بعد اخرى حتى تحصل لها الادراك
والعقل صورة بالفعل فتتم ذاتها ولهذا نجد الصبي في اول نشوه لا يقدر على الادراك
الذي لها من ذاتها لا في نوم ولا يكشف ولا بغيرهما وذلك لان صورتها التي هي عين ذاتها وهي
الادراك والعقل لم تتم بعد بل لم تتم لها انشاء الكليات ثم اذا تمت ذاتها بالفعل
حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الادراك ادراك بالات الجسم تؤديه اليها الحواس

الظاهرة

الظاهر والباطنة وادراك بداياتها من غير واسطة وهي محجوبة عنه بالاثنين في البدن والحواس وشواغلها لان الحواس ابدا جاذبة لها الى الظاهر بما فطرت عليه اولا من الادراك الانساني وربما تعبس عن الظاهر الى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة اما بالخاصية التي هي للانسان على الاطلاق مثل النوم او بالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة والطرق او بالرياضة مثل اهل الكشف والمجاهدة من الصوفية وغيرهم فيلتفت حينئذ الى ذاتها وهي تعقل صرف وادراك محض من غير واسطة الروحانية التي هي عقول بالفعل وفيها صور الموجودات وحقايقها فتتجلى فيها شيء من تلك الصور وتنعكس منها عليها وربما وقعت تلك الصور المدركة الى الخيال فصورته في القوالب المعتادة ثم تراجع الحس بما ادركت اما مجردا او في قوالبه فتخبر به هذا هو الثبت العام في ادراك النفس وقد يكون ذلك بخلق الله تعالى من غير رجوع الى سبب ولا تعلل كما في الوحي

واما الكاهنة

وان كانت طبيعة للصنف الموجودة فيهم فلا تعدل ارتفاع حجاب الحس فيهم لانه بالطبع كما قلناه واما التعلق الذي لملك النفوس مع ابدانها فتعلق ضعيف ومركزه مختل باختلال البنية وكونها على غير المجرى الطبيعي في الغالب فيقوى فيها قوة دون اخرى بحسب المناسبة في التعلقات وهي حقيقة عما وكثيرا ما توجد في المشوهين والناقصين الخلق من الناس ويكون هذه النفوس الكاهنة وطوت صفحيفة وقاصرة عن رتبة الكمال في نوعها يكون ادراكها في الجزئيات اكثر من الكليات لقصورها فتكون كثيرة التشبث بالجزئيات متعاهدة لها غافلة عن الكليات لانها ليست من جنس مدركها لضعفها في اصل فطرتها وهي انما تتعاهد بالادراك ما له اثر في تحصيل صورتها وكمال ذاتها وهي الجزئيات فتكون القوة المتخيلة فيهم في غاية القوة لانها آلة الجزئيات فينقدح فيها بقوة اما ماض حتى يحيط بها في يوم او نقطة ويكون عندها حاضرة عتيدة فاذا توجهت الكاهنة نحو شيء من الجهات احضرته القوة المتخيلة لقوتها ولان الجزئيات صارت له كالمرآة وهو يتطوف فيها دائما على كمالها ولا يقوى على الكمال في ادراك المعقولات لان وجهه من وجهي الشياطين وموكلة راجع الى الوهم والخيال لضعف هذه النفس وترفعها عن رتبة الكمال في حيلتها فكذا ادراكها واما المجانين ايضا فركز النفس فيهم مختل عن مكانه من التعلق وعلى غير النسبة الطبيعية فيه فمزاحمة البدن فاسد في الغالب لضعف الروح الحيواني بما هو منحرف عن طريق مدده الذي هو النفس الناطقة فتكون نفسه غير مستعملة بالحواس ولا متعسفة فيما شغلها في ذاتها من الم النقص ومرضه وربما زاحمها على التعلق به روحانية اخرى شيطانية منتسبة به وتضعف هذه عن ممانعتها فتكون عنه التخبط فاذا اصابه ذلك التخبط اما لفساد مزاجه من فساد مزاج النفس او لمزاحمة من النفوس الشيطانية في هلكته غاب عن حسه جملة فادرك لمحة من عالم نفسه وانطبع فيه بعض الصور وصرفها الخيال كما قلناه وربما نطق على لسانه في تلك الحال من غير ارادة للنطق وادراك هو لا كلام مشوب فيه الحق بالباطل لضعف هذه النفوس في اصل فطرتها فلا تقوى على التجرد عن الجسمانيات بالجملة ولا تزال متشبثة بها فيكون الكثير من ادراكاتها جسمانيا واكثره باطل

واما الناظرون في الاجسام الشفافة من المرايا والطسا وقلوب الحيوان وعظامها واهل
الطرق بالحصا والنوى ورفع حجاب الحس في صنفهم ايضا بالطبع الا انه يحتاج الى المعين والمشيع
فيشتغل الحس الظاهر بتلك الانواع فتحضر ادراكها في جنس واحد ويستعين بذلك على الغيبة عن
الحس بما هو عاكف عن النظر في المحسوس البسيط وربما ظن ان مشاهدة هؤلاء لما يرونه هو في سطح
المرآة وليس كذلك بل الا يرالون ينظرون في سطح المراة الى ان يغيب عن حسهم ويصير ادراكهم
فيما بينهم وبين المرآة لصور تتمثل هنالك وتخيرهم بالاشارة والمثال وقد شاهدنا من هؤلاء
من يشغل الحس بالجوز فقط والعزائم ثم يخبر عما ادرك ويزعمون انهم يرون الصور متحصلة في الهواء
يحكي لهم احوال ما يتوحمون الى ادراكه بالمثال والاشارة وغيبة هؤلاء عن الحس حقيقة والعالم ابو
العزائم **وقد لمحق بهذا الباب** الزجر في الطير وغيره وهو
قوة في النفوس والحدق بعد الفكر فيما دخل فيه من مرئي او مسموع وتكون قوة المتخيلة كما قدمناه
قوية فيبعثها في البحث مستعينا بما رآه او سمعه فيؤديه ذلك الى ادراك ما كما سكه بتفعل القوة
المتخيلة في الوهم عند ركود الحواس بتوسط بين المحسوس المرئي في بقطته وجمعه مع ما عقلته
فتكون عنها الرويا هذا تحصيل هذه الامور وقد تكلم عليها المسعودي في مروج الذهب فاضفناه
تحقيقا ولا اصابه ويظهر من كلام الرجل انه كان بعيدا عن الرسوخ في المعارف فينقل ما
سمع من اهله ومن غير اهله وهذه الادراكات التي ذكرناها موجودة كلها في نوع البشر فقد
كان العرب ينزعون الى الكهان في تعرف الحوادث ويتناقرون اليهم في الخصومات ليعرفوهم
بالحق منها من مدركات غيبهم **وفي كتب الادب** كثير من ذلك واشتهر منهم في الجاهلية
شق من انمار بن نزار وسطيح من مازن بن غسان وكان يدرج كما يدرج الثوب ولا عظم فيه
الا الجمجمة **ومن مشهور الحكايات** عنهما ما رؤيا ربيعة بن نصر وما اخبراه به
من ملك الحبشة لليمن وملك مضر من بعدهم وظهور النبوة المحمدية في قريش **وكذلك**
رؤيا الموبذان التي اولها سطيح لما بعث اليه بها كسرى عند المسح فاخبره بشان النبوة
وخراب ملك فارس وهذه كلها مشهورة **وكذلك العرافون** كان في العرب منهم
كثير وذكروهم في اشعارهم **فقال**

- فقلت لعراف اليمامة داوني ... فانك ان داويتني لطبيب

وقال اخر

- جعلت لعراف اليمامة حكمة ... وعراف نجد ان هما شفياني
- وقالا شفاك الله والله ما لنا ... بما حملت منك الضلوع يدان

اليمامة رياح بن عجلة وعراف نجد الابلق الاسدي والعراف هو الذي يأخذ الامور
بالظن والتخمين والطرق ليس من الجن وكانه يدعي معرفة الغيب **ولما جاء الاسلام**
الى كل ذلك كله ومحا اثاره اذ الوحي هو النوع العظيم الذي خلقها الله في النوع الانساني
لادراك ما وراء الحس وملقيه من الملك المحاول لذلك فاذا ظهر نور حمدت سائر الانوار

الضعيف

الضعيفة شان البرج والدال مع نور الشمس لما كان بينه وبين الوحي مناسبة في معقوليته وتحققه
كالنوم فانه لا يدنيك ادراكه العيني بل يرده النوم قوة الى قوة بما بينهما من المناسبة التي حقيقة عنا
ولا سبيل الى معرفتها الا من قبل الوحي قال صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة جزء من ستة واربعين
جزءا من النبوة وفي رواية ثلاثة واربعين وفي رواية سبعين فدل ذلك على مناسبة بينهما لا يعرف
كميتها الا الله واما علم النوم من هذه الادراكات فانه تنطل وتضمحل عند رسم النبوة ووجود الوحي
وتدنيك كان لم يكن حتى يعود بعد حين من الدهر والسر في ذلك والله اعلم المحافظة على المعجزة وطرق الوحي
ان يكون فيها مطعن للملحدين كما وقع في تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عن الشعر والكتابة واما سائر
ذلك هذه طرق رفع حجاب الحس التي بالخاصية كالنوم وبالفطرة في صنف دون آخر مثل الكهانة
وسائرها وفي النوع الانساني ايضا في رفع هذا الحجاب وجه آخر بالرياضة وهي طريقة الصوفية
وغيرهم يحاولون هذه موتا كبيرا بامانة جميع القوى البدنية ثم محوانا رها التي تلوثها النفس
ثم تعديتها بالذكر لتزداد قوة في نشوئها ومن العلوم على القطع انه اذا زال الموت بالبدن ذهب بالحس وحجابه
واطلعت النفس على ذاتها وعالمها فيحاولون ذلك بالاكتساب ليتبع لهم ما يتبع وتطلع النفس على المغيبات
وهو من باب الكرامات في الصالحين منهم ويسمونه الكشف والمكاشفة وليس ذلك بكبير وان ذهب الى
انكاره بعض الفقهاء فليس من الحق والوجود بشاهد به وقد ثبت في الصحيح ان رسول الله صلى الله على
وسلم قال ان فيكم محدثين وان منهم عمر وللصحابة منه كثير في قول بعضهم يا سارية الجبل وقوله
انما اخاك وغيره على في رسم النوع المشترك الذي ذكرناه هذه اصناف الادراك للغيب
برفع حجاب الحس اذ لا يمكن بدونه وقد يزعم بعض الناس انه يدرك من دون رفع هذا الحجاب ويحاولون
ذلك بوجوه قاصرة عن المطلوب فيه كما بيناه لك **فن الامور** التي استنبطها العامة من
المتأخرين لاستخراج الغيب وتعرف الكائنات صناعة الخط ويسمونه خط الرمل نسبة الى الرمل
التي يضعونه فيها وهو ذلك انهم صيروا من النقط اشكالا ذات اربع مرات تختلف باختلاف مرتبتها
في الزوجية والفردية او استوائها فيهما فكانت ستة عشر شكلا ان كانت ازواجا كلها او افرادا
كلها فشكلان وان كان الفرد فيها في مرتبة واحدة فقط فاربعة اشكال وان كان الفرد في
مرتبتين فستة اشكال وان كان في ثلاث مرات فاربعة اشكال حادث ستة عشر سموها كلها
باسمائها ونوهوا الى السعود والنحوس شان الكواكب وجعلوا لها ستة عشر بيتا طبيعية بزعمهم
وجعلوا لكل شكل بيتا وخطوطا ودلالة على صنف من موجودات عالم العناصر يختص به واستنبطوا
من ذلك فنا حادوا به فن النجامة ونوع قضاياه الا ان احكام النجامة مستندة الى اوضاع
طبيعية فانزعم مطلوبهم وهذه انما مستندها اوضاع حكمية وامور اتفاقية ولا دليل يقوم على
شيء منها **وزعموا** ان اصل ذلك من النبوات القديمة في العالم وربما نسبوه الى ادريس
او ليس صلى الله عليه وسلم شان الصنائع كلها وبحسبون بقوله صلى الله عليه وسلم كان نبي يخط فمن
وافق خطه فذاك فاذا اراد واستخراج مغيب بزعمهم عمدوا الى قرطاس او الى رمل او دقيق
فوضعوا النقط سطورا على عدد المرات الاربعة ثم كروا ذلك اربع مرات ثم يطرحون

النقط ازواجا ويضعون ما بقي من كل سطر زوجا كان او فردا الى مرتبته على الترتيب فيحصل اربعة اشكال يضعونها في سطر متتالية ثم يولدون منها اربعة اشكال اخرى من جانب العرض باعتبار كل مرتبة وما قابلها من الشكل الذي بازائه وما اجتمع منهما من زوج او فرد فتكون نسبة اشكال موضوعة في سطر ثم يولدون من كل شكلين شكلا حتى نسبة ما يجتمع في كل مرتبة من مراتب الشكلين ايضا من زوج او فرد فتكون اربعة اخرى تحتها ثم يولدون من اربعة شكلين كذلك تحتها ثم من الشكلين شكلا كذلك تحتها ثم من هذا الشكل الاخير مع الشكل الاول شكلا اخر يكون احد عشر ثم يحكمون على الخط كله بما اقتضت اشكاله من السعود والنحوسة والمطر والحلول والامتزاج والدلالة على اصناف الموجودات وسائر ذلك كما عرفت وكثرت هذه الصناعة في العمران ووضعت فيها التآليف واشتهر فيها الاعلام من المتقدمين والمتاخرين وهي كما رأيت بحكم وهوى والتحقيق الذي ينبغي ان يكون نصب فكرك ان الغيوب لا تدرك بامر وضعي البتة ولا سبيل الى تعرفها الا للخواص من البشر المفطورين على الرجوع عن عالم الحس الى عالم الروح ولذلك ليس المحمودون اهل هذا الصنف بالوهريين لنسبة الى ما تقتضيه دلالة الزهرة بزعمهم في اصل مواليدهم على ادراك الغيب فالخط وغيره ان كان الناظر فيه من اهل هذه الخاصية وقصد بالامور التي ينظر فيها من النقط او العظام او غيرها استعمال الحواس فترجع النفس الى عالم الروحانيات لحظة ما فهو من باب الطرق بالحصا والنظر في قلوب الحيوان والمرايا الشفافة كما ذكرناه وان لم يكن ذلك وانما قصد معرفة الغيب بهذه الصناعة وانها تفيده ذلك فهذر من القول والعمل والله يهدي من يشاء والعلامة لهذه الفطرة التي فطر الله عليها اهل هذا الادراك الغيبي انهم عند توجههم الى تعرف الكائنات لعثورهم خروج عن حالتهم الطبيعية كالثوب والتمطط ومباديء العينة عن الحس ويختلف ذلك بالقوة والضعف على اختلاف وجوده فيهم فمن لم توجد له هذه العلامة فليس من ادراك الغيب في شيء والله علام الغيوب

ومن الغرائب التي اشتهرت ايضا بين الناس لهذه العصور في استخراج الغيوب في زعم القائمة الحساب الذي يسمونه حساب الاسم وهو مذكور في اخر كتاب السياسة المنسوب لارسطو وهو لمعرفة الغالب من المغلوب في المحاربين من الملوك وهو ان يحسب الحروف التي في اسم احدهما بالحساب المتعارف عليه في حروف ابجد من الواحد الى الالف احادا وعشرات ومئين والوفا فاذا احصيت اسمه وحصل لك منه عدد حسب اسم الاخر كذلك ثم اطرح كل واحد منهما لتسعة واحفظ بقية هذا وبقية هذا ثم انظر بين العددين الباقيين من حساب الاسمين فان كان العددان مختلفين في الكمية وكانا وترين معا او فردين معا فصاحب الاقل منهما هو الغالب وان كان احدهما وترا والاخر فردا فصاحب الاكثر هو الغالب وان كانا متساويين في الكمية وهما معا وتران فالمطلوب هو الغالب وان كانا معا فردين فالطالب هو الغالب ويقولون بيتين يتضمنان هذا الحكم مشهورين بين الناس وهما

- اذا الوتر والافراد لسموا قلها ● واكثرها عند التخالف غالب
- ويغلب مطلوب اذا الوتر ساوى ● وعند استواء الفرد يغلب طالب

واستخرجوا المعرفة ما بقي من الحروف بعد طرحها بالتسعة قانونا معروفا عندهم وذلك انهم جمعوا الحروف الدالة على الواحد في المراتب الاربع وهي الف الدالة على الواحد وهي التاسعة الدالة على

العشرة لانها واحد في مرتبة العشرات و ق الدالة على الحال لانها واحد في مرتبة المئين و ر الدالة على الالف لانها واحد في مرتبة الالوف وليس بعد الالف عدد يدل عليه بالحروف لان الستين آخر حروف أبجد ثم ثنوا من الحروف الاربع على نسق المراتب فصارت منها كلمة رباعية وهي **اقيش** ثم فعلوا كذلك بالحروف الدالة على الاثنين في المراتب الثلاث واستطوا مرتبة الالوف من الاثنين لتعاد حروف أبجد كما قلناه فكان مجموع حروف الاثنين في المراتب الثلاث ثلاثة حروف وهي **ب** الدالة على الاثنين في الآحاد و **ك** الدالة على الاثنين في العشرات وهي عشرون و **ل** الدالة على الاثنين في مراتب المئين وهي مائتان وصيروها كلمة واحدة ثلاثية على نسق المراتب وهي **بكر** ثم فعلوا كذلك في الحروف الدالة على الثلاث فتشأت منها لفظ **جلس** وكذلك الى آخر حروف ابجد وصارت تسع كلمات نهاية عدد الآحاد وهي **اقيش. بكر. جلس. دمت. هنث. وضخ. زعذ. حفظ. طضغ.** مرتبة على توالي الاعداد ولكل كلمة منها عددها الذي في مرتبته فالواحد لكلمة اقيش والاثنان لكلمة بكر والثلاثة لكلمة جلس وكذلك الى التاسعة التي هي طضغ فتكون لها التسعة فاذا اردوا طرح الاسم تسعة طرحوا كل حرف منه في اي كلمة هو من هذه الكلمات واخذوا عددها مكانه ثم جمعوا الاعداد التي باحاد ونقصا بدلا من حروف ذلك الاسم فان كانت زائدة على التسعة اخذوا ما فضل عنها والا اخذوه كما هو ثم يفعلون كذلك بالاسم الآخر ويقابلون بين الخارجين بما قدمناه والباقي في هذا القانون بين وذلك ان الباقي من كل عدد من عقود الاعداد يطرح تسعة اما هو واحد فكانه لجمع عدد العقود خاصة من كل مرتبة فصارت اعداد العقود كلها كاحاد فلا فرق بين الاثنين والعشرين او المئتين او الالفين وكذلك اثنان وكذلك الثلاث والثلاثون والثلثمايه والثلاثة آلاف انما هي كلها ثلاثة ثلاثة فوضعت الاعداد على التوالي دالة على اعداد العقود لا غير وجعلت الحروف الدالة على اصناف العقود في كل كلمة من الآحاد والعشرات والمئين وصار عدد الكلمة الموضوع عليها ناشيا عن كل حرف فيها سواء دل على الآحاد والعشرات او المئين فوجد عدد كل كلمة معوضا من الحروف التي فيها وجمع كلها الى آخرها كما قلناه هذا هو العمل المتداول بين الناس منذ الامر القديم وكان من لقيناه من شيوخنا يرون انه ليس بصحيح ويفعلون عوض هذه الكلمات كلمات اخر تسعة على توالي الاعداد كما كانت هذه ويفعلون بها في الطرح بتسعة مثل ما يفعلون بالكلمات الاخر سواء وهي **ارث يسقك. حزلط مدوص هغف تحذن عشق خمغ نقظ** تسع كلمات فيها الثلاثي وفيها الرباعي وفيها الثنائي وهي كما تراه غير منتظمة ولا جارية على اصل فيما فهمناه ولكن كان شيوخنا ينقلونها عن شيخ المغرب في هذه المعارف من التسيما واسرار الحروف **مو** البحامة وسمعوا ابو العباس بن البنا ويقولون عنه ان العمل بهذه الكلمات في طرح حساب اليم اصح من العمل بكلمات اقيش وهذه كلها مدارك للغيب غير مستندة الى برهان ولا تحقيق والكتاب الذي وجدوها فيه حساب اليم غير معزو الى ارسطو عند المحققين لما فيه من الاراء البعيدة عن مناهج الحق والبرهان **ويستدل** بذلك بصلحة ان كنت من اهل الرسوخ **ومما يتداول** الناس قانونا لاستخراج الغيوب الزايرجة المسماة بزايرجة العالم المعزوة الى احمد البوني من اعلام المتصوفة بالمغرب في المائة السادسة وهي زايرجة

ول

عطيه فى داخلها ذوات سموتها وازيه فمنها دوائر للافلاك وللعناصر وللمكونات وللروحانيات ولغير ذلك
من اصناف الموجودات كل فى موضعه وكل دائرة مقسومة باقسام فلكها اما البروج فاما العناصر
او غيرها وخطوط كل قسم مادة الى المركز وسموتها الاوتار وعلى كل ذى حروف متتابعه واعداد
مرسومه برسوم الزمام واخرى برسوم الغبار متناسقه كلها مع تلك الحروف وفى داخلها ومن الدوائر
اسماء العلوم ومواضع الاكوان وعلى ظهر الدائرة جدول متكئ البيوت المتقاطعه طولا وعرضا
يشتمل على خمس وخمسين بيتا فى العرض وماية وخمس وثلاثين فى الطول جوانبه معمورة فسوتها
بالعدد وتارة بالحروف وجوانبه خاليه ولا علم لنسبة تلك الاعداد فى اوضاعها ولا لنسبة
البيوت العامرة من الخالية وحصل فى الدائرة ايات من عروض الكامل على روى اللام المنصوبة بعض
صور العمل فى استخلاص المطلوب من تلك الدائرة الا انها مستعجمة غير جليه فاذا اراد واستخراج
الجواب عما يسالون منه احضروا اله الاضطراب لاحد الارتفاع واستخراج الطالع فاذا علموا درجة من
البرج احضروا واحدا من ذلك البرج فى تلك الدائرة ويسمون سلطان الطالع ثم اخذوا ما على
الوتر الذى اكتنف برج الطالع من اول من الحروف ومن الاعداد ويصيرونها ايضا حروفا
وقد يجعلون احادها الى العشرات وعشراتها الى المئين على ما اقتضاه قانونهم ثم ياخذون حروف
السؤال منقطعة ويعزلون الطالع من حروف البرج الذى يسمونه سلطان الطالع ويعزلون ايضا
من الاسم الاكبر ويسمونه الدور الاصلى ويدخلون مما اجتمع لهم على مقتضى القانون فى سوت
الجدول على نسبة عملية يقابلون ما يخرج لهم من ذلك بحروف بيت واحد من تلك القصيدة • وهو

قوله

سؤال عظيم الخلق حرف فصن اذا • غرائب شك ضبطه الحد مثلا •

ويقولون تلك الحروف ثم يستخرجون منها حروفا اخرى بصناعة يسمونها التكسير يعدون عددا واحدا من
ما بعد نهايته من الحروف على نسب قانونية معروفة عندهم فيستخرجون بذلك العمل حروفا كثيرة يضعونها
باجنبه ثم يعيدون تلك الحروف ايضا بعدد معلوم عندهم وحيث ما نفد اعدوا الحروف الذى ينتهى اليه
واخرجوه باجنبه الى ان تفرغ تلك الحروف الاولى ويخرج منها بذلك العدد حروف اخرى يعملون فيها بعدد
امثل ما فعلوا فى الاولى يعملون ذلك مرات معدودة عندهم يسمونها الادوار يخرج لهم
اعداد متوالية منقطعه فاذا التقت خرجت منها كلمات منظومة فى بيت واحد على الوزن والروى الذى
لابيات القصيدة المرسومة مع الجدول وقد يزعم بعضهم انه يخرج منها ابيات اكثر من واحد وعلى
اعاريض اخرى ولهم بيت متداول بينهم يزعمون انه يخرج فى الجواب عن سؤال مل العمل بتلك الدائرة صحيح
ام لا •

وهو

• روح روح القدس ابرز سرها • وزين فاسرى بها مرتقى العلا •

ولا بد عندهم لمن احكم العمل بهذا القانون ان يخرج له الجواب عن سؤاله منظوما
مفهوما وقد يكون مستعلما عن الفهم لقصور الملكة فى العمل بذلك القانون • وقد
• وقع الينا الكثير ممن يستخرج اجوبة المسائل منها •

فنعضهم

فبعضهم يستخرج بيتا واحدا على روي القصيدة بعينها وبعضهم يستخرج اكثر من بيت وبيتين
وثلثة وارابعة ونقل لنا ان بالمشرق من يستخرج منها الخواتيم نظوما في كل بحر وعلى
كل روي والله اعلم ونحن الان نتقل الى ما به تكتوبه من اصل بغلت على
الظن صحته ولسنا من عهدة الصحة في شيء اذ لم يصح لنا الرواية فيها عن احد من المشيخة ولكنا
نحرر فيها الصحيح منها بحسب الجهد واذا فرغنا من نقلها فنذكر كيفية العمل بها على
ما اتاني الينا ممن لقيناه من القايمين
عليها

٦٠

شبكة الألوكة
www.alukah.net

كيفية العمل في استخراج اجوبة المسائل

من زيرجة العالم بحول الله

السؤال لمن يمح ٥ عدة الدرج وتختلف الاجوبة عن سؤال واحد في طالع مخصوص باختلاف الاسئلة
المضافة الى حروف الاوتاد ويناسب العمل من استخراج الاحرف من بيت القصيدة تنبيه تركيب حروف الاوتاد
والجدول على ثلاث اصول حروف عربية تنقل على هيأتها وحروف رسم الغبار هذه حروف تتبدل
فمنها ما ينقل على هيئته متى لم ترد الادوار عن اربعة فان زاد عن اربعة نقلت الى المرتبة الثانية من مرتبة
العشرات وكذلك لمرتبة المئين على حسب العمل فاسيتنه ٥ ومنها حروف رسم الزمام كذلك غير انه رسم الزمام
يعطى لسنة ثمانية متى يمر له واحد الف ويمر له عشره ولها بسنة من خمسة بالعربي فاستحق
البيت من الجدول ان يوضع فيه ثلاثة حروف وهذا الرسم وحرفين في الرسم فاختصروا
من الجدول لبيوت حالية فمنها كانت اصول الادوار زايده على عم حسبت في العدد في طول الجدول وان لم
تزد عن اربعة حسب الا العام منها ٥ والعمل في السؤال يفتقر الى سبع اصول عدة حروف الاوتاد
وحفظ ادوارها بعد طرحها ٢ او بنى ٥ ادوار في الكامل و د في الناقص ابدا او معرفة درج الطالع
وسلطان البرج والدور الاكبر الاصلي وهو واحد ابدا وما يخرج من اضافة الطالع للدور الاصلي وما
يخرج من ضرب الطالع والدور في سلطان البرج واضافة سلطان البرج للطالع والعمل جميعه يتتبع
على ثلاثة ادوار مضروبة في عم نكن اثنى عشر دورا ونسبة هذه الثلاثة ادوار الى كل دور من اربعة
الشانات ثلاثة كل ستاة لها ابدا ثم انها تضرب ادوارا رباعية في مح يكون دورات ايضا ثلاثية
ثم انها من ضرب ٦ في ح فكان لها ستاة ابدا ان يظهر ذلك في العمل وسبع بعد الادوار الاثنى عشر
تتابع وبي لغاية الادوار اما ان تكون تتمة او اكثر الى ٥ فاول ذلك نعرض سؤالا عن الزايرجة
كل بي علم محدث او قدم بطالع اول درج من القوس فوضعنا حروف وسر راس القوس وتطرح
من راس الجوزا وقابله وسر راس الدلو الى حد المركز واضفنا اليه حروف السؤال وظر ما عدتها واقل
ما يكون عم واكثر ما يكون ٦ ٥ ٠ وهو جملة دور صحيح فكانت في سؤالنا ٤ و وتختصر السؤال
ان زاد عن ٦ ٥ ٠ ثم سقط جميع ادواره وتحفظ ما خرج منها وما بقي فكانت في سؤالنا و ادوار
والباقي و انبها في الحروف ما لم يبلغ الطالع اثنى عشر درج فان بلغها لم تثبت لها عدة ولا دور رسم
تثبت اعدادها ايضا ان زاد الطالع عم ٢ في الوجه الثالث ثم ثبت الطالع وهو ١ وسلطان
الطالع وهو ٣ والدور الاكبر وهو ١ واجمع ما بين الطالع والدور وهو ٢ في هذا السؤال واضرب
ما خرج منهما في سلطان البرج يبلغ ٩ واضف السلطان للطالع يكون ٦ فهذه و اصول
فما خرج من ضرب الطالع والدور الاكبر في سلطان القوس مما لم يبلغ ١٢ فيه تدخل في ضلع ٥
من اسفل الجدول صاعدا وان زاد على ١٢ طرح ادوارا وتدخل ما بقي في ضلع ٩ وتعلم على منتهى
العدد والخمسة المستخرجة من السلطان والطالع يكون الدخل في ضلع السطح المتوسط الاعلى وتعد
متواليا عساك ادوارا وتحفظها الى ان تقف العدد في مقابلة البيوت العامرة من الجدول

وان

وان وقف فيما يقابله الخالي من بيوت الجدول على اصرة فلا يعتبر ويسمر على ادراج على حرف من
ه وهي الف او با او جيم او زاي فوضع العمل في العدد في عملنا على حرف الف وعلف بطنه ادواد
فضربنا ح في ح كانت و وهو عدد الدور الاول فانبتنه واجمع ما بين الضلعين القايم والمبسوط
يكن في بيت ط في سقايلة البيوت العامرة بالعدد من الجدول وادخل بعدد ما في الدور الاول
وذلك في صدر الجدول مما يلي البيت الذي اجتمعا فيه مارا الى جهة البياض وهو ه فوقع على حرف
لام الف ولا يخرج منها ابدا حرف مركب وانما هو اذن حرف تا اربعمايه برسم الزمام تعلم عليها بعد تعلمها
من بيت القصيد واجمع عدد الدور للسلطان يبلغ ح ا ادخل بها في حروف الاوتار واثبت ما وقع
عليه العدد وعلم عليه من بيت القصيد ه ومن هذا القانون تدري كم تدور الحروف في النظم
الطبيعي وذلك انك تجمع حرف الدور الاول وهو و لسلطان البرج وهو ح يبلغ ح ا اضعفها
مثلها يكن ح ب اسقط منه درج الطابع وذلك واحد في هذا السوال الباقي ح ب فعلى ذلك
يكون نظم الحروف الاول ثم اطرح ح ح مرتين ثم ح ب مرتين على حسب هذا الطرح الى ان
ينتهي للواحد من اخر البيت المنظوم ه ولا تقف على ا في الطرح ذلك الواحد اولا ثم ضع الدور
الثاني وضع حروف الدور الاول الى ط الخارجة من ضرب الطابع والدور في السلطان يكن
و ا الباقي ح ا واسقط في صلع ه خمسة من حيث انتهت في الدور الاول وعلم عليه وادخل في
صدر الجدول بسبعة عشر ثم خمسة ولا تعد الخالي والدور عشرين ه فوجدنا حرف تا خمسمايه
وانما هو نون لان دورنا في مرتبة العشرات فكانت الخمسمايه خمسين لان دورها و ا ولو كان
و ح لكان مئتين فانبت نون ثم ادخل خمسة ايضا من اوله وانظر ما حاذى ذلك من
السطح بحد واحد فقم العدد واحد يبقى على ح اضف لها واحدا تسطح يكون ك انبت واو وعلم
عليها من بيت القصيد ه وضعها للثمانية الخارجة من ضرب الطابع مع الدور في السلطان
يبلغ ح ا ضعف لها الباقي من الدور الثاني وهو ح يبلغ و ا وهو بالدور الثاني فدخلنا خمسة
عشر في حروف الاوتار فوقع العدد على واحد انبت الف وعلم عليها من بيت القصيد واسقط من
حروف الاوتار ثلاثة حروف عدة الخارجة من الدور الثاني وضع الدور الثالث وضعف
ح الباقي يكون ح ا الباقي ا مثل الدور في صلع ح بواحد وادخل في بيت القصيد
ثلاثة عشر واحد ما وقع عليه العدد وهو ق وعلم عليه وادخل ثلاثة عشر في حروف
الاوتار واثبت ما خرج وهو س وعلم عليه من بيت القصيد ثم ادخل مما يلي السين الخارجة بالباقي
من دور ح آ وذلك واحد فخذ ما يلي حرف سين من الاوتار وكان ب انبتها وعلم عليها من
بيت القصيد وهذا ينال له الدور المعطوف وسيرانه صحيح وهو ان تضعف ح ا مثلها وتضعف
اليها الواحد الباقي من الدور يبلغ و ا وهو حرف با المستخرج من الاوتار من بيت القصيد
وادخل في صدر الجدول ثلاثة عشر وانظر ما قابله من السطح واضعفه مثله ورد عليه الواحد
الباقي من ح ا فكان حرف جيم فكانت الجملة و وذلك حرف زاي فانبتناه وعلمنا عليه من
بيت القصيد وغيرانه ان يضعف و مثلها ورد عليها الواحد الباقي من ح ا يكون ا ب وهو

الخامس عشر من بيت القصيد وهذا اخر ادوار الثلاثيات وضع الدور الرابع وله من العدد و باضافة
الثاني من الدور السابق فاضرب الطالع مع الدور في السلطان وهذا الدور اخي العمل في
الملك العمت الاول من الرباعيات فاضرب على حرفين من الاوتار واصعد و فضلع ط وادخل
و من دور الحرف الذي احدثه اخر من بيت القصيد فالتابع حرف ر فاثبته وعلم عليه وادخل
في صدر الجدول بتسعة وانظر ما قابلها من السطح يكن جسم فتمم العدد واحد يكون الف وموالي
من حرف الراء من بيت القصد فاثبته وعلم عليه وعدما يليه ويكون الف ايضا اثبته وعلم
عليه واضرب على حرف من الاوتار واضعف وبمثلها يبلغ ك ا وادخل بها في حروف الاوتار
تقف على حرف ر اثبته وعلم عليها من بيت القصيد ك ع وادخل ك ا ايضا في حروف الاوتار
وتقف على س اثبتها عليها وعلم ح وضعف ح اي و يكن ا ا ادخل في صدر الجدول ا ا مقابلها
من السطح الف اثبتها وعلم عليها ح وضع الدور الخامس وعدد ر ا الثاني ح اصعد ح
في ضلع ط واضرب على حرفين من الاوتار واضعف خمسة بمثلها وضعفها ر ا عدد دور الجملة
و ادخل بها في حروف الاوتار فيقع على ت اثبتها وعلم عليها ح ع واطرح من ر ا
التي في اس ح ع الباقي ا ا ادخل بها في حروف الاوتار تقف على ق اثبتها وعلم عليها
ك ع وادخل في صدر الجدول ا ح تقف على ح العاشر وذلك حرفا اثبته وعلم عليه
ع ط واضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور السادس وعدده ح ا الثاني عند ا ستين
اذا ذاك ان دور النظم من ح ط فان الادوار ا ق و ر ا و ح ا و ح ا
واحد فاضرب ا في ح يكن ح ط وهو الدور في نظم البيت فاعمل الدور في ضلع ط
واحد ولكل لو يدخلوا في بيت القصيد ح ا فما ودعنا لاجله دورتان من ثمانية تركيبة
ثابته على اضعفنا الاربعة التي من ح ط الخارجة على حرفين من بيت القصيد الى الواحد يكون
ط ضعف ا الى ح التي للدور يبلغ ح ا ا ادخل في صدر الجدول ا ح وحرفا ثابتها
من السطح وموالي اثبته وعلم عليه من بيت القصيد ح ا واضرب على حرفين من الاوتار ومن
هذا الحد سطوا حرف التوالي فاخرج مقاربه مع بيت القصيد من اخر وعلم عليه
من حرف ف التوالي ليكون داخلا في العدد في بيت القصيد وكذلك تفعل بكل حرف
خرج بعد ذلك مناسب حروف التوالي ثم ضعف الى ح ا اما علمه على حرف الالف من الاحاد
وكان حرف ر اح يبلغ الجملة ح ا ادخل بها في حروف الاوتار تقف على ح ا اثبته وعلم
عليه من بيت القصيد ح و وهو نهاية الدور في الحرف الوسطى فاضرب على حرفين من
الاوتار وضع الدور التابع وهو ابتداء المخترع بان ينتهي من اخر اعين وهذا الدور من
العدد و يقف لها واحد اس للسادة الثانية وهذا الواحد يزيده الى ح ا دورا ذا
كان من هذه السنة او تنقصه من الاصل يبلغ الجملة ا ه واصعد في ضلع ح و وادخل في صدر
الجدول ه ا يقف على ح ا ه واني ح ا ه بون مضاعفه مثلها وسلك ق
فاثبتها وعلم عليها من بيت القصيد في ح واسقط من ح ح واسقط ق التي للدور

البقية

الباقي ك ٢٤ وادخل بها في حروف الاوتار يقف على واحد اثنتين وكذلك ادخل بها في بيت القصيد
تجد واحد فقد اميزان هذه السادة الثانية تعلم عليه من بيت القصيد علامتين علامة في الالف
الاخير المراني واحزي على الالف الاول فقط والثانية ٤ ٢ واضرب في حرفين من الاوتار
وضع الدور الثامن وعدده و ا الباقي ٦ ادخل في ضلع ٦ ٢ وادخل في بيت القصيد ٦ تقع على
ع ٥ و اثنتا وعلم عليها وادخل في الجدول خمسة وعد ما قابلها من السطح وذلك ا اثنتا
وعلم عليه من البيت ٢ ٤ واسقط اس ٢ ٤ للاس الثاني وضع لها الدور الحادي ١٩ ادخل
بها في صدر الجدول تقف على حرف ٢ عبارته وبي مرتبة يثنيه لتر آبدا لعدد فيكون ٢ ٥ ٥
و ا اثنتا وعلم عليها من بيت القصيد ٤ ٢ فاسقط الاس ٢ و الى الابتداء وهو ٤ ٢ فضف
الى ٤ ٢ ٦ الدور واسقط ا تكون الجملة ٢ ٢ ادخل بالنصف منها في بيت القصيد تقعه على
ح اثنتا ٢ وعلم عليها وضع الدور التاسع وعدده ٢ ا الباقي واحد اصعد في ضلع ح
بواحد وليست بسنة لعمل عما كنبتها في الدور السادس لتضاعف العدد ولانه من النساء الثانية
ولانه اول الثلث الثالث من مرتبات البروج وآخر السنة الرابعة من المثلثات فاضرب ٢ ا
التي للدور في ٤ التي مثلثات البروج السابعة الجملة في ٦ ادخل بها في صدر الجدول
تقف على حرف ٢ عبارته وبي مثنيه نجاورها في العدد عن مرتبتي الاحاد والعشرات
فاثبت ٢ ٥ ٥ وعلم عليها من بيت القصيد ح ٤ وضع الدور واحد الاس
وادخل ١٤ في بيت القصيد تبلغ ٢ فعلم عليها ح ٢ واطرح من ١٤ ٤ الباقي ٢
اضرب على حرفين من الاوتار وادخل و تقف على حرف لام اثبته وعلم عليه من البيت وضع الدور
العاشر وعدده ق وهذا ابتداء المثلثة الرابعة واصعد في ضلع ح بسبعة تكون خلا فاصعد
بسبعة ثانية لتصير في البابع من الابتداء اضرب و في ٤ لصعودنا بشعتين وانما كانت تضرب
في ٢ وادخل في الجدول ٢ ح تقف على ٤ زمامية وبي عشرية فاحدنا ما احاديه
لعلة الادوار فاثبت ذلك وان اضفت الى ٢ ح واحد الاس كان صدا من بيت القصيد تعلم
عليها ولو دخلت بسبعة ثانية من غير ضرب في صدر الجدول لوقف على ح فاطرح من ح ٤
الباقي ٤ وهو المقصود ولو دخلت في صدر الجدول لح التي و في ٢ لوقف على واحد
زمامي وهو عشري فاطرح منه ٢ تكرار و الباقي ح نضعها المطلوب ولو دخل في صدر الجدول
و ٢ مزيقا في ح لوقف على ١٠ زمامية والعمل واحد ادخل ق في بيت القصيد واثبت
ما خرج وهو ا ثم اضرب ق ٢ ٢ التي مركب و الماضية واسقط واحدا وادخل في
صدر الجدول ٢ ح واثبت ما خرج وهو ٥ ٥ في ا وعلم عليه من بيت القصيد ٦ و واضرب
على حرفين من الاوتار وضع الدور الحادي عشر وله و ا الباقي ٦ اصعد في ضلع ح خمسة
وتحيت ما تكرر عليه المثنى في الدور الاول وادخل في صدر الجدول ٦ تقف على خلا
فخذ ما قابلها من السطح وهو واحد فادخل بواحد في بيت القصيد يكون س اثنتا وعلم عليه
ع ولو كان الوقوف في الجدول على بيت عامر لاسيما الواحد واضعف و ا بمثلها

واسقط واحد وردها و بلغ و فح ادخل بها فى الاوتار تقف على ه آ انبتها وعلم عليها ب بمثلها
وادخل فى البيت تقف على ل انبتها وعلم عليها ه ح واضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور
ح ا وله فى ا الباقى ا اصعد فى ضلع ط بواحد وهذا الدور اخر الادوار واخر الاحراس
واخر المربعات الثلاثية واخر المثلثات الرباعية فالواحد فى صدر الجدول يقع على ه ط زمامية
وامامى احاد ط وليس معنا من الادوار الاواحد فلو زاد عن اربعة من مربعات ح ا او فى
من مثلثات ح ا لكانت ح وامامى دال فانبتها وعلم عليها من بيت القصيد ع و ثم انظر ما
ناسبها من السطح ركن ع ا ضعفها مثلثا للاس يبلغ ي آ انبت ى وعلم عليها وانظر فى اى المراتب
وقعت وجدناها فى السابعة فدخلنا سبعة فى حروف الاوتار وهذا المدخل يسمى التوليد
الحرفى فكانت ف ا انبتها وصفها لى و واحد الدور الجملة ط ادخل بها فى الاوتار يبلغ س
انبتها وعلم عليها ط واضرب ط فى ف الزايدة على عشرة الدور فاخر مربعات الادوار يبلغ
يبلغ ع ح ادخل بها فى بيت القصيد وعلم على ما يخرج منها وهو ه ح وعلامتها ز و وهو
نهاية الدور الثانى فى الادوار الحرفية واضرب على حرفين من الاوتار وضع النتيجة الاولى ولها
ى وهذا العدد يناسب ابدا الباقى من حروف الاوتار بعد طرحها ادوارا وذلك و فاضرب
و فى ح التى زايدة على ه و من حروف الاوتار وصفها واحد الباقى من الدور الثانى
عشر يبلغ ط ح فادخل بها فى حروف الاوتار يبلغ الف انبته وعلم عليه ز و وان ضربت
و التى فى ادوار الحروف التسعينية فى ع وهى الثلاثة الزايدة على ه و والواحد الباقى
من الدور الثانى عشر كما ركذلك واصعد فى ضلع ط بتسعة وادخل فى الجدول و يبلغ اثنين
وثمانية واضرب و فيما ناسب من السطح وذلك ح وصف ذلك و عدد الادوار الحرفية واطرح
واحد الباقى من دور ح ا يبلغ ح ح ادخل بها فى البيت يبلغ ع ه فانبتها واضعف
و بمثلها وادخل فى صدر الجدول ح ا واحدا فى السطوح وهو ا ادخل به فى حروف الاوتار
يبلغ م انبته وعلم عليه واضرب على حرفين من الاوتار وضع النتيجة الثانية ولها ا الباقى
ح فاصعد فى ضلع ح ح واضرب ع فى ح الزايدة على ه و يبلغ ع اضف لها واحد
الباقى من الدور الثانى عشر يكن ف وادخل ز ا فى البيت يقع ما انبته وعلم عليه ع آ وصف
الى ح الثلاثة الزايدة على ه و ورد واحد الباقى من الدور الثانى عشر يكن ا ادخلها فى صدر
الجدول يبلغ بثلاثين زمامية وانظر ما فى السطح بحذ واحد انبته وعلم عليه من بيت القصيد
وهو التاسع ايضا من البيت وادخل بتسعة فى صدر الجدول تقف على ه ح وهو عشرات
وانبت ل م وعلم عليه وضع النتيجة الثالثة وعددها ح ا الباقى واحد فانتقل به فى ضلع ط
بواحد وصف الى ح ا الثلاثة الزايدة ه و فما واحدا الباقى من الدور الثانى عشر يبلغ
ا وواحد النتيجة يكن ط ا ادخلها فى حروف الاوتار يكن لام انبتها ب هذا

آخر العمل

شبكة الألوكة www.alukah.net

المثال في هذا السؤال

السابق اردنا ان نعلم هل هذه الزيرجة علم محدث او قديم نطالع اول درج من القوس اثبت حروف الاوتار
اي الحروف المكتوبة بازاء كل برج على وتره من حروف السؤال ثم الاصول وبقية الحروف فج ف اه وارها
و الباقي هنا ف الطالع ا سلطان القوس ع الدور الاكبر آ درج الطالع مع الدور ح ضرب الطالع
مع الدور و السلطان ع اضافة السلطان للطالع ٦ بيت العقيد

سؤال عظيم الخلق حرت فضن اذا ٭ عزايت مثله صبطه الجد مثلا ٭

حروف الاوتار

ح ع ا ط ه ن ث ك ه م ض ص و ن ث ه س ا ب ل م ن س ع ف
ض ق ت ر س ى ك ل م ن ص ع ف ق د س ت ث خ ذ
ظ غ ش ط ك ن ع ح ص ز و ح ل ص ك ل م ر ث ص ا ب
ج د ه و ر ح ط ى السؤال الذي رجوت ع ل م م ح د ث
ا م ق د ى م

الدور الاول	الدور الحادي عشر
و	وا
الدور الثاني	الباقي
الباقي وا	٦
الدور الثالث	الدور الثاني عشر
فج آ	فج ا
الثاني	الثاني
د	ر
الدور الرابع	النتيجة الاولى
ق	و
الدور الخامس	النتيجة الثانية
وا	وا
الدور السادس	النتيجة الثالثة
فج ا	آ
الدور السابع	
و	

والله اعلم

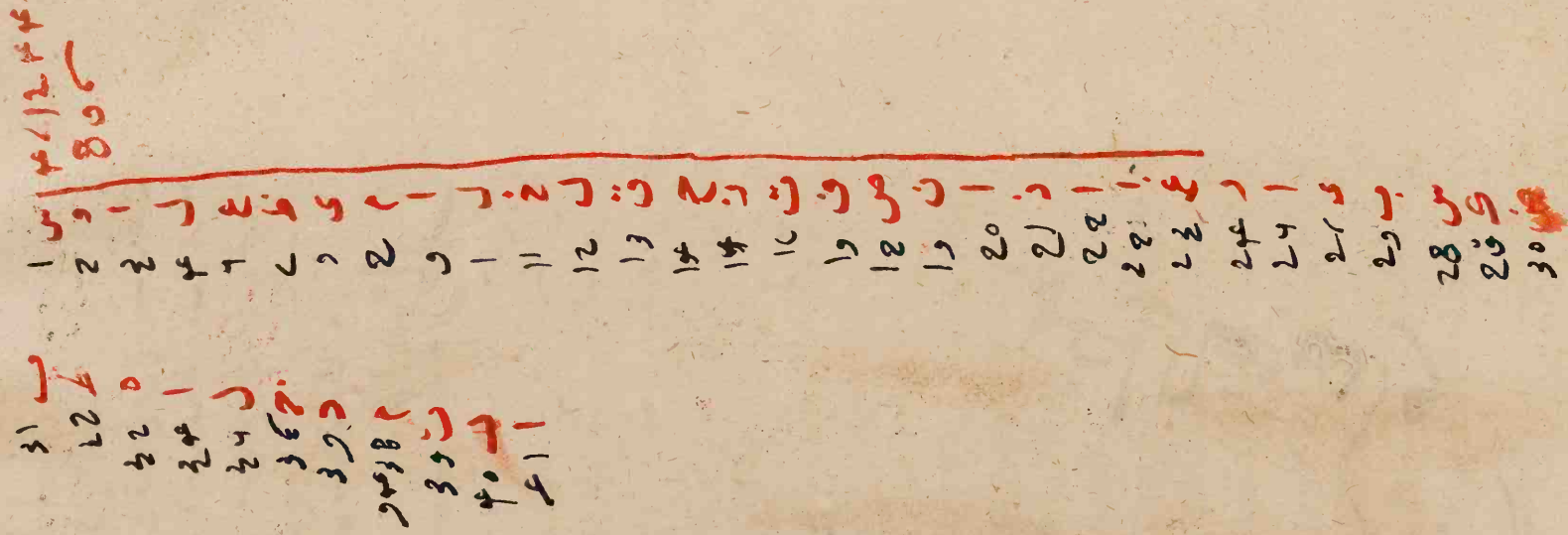

ت و ن ا ق س ب ز ر ا ا ر س ا ت ق ب ا ر ق ا ع ا ر م ه ر ج ل د ا ر س ه ل د
ه ف س ر ا ه م ق ا ل ل

تروحن روح القدس ابو زيدها • لادرس فاسترقيها مدنقى العلا •
اذا السابع الاعلى تقدم بيته • على ربته عنها فصح له الو ٧ •

• الى القرب تثنية عزيه جده • ليدرك محمدا امنه قد تسهلا •
• شفيعا امام يسرى اياه • على حكم ضوء قصده قد تكملا •

دورا على ٦ فى ٣ على ٤ فى مربتين ثم على ٢ ٢ مربتين ثم على ٤ مربتين الى ان
ينتهى الواحد من اخر البيت وتسد الحروف جميعها والله اعلم ١

ت روح ب روح الق د س اب ر ز س ره ا
ل د ا و د ف ا س ت ذ ق ى ب ه ا م ر ت
ق ا ل ع ل ا

وهى من الاعمال الغريبة

فى استخراج الاجوبة وبعض الحواص مولعون بها منهم لكون فى احكام العمل بقانونها يعتقدون
استخراج الغيوب بذلك القانون وعمله وهم فى ذلك على خطا مبين واخرون مدلعون
لانكارها يزعمون ان العمل بقانونها غير صحيح فى نفسه وانه من الحيل ظنا منهم ان صاحب ذلك
العمل يعد البيت منظوما ويخبر به جوابا عن السؤال فيطربه الاستغراب كل مطارد ليس
ذلك ايضا بصحيح • فاما انه قانون يستخرج به الجواب عن السؤال — فامر بين يظهر لك من صورة
العمل اذا شاهدت من احكم ملكته قد فزع لعمله واستخرج به مطلوبه • واما انه يفيد معرفة
الغيب الذى استاثر الله بعلمه فلا • ووجه ان العالم كله بما فيه من كلى وجزئى علوا وسفلا وافلاكا
وعناصر • وذواتا ومعانى • والفاظا • وحروفا • واسماء • وافعالا مناسبة كلها على مقادير
مقدرة ومرتبط بعضها ببعض ارتباطا غير منفصل • ومن ذلك السؤال والجواب فى الفاظهما
وحروفها ومعانيها وهذا المناسب فى عالم الملك الذى هو المحسوسات وما اليها • واما
عالم الملكوت فنسبته بعيدة عن عالم الملك من كل الوجوه والعلم المحيط حاضر لذلك كله والعلم البشرى
انما جنس مدركه فى عالم الملك ادراكا غير محيط ولا بالغا الى الغاية • وقد يكون لبعضهم مدد
الاهى من عالم الملكوت وتحه ربانية يخص بها ادراكه ممن لم يحصل له تلك التحه بل فى
جنس مدركاته البشرية لا فيما خرج عن نطاقها • ولقد غلط فى ذلك بعض غلاة المتصوفة • وزعم
انه يدرك فى جنس مدركاته ما لا يتناهى من جزئياتها او اظاهم عليه التغلغل والغلط
واذا ثبت لك هذا الذى قررناه اتباع نطاق العلم البشرى فى بعض دون بعض فى
جنس مدركاته فهم المدد الربانى الحاصل بعد كشف حجاب الحس فلا بعد ان يحصل لبعض من
انكشف له الحجاب وضع القانون فى استخراج الجواب من السؤال بعد ان يكون قد اطلع على السبب
الذى هو المورد الذى يستخرج ذلك بها وعلى ربط بعضها ببعض بما اتسع به من نطاق علم البشرى ولقد
كان ينبغى له ان لا يدعيه لما يحب من صون الاسرار الربانية اذا اطلع الله عليها من اطلعه من خلقه
ومع هذا فلا يفيد هذا معرفة الغيب • وليس التناسب المذكور بالذى يفيدنا معرفة
ما استاثر الله به من غيبه لان الواقعات كلها خاصة فى العلم القديم وهو محيط بها والتناسب
بين العلم الربانى الذى من عالم الملكوت وبين عالم الملك بعيد كما قدمناه فكيف يفيد ما

تحت هذا القانون الذي منباه على التناسب بين الكائنات في عالم الملك فالقوانين والصناعة لا توصل إلى معرفة الغيب بوجه • وستمد ذلك بدلك في هذه الرابعة ان كنت من اهله ان لا تصدق مقتضاه في الوجود والله يعلم وانتم لا تعلمون •

المقدمة السابعة في انتقال العمران

اعلم انا نجد العمران لهذا العهد كانه انتقل من جهة الجنوب الى جهة الشمال فان اليمن كان لهذه الثمانية وما قبلها مقرا بالدول العظيمة للعرب من عاد وثمود وحمير والتبابعة • وكذا حمير العرب كلها كان عمرانها موفورا انقضا بقوم عاد وغيرهم • وكذا الشام لهذه بني اسرائيل كان في غاية العمران بالامم والقبائل مثل مدين وبني لوط والعمالقة • والروم وفلسطين • وكنعان • وكذا اقليم مصر بالقبط ومن اليهم من ابناء سام بن حام وكان المغرب موفور العمران بالبربر من بني مازيغ بن كنعان ما بين بلاد السودان • والبحر الرومي في عرضه متصلا من اسوس الى الاسكندرية في طوله وكانت الدول العظيمة في هذه الاقطار مثل التبابعة وبني اسرائيل والقبط • والفرس • والروم • وكان الشمال دون ذلك في عمرانه ودوله • وما لكه من الترك والفرنجة • والصقالبة • وهذا ما نرى اليوم بالعكس فصار بغداد دار الاسلام وكرسي الخلافة بالعراق قد خربت وكانت تشتمل على نحو خمسين مدرسة متصل بعضها ببعض صارت بناء واحدا مثل بغداد ودار السلام • والرصافة • وسر من راى وامثالها وكان عمران صاحبها لا يقاس بعمران • وكذا الكوفة والبصرة من مدن العرب في الملة الاسلامية والقيروان فاعدة افريقية وحاضرتها وكانت تشتمل ايضا على نحو خمس وعشرين مدينة اتصل بعضها ببعض مثل رقادة والمنصورية والقيروان • والعسكر القديم وغيرها وكانت باقية من المدن والحواضر كثير مثل المسيلة • وتاهرت وطبنة • وباغاية • وبجاية • والقلعة • وسطيف • وغيرها • وكذا مدن برقة • وحواضرها من برقة • وزويلة • ولبدة وغيرها • وكذا مدن بركة المغرب الاوسط • واشبار من سلف ومتيجة • وحمزة • وتاهرت • ومرسى الدجاج • والحمرا ورؤوسه • وقصر عجيسة وامثالها وسائر العمران الجنوبي كله من اليمن • والحجاز • والشام • ومصر • والمغرب • وعراق العرب قد تقوض • وخرب • وخصوصا المغرب فلم يبق من عمرانه الا القليل شيئا مع البحر لا يكاد عرضه يجاوز مرحلتين والدول الملوكية في هذه الممالك كلها قد نشأت عما كانت عليه من الفوضى والاستطالة تناقضا بينا من جهة ما نقص العمران فيها وبلغنا عن بلاد الشمال ان عمرانها موفور ودولها مستحيلة مستفحلة في اصم من الفرنجة والترك فلعل العمران ينتقل من الجنوب الى الشمال فان هذا الخلا الذي وقع بحمة الجنوب وافقار امرائها بعده • والسبب في ذلك اما من جهة الامور الارضية والعمران المشاهد فليس الا استيلاء العرف وتغلبهم وهو موذن بالخراب لما يتغلبون عليه واما من جهة الامور السماوية فان للبحثين في ذلك كلاما ليس هذا موضع بسطه والله قادر على ما يشاء •

الفصل

الفصل الثاني في العمران البدوي

والامم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه اصول وتمهيدات

اعلم ان اختلاف الاجيال في احوالهم انما هو باختلاف نحلتهم من المعاش فان اجتماعهم انما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمالي فمنهم من ينتحل الفلح من الفراسة والزراعة ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الشاء والبقر والابل والنحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولابد الى البدو لانه يتسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك وكان اختصاص هؤلاء بالبدو امر اضروريا لهم وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجات معاشهم وعمرانهم من القوت والكن والدفء انما هو في المقدار الذي يحفظ الحياة ويحيط بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك ثم اذا اتسعت احوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنا والرفه دعاهم ذلك الى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة واستكثروا من الاقوات والملابس والتانق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والامصار للتحصن والاعتصام ثم يزيد احوال الرفه والرغد فتحي عوائد الترف البالغة مبالغها في التانق في علاج القوت واجادة المطابخ واتساع الملابس الفاخرة في انواعها من الحرير والديباج وغير ذلك ومعاناة البيوت والصروح واحكام وضعها ونحتها والانتهاء في الصنائع في الخروج من القوة الى الفعل الى غايتها فيتخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه ويتعالون في مرودها ويبالغون في نحتها ويحتفلون في استجادة ما يتخذونه لمنتهم من لبوس او فرش او انية او ماعون وهاؤلاء هم الحضر ومعناه الحاضرون على الامصار والبلدان فمن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة وتكون مكاسبهم كلها لان احوالهم زائدة على الضروري ومعاشهم على نسبة وجدهم فقد تبين ان احوال البدو والحضر طبيعية لابد منها والله اعلم

فصل قد قدمنا في الفصل قبله

ان اهل البدو هم المتحاوزون لمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الانعام وانهم مقتصرون على الضروري في الاقوات والملابس والمساكن وسائر الاحوال والعوائد ومقصرون عما فوق ذلك من حاجي او كمالي يتخذون البيوت من الشعر او الوبر او الصوف او من الطين غير منحوتة انما هو قصد الاستظلال والكن لا ما وراه وقد يأوون الى الغيران والكهوف واما اقواتهم فيتناولونها من غير علاج او بغير علاج البتة الا ما مست النار من كان معاشه منهم في الوداعة والقيام بالفلح كان المقام اولانه من الظعن وهؤلاء سكان المداشر والقرى والخيال وهم عامر الربوع والاقاليم ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم طواعين في الاغلب لارتياد المسارح والمياه

لعله المدارس

لحيوانهم اذا انتقلت في الارض تصلح بها وتسمن شاءهم ومعناه القائمون على الشاء والبقر ولا يعدون في القفر لفقدان المسارح بها وهؤلاء مثل البربر والترك والصقالبة واما من كان معاشهم في الابل اكثر ظعنا والبعد في القفر مجالا لان مسارح التلول وبنابها وبحرها لا يستغني به الابل في قوام حياتها عن مراعي البحر والقفر وورود مياهه الملحة والتقلب فصل الشتاء في نواحيه فرارا من اذى البرد الى دفء مواياه وطلبا لمفاجر النتاج في ربيعه اذ الابل اصعب الحيوان محاضا وفصالا واخوجها في ذلك الى الدفء فاضطروا الى البعاد النجعة وربما اذهم الحامية عن التلول ايضا فاقاموا في قعادهم بقرب من الضفة منهم والجزائر بعدوا بهم لكانوا لذلك اشد الناس توحشا وبعدوا من الادميين منزلة الوحش غير المقدور عليه او المتعرس من الحيوانات العجم وهؤلاء هم العرب ومن في معناهم طوائف البربر وذناته المغرب والاكراد بالمشرق الا ان العرب اشد بجعة واشد بداوة لانهم مختصون بالنعام على الابل فقط وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشاء والبقر فقد تبين لك ان اصل الارض طبيعي لا بد منه في العمران والله الخلاق

فصل في ان البدوي اقدم من الحضري

وسابق عليه وان البادية اصل العمران الامصار ومادة لها وقد ذكرنا ان البدو هم المقتصرون على الضروري في احوالهم العاجزون عما فوقه وان الحضر هم المعنيون بحاجات الرفه والكمال في احوالهم وعوائدهم ولا شك ان الضروري اقدم من الحاجي ومن الكمالي وسابق عليه وكان الضروري اصل والكمالي فرع ناشئ عنه فالبدو اصل للمدن والحضر وسابق عليه لان اول مطالب الانسان الضروري وهو ينتهي الى الرفه والكمال لا اذا كان الضروري حاصلا فحينئذ تتوفر الدواعي لتنقل رقي الحضارة وهذا احد التمدن غاية للبدوي تجري اليها وينتهي الى منتوجه منها ومتى حصل على الاساس الذي تحصل به احوال الرفه وعوائده عاج على الدعة وامكن نفسه من قبائح المدينة وهكذا شان القبائل المستدينة كلهم والحضري لا ينتوف الى احوال البادية الا لضرورة تدعوه اليها او التقصير من احوال اهل مدينته ومما يشهد لنا ان البدو اصل للحضر ومتقدم عليه انا اذا تفقدنا اهل مصر من الامصار وحدثنا اولية اكثرهم من اهل البدو والدين بصاحبه ذلك المصر وفي قراءة وانهم السوا وسكنوا المصر وعدلوا الى الدعة والترف الذي في الحضر وذلك يدل على ان احوال الحضارة تابعة على احوال البداوة وانها اصل لها فتفهم هذا ان كل واحد من البدو والحضر متفاوت الاحوال في جنسه فرب حي اعظم من حي وقبيلة اوفر من قبيلة ومصر اوسع من مصر ومدينة اكثر عمرانا من مدينة فقد تبين ان وجود البدو متقدم على وجود المدن والامصار واصل لها بما ان وجود المدن والامصار من عوائد الترف والدعة الذي هو متاخر عن عوائد الضرورة المعاشية والله اعلم

فصل في البدو واقرب الى الخير من اهل الحضر

وسببه ان النفس اذا كانت على الفطرة الاولى كانت مهيئة لقبول جميع ما يرد عليها وينطبع فيها من خير او شر فان صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه وبقدر ما يسبق اليها من احد الخلقين يعجز عن الاخر ويصعب عليها اكتسابه فصاحب الحرز اذا سبقت النعمة عوائد الخير وحصلت لها ملكة بعد الشر وصعبت طريقه وكذا صاحب الشر اذا سبقت اليه عوائد واهل الحضر لكثرة ما يعانونه من احوال المعاملات وعوائد الترف والانهماك على الدنيا والعكوف على شهواتهم ولذاتهم منها وقد لوثت انفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحسنة في احوالهم فتجد الكثير منهم يتدعون في اقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم واهل محارمهم لا يصدهم عنه وازع الحشمة لما اعتادوه به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولا وعملا واهل البدو وان كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم الا انه في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شيء من اسباب الشهوات واللذات ودواعيها وعوائدهم في معاملاتهم على نسبتها وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة الى اهل الحضر اقل بكثير فهم اقرب الى الفطرة الاولى وابعد عنها يطبع في النفس من سوء الملكات بكرة العوائد المذمومة وقبحها فيستهل علاجهم من علاج اهل الحضر وهو ظاهر وقد بعد ان الحضارة هي نهاية العمران وخروج الى الفساد وموذنة الشر والبعد عن الخير فقد تبين ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر والله يحب المتقين ولا يعترض على ذلك بما ورد في حديث النسائي من قول الحجاج لسلمة بن الاكوع وقد بلغه انه خرج الى سكنى البادية فقال له يا ابن الاكوع ارتددت على عقبيك بعد هجرة فقال لا ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذن لي في البدو فان الهجرة كانت واجبة الاسلام والاخذ بمذاهبه واحكامه والتعرف بها والتعاون على مذاهب الاعراب في جاهليتهم ولكن نهى الله تعالى رسوله عن التقلب في الارض بغير حاجة فقال ولا تمش في الارض مرحا فاختص المسلمون من العرب بسكنى المدينة من اجل الهجرة الى الاسلام واهله وبقي من عداهم من اهل الكفر على البداوة وخلق التعرب وصارت الهجرة علامة على الاسلام والتعرب علامة على الردة والكفر في بادي الرأي وكان من يقول الى التعرب والبداوة يتهم فيه الردة والانحراف عن الهجرة فلهذا انكر عليه صاحبه التعرب لا لمجرد البداوة بل لما يتوهم فيها حينئذ من الردة واما اذا ثبتت الهجرة ورسخ الاسلام في القلوب فلا فرق بين سكنى الحاضرة او البادية ولو كانت البادية منكرة كما فهمه الحجاج لما اذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم لسلمة كما قاله فدل على ان ذلك انما كان ايام الهجرة الى المدينة والاسلام وانقطع باستيفاء ذلك بعد قوله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح لا هجرة ولكن جهاد ونية ورجع حكم البداوة الى ما كان عليه قبل الهجرة والله اعلم

فصل في ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر

والسبب في ذلك ان اهل الحضر العوائد جبلهم على مهاد الراحة والدعة والتمسوا في النعيم والترف وكلوا امرهم في المدافعة عن انفسهم واموالهم الى واليهم والحاكم الذي ليسوسهم

والحامية التي تولت حراستهم وانتشاموا الى الاسوار التي تحوطهم والحرز الذي يحول بينهم وبينهم لا
بجمعهم
همعه ولا يقربهم صيد فهم عارون امنون قد القوا السلاح ورمت على ذلك منهم الاجيال وتوارثوا
منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على اقوامهم حتى صار ذلك لهم خلقا تترل منزلة الطبيعة
واهل البدو لتقدمهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي وبعدهم عن الحامية واسادهم عن الاسوار والابواب
قائمون بالمدافعة عن انفسهم لانكلونها الى سواهم • ولا يثقون فيها بغيرهم فهم دائما يحملون السلاح •
ويتلفتون عن كل جانب في الطرق ويحامون عن الهجوع الا عرارا في المجالس • وعلى الرحال • وفوق الاقتاب
يتوحشون للسباب والهيعات • ويتفردون في القفر والبيداء مدلين بسياسهم • واثقين بنقضهم
وقد صار لهم الناس خلقا والسباله بحيث يرجعون اليها متى دعاهم داع • واستقوهم صارخ واهل
الحضر بهما حالطوهم في التلاعة او صاحوهم في استنفر عيال عليهم لا يكون معهم سياسا من انفسهم وذلك
مشاهد بالعيان حتى في معرفة النواحي والجهات ومواردالماء ومسارح السبل وسبب ذلك ما
شرحناه واصله ان الانسان ابن عوائده ومألوفه لابن طبيعته ومزاجه فما الف من الاحوال حتى
صار له خلقا وملكة وعادة ودربا يتول منزلة الطبيعة والجبلة واعتبر ذلك بحد منه كثيرا
في الادميين والله يخلق ما يشاء • والله ارحم الراحمين

فصل في ان معاناة اهل البدو

الاحكام مفسدة للناس ذاهبة بالمنعة منهم • وذلك انه ليس كل احد مالكا امر نفسه اذ الرؤساء
والامراء المالكون لامر الناس قليل بالنسبة الى القليل منهم من الغالب ان يكون الانسان في ملكه
غيره ولابد فان كانت الملكة رفيعة لعاناها حكم ولا منع وصد كان اهلها مدلين بما في نفوسهم
من شجاعة وجبن واتقين لعدم الورع حتى صار لهم الادلال حيلة لا يعرفون سواها • واما اذا كانت
الملكة واحكامها بالقهر والسطوة والاحامة فيكسر حينئذ من سورة باسها وتذهب منعتها عن نفسها
لما يكون من التكاسل في النفوس المصطلمة كما بيناه • وقد نهى عمر سعدا عن مثلها لما يكون اخذ
زهرة بن حوية سلب الجالنوس وكانت قيمته خمسة وسبعين الفا من الذهب فانتزعه منه سعد وقال
الا انتطرت في اتباعه اذني وكتب الى عمر يستأذنه فكتب اليه لعمري لمثل زهرة فليصل بما صلى به
وبقي عليك ما بقي من عربك بكسر قرنه وتفسد قلبه • وامضى له عمر سلبه • واما اذا كانت الاحكام
بالعقاب مذهبة للباس بالكلية لان وقوع العقاب به • ولم يدافع عن نفسه بكسبه المذلة التي تكسر من
سورة باسه بلاشك واما اذا كانت تأديبية وتعليمية واحدث من عهد الصغر اوثرت
في ذلك بعض الشيء لمرباه على المخالفة والانقياد فلا يكون مذلا بأسه ولهذا نجد المتوحشين
من العرب اهل البدو اشد بأسا ممن باشرته الاحكام ونجد الذين يعانون الاحكام وملكهم من لدن
مرباهم في التأديب والتعليم في الصنائع والعلوم للتعلم والديانات بعض ذلك من باسهم كثيرا
ولا يكادون يدافعون عن انفسهم عادية بوجه وهذا شان طلبة العلم المنتحلين للقراءة
والاخذ عن الشيوخ والائمة المارسين للتعليم والتأديب في مجالس الوقار والهيبة فتقهم هذه

الاحوال وذهابها بالمنعة والباس ولا سيما كون ذلك بما وقع في الصحابة من احدثهم باحكام الدين والشريعة وقد كانوا اشد الناس باسا لان الشارع صلوات الله عليه لما اخذ المسلمون عنه دينه كان وازعهم فيه من انفسهم عاملا عليهم من الترغيب والترهيب فلم تزل سورة باسهم مستحكمة ما كانت ولم يخدشها اطغاء الملك والحكم قل عمن لم يؤد به الشرع لاداته الله عرضا على ان يكون الوازع لكل احد من نفسه ولما ناقض الدين في الناس واحدوا الاحكام الوازعة ورجعوا الى الحضارة وخلق الانقياد الى الحكام بمقتضى ذلك سورة الباس فيهم فقد تبين ان الاحكام السلطانية والتعليمية مما تؤثر في اهل الحواضر في ضعف نفوسهم وخمود الشوكة منهم بما بانتفاء وليدهم وكهوم والبدو بمعزل عن هذه المنزلة لبعدهم عن احكام السلطان والتعليم والاداب والله يهدي من يشاء

فصل في ان اهل البدو اقل ظلما من الحضر

اعلم ان الله سبحانه ركب في طباع البشر الخير والشر كما قال تعالى وهديناه النجدين وقال فالهمها فجورها وتقواها والشر اقرب الحلال اليه اذا اهمل في مرعى عوائده ولم يهذبه الاقتداء بالدين وعلى ذلك الجم الغفير الا من وفقه الله ومن اخلاق الشر فيهم الظلم والعدوان بعض على بعض فمن امتدت عينه الى متاع اخيه امتدت يده الى اخذه الا ان يصده واعظ قل واعظ من نفوسهم او زاجر من سلطان فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

فاما المدن والامصار فعدوان بعضهم على بعض يدفعه الحكام والدولة بما قضوا على ايدي من بينهم من الكافة ان يمتد بعضهم على بعض او يعدو هم مكبوحون بحكم النهي والسلطان عن التظالم الا اذا كان من الحاكم بنفسه واما العدوان الذي من خارج المدينة فيدفعه سياج الاسوار عند الغفلة والغرة ليلا او النهوض الى المقاومة نهارا وتدفعه ايضا الحامية من اعوان الدولة عند الاستعداد والمقاومة واما احتياله وفرع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبرائهم بما وقر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة واما ظلمهم فامتناعهم ودفعهم من خارج حامية الحي من اجنادهم وفتيانهم المعروفين بالسالة فيهم ولا يصدق دفاعهم ودفاعهم الا اذا كانوا عصبية واهل نسب واحد لانهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم اذ بعده كل احد على اهل نسبه وعصبيته لهم وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والمعزة على ذوي رحمه القريب ولهم ارحامهم ورحمهم موجود في الطباع البشرية وبها يكون التناصر والتساهر ويعظم رهبة العدو لهم واعتبر ذلك فيما حكاه القرآن عن اخوة يوسف حين قالوا لابيه لئن اكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون والمعنى انه لا يتوهم العدوان على احد مع وجود العصبة له واما المتغلبون في اثنائهم فقل ان يصيب احدا منهم بغتة على صاحبه فاذا اظلم الجو بالشر تشكل كل واحد منهم يبغي النجاة بنفسه خفية واستحياء من التحاول فلا يقتدرون من اجل ذلك على سكنى القفر لما انهم عند طعمة لمن يليهم من الامم سوائم واذا تبين ذلك في السكنى التي تحتاج الى المدافعة والحماية فحصله يتبين في كل امر يجتمع لحمل الناس عليه من بنوة او اقامة ملك او دعوة اذ بلوغ الغرض من ذلك كله انما يتم بالعصابة عليه لما في طباع البشر

من الاستقصاء وكالة في القتال من العصبية كما ذكرناه انتفاء احد اما ستدري به فيما نورده عليك من بعد

فصل في ان العصبية انما تكون الالتحام بالنسب او ما في معناه

وذلك ان صلة الرحم طبيعي في البشر الا في الاقل ومن صلتها النعرة على ذوي القربى واهل الارحام ان يناطهم ضيم او يصيبهم هلكة فان القريب يحد في نفسه عصاصة من ظلم قريبه او العدا عليه ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك نزعة طبيعية في البشر وجدوا كانوا فاذا كان النسب اواصل بين المتناصرين قريبا جدا بحيث حصل به الالتحام والاتحاد كانت الوصلة ظاهرة فاستدعت ذلك بمجرده ووضوحها واذا بعد النسب بعض الشيء فربما سوى بعضها وسعى منه بشعرة فتحمل على النصرة لذوي نسبه بالامر المشهور منه فرارا من العصاصة التي يتوهمها في نفسه من ظلم من هو منسوب اليه بوجود من هذا الباب الولاء والحلف اذ النعرة كل احد على اهل ولائه وحلفه للائفة التي تلحق النفس من اعتصام جانبها او قربها او نسبها بوجه من وجوه النسب وذلك لاجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب او قريبا منها او نسيبا بوجه من وجوه النسب وذلك لاجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب او قريبا منها ومن هذا انفهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم تعلموا من انسابكم ما تصلون به ارحامكم بمعنى ان النسب انما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الارحام حتى يقع التناصر والنعرة وما فوق ذلك مستغنى عنه اذ النسب امر وهمي لا حقيقة له ونفعه انما هو في هذه الوصلة والالتحام فاذا كان ظاهرا واضحا حمل النفوس على طبيعتها من النعرة كما قلناه واذا كان انما يستفاد من الخبر البعيد ضعف فيه الوهم وذهبت فائدته فصار الاشتغال به مجانا ومن اعمال اللهو المنهي عنه عند الحكماء وهذا معنى قولهم النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر بمعنى ان النساب اخرج عن الوقوف وصار من قبيل العلوم ذهبت فائدة الوهم فيه عن النفس واستغت النعرة التي تحمل على العصبية فلا منفعة فيه حينئذ والله اعلم

فصل في ان الصريح في النسب انما يوجد للمتوحشين

في القفر من العرب ومن في معناهم وذلك لما اختصوا به من نكد العيش وسطف الاحوال وسوء الموطن حملهم على الضرورة التي عينت لهم تلك العشيرة وهي ما كان معاشهم من انتياع على الابل وتناجها ورعايتها والابل تدعوهم الى التوحش في القفر لرعاية نجعها وتناجها في رمالها كما تقدم والقفر مكان السطف والسنف فصار لهم ذلك عادة وربيت معها احوالهم حتى كانت طبعا وجبلة فلا ينزع اليهم احد من الامم ان يساهمهم في حالهم ولا يدخل بهم احد من الاحوال الا لوجه واحد منهم السبيل الى الفرار من حاله وامكنة ذلك لما تركه المومن عليهم لاجل ذلك من اختلاط انسابهم وفساد بيوتاتهم فزال بينهم محفوظ صريحة واعتبر هذا في مضر من قريش وكنانة وثقيف وبني اسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة لما كانوا اهل سطف ومواطن عرية ذات زرع ولا ضرع وبعد وامن ارياف الشام والعراق ومعادن الادم والحبوب كيف كانت انسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاط ولا عرف فيها سوء

واما العرب الذين كانوا ابالمتلوك وفي

معادن الحضب للمراعي والعيش من حمير وكهلان مثل لخم وجذام وغسان وطي وقضاعة واياد فاختلطت انسابهم وتداخلت شعوبهم وفي كل واحد من بيوتهم من الخلاف عند الناس ما يعرف ولا يجد احد انهم يخلو عن الخلاف والجهل باصل نسبهم وانما جاءهم ذلك من قبل العجم ومخالطتهم وهم لا يعتبرون المحافظة على النسب في بيوتهم وشعوبهم وانما هذا للعرب فقط قال عمر تعلموا من النسب ولا تكونوا كنساط السواد اذا سئل احدهم عن اصله قال من قرية كذا هذا الى ما لحق مولاة العرب اهل الادياف من الازدحام مع الناس على البلد الطيب والمراعي الخصيبة فكثر الاختلاط وتداخلت الانساب وقد كان وقع في صدر الاسلام الانتماء الى المواطن فيقال جند قنسرين جند دمشق جند العواصم واستقل ذلك الى الاندلس ولم يكن لاطواح العرب امر النسب وانما كان لاختصاصهم بالمواطن بعد الفتح حتى عرفوا بها وصارت لهم علامة وامارة على النسب يميزون بها عند امر ايهم ثم وقع الاختلاط مع العجم وعربهم وفسدت الانساب بالجملة وفقدت ثمرتها من العصبية فاطرحت ثم لاشت القبائل ودثرت فدثرت العصبية بدثورها والله وارث الارض ومن عليها

فصل في اختلاط الانساب خيفة قوم

انه من البين ان بعضا من اهل الانساب يسقط الى اهل نسب آخر يزوع اليهم اوحلف او ولاء او انفراد من قومه بجناية اصابها فيدعي بنسب مولاه ويعد منهم في ثمرانه من النعوة والعود وحمل الديات وسائر الاحوال واذا وحدت ثمرات النسب فكانه وحد لانه لا معنى لكونه من مولاه او من مولاه الا جريان احكامهم واحوالهم عليه وكانه النجم بهم ثم انه قد تناسا النسب الاول وطول الزمان وذهب اهل العلم به فيخفى على الاكثر وما زالت الانساب تسقط من شعب الى شعب ولحم قوم باخرين في الجاهلية والاسلام والعرب والعجم وانظر خلاف الناس في نسب المدر وعربهم يتبين شيئا من ذلك ومنه سان بحلة في عرفجة بن هرثمة لما ولاه عمر عليهم فساءلوه عمر عليهم فساءلوه عن الاعفاء منه وقالوا انه موفيا ورف وطلبوا ان يولوا عليهم حريرا فسأله عمر عن ذلك فقال عرفجة صدقوا يا امير المومنين انا رجل من الازد اصبت دما في قومي ولحقت بهم وانظر منه كيف اختلط عرفجة بحلة وليس حلة منهم ودعي بنسبهم حتى توسخ للرياسة عليهم لو علم بعضهم بوساخه ولو قد عقلوا عن ذلك وامتد الزمن من لسوس بالجملة وعد منهم فكل وجه ومذهب فاتهم واعتبر سر الله في خليقته ومثل هذا كثير لهذا العهد ولما قبله من العهود والله تعالى اعلم بالصواب

فصل في ان الرياسة على اهل العصبية لا تكون في غير نسبهم

وذلك ان الرياسة انما تكون بالغلب والغلب انما يكون بالعصبية كما قدمناه فلا بد في الرياسة على القوم ان يكون من عصبية غالبة لعصبياتهم حتى واحدة لان كل عصبية منهم اذا احست بغلب عصبية لا تتمش لهم اقرار ولا اذعان والاتباع والاستيلاء في نسبهم بالجملة لا يكون له عصبية فيهم بالنسب انما هو ملصق مزيف وغاية التعصب له بالولاء والحلف وذلك لا يوجب

له غلبا عليهم البتة وان فرضنا انه قد التحم بهم واختلط وبقي بقي عهده الاول من الالتصاق
وليس له بهم ودعي بينهم فكيف له الرياسة مثل هذا الالتحام او لاحد من سلفه والرياسة على
اليوم انما تكون بتنافل له في بيت واحد يقتل له الغلب بالعصبية والا فالولد التي كانت لهذا الملصق
قد عرف فيها التصاقه من عرشك وسعة ذلك الالتصاق من الرياسة حينئذ فكيف سولت عنده
وهو على حال الالتصاق والرياسة لابد وان يكون موروثة عن مستحقها لما قلناه من التغلب على العصبية
وقد يشتوف كثير من الرؤساء على القبائل والعصائب التي اتاحت لهم الحصول لها اما لخصوصية
فضلية في اهل ذلك النسب من شجاعة او كرم او ذكر كبير انفق فيتزعون الى ذلك النسب
ويتورطون بالدعوى في سموه ولا يعلمون ما يوقعون فيه انفسهم من القدح في رياستهم والطعن
في سرهم وهذا كثير في الناس لهذا العهد فمن ذلك ما يدعيه رساء حملة انهم من العرب ومن
ادعاء اولاد رياب المعروفين بالحجازيين من بني عامر انهم من بني سليم من الشريد منهم لحق جدهم بني عامر
بالحجاز بصبع الحرجان واختلط بهم والتحم بنسبهم حتى راس عليهم ويسمونه الحجازي ومن ذلك ادعاء
بني عبد القوي بن العباس من لوحص انهم من ولد العباس بن عبد المطلب سهو في هذا النسب الشريف
وغلط باسم العباس بن عطية بن عبد القوي ولم يعلم دخول احد من العباسيين الى المغرب لانه كان
مدة اول دولتهم على دعوة العلويين وكذلك ما يدعيه ابناء دمان ملوك عبد الواد انهم من ولد
القاسم بن ادريس ذهابا الى ما اشتهر في نسبهم انهم من ولد القاسم فيقولون لسانهم الرماني ابن القاسم
اي بنو القاسم ثم يدعون ان القاسم هذا هو القاسم بن ادريس او القاسم بن محمد بن ادريس ولو كان
ذلك صحيحا فغاية القاسم هذا انه قدم من مكان سلطانه لملخبرانهم فكيف يتم له الرياسة عليهم في دعوتهم
وانما هو غلط من اسم القاسم فانه كثير الوجود في الادارسة فتوهموا ان قاسمهم من ذلك النسب وهم غنيون
محتاجين لذلك فان منالهم للملك والعزة انما كان بعصبيتهم ولم يكن بادعاء علوية ولا غيرها
ولا بشيء من الانساب وانما جعل على هذا المقدمون الى الملوك بما زعم ومذاهبهم ولسنا حتى نعتمد
مرادهم ولقد بلغني عن يغمراسن بن زيان مؤسس سلطانهم انه لما قيل له ذلك انكره وقال
للبيئة الرياسية ما معناه ان الدنيا والملك قتلناه مستوفيا لا بهذا النسب واما بعده في الاخرة
فمردود الى الله واعرض عن المتعرض اليه بذلك ومن هذا الباب ما يدعيه بنو اسعد شيوخ بني يزيد
من رعية انهم من ولد ابي بكر الصديق وبنو اسلامة شيوخ بدلدس من توجن انهم من سليم والزواودة
شيوخ رياح انهم من اعقاب البرامكة واما ذلك ورياستهم في قومهم ما بلغه من ادعاء
هذه الانساب ما ذكرناه ويتعين ان يكونوا من صريح ذلك النسب واقوى عصبائه فاعتبر واجتنب
التخليط فيه ولا تجعل من هذا الباب الحاق مهدي الموحدين بنسب العلوية فان المهدي لم يكن من
سنبت الرياسة في هرغة قومه وانما رأس عليهم بعد استهاره بالعلم والدين ودخول قبايل المصامدة
في دعوته وكان مع ذلك من اهل المناسب المتوسطة فيهم والله عالم الغيب والشهادة

فصل في ان الرياسة لا تزال في مضايقها الخير من اهل العشيرة

اعلم ان كل بطن او حي من القبائل وان كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام وفيهم ايضا عصبيات اخرى لانساب خاصة بها اشد التحاما من النسب العام لهم مثل عشيرة واحدا اهل بيت واحد او اخوة بني اب واحد لا مثل بني العم الاقربين او الابعدين فيها ولا اقعد بنسبهم المخصوص ويشاركون من سواهم ممن العصابات في النسب العام الا انها في النسب الخاص اشد لغرض الحمية والرياسة فيهم انما تكون في نصاب واحد منهم ولا تكون في الكل ثم **لما كانت الرياسة** انما تكون بالغلب وجب ان تكون عصبية ذلك النصاب اقوى من سائر العصائب لتبعة الغلب بها وسمو الرياسة اليها فاذا وجد ذلك تعين ان الرياسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب متناقلة من فرع منه الى فرع ولا تنتقل الى الاقوى من فروع عما قلناه من سر الغلب لان الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج للمكون ● والمزاج في المكون لا يصلح الا اذا اتكافأت العناصر فلا بد من غلبة احدها والا لم يتم التكوين فهذا هو سر اشتراط العيب في العصبية ومنه تعين استمرار الرياسة في النصاب المخصوص بها كما قررناه ● والله سبحانه وتعالى اعلم ●

فصل في النسب والشرفية بالاصالة

والحقيقة لاهل العصبية ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه ● وذلك ان الشرف والحسب انما هو بالحلال ومعنى البيت ان يعد الرجل في اباء اسرة متقدمة يكون له بولادتهم اياه والانتساب اليهم محل في اهل جلدته لما وقر في نفوسهم من تجلة سلفه وسلفهم بحلالهم ● والناس في نسبهم وتناسلهم معادن قال صلى الله عليه وسلم الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا بمعنى الحسب راجع الى الانساب وقد بينا ان ثمرة الانساب وفائدتها انما هي العصبية للتغلب والتناصر فحيث تكون العصبية مرغوبة ومحتشمة والمنتسبون بها كثيرين تكون فائدة النسب اوضح وثمرتها اقوى وتعديد الاشراف من الاماء زائد في فائدتها فتكون الحسب والشرف اصيلا في اهل العصبية لانه سرها ولا يكون للمنفرد من اهل الامصار وبيوت الامارة بالمجاز وان توهموه بحرف من الدعاوي واذا اعتبرت الحسب في اهل الامصار وجدت معناه ان الرجل منهم بعد سلفه في حلال الحر ومخالطة اهله مع الركون الى العافية ما استطاع وهذا معنى ستر العصبية التي هي ثمرة النسب وتعديد الاوائل يطلق عليه حسب بالمجاز لعلاقة ما فيه من تعديد الآباء المتعاقبين على طريقة واحدة من الخير ومسالكه وليس حسبا بالحقيقة وعلى الاطلاق وقد يكون للشرف اول العصبية والحلال ثم يلحقون منه لذاتها بالحضارة كما قررنا ويختلطون بالعمار ويبقى في بعوثهم وسواس ذلك الحسب بعدون به انفسهم من اشراف البيوتات ولسوامها في بني لذهاب العصبية جملة وكثير من اهل الامصار السادس في بيوت العرب والعجم لا يرى عندهم موسوسون بذلك واكثر ما رسخ الوسواس في ذلك لبني اسرائيل فانه كان لهم بيت من اعظم بيوت العالم بالمنبت ولا ما تعدد في سلفهم من الانبياء والرسل من لدن ابراهيم عليه السلام الى موسى صاحب ملتهم وشريعتهم ثم بالعصبية ثانيا وما اناسم الله لهم من الملك الذي وعدهم به ثم الناسخ من ذلك اجمع وضربت عليهم الذلة وكتب عليهم الجلاء في الارض والتفرد واهلا استعباد والكفر السس

وما زال هذا الوسواس مصاحبا لهم فتجدهم يقولون هذا هو ذا هو وفي هذا من بسل يوشع هذا

من عتب كاب هذا من سبط هود مع ذهاب العصبية ورسوخ الدل فيهم متداحات متطاولة وكثير من اهل الامصار عربهم المتطبعين في انسابهم عن العصبية يدسّ الى هذا الهذيان وقد غلط ابو الوليد ابن رشد في هذا لما ذكر الحسب في كتاب الخطابة من تلخيص كتاب المعلم الاول فقال والحسب هو ان يكون من قوم قدم تزلهم بالمدينة ولم يتعرض لما ذكرناه وليت شعري ما الذي يمنعه قدم تزلهم بالمدينة ان لم يكن له عصابة يرتبط بها جانبه ويحمل عربهم على التغول منه فكانه اطلق الحسب مع ان الخطابة انما هي استمالة من توثر استمالته وهم اهل الحل والعقد واما من لا قدرة له البتة فلا ملتفت اليه ولا يقدر على استمالة احد ولا استمال هو واهل الامثال من الحضر بهذه المثابة الا ان ابن رشد رئي في خيل وبلدهم مارسوا العصبية ولا اسسوا احوالها فبقي في امر البيت والحسب على الامر المشهور من تقديمها على الاطلاق ولم يراجع فيه حقيقة العصبية وسرها في الخليقة والله بكل شيء عليم • وصلى الله على سيدنا محمد وآله •

فصل في ان النسب والشرف للموالي واهل الاصطناع انما هو بموالاتهم لاسلافهم

وذلك انا قدمنا ان الشرف بالاصالة والحقيقة انما هو لاهل العصبية فاذا اصطنع اهل العصبية قوما من غير نسبهم او استرقوا والموالي والمحمولهم كما قلناه صاروا معهم اولئك الموالي والمصطنعون في تلك العصبية وليسوا اجلادها كانها عصبتهم وحصل لهم من الانتظام في العصبية مساهمة في نسبها كما قال صلى الله عليه وسلم مولى القوم منهم سواء كان مولى رق او مولى اصطناع وحلف وليس نسبا ولا اخاه بنافع له في تلك العصبية اذ هي مباينة لذلك النسب وعصبية ذلك النسب مفقودة لذهاب سرها عند التحامه بهذا النسب الآخر وبعدابه اهل عصبيتها فيصير من هو لاء ويندرج فيهم فاذا تعددت له في هذه العصبية كان له بينهم شرف وبيت على نسبته في ولائهم واصطناعهم لا بحجاز الى شرفهم بل يكون اذون منهم على كل حال وهذا شان الموالي في الدول والخدمة كلهم فانهم انما يترفون بالرسوخ في دولاء الدولة وخدمتها وبعد الاباء في ولايتها الا ترى الى الموالي الاتراك في بني العباس والذين يرتبط قبلهم وبني بويه كيف ادركوا البيت والشرف وبنوا المجد والاصالة بالرسوخ في ولاء الدولة فكان جعفر بن يحيى بن خالد من اعظم الناس بيتا وشرفا بالانتساب الى ولاء الرشيد وقومه لا بالانتساب في العرب وكذا موالي كل دولة وخدمتها انما يكون لهم البيت والحسب بالرسوخ في ولايتها والاصالة في اصطناعها ويضمحل نسبه الاقدم اذا كان من غير نسبها ويبقى ملغى لا عبرة به في اصالته ومجده وانما المعتبر نسبه ولاؤه واصطناعه اذ فيه سر العصبية التي بها البيت والشرف فكان سر المستتر من شرف موالي وشيعته من بنيانهم فلم يتبعه نسب الولادة وانما يحدث نسب الولاء في الدولة وملحمة الاصطناع فيها والربيبة وقد يكون نسبه الاول في اهل عصبية ودولة فاذا ذهبت وصار ولاؤه واصطناعه في اخرى لم يتبعه الاول لذهاب عصبته واتسع بالثاني لوجودها وهذا حال بني سرمك اذ المنقول انهم كانوا اهل بيت في الفرس • ثبوت الثار عندهم ولما صاروا الى ولاء بني العباس لم يكن بالاول اعتبار وانما كان سر قدمهم من حيث ولاؤهم في الدولة

واصطناعهم

ولا منطاعهم وما سوى هذا فوهم توسوس به العوسج الجامحة ولا حقيقة له والوجود شاهد بما قلناه
والله يكرمكم عند الله اتقاكم

فصل في ان نهاية الحسب في العقب الواحد اربعة آباء

اعلم ان العالم العنصري بما فيه كائن فاسد لا من ذاته ولا من احواله فالمكونات من المعدن والنبات وجميع الحيوانات الانس وغيرها كائنة فاسدة بالمعاينة وكذلك ما يعرض لها من الاحوال وخصوصا الانسانية فالعلوم تنشأ ثم تدرس وكذلك الصنائع وامثالها والحسب من العوارض التي تعرض الآدميين وهو كالنسب لا محالة وليس يوجد لاحد من اهل الخليقة شرف متصل في ابائه من لدن آدم اليه الا ما كان من ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم كرامة له وحياطة على الشريعة به واول كل شرف خارجة وهي الخروج عن الرياسة والشرف الى الصنعة والابتذال وعدم الحسب ومعناه ان كل حسب وشرف فعدمه سابق عليه شأن كل محدث ثم ان نهاية في اربعة آباء من عقبه وذلك ان باني المجد عالم بما عاناه في سببه ومحافظ على الخلال التي هي اسباب كونه ونمائه وابنه من بعده مباشر لابيه قد سمع منه ذلك واخذ عنه الا انه مقصر في ذلك تقصير التاسع التي عن المعازف اذا حاذاه الثالث كالخط الاقطع والمقلد خاصة قصر عن الثاني تقصير المقلد عن المجتهد ثم اذا حاذا الرابع قصر عن طريقهم جملة واضاع الخلال الحافظة لبنائهم واحترقها وتوهم ان ذلك البنيان لم يكن معاناه ولا تكلف وانما هو امر وجد الناشئة محررا بانتسابهم وليس بعصاه ولا بخلال فيرتاب بنفسه عن اهل عصبيته ويأبى الفضل لها عليهم ونوفا ما يرى فيه من استتباعهم وجهلا ما اوجب ذلك الاستتباع من الخلال التي منها التواضع لهم والاخذ بمجامع قلوبهم فيحتقرهم لذلك فتقصر عليه ويحقروه ويذلوا منه سواه من اهل ذلك البيت ومن فروعه وفي غير ذلك العقب للادعان بعصبيتهم كما قلناه بعد الوثوق بما ترضونه من خلاله فينهمو افروع هذا وتدري فروع الاول وينهدم بناء بيته وهكذا في بيوت القبائل والامراء والملوك واهل العصبية اجمع ثم في بيوت اهل الامصار واذا انحطت بيوت نشأت بيوت اخرى ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز واشتراط الاربعة في اكساب الامور في الغالب والا فقد يدرك البيت من دون الاربع وثلاثة وبهدم وقد يقضي الامر الى الخامس والسادس الا لله في الخلط وارتباب واعتبار الاربع من مثل الاصال الاربعة التي ومباشرته ومشاهدوه وهو اقل ما يمكن وقد اعتبرت الاربعة في نهاية الحسب في باب المدح والتهاني صلى الله عليه وسلم انا اكرم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم اشارة الى اربعة بلغ الغاية من المجد وفي التوراة ما معناه ان الله ربك طالبي عنود مطالب بذنوب الآباء للسبع على الثوالث وعلى الروابع وشهدت على ان الاربعة الاعقاب غاية في الانساب والحسب والله اعلم

فصل في ان الامم الوحشية اقدر على التغلب ممن سواها

اعلم انه لما كانت البداوة سببا في السالة كما قلناه في المقدمة الثالثة

لاجرم كان هذا الحمل اوحش اسدبساله من الحمل الاول فهم اقدر على التغلب وانتزاع ما في ايدي سواهم من
الامم بل الحمل الواحد يبقيه تختلف احواله في ذلك باختلاف الاعصار فكما ترى الارياف وتنكوا النعيم
والقوا عوا آد الحضب في المعاش والنعم نقص من بسالتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبداوتهم واعتبر ذلك
في الحيوان حال العجم بدواجن الظبا والبقر الوحشية والحمر اذا زال توحشها بمخالطة الادميين واخصب
عيشها كيف تختلف حالها في الانتهاض والسدة حتى يفيها وحسن اديها وكذلك الادمي المتوحش
اذا انس والف وسببه ان يكون السجايا والطبايع انما هو عن الملوفات والعوايد • واذا كان الغلب
للامم انما يكون بالاقدام والبسالة فمن كان من هذين الاحوال اعرق في البداوة واكثر توحشا كان اقرب
الى التغلب على سواه اذا تقارباه في العدد وتكافاه في القوة والعصابة • وانظر في ذلك شان
مضر مع من قبلهم من حمير وكهلان الساكنين الى الملك والنعيم ومع ربيعة الموطنين ارباب
العراق ونعيمها طالبتي مضر على بداوتهم وتقدمهم الاخرون الى حسب العيش وعضادة النعيم كيف
ارسخت الدارة صرم في التغلب فغلبوهم على ما في ايديهم وانتزعوه منهم وكذا حال بني عامر بن
صعصعة وبني سليم بن منصور ومن بعدهم لما تاخروا في تاديتهم عن سائر قبايل مضر ولم يلتبسوا
بتمدن امم كنبا مسكن حال البداوة عليهم قوة عصبيتهم ولم تخلقها مذاهب الترف حتى صار الغلب
على الامر منهم وكذا كل حي من العرب على نعيما وعسا حضبا دون الحي الاخر فان الحي المبتدي يكون
اغلب له واقدر عليه اذا تكافاه في القوة والعدد سنة الله في خلقه •

فصل في ان العامة يجري اليها العصبية

وذلك لانا قد قدمنا ان العصبية تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل امر يجتمع عليه وقدمنا
ان الادميين بالطبيعة الانسانية محتاجون في كل اجتماع الى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض
فلابد ان يكون متغلبا عليهم تلك العصبية والا لم تتم قدرته على ذلك وهذا التغلب هو الملك
وهو امر زايد على الرياسة لان الرياسة انما هي سودد وان صاحبها متبوع وليس له عليهم قهر
في احكامه • واما الملك وهو التغلب والحكم بالقهر وصاحب العصبية اذا بلغ الى رتبة مطلب
ما فوقها فاذا بلغ رتبة السودد والاتباع ووجد السبيل الى التغلب والقهر لا تركه لانه مطلوب
للنفس ولا تتم اقتدارها عليه الا بالعصبية التي يكون بها متبوعا فالتغلب الملكي غاية للعصبية
كما رايت ثم ان القبيل الواحد وان كانت فيه بيوتات متعددة وعصبيات متعددة فلابد من عصبية
تكون اقوى من جميعها تغلبها وتستتبعها وتلتحم جميع العصبيات فيها وتصير كالها عصبية واحدة
كبرى والا وقع الافتراق المقتضي الى الاختلاف والتنازع ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض
لفسدت الارض من ثم اذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعها التغلب على اهل
عصبية اخرى بعيدة عنها فان كافاتها او ما فوقها كانت امما او اطارا وكل واحد منهم
التغلب على حوزتها وقومها شان القبايل والامم المفترقة في العالم وان غلبتها واستتبعتها التحمت
بها ايضا وزادتها قوة في التغلب الى قوتها وطلبت غاية من التغلب والتحكم اعلى من الغاية

الاولي والبعيد وهكذا دواليك حتى تكاد في بعض الاحيان قوة الدولة فان ادركت الدولة في هرمها ولم يكن لها
مانع من اولياء الدولة اهل العصبيات استولت عليها وانتزعت الامر من يدها وصار الملك جميع لها
وان انتهت الى قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة انما قارن حاجتها الى الاستظهار باهل العصبيات
استظهرت الدولة في اوليائها فسيظهرها على ما بعض من مقاصدها وذلك ملك احد دون الملك
المستبد وهو كما وقع للترك في دولة بني العباس وصنهاجة وزناتة مع حكامه ولبني حمدان
مع ملوك الشيعة من العلوية والعباسية فقد ظهر ان الملك هو غاية العصبية وانها اذا
بلغت الى غايتها حصل بتقبيل الملك اما بالاستداد او بالمظاهرة على حسب ما يسعه الوقت
المقارن لذلك وان عاقها عن بلوغ الغاية عوائق كما بيناه وقعت في مقامها الى ان يقضي الله امره

فصل في ان من عوايد الملك حصول الترف

والتماس التقبيل في النعيم وسبب ذلك ان القبيل اذا علت بعصبيتها بعض الغلب
استولت على النعمة بمقدار وشاركت اهل النعم والخصب في نعمتهم وخصبهم وضربت
معهم في ذلك بسهم وحصة بمقدار غلبها واستظهارها بالدولة فان كانت الدولة من القوة بحيث
لا يطمع احد في انتزاع امرها ولا مشاركتها فيه اذعن ذلك القبيل لولائها والتنوع مما يسوغون من
نعمتها وليس يكون فيه من جبايتها ولم يطمع في شيء من منازع الملك ولا اسبابه انما همهم النعيم
والكسب وخصب العيش والسكون في ظل الدولة الى الدعة والراحة والاحد مذاهب الملك في
الثاني والملابس خاصة والاستكثار من ذلك والتأنق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف
وما يدعو اليه من توابع ذلك فيذهب خشونة البداوة ويضعف العصبية والبسالة ويتنعمون
فيما انامهم الله من البسط ويتشابهون واعقابهم في مثل ذلك من الرفع عن خدمة انفسهم وولاية
حاجاتهم ويستكفون عن سائر الامور الضرورية في العصبية حتى يصير لهم ذلك خلقا وسجية
فينقص عصبتهم وبسالتهم في الاجيال بعدهم بتعاقبها الى ان تتعرض العصبية وتستأدون بالاتراك
وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون استزافهم على الفناء فضلا عن الملك فان عوارض الترف والغرق
في النعيم كاسر من سورة العصبية التي بها التغلب واذا انقرضت العصبية قصر القبيل عن
المدافعة والحماية وضلا عن المطالبة والمتهم الامم سواهم فقد تبين ان الترف من
عوائق الملك والله يؤتي ملكه من يشاء

فصل في ان من عوائق الملك حصول الدولة للقبيل

والانقياد لسواهم وسبب ذلك ان المذلة والانقياد كاسران لسورة العصبية
وشدتها فان انقيادهم ومذلتهم دليل على فقدانها فما
للذلة حتى عجزوا عن المدافعة
ومن عجز عن المدافعة فاولى ان يكون عاجزا عن المقاومة والمطالبة واعتبر ذلك في بني اسرائيل
لما دعاهم موسى الى الملك الشام واخبرهم بان الله قد كتب لهم ملكها كيف عجزوا عن ذلك وقالوا

ان فيها قوما جبارين • وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها اي يخرجهم الله منها بضرب من قدرته غير عصبيته
ويكون من معجزاتك يا موسى • ولما عزم عليهم لجوا وازتكبوا العصيان وقالوا له اذهب انت وربك
فقاتلا وما ذلك الا لما انسوا من انفسهم من العجز عن المقاومة والمطالبة كما تقتضيه الآية وما يوجد
في تفسيرها وذلك بما كان حصل فيهم من خلق الانقياد ومارسوا من الذل للقبط احقابا حتى ذهبت
العصبية منهم جملة مع انهم لم يزيلوا مما امرهم به موسى مع ان السام لهم وان العمالقة الذين كانوا
بارض كنعان ليسوا بحكم من الله قدرة لهم فاقصروا عن ذلك وعجزوا بعقولهم على ما علموا من انفسهم من
العجز عن المطالبة لما حصل لهم من خلق المذلة وطعنوا فيما اخبرهم به نبيهم من ذلك وما امرهم به
فعاقبهم الله بالتيه وهو انهم ما هوا في قفر من الارض ما بين الشام ومصر اربعين سنة لم يهتدوا فيها
لعمران ولا نزلوا مصرا ولا خالطوا بشرا كما قصه القرآن • ويظهر من سياق الآية ومفهومها ان حكمة
ذات التيه مقصودة وهي فناء الجيل الذين خرجوا من بيضة الذل والقهر والقوة وتخلقوا به وافسد
من عصبيتهم حتى ينشأ في ذلك التيه جيل آخر غريب لا يعرف الاحكام والقهر والانسام بالمذلة فتنشأ
لهم بذلك عصبية اخرى اقدر وابقى على المطالبة والتغلب ويظهر لك من ذلك ان الاربعين سنة
اقل ما يأتي فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر سبحان الحكيم العليم • وفي هذا اوضح سبيل على شان
العصبية وانها التي يكون بها المدافعة والمقاومة والحماية • والمطالبة وان من فقدها عجز عن
جميع ذلك **ونلحق بهذا الفصل** فيما يوجب المذلة للقبيل شان المغارم والضرائب
فان القبيل الغارم ما اعطوا اليد لذلك حتى رضوا بالمذلة فيه لان في المغارم والضرائب صنفا
ومذلة لاحتمالهما التنوس الحرة الا اذا استمرت عن القتل والتلف وان عصبيتهم حينئذ ضعيفة
عن المدافعة والحماية ومن كانت عصبيته لا تدفع عنهم الضيم فكيف له بالمقاومة او المطالبة
وقد حصل له الانقياد للذل والمذلة غاية ما قد منناه • ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في شان
الحرث لما رأى السكة في بعض دور الانصار فقال ما دخلت هذه دار قوم الا دخلها الذل
فهو دليل صريح على ان المغرم موجب للمذلة هذا الى ما يجب ذل المغارم من خلق المكر والخديعة
بسبب ملكة القهر فاذا رأيت القبيل بالمغارم في ربقة من الذل فلا تطمعن لها بملك لطالما
ومن هنا يتبين لك غلط من يزعم ان زناتة كانوا ساموه تؤدون المغارم لمن كان على عهدهم
من الملوك فلو غلط فاحش كما رأيت اذ لو وقع ذلك لما استتب لهم ملك ولا ثبت لهم دولة
والظرف ما قاله سهر سوار ملك الديلم لعبد الرحمن بن ربيعة لما اطلع عليه وسأله
امانه على ان يكون له فقال انا اليوم منكم بذي ايديكم معكم فمرحبا بكم وبارك
الله لنا ولكم اليكم النصر لكم والقيام بما تحتون ولا تدلونا بالجزية فنهونا لعدوكم
فاعتبر هذا فيما قلناه فانه كاف • والله اعلم •

فصل في ان من علامات الملك

التنافس في الجلال الحميدة وبالعكس لما كان الملك طبيعيا للانسان لما فيه من طبيعة الاجتماع

كما

كما قدمناه وكان الانسان اقرب الى خلال الخير من خلال الشر باصل فطرته وقوة الناطقة العاقلة لان الشر انما جاءه من قبل القوى الحيوانية التي فيه واما من حيث هو انسان فهو الى الخير وخلاله اقرب والملك والسياسة انما كان له من حيث هو انسان لا انها خاصة للانسان لا الحيوان فاذا خلال الخير فيه هي التي تناسب السياسة والملك اذ الخير هو المناسب للسياسة وقد ذكرنا ان المجد اصل يبنى عليه ويتحقق به حقيقته وهو العصبية والعشير وفرع يتم وجوده وكماله وهو الجلال • واذا كان الملك غاية للعصبية فهو غاية لفروعها ومتمماتها وهي الخلال لان وجوده دون متمماته كوجود شخص مقطوع الاعضاء او طهوره عريانا بين الناس واذا كان وجود العصبية فقط من غير انتحال الخلال الحميدة تقتضي في اهل السوق والاحساب فاظنك باهل الملك الذي هو غاية لكل مجد ونهاية لكل حسب فقد تبين ان خلال الخير شاهدة بوجود الملك لمن وجدت له العصبية فاذا انظر ما في اهل العصبية ومن حصل لهم الغلب على كثير من النواحي والامم فوجدناهم يتنافسون في الخير وخلاله من الكرم والعفو عن الزلات والاحتمال من عرا القادر والعزي للصوف وحمل الكل وكسب المعدم والصبر على المكاره والوفاء بالعهد وبذل الاموال في صون الاعراض والحماية من الاكابر والمشايخ ووقيرهم واجلالهم والانقياد للحق مع الداعي اليه وانصاف المستضعفين من انفسهم والتبذل في احوالهم والتواضع للمسكين واستماع شكوى المستغيثين والدين بالشرايع والعبادات والقيام عليها وعلى اسبابها والتحامي عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد وامثال ذلك على ان هذه خلق السياسة قد حصلت لديهم واستحقوا بها ان يكونوا اساسه لمن تحت ايديهم او على العموم وانما حض ساقه الله اليهم مناسب لعصبيتهم وعليهم وليس ذلك سدا فيهم ولا وحدهم منهم والملك انما نسب الخيرات والمرات لعصبيتهم فعلمنا بذلك ان الله باذن لهم بالملك وساقه اليهم وبالعكس من ذلك اذا باذن الله بانقراض الملك من امة حلم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذايل وسلوك طرقها فيفقد الفضايل السياسية منهم جملة ولا يزال في انتقاص الى ان يخرج الامر من ايديهم ويتبدل به سواهم ليكون نعيا عليهم في سلب ما كان الله قد اتاهم من الملك وصل في ايديهم من الخير واذا اردنا ان نعلم قوة امر نامرة فيها فقسقوا فيها لحق على القوت فدمرناها تدميرا • واستقرء ذلك في الامم السابقة تجد كثيرا مما قدناه ورسخناه والله يخلق ما يشاء ويختار • واعلم ان من خلال الكمال الذي يتنافس فيها الفضايل اولوا العصبية وتكون شاهدة لهم بالملك اكرام العشاير والاشراف واهل الاحساب والعرباء • واثرا الناس مناذلهم وذلك ان اكرام القبايل واهل العصبات والعشاير لمن يناهضهم في الشرف وتحاميهم حمل الغيث والعصبية وتشاكلهم في اتساع الجاه امر طبيعي حمل عليه في الاكثر الرغبة في الجاه او المحافظة من قرم المكرم او التماس مثله منه • واما امثال هؤلاء ممن ليس له عصبة تقي ولا جاه توجي فيندفع الشك في شان كرامتهم وتمحض القصد فيهم انه تمجد وانتحال الكمال في الخلال والاقبال على السياسة بالكلية لان اكرام الطارئين من اهل الفضايل والخصوصيات

كمال في السياسة العامة فنعلم بوجود ذلك من أهل عصبية انتظم لهم السياسة العامة وهي الملك
وان الله قد يأذن بوجوده فيهم لوجود علاماتها • ولهذا فإن أول ما يدب من القبيل أهل الملك
اذا أراد الله بقاءهم وسلطانهم اكرام الصنف من الخلق • فاذا رأيته قد ذهبت من أمة من
الامم فاعلم ان التصاميل قد أخذت في الذهاب عنهم وارتقب زوال الملك منهم واذا أراد الله
بقوم سوءا فلا مرد له • والله اعلم

فصل في ان الامة اذا كانت كان ملكها أوسع

وذلك لانهم أغلب على التغلب والاستبداد كما قلناه واستعباد الطوائف لقدرتهم على
محاربة الامم سواهم ولانهم يتنزلون منزلة العدس من الحيوانات البهم وهؤلاء مثل العرب وزناتة
ومن في معناهم من الاكراد والتركمان واهل الشام من صنهاجة وايضا فهؤلاء الموحشون ليس
لهم وطن يرتفقون منه ولا بلد يجبون اليه فنسبة الاقطار والمواطن اليهم على السواء فهذا
لا يقتصرون على ملكة قطرهم وما جاوزهم من البلاد ولا يقفون عند حدود اقليمهم بل يظعنون الى
الاقاليم البعيدة ويتغلبون على الامم النائية وانظر ما محل في ذلك عن عمر رضي الله عنه
لما بويع وقام خطيبا في الناس على العراد فقال ان الجراد ليس لكم بدار الا على التبعة ولا تقوى عليها
الا بذلك ايها الظعائن المهاجرون عن موعد الله سيروا في الارض التي وعدكم الله في الكتاب ان تورثكموها
فقال ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون • واعتبر ذلك ايضا بحال العرب السابقة من قبل
مثل السبئية وحمير كيفما تقلبوا الخطوب من اليمن الى المغرب مرة والى العراق والهند اخرى ولم
يكن ذلك لغير العرب من الامم • وكذا حال المستضعفين لما نزعوا الى الملك ظفروا من الاقليم الاول
ومحالهم منه في جوار هذه السودان الى الاقليم الرابع او الخامس في ممالك المانوس من عمر وابسط
وهذا شان الامم الوحشية فلذلك يكون ملكهم اوسع نطاقا والعهد من مراكزها نهاية والله
مقدر الليل والنهار

وصل في ان الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب

من امة فلا بد من عوده الى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية والسبب في ذلك ان الملك
انما حصل لهم بعد سورة الغلب والاذعان لهم من سائر الامم سواهم فيتعين منهم المباشر للامر
الحاملون لسرير الملك ولا يكون ذلك لجميعهم لما يعلم عليهم من الكثرة التي يضيق عنها نطاق
المراجة وللغيرة التي تحدث الوف كثير من المتطاولين للرتبة فاذا تعين أولئك القائمون
بالدولة انغمسوا في النعيم • وعرفوا في حر الترف والخصب واستعبدوا اخوانهم من ذلك
بالحيل والقعود بهم في وجوه الدولة ومذاهبها • وبقي الذين بعدوا عن الامر وكيوا عن
المشاركة في ظل من عز الدولة التي شاركوها بنسبهم ومنحاة من الهرم وطبختهم الدولة
وأكل الدهر عليهم وشرب بما ارتهف النعيم من حدتهم واسقت عزوة الترف من مائهم
وبلغوا غاياتهم من طبيعة التمدن الانساني والتعلب لسبايا كدود القز ينسج ثم يفنى

• تم الكتاب بحمد الله وحسن عونه في الانعكاس •

كانت

كانت حينئذ عصبية الاخرين موفورة ونعوه عليهم من الكاسر محفوظة وسائرهم في الغلب
معلومة ما لهم الى الملك الذي كانوا ممنوعين منه بالقوة الغالبة من جنس عصبيتهم
وموقع المنازعة لما عرف من عليهم فيستولون على الامر ونصيرا لهم وكذا يتفق فيهم مع من بقي ايضا
عند من عساه يرتهم فلا يزال الملك متجاذبا في الامة الى ان ينكسر سورة العصبية منها او سى
سائر عساكرها سنة الله في الخلوة الدنيا والاخرة عند ربك للمتقين واعتبر هذا بما
وقع في العرب لما انقرض ملك عاد قام به اخوانهم من ثمود ومن بعدهم اخوانهم العمالقة ومن بعدهم
اخوانهم من حمير ومن بعدهم اخوانهم التبابعة من حمير ايضا ومن بعدهم الاذواء كذلك ثم
جاءت الدولة لمضر وكذلك الفرس لما انقرض امر الكيانية ملك من بعدهم الساسانية
حتى باذن الله بانقراضهم جميع بالاسلام وكذا اليونانيون انقرض امرهم وانتقل الى اخوانهم
من الروم وكذا البربر لما انقرض امر مغراوة وكانة الملوك الاول منهم رجع الى
صنهاجة ثم الملثمين من بعدهم ثم المعامرة ثم من بني من شعوب زناتة وهكذا سنة الله في
عباده وخلقه واصل هذا كله انما يكون بالعصبية وهي متفاوتة في الاجيال والملك
لخلقة الرزق ومذهبه كما سنذكره بعد فاذا انقرضت دولة فانما تناول الامر منهم من له
عصبية مشاركة لعصبيتهم التي عرف لها التسليم والانقياد واولى منها الغلب لجميع العصبيات
وذلك انما يوجد في النسب القريب منهم لان تفاوت العصبية بحسب ما قرب من ذلك النسب
الذي فيه او بعد حتى اذا وقع في العالم بتبديل كثير من تحويل مكة او ذهاب عمران او ما شاء الله
من قدرته فحينئذ خرج عن ذلك الجيل الى الجيل الذي باذن الله بقيامه بذلك التبديل كما وقع
لمضر حين غلبوا على الامم والدول واخذوا الامر من ايدي اهل العالم بعد ان كانوا
مكبوحين عنه احقابا

فصل في ان التلون مولع

ابدا بالاقتدار بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر احواله وعوائده والسبب
في ذلك ان النفس ابدا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت اليه اما لنظره بالكمال
بما وقر عندها من تعظيمه او لما يغالط به من ان انقيادها ليس لغلب طبيعي انما هو لكمال
الغالب فاذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقادها تحلت جميع مذاهب الغالب وشعاره
به وذلك هو الاقتداء ولما رواه والله اعلم ان غلب المغالب لها ليس بعصبية ولا قوة باس
وانما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب بغالطة ذلك ايضا عن الغلب وهذا راجع الى الاول
فلذلك ترى المغلوب يتشبه ابدا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها واستعمالها
بل في سائر احواله وانظر ذلك في الابناء مع اباتهم كيف تجدهم متشبهين بهم وايما وما
ذاك الا لاعتقادهم الكمال فيهم وانظر ذلك من وطوم الاقطار كيف يغلب على
اهل رى الحامية وخدم السلطان في الاكثر لانهم الغالبون لهم حتى انه اذا كانت امه
نجاوزاوي ولها الغلب على فتسري اليهم من هذه الشبه والاقتداء كثير كما هو في

الاندلس لهذا العهد مع امم الجلالقة فانك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم واحوالهم حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر يعين الحكمة انه علامة الاستيلاء والامر لله • وتامل في هذا سر تولهم الناس على دين الملك فانه من باب اذا الملك غالب لمن هو بحت يده والرعية معتدون به لاعتقاد الكمال فيه اقتداء الابناء بآبائهم والمتعلمين بمعلميهم • والله الحكيم العليم •

فصل في ان الامة اذا غلبت وصارت

في ملكة غيرها اسرع اليها الفناء • والسبب في ذلك والله اعلم ما تحصل في النفوس من التكاسل اذا ملك امرها غيرها وصارت بالاستيعاد له سواء وعالة عليهم فينقص الامل ويضعف التناسل والاعتمار انما هو مع مدة الامل وما تحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية فاذا انست الامل بالتكاسل وذهبت مذاهبه مع الاحوال وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم • وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم • وعجزوا عن المدافعة عن انفسهم بما حصد الغلب من سوكتهم فاصبحوا مغلبين لكل متغلب طعمة لاكل ملتهم وسواء كانوا اصلوا عن غايتهم من الملك او لم يحصلوا وفيه والله اعلم سر آخر وهو ان الانسان ربما يطبعه بمقتضى الاستحلاف الذي خلق له والرئيس اذا غلب على رياسته وكبح عن مداعبة مكاسل حتى عن سبع بطنه وزيه وهكذا موجود في اخلاق الاناسي • ولقد يقال مثله في الحيوانات المفترسة والفحال الاستاذ اذا كانت في ملكة الادمسين فلا يزال هذا الفحيل المملوك امره عليه في تناقص واضمحلال الى ان ياخذهم الفناء والبقاء لله وحده واعتبر ذلك بامة الفرس كيف كانت وقد ملات العالم كثرة ولما قضيت حامتهم في ايام العرب بقي منهم كثير وآكمة من الكثير فقال ان سعدا احصى من وراء المدائن فكانوا ماية الف وسبعة وثلاثين الفا منهم سبعة وثلاثون الفارس بيت ولما حصلوا في ملكة العرب وقبضته القهر لم يكن تعادهم الا قليلا ودثروا كان لم يكونوا ولا تحسبن ان ذلك نظلم يزال لهم او عدوان شغلهم فملكة الاسلام في العدد ما علمت وانما طبيعة في الانسان اذا غلب على امره وصار له الغير وله هذا فانما يدعن للرق الغالب امم السودان لنقص الانسانية فيهم وقربهم من عرض الحيوانات العجم كما قدمناه او من يرجو بانتظامه في ربقة الرق حصول رتبة او افادة مآب او غير ما يقع لملاك الرق بالمشرق • والمغرب حتى من الجلالقة والافرنجة بالاندلس فان العادة جارية باستخلاص الدولة لهم فلا يأنفون من الرق لما يأملونه من الجاه والرتبة باصطفاء الدولة • والله اعلم

فصل في ان العرب لا يتغلبون الا على البسائط

وذلك انهم بطبيعة البوادي اهل انتهاب وعيث يختطفون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ويفرون الى منتجعهم بالبعد فلا يذهبون الى المراجنة والمحاربة

ء الا اذا دعوا بذلك عن انفسهم فكل معقل او مستصعب عليهم فهم تاركوه الى ما يسهل عنه ولا
يعرضون له والقبايل المتنعة عليهم باوعار الجبال منجاة من غيثهم وفسادهم لانهم
لا يتيممون اليهم الهضاب ولا يركبون الصعاب ولا يحاولون الخطر واما البسايط فهي لقمة
وطعمة لاكلهم يردون اليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم الى ان يصيح اهلها مغلبين لهم
ثم يتعاودونهم باختلاف الايدي واخراف السياسة الى ان سعرض عمرانهم والله وارث على خلقه

فصل ان العرب لا يعلو على الاوطان اسرع ايلا الخراب

والسبب في ذلك انهم امة وحشية باستحكام عوايد التوحش واسبابه فيهم فصار لهم خلقا وجبلة
وكان عندهم ملكة وهي المانعة من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة
منافية للعمران ومناقضة له لمغايرة الاحوال العادية كلها عندهم للرحلة والتنقل وذلك مناقض
للمسكون الذي به العمران ومناف له فما يجيء اما حاجتهم اليه لنصبهم انا في المعدن فيتقلونه
من المباني ويخربونها عليه ويعدونه لذلك والحسب ايضا اما حاجتهم اليه ليعمروا بها حيا مهم
ويتخذوا الاوتاد منها لبيوتهم فيخربون السقوف عليهم لذلك فصارت طبيعة وجودهم منافية
للشيء الذي هو اصل العمران هذا في حالهم على العموم وايضا فطبيعتهم انتهاب ما في ايدي الناس
وان رزقهم في ظلال رماحهم وليس عندهم في احراز اموال الناس حد يقفون عنده كلما
امتدت اعينهم الى مال او متاع او ماعون انتهبوه فاذا هم اقتدروا على ذلك بالتغلب
والملك بطلت السياسة في حفظ اموال الناس وخرب العمران وايضا فانهم يكلفون على اهل
الاعمال من الصنايع والحرف اعمالهم لا يرون لها قيمة ولا استظهار من الاجر والثمن والاعمال كما ذكرنا
بما اصل المكاسب وحقيقتها فاذا فسدت الاعمال وصارت مجانا ضعفت الآمال في المكاسب
وانقبضت الايدي عن العمل وا عن الساكن وسند العمران وايضا فانهم ليست لهم عناية
بالاحكام وزجر الناس عن المفاسد ودفاع بعضهم ببعض انما يهمهم ما يأخذونه من اموال
الرعية هنيا او مغرما فاذا توصلوا الى ذلك وحصلوا عليه اعرضوا عما بعده من تسديد احوالهم
والنظر في مصالحهم وربما ينهى بعضهم عن اعراض المفاسد وربما فرضوا العقوبات في الاموال
وهما على تحصيل الفايدة والكيانة والاستكثار منها كما يوسنا نفهم وذلك ليس بمغن في دفع المفاسد
وزجر المتعرض لها بل يكون ذلك زايدا فيها لاستهلال الغرم في جانب حصول الغرض فتبقى
الرعايا في ملكهم كانها فوضى دون حكم والفوضى مهلكة للبشر مفسدة للعمران بما ذكرناه
من ان وجود الملك خاصة طبيعية للانسان لا يستقيم وجودهم واجتماعهم الا بها وتقدم
ذلك اول الفصل وانتهم متنافسون في الرياسة وقلما ان يسلم احد منهم
الامر لغيره ولو كان اباه او اخاه او كبير عشيرته الا في الاقل وعلى كره من اجل الحياء فتعدد
الحكام منهم والامراء وتختلف الايدي على الرعية في الجباية فيفسد العمران وينتقص
حال الاعرابي لعبد الملك لما سأله على الحجاج واراد التنا عليه بحسن السياسة

والعمران فقال تركته بطلم وحده واستطرا إلى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الأوطان من لدن الخليقة
كيف سوّض عمرانه واقفر ساكنه وبدلت الأرض فيه غير الأرض واليمن قرارهم حراب من الأصاب
وعراق العرب كذلك وقد خرب عمرانه الذي كان للفرس أجمع والشام لهذا العهد كذلك
وأوربة والعرب لما اجازانها بنو هلال وبنو سليم منذ عهد المائة الخامسة وتمرسوا بها
لثلاثة وخمسين من السنين قد حق بها وعادت بسابيطة حراما كلها بعد ان كان ما بين السودان
والبحر الرومي كله عمران متصل بذلك آثار العمران فيه من المعالم وما يثل البناء وسوامد
العتري والمدائر والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين

فصل ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بطبيعة دينية

من نبوة او ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة والسبب في ذلك انهم لخلق الوحش الذي فيهم اصعب
الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والانفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة فقل ما يجتمع امتان
فاذا كان الدين بالنبوات او الولاية كان الوازع لهم من انفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل
انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والانفة الوازع عن التحاسد والتنافس
فاذا كان فيهم النبي او الولي الذي يدعوهم الى الله بامر الله ويذهب عنهم مذمومات الاخلاق ويأمرهم
بمحمودها ويؤلف كلمتهم لاظهار الحق ثم اجتماعهم وحصل لهم العلب والملك وتمم مع ذلك اسرع الناس
قبولا للحق والهدي للامة طباعهم من عوج الملكات وبرائها من ذميم الاخلاق لانها كان من خلق الوحش
التهيب للمعاناة المهني لتقبل الخير بقابليه على الفطرة الاولى وبعد عما يطبع في النفس من قبيح
العوائد وسوء الملكات فان كل مولود يولد على الفطرة كما ورد في الحديث

فصل في ان العرب اشد الامم عن سياسة الملك

والسبب في ذلك انهم اكثر بداوة من سائر الامم وابعد محالا في القفر واعنى عن حاجات الملوك
وعوائدها لاعتيادهم التطف وخشونة العيش فاستغنوا عن غيرهم فصعبت انقيادا وبعضهم لبعض لما فيهم
ذلك وللتوحش وريشهم محتاج غالبا فيهم للعصبية التي بها المدافعة فكان مضطرا الى احتمال
ملكهم وتول مراعمتهم ليد تحصل عليه شأن عصبية فيكون فيها هلاكه وهلاكهم وسياسة الملك
والسلطان يقتضي ان يكون السائس وازعا بالقهر والالم لستقيم سياسته وايضا فمن طبيعتهم كما قدمناه
احدهما في ايدي الناس خاصة والحامي سوى ذلك من الاحكام بينهم ودفاع بعضهم عن بعض فاذا ملكوا
امة من الامم جعلوا غاية ملكهم الاستباع باحدهما في ايديهم وتركوا ما سوى ذلك من الاحكام
وربما جعلوا العقوبات على المفاسد في الاموال عرضا على كثير الحاجات وتحصيل الفوائد فلا
يكون ذلك وازعا ورادعا كما يكون باعثا بحسب الاعواض الباعثة على المفاسد واستهانة ما يعطى من جاب
ماله في جانب عرضه فتعم المفاسد بذلك ويتبع خراب العمران فيبقى تلك الامة كانها فوضى مستطيلة
ايدي بعضها على بعض فلا يستقيم لها عمران وخرب سريعا شان الوحش كما قدمناه وبعد طباع

العرب

العرب لذلك كله عن سياسة الملك • وانما يصيرون اليها بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصيغة دينية يمحو ذلك منهم ويجعل الروادع لهم من انفسهم وعلم على دفاع الناس بعضهم على بعض كما ذكرناه واعتبر ذلك بدو لتهم في الملة لما سيد لهم الدين امر السياسة بالشريعة واحكام المراعاة لمصالح المرائر ظاهرا وباطنا وتابع فيها الخلفاء عظيم ملكهم وقوى سلطانهم • كان رسم اذا رأى المسلمين مجتمعون للصلاة اكل عمر كدى بعلم الكلاب الآداب ثم انهم بعد ذلك انقطعت بينهم عن الدولة اجيال نبذوا الدين فنسوا السياسة ورجعوا الى فطرهم وجهلوا اتباع صبتهم مع اهل الدولة بعدهم عن الانقياد واعطاء الصفة فتوحشوا كما كانوا ولم يبق لهم من اسمه الا انه للثناء وبهم من حلم **ولما رست امر الحلام** وانحا رسما انقطع الامر جملة من ايديهم وغلب عليه العجم دونهم واقاموا باذنه في فقارهم لا يعرفون الملك ولا السياسة بل قد يجهل اكثر منهم انهم كان لهم ملك في القديم وما كان لاحد من الامم في الخليقة ما كان لاحالهم من الملك ودول عاد وثمود والعمالقة • وحمير • والشايعة شاهد بذلك • ثم دولة مضر في الاسلام بني امية • وبني العباس بكر بعد عمهم بالسياسة لما نسوا الدين فرجعوا الى اصلهم من الله اوة وقد تحصل لهم في بعض الاحيان غلب على الدول المستضعفة فلا يكون مآله وعاقبة الا الخراب ما سيتولون عليه من العمران كما قدمناه • والله تعالى اعلم •

الفصل الثالث في الدول والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه قواعد ومتممات

• والدولة العامة انما تحصل بالقبيل والعصبية وذلك انه قد قررنا في الفصل الاول ان المغالبة والممانعة انما تكون بالعصبية لما فيها من العزة والتدامر واستماتة كل واحد منهم دون صاحبه • ثم ان الملك منصب شريف مكذوذ يشتمل على جميع اللذات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية فيقع فيه التنافس غالبا وقل ان يسلم احد لصاحبه الا اذا غلب عليه فيقع في المنازعة ويفضي الى الحرب والقتال والمغالبة وشيء من هذا لا يقع الا بالعصبية كما ذكرناه انفا وهذا الامر بعيد عن افهام الجمهور بالجملة ومتاسون لذلك بسوء عهد بمبتدا الدولة منذ اولها وطال امد مرباتهم في الحضارة وتعاقبهم فيها جيلا بعد جيل فلا يعرفون ما فعل الله اول الدولة انما يدركون اصحاب الدولة وقد استحكمت صنعتهم ووقع التسليم لهم والاستغناء عن العصبية ولا يعرفون كيف كان الامر وما لقي اولهم من المتاعب دونه وخصوصا اهل الاندلس في نسيان هذه العصبية وانها لطول الامد واستغنائهم في الغالب عن قوة العصبية بما لاشى وطنهم وخلا من العصبيات والله قادر على ما يشاء

فصل في انه اذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصبية

• والسبب في ذلك ان الدول العامة في اولها تصعب على النفوس الانقياد لها الا بقوة من الغلب للعرابة وان الناس لغير ما الفوا امرها ولا اعتادوا

فاذا استقرت الرياسة في اهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحدا بعد آخر
في اعقاب كيفما ودول متعاقبة سميت التوسان الاولية واسميت لاهل ذلك النصاب
صبغة الرياسة • وزيح عنهم العوائد من الانقياد لهم والتسليم واعطاء الصفقة بطاعتهم
وقاتل الناس معهم على امرهم فنالهم على العوائد الايمانية فلم يحتاجوا حينئذ في امرهم الى كبير
عصابة بل كان طاعتهم كائنا من الله لا بد • وايعلم خلافة ويكون استظهارهم حينئذ على
سلطانهم ودولتهم المخصوصة اما بالموالي والمصطنعين الذين نشوا في ظل العصبية ومحوها
واما بالعصائب الخارجة عن نسبها • ومثال هذا وقع لبني العباس فان عصبية العرب كانت
شدت لعهد دولة المعتصم وابنه الواثق واستظهارهم من بعد ذلك انما كان بالموالي من
العجم الترك والديلم والسلجوقية • وعزهم • ثم تغلب العجم على النواحي وتقلص ظل الدولة
فلم يكن بعد بغداد حتى رجعت اليها الديلم فملكوها وصار الخلائف في حكمهم ثم انقرض امرهم
وزحف اخر التتار فقتلوا الخليفة ومحوا رسم الدولة وكذا صنع صنيعتهم بالمغرب فشدت عصبتهم
منذ المائة الخامسة او نحوها واستمرت لهم الدولة منتظمة الظل بالمهدية وبجاية والقلعة
وسائر ثغور افريقية وربما ابتزي بتلك الثغور من بادعهم الملك واعتصم فيها والسلطان والملك
مع ذلك مسلم لهم حتى يأذن الله بانقراض الدولة وجاء الموحدون بقوة قوتهم من العصبية
في المصامدة فمحوا اثارهم • وكذا دولة بني امية بالاندلس لما شدت عصبيتهم من المغرب استولى
ملك الطوائف على امرها واقتسموا خطتها وتناسوا ابنهم ونوروا عوامل الدولة وابتزى كل
احدهم على ما كان في ولايته ونسخ ما بعده وبلغهم سلطان العجم مع الدولة العباسية فتلقبوا بالقاب
الملك ولبسوا شاراته وامنوا ممن يقصد ذلك عليهم او بغيره لان الاندلس ليست بدار عصائب
ولا قبائل كما سنذكره واستمر لهم ذلك ثم قول ابن سعيد

• مما يزهدني في ارض اندلس • اسماء معتصم فيها ومعتضد •
• القاب مملكة في غير موضعها • كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد •

فاستظهروا على امرهم بالموالي والمصطنعين والطوائع على الاندلس من قبائل البربر من ذناته
وغيرهم اعتدادا بالدولة في اخوانها في الاستظهار بهم حين ضعفت عصبية العرب واستبد
ابن الى عامر على الدولة وكان لهم دول عظيمة استبد كل واحد منهم بجانب من الاندلس وحط
كثير من الملك على شبه الدولة التي اقتسموها ولم يزالوا في سلطانهم ذلك حتى حال لهم البحر
المرابطون اهل العصبية اللمتونية من لمتونة فاستبدوا بهم وازالوهم عن مراكزهم ومحوا اثارهم
لم يقدروا على امداد اعتهم لفقدان العصبية لديهم فهذه العصبية تكون عمد الدولة
وحماتها من اولها • وقد ظن الطرطوشي ان حامية الدولة باطلاقهم الجند اهل العطاء
المفروض مع الاهلة ذكر ذلك في كتابه الذي سماه سراج الملوك وكلامه لا يتناول
تاسيس الدولة العامة في اولها وانما هو مخصوص بالدولة الاخيرة بعد التمهد واستقرار
الملك في النصاب واسحكام الصنعة لاهله فالرجل انما ادرك الدولة عند هرمها وخلق

مدتها ورجوعها الى الاستظهار بالموالي والصنايع ثم الى المستخدمين من وراءهم بالاجر على المدافعة فانه انما ادرك دول الطوائف وذلك عند اضلال دولة بني امية والتراض عصبيتها من العرب واستبداد كل امير بقطره وكان في اوائل المستعين ابن هود وابنه المطتعر اهل سرقسطه ولم يكن بقي لهم من امر العصبية شيء لاستيلاء الترف على العرب منذ ثلاثمائة من السنين وهلاكهم ولم ير الاسلطانا مستبدا بالملك عن عشائر قد استحكمت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة وبقية العصبية فهو لذلك لا ينازع فيه ويستعين على امره بالاجرا فاطلق الطرطوشي القول في ذلك ولم ينقطن لكيفية الامر منذ اول الدولة وانه لا يتم الا لاهل العصبية فتفطن له واتهم سر الله فيه والله يؤتي ملكه من

فصل في انه قد يحدث لبعض ايام الدولة

الملكي دولة يستغني عن العصبية وذلك انه اذا كان لعصبيته غلب كثير على الامم والاجيال وفي نفوس القائمين بامره من اهل العصبية اذعان لهم وعصبية فاذا نزع اليهم هذا الخارج واسعد عن مقره ممكنه ومنبت عزه استملوا عليه وقاموا بامره وظاهر على شانه وعنوا بتمهيد دولته يرجون استقرارها في عقابه وتناوله الامور من يده اعياضه وجزاء على مظاهرته باصطفائهم لرتب الملك و من وزارة او قيادة او ولاية نغر ولا يظلمون في مشاركته في شيء من سلطانه لسلما لعصبيته وانقياد لما استحكم له ولقومه من صبغة الغلب في العالم فلو رام امر معدا او دونه لزلزلت الارض زلزالها وهذا كما وقع للاوراسة بالمغرب الاقصى والعبيدين بافريقيه ومصر لما انتبذ الطالبون من المشرق الى القاصيه واسعدوا عن مقر الخلافة وسموا الى طلبها من ايدي آل العباس بعد ان استحكمت الصنعة لبني عبد مناف لبني امية اولا ثم لبني هاشم من بعدهم فخرجوا بالقاصية من المغرب ودعوا لانفسهم وقام بامرهم البرابرة مرة بعد اخرى ومعينه للاوراسة وكتامة وصنهاجه ومواليه للعبيدين فشيدوا دولتهم ومهدوا لعصابتهم امرهم واقتطعوا من ممالك العباسيين المغرب كله ثم افريقية ولم يزل ظل الدولة يتقلص وظل العبيديين يمتد الى ان ملكوا مصر والشام والحجاز وقاموا بها في الممالك الاسلامية ستين عاما وهولاء البرابرة القائمون بالدولة مع ذلك كلهم مسلمون للعبيديين امرهم مذعنون لملكهم وانما كانوا نابتين في الرتبة عندهم لسلبهم لما حصل من صنعة الملك لبني هاشم ولما استحكم من الغلب لقريش ومضر على سائر الامم فلم يزل الملك في اعقابهم الى انقراض دولة العرب باسرها والله يحكم لا معقب لحكمه

فصل في ان الدولة العامة لا تستعلي

العظيمة الملك اصلها الدين اما من نبوة او دعوة حق وذلك ان الملك انما يحصل بالتغلب والغلب انما يكون بالعصبية والتحام الكل على المطالب وجمع الكلوب وتالبها انما يكون بمعونة من الله في اقامة دينه قال تعالى لو انفقت ما في الارض جميعا ما الفت

بين قلوبهم وسر ان القلوب اذا نزاعت الى سواء الباطل واقبلت على الله احدث وجهتها والميل
الى المدنا حصل التنافس وقسا الخلاف واذا انصرفت الى الحق ورفضت الدنيا والباطل واقبلت
على الله احدث وجهتها وذهب التنافس وقل الخلاف وحسن التعاون والتعاضد واتسع نطاق
الكلمة لذلك فعظمت الدولة كما يتبين لك بعد والله تعالى اعلم

فصل في ان الدعوة الدينية ترد الدولة

في اصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عدد والسبب في ذلك كما قدمناه ان الصبغة
الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في اهل العصبية وتفرد الوجهة الى الحق فاذا حصل لهم الاستيلاء
في امرهم لم يقف لهم شيء لان الوجهة واحدة والمطلوب متسا وعند جميعهم وهم مستميتون عليه واهل
الدولة التي هم طالبوها وان كانوا اضعافهم فاغراضهم متناسية بالباطل ومحادلهم لبقية الموت فعال
فلا يقاومونهم وان كانوا اكثر منهم بل يغلبون عليه ويغلبهم الفتا ما فيهم من الترف والذل
كما قدمناه وهذا كما وقع للعرب صدر الاسلام في الفتوحات فكانت جيوش المسلمين بالقادسية
واليرموك بضعا وتلتين الفا في كل معسكر وجموع فارس مائة وعشرون الفا بالقادسية وجموع
هرقل على ما قاله الواقدي اربعماية الف فلم يقف لهم احد من الجانبين وهزموهم وغلبوهم على ما بايديهم
واعتبر ذلك ايضا في دولة المتونة ودولة الموحدين فقد كان بالمغرب من القبائل كثير ممن يقاومهم
في العدد والعصبية او يشف عليهم الا ان الاجماع الذي ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستمام
كما قلناه فلم يقف لهم شيء واعتبر ذلك اذا حالت صبغة الدين وفسدت كيف ينتقض الامر ويصير الغلب
على نسبة العصبية وحدها دون الدين فتغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب
المخالفة لها او الزائدة القوة عليها الدين عليهم بمضاعفة الدين لقوتها وكانوا اكثر عصبية منها
او اشد بداوة واعتبر هذا في الموحدين مع زناتة لما كان زناتة اذ ذاك من المصامدة واشد توحشا
وكان المصامدة الدعوة الدينية باتباع المهدي فلبسوا اصبغتها وتضاعفت قوة عصبيتهم
بها فغلبوا على زناتة اولا واستتبعوهم وان كانوا من حيث العصبية والبداوة اشد منهم فلما
خالوا عن تلك الصبغة الدينية انتقضت عليهم زناتة من كل جانب وغلبوهم على الامر وانتزعوه
منهم والله غالب على امره

فصل في الدعوة الدينية من غير عصبية ياسر

وهذا لما قدمناه من ان كل امر يحمل عليه الكافة فلا بد له من عصبية وقد قال علي رضي
الله عنه ما بعث الله نبيا الا في منعة من قومه واذا كان هذا في الانبياء اولى الناس بخرق
العوايد فما ظنك بغيرهم ان لا خرق له العادة في الغلب بغير عصبية وقد وقع هذا لابن وتي
شيخ المتصوفة وصاحب كتاب خلع النعلين في التصوف تاريا لابن داعيا الى الحق
وسمى اصحابه بالمرابطين فقبل دعوة المهدي فاستتب له الامر قليلا لشغل المتونة بما دهمهم

من امر

شبكة الألوكة www.alukah.net

من امر الموحدين ولم يكن هناك عصائب ولا قبائل يدفعونه عن سلطانه فلم يلبث حين استولى الموحدون
على المغرب ان اذعن لهم ودخل في دعوتهم وتابعهم من معقله بحصن اركش وامكنهم من بعره وكان
اول دعائهم لهم بالاندلس وكانت نوبة تسمى نوبة المرابطين **ومن هذا الباب** احوال الولاة
القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء فان كثيرا من المتحلين بالعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون
الى القيام على اهل الجور من الامراء داعين الى تغيير المنكر والنهي عنه والامر بالمعروف وكل ذلك رجاء
في الثواب عليه من الله وكثر اتباعهم والملتبسون بهم من الغوغاء والدهماء ويعرضون بانفسهم في ذلك
للهلاك واكثرهم يهلك في تلك السبيل ماذورين غير ماجورين لان الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم
وانما امره حيث يكون القدرة عليه قال صلى الله عليه وسلم من رأى منكم منكرا فليغيره بيده
فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه واحوال الملوك والدول راسخة قوية لا ترجى
وهدم بناؤها الا المطالبة القوية التي من ورائها عصبية العشائر والقبائل كما قدمناه وهذا كان
حال الانبياء في دعوتهم الى الله بالعصائب والعشائر وهم الموعودون من الله لو شاء لكون كلهم لكنه
انما اجرى الامور على مستقر العادة والله حكيم عليم فاذا دعت احد من الناس هذه المذلة وكان
فيه محقا فقصره الناقد عن العصبية فطاح في هوة الهلاك واما ان كان من الملتبسين بذلك
في طلب الرياسة فاحد ران يعوقه العوائق وتقطع به المهالك لانه امر الله لا يتم الا برضاه واعانته
والاخلاص له والنصيحة للمسلمين لا شك في ذلك مسلم ولا ارتياب فيه ذو بصر واول من ابتدا
هذه النزعة في الملة ببغداد حين وقعت فتنة طاهر وقتل الامين وابطاء المامون بخراسان
عن مقدم العراق ثم محمد بن علي بن موسى الرضا من آل الحسين فكشف بنو العباس عن وجه النكير عليه
وندعو للعامة وضلع طاعته المامون والاسندال منه وبويع ابراهيم بن المهدي موقع الطرح ببغداد
وانطلقت ايدي الشطار والحربية بها على اهل العافية والصون وقطعوا السبيل وامتلات
ايديهم من نهب الناس وباعوا علانية في الاسواق واستعدا (؟) الحكام فلم يعدوهم فتوامر اهل
الدين والصلاح على منع الفساق وكف عادتهم وقام سادة العراق رجل يعرف بخالد الدريوس
ودعا الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فاجابه خلق وقاتل اهل الدعارة وغلبهم واطلق فيهم
بالضرب واستكمل ثم قام من بعده رجل آخر من سواد العراق اهل بغداد يعرف لسهل ابن
سلامة الانصاري ويكنى ابا حاتم وعلق مصحفا في عنقه ودعا الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر
والعمل بكتاب الله وسنة نبيه واتبعه كافة الناس من سرب وضبع من بني هاشم فمن دونهم
ونزل قصر طاهر واتخذ الديوان وطاف ببغداد ومنع كل من اطاف من المارة ومنع الحفارة
لاولياء الشطار وقال له خالد الدريوس انا لا اعيب على الشيطان فقال له سهل لكني اقاتل كل
من خالف الكتاب والسنة كاينا من كان وذلك سنة احدى ومائتين وجهز له ابراهيم بن المهدي
العساكر فهزمه واسر سريعا وذبح وبجا نفسه ثم اقتدى بهذا العمل بعد كثير من
الموسوسين يحدون انفسهم باقامة الحق ولا يعرفون ما يحتاجون في اقامته من العصبية ولا
يشعرون بمغبة امرهم ومآل احوالهم والذي يحتاج اليه في امر مولاء اما الدواء ان كانوا من

بل الجنون واما التنكيل بالقتل او الضرب ان احدثوا هرجا واما اذاعة السخريا منهم وعدهم في جملة الصابئين
وقد ينسب بعضهم الى الفاطمي المستطرا مانه نبوا وانه داع له وليس مع ذلك على علم من امر الفاطمي ولا هو
واكثر المتحلين لمثل هذا الجدهم موسوسين او مجانين او ملتبسين يطلبون بمثل هذه الدعوى رياسة
امتلات بها جوانحهم وعجزوا عن التوصل اليها بنبي من اسبابها فيحسبون ان هذا من الاسباب البالغة لهم الى
ما يؤملونه من ذلك ولا يحسبون ما يأتي لهم فيه من الهلكة فيسرع اليهم القتل بما يحدثونه من الفتنة ولسوء
عاقبة مكرهم وقد كان اول هذه المادة خرج بالسوس رجل من المتصوفة يدعى التوبربي عمل على عدالى مسجد
ماسة بساحل البحر من ممالك وزعم انه الفاطمي المنتظر فتبعه على العامة بما ملاء قلوبهم من الحدثان باسطاره
هنالك وان من ذلك المسجد يكون اصل دعوته فتهافت عليه طوائف من عامة البربر تهافت الفراش
ثم حتى رؤسا وهم الاشياع بطاق الفتنة فدس اليه كبير المصامدة عمر اسكسيوي من قتله في فراشه
وكذلك خرج بن عمار اول هذه المادة ايضا رجل يعرف بالعباس وادعى مثل هذه الدعوى واتبع
بعقة الارذلون من سفهاء تلك القبائل وعمارهم وزحافي بادس من امصارهم فدخلها عنوة ثم قتل
لاربعين يوما من ظهور دعوته ومضى في الهالكين الاولين واما ذلك كثير والغلط فيه من
الغفلة عن اعتبار العصبية في مثلها واما ان كان التلبيس فاخرا ان لا يتم له امر وان يتوه بامة وذلك
جزاء الظالمين

فصل في ان ثمار الدولة لها حصة من الممالك والاوطان

لا تزيد عليها والسبب في ذلك ان عصابة الدولة وقومها القائمين بها المعتدين لها لا تذلها
من توزيعهم حصصا على الممالك والثغور التي يصير اليهم ويستولون عليها لحمايتها من العدو وامضاء
احكام الدولة فيها من جبايته وردع وغيره لذلك فاذا توزعت العصائب كلهم على الثغور والممالك
ولا بد من نقود عددهم وقد تلبث الممالك حينئذ الى حد يكون ثغر الدولة وبخا لوطنها ونطاقا
لمركز ملكها فان تكلفت الدولة لعدد ذلك زيادة على مايبقى دون حاميته وكان موضعا لاتهاب
الفرصة من العدو المجاور ويعود وبال ذلك على الدولة انما يكون فيه من التجاسر وخروج سياج
الهيبة وما كانت العصابة موفورة ولم ينقد عدد في توزيع الحصص على الثغور والنواحي بقي
في الدولة قوة على ساول ما وراء الغاية حتى ينتهي نطاقها الى غايته والعلة الطبيعية في ذلك
ان قوة العصبية هي من سائر القوى الطبيعية وكل قوة يصدر عنها فعل من الافعال فشانها ذلك
في فعلها والدولة في مركزها اشد ما تكون في الطرف والنطاق واذا انتهت الى النطاق الذي
هو الغاية عجزت وقصرت عما وراءها من الاستعانة والانواء واذا انبعث من المراكز والدوائر المتسحة
على سطح الماء من الحجر عليه ثم اذا ادركها الهرم والضعف فانما ياخذ في التناقص من جهة الاطراف
ولا يزال المركز محفوظا الى ان تتداول فيه بالتراض او مرجلة فحينئذ يكون انقراض المركز واذا
غلب على الدولة من مركزها فلا يتبعها بقاء الاطراف والنطاق بل يضمحل لوقتها فان المركز
كالقلب الذي ينبعث منه الروح فاذا اعتلى القلب وملك الهرم جميع الاطراف وانظر هذا
في الدولة الفارسية كان مركزها المدائن فلما غلب المسلمون على المدائن انقرض امر فارس اجمع ولم

بيتفع يزدجرد ما بقي بيده من اطراف مما يليه وكذلك الدولة الرومية بالشام لما كان مركزها القسطنطينية وعليهم المسلمون على الشام بحيرة الى مركزهم بالقسطنطينية ولم يضرهم انتزاع الشام من ايديهم فلم يزل ملكهم متصلا الى ان اذن الله بانقراضه واستطرد ايضا ستان العرب اول الاسلام لما كانت عصابتهم موفورة كيف يطمع في ما جاورهم من الشام والعراق ومصر لاسرع وقت ثم تجاوزوا ذلك الى ما وراء من النيل والسند والحبشة وافريقية والمغرب ثم الى الاندلس فملكوها واحصنوا على الممالك والثغور وتركوا حاميته وتقدد عددهم في تلك التوزيعات اضعاف اضعاف عن التوجهات بعد وامني امر الاسلام ولم تجاوز تلك الحدود ومنها تراجعت الدول حتى ياذن الله بانقراضها وكذا كان حال الدول من بعد ذلك كل دولة على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة وعند نفوذ عددهم بالتوزيع يقطع لهم الفتح والاستيلاء سنة الله في خلقه

فصل في ان عظم الدولة واتساع نطاقها وطول امرها

على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة والسبب في ذلك ان الملك انما يكون بالعصبية واهل العصبية هم الحامية الذين يترتبون ممالك الدولة واوطارها ويقتسمون عليها فما كان من الدول العامة قبيلها واهل عصابتها اكثر كانت اقوى واكثر ممالك واوطانا وكان ملكها اوسع كذلك واعمر ذلك بالدولة الاسلامية لما الف الله كلمة العرب على الاسلام وكان عدد المسلمين في غزوة تبوك اثر غزوة النبي صلى الله عليه وسلم مائة الف وعشرة آلاف من مضر وخطامها من فارس وراجل الجيش منهم بعد ذلك الى الوفاة فلما توجهوا الطلب ما في ايدي الامم من الملك لم يكن دونه حمى ولا ورد فاستبيح حمى فارس والروم اهل الدولتين العظيمتين في العالم بعدهم والاوعار والبرسوا بالمغرب والقوط بالاندلس وخطوا من الحجاز الى السوس الاقصى ومن اليمن الى الزنج بافقي الجنوب واستولوا على الاقاليم السبعة ثم انطرد بعد ذلك دولة صنهاجة والموحدين مع العبيديين فبلغ لما كان قبل كلمة القائمين بدولة العبيديين اكثر من صنهاجة ومن المصامدة كانت دولتهم اعظم فملكوا افريقية والمغرب والشام ومصر والحجاز ثم انطرد بعد ذلك الى دولة زناتة لما كان عددهم اقل من المصامدة وقصر ملكهم عن ملك الموحدين لقصور عددهم عن عدد المصامدة منذ اول امرهم ثم اعتبر بعد ذلك حال الدولتين لهذا العهد لزناتة بني مرين وبني عبد الواد لما كان عدد بني مرين لاول ملكهم اكثر من بني عبد الواد كانت دولتهم اقوى منها واوسع نطاقا وكان لهم عليهم الطلبة مرة بعد اخرى يقال ان عدد بني مرين لاول ملكهم كانوا مائة الف وان عدد بني عبد الواد كانوا الفا الا ان الدولة بالروم وكثرة التابع كثرة من اعدادهم وعلى هذه النسبة في اعداد المتغلبين لان الملك يكون لاتساع الدولة وقوتها واما طول امدها ايضا فعلى تلك النسبة لان عمر الحادث من قوة مزاجه ومزاج الدول انما هو بالعصبية فاذا كانت العصبية قوية كان المزاج تاما لها وكان امد العمر طويلا والعصبية انما هي بكثرة العدد وقوته كما قلناه والسبب الصحيح في ذلك ان النقص انما يبتدأ الدولة من الاطراف فاذا كانت مالكها كثيرة كانت اطرافها بعيدة من مركزها وكثيرة وكل نقص يقع فلا بد له من زمن فيكبر زمان النقص لكثرة الممالك واختصاص كل واحدة منها بنقص

وزمانه فيكون امدها طويلا واطرد ذلك في دولة العرب الاسلامية كيف كان امدها اطول الدول
بنو العباس اهل المركز وكابنوا امية المسعدون بالاندلس فلم يتمض امر جميعهم الا بعد لا ربما يه من
المجز ودولة العبديين كان امدها قريبا من مائتين وثمانين سنة ودولة صنهاجة دونهم من لدن تليد
معد المعز امر افريقية لبلكين بن مسنة ثمان وخمسين وخمسمائة ودولة الموحدين لهذا العهد
شاهدها من وستين سنة وهكذا سبيل الدول في اعمارها على نسب الثانين بحاسبة الله التي قد خلت في عباده

فصل في ان الاوطان الكثيرة العصائب والعساكر

قد اذن بحكم فاد دولة والسبب في ذلك اختلاف الاراء والاهواء وان ورد كل راي منها وهوى عصبية
عالم دونها فيكثر الانتقاض على الدولة والخروج في كل وقت وان كانت ذات عصبية لان كل عصبية من
تحت يدها قطن في نفسها منعة وقوة وانظر ما وقع من ذلك بافريقية والمغرب منذ اول الاسلام ولهذا العهد
فان ساكن هذه الاوطان من البربر سوا اهل قبائل وعصبية فلم يعرفهم العرب الاول الذي كان لابن ابي سرح عليهم
وعلى الفهرية سبيا وعادوا بعد ذلك الثورة والردة من معداحري وعظم الاحيان من المسلمين فيهم ولما
استقر الدين عندهم عادوا الى الثورة والخروج والاحد بدين الخوارج من امم عديدة قال ابن ابي زيد
اردت الزابرة بالمغرب اثنتي عشرة مرة ولم يستقر كلمة الاسلام فيهم الا لعهد ولاية موسى بن نصير فما بعده
وهذا معنى ما ينقل عن عمران افريقية معروفة لقلوب اهلها اشارة الى ما فيها من كراهة العصائب والقبائل
الحاملة لهم على عدم الاذعان والانقياد ولم يكن العراق كذلك لهذا العهد بتلك الصفة ولا الشام انما كانت
حاميتها من فارس والروم والحامية وسائر اهل مدن ولمصار فلما غلبهم المسلمون على الامر وانتزعوه
من ايديهم لم يبق ممانع ولا مساو والبربر قبائلهم بالمغرب اكثر من ان تحصى وكلهم مادة واهل عصائب
وكلما هلكت قبيلة عاودت الاخرى مكانها والى ذلك من الخلاف والردة فطال امر العرب
في هذه الدولة بوطن افريقية والمغرب وكذلك كان الامر بالشام لعهد بني اسرائيل كان فيه من قبائل
فلسطين وكنعان وبني عيصو وبني مدين وبني لوط والروم ولوبان والكركيش والنبط من جانب
الجزيرة والوصل ما لا يحصى كثرة وسوعاني العصبية فصعب على بني اسرائيل تمهيد دولتهم ودسوح
امرهم واضطرب عليهم الملك مرة بعد اخرى وسري ذلك الخلاف اليهم فاختلفوا على سلطانهم وخرجوا عليه
ولم يكن لهم ملك موطد سايرتهم الى ان علمهم الفرس ثم نوبال ثم الروم اخر امرهم عند الحلا والله غالب
على امره وعكس هذا ايضا الاوطار الخلو من العصابات لسهل تمهيد الدولة فيها ويكون سلطانها
واردا لعلة الضعف والاستلاب والاحتاج الدولة فيها الى كثير من العصبية كما هو الشان في مصر
والشام لهذا العهد اذ هي خلو من القبائل والعصبيات كان لم يكن الشام معدنا لهم كما قلناه ومملكة
مصر في غاية الدعة والرسوخ لعلة الخوارج واهل العصبيات انما هو سلطان ورعيته ودولتها
قائمة بالموالي من الترك المستمين لملك مترون على كرسي الامر واحدا بعد واحد ويتقبل الامر
فيهم من مستقل الى منتب والخلافة منتماة للعباسيين سيدهم ليس له منها الا مجرد اللقب والاسم
والملك والسلطان اجمع لهم وكذا شان الاندلس لهذا العهد فان عصبية ابن الاحمر سلطانها

لم تكن لاول دولهم تقوية ولا كانت لها كثرة انما كانوا اهل بيت من بيوت العرب اهل الدولة الاموية
سواء من ذلك الفل وذلك ان اهل الاندلس لما انقرضت الدولة العربية منهم وملكهم الربر
لمونه والموحدون سموا املكهم وتغلبت وطاة على بعضهم فاشربت القلوب بعضائهم وتلوانهم وامكن
الموحدون الساده في اخر الدولة كثيرا من الحصون للطاعية في سبيل الاستظهار به على سائرهم من تملك
الحضرة فاجتمع من كان بقي لهم من اهل العصبية العدية معادن من بيوت العرب حامي بهم المسلب
على الحصار والامصار بعض الشيء ورجعوا الى الحمدة مثل ابن هود وابن الاحمر وابن مردنيش وامثالهم
فقام ابن هود بالامر ودعا لدعوة الخلافة العباسية بالمشرق وحمل الناس على الخروج على الموحدين
فنبذوا اليهم العهد واخرجوهم واستقل ابن هود بسمان الاحمر للامر وخالف ابن هود في دعوته
فدعا لابن ابي حفص صاحب افريقية من الموحدين وقام بالامر وساوله بعضا به قليل من قواعده
كانوا يسمونهم الروسا ولم يجتمع الى اكثر منها لعلم العصابات الاندلس وانها سلطان وزعية ثم استظهر
بعد ذلك على الطاعنة ممن تحيزاليه من البحر من اعيان رياسته فضادوا معه عصبية على المتاعرة
والرباط ثم سما لصاحب المغرب من ملوك زناته امل الاستيلاء على الاندلس فضاروا قبلك الاعياض عصابة
ابن الاحمر على الاستباع منه الى ان نال امره ورجح والقته النفوس وعجز الناس عن مطالبته واورثه
اعقابه لهذا العهد فلا تظنن انه بغير عصابة فليس كذلك وقد كان سداد الا انها بعصابة قبيلة
وعلى قدر الحاجة فان وطن الاندلس لعلة العصابات والقبايل فيه بعين عن كثرة العصبية في التغلب عليهم
والله غني عن العالمين

فصل في ان من طبيعة الملك الانفراد بالمجد

وذلك ان الملك كما قدمناه انما ينوبا لعصبية والعصبية مالكة من عصبات كثيرة يكون واحد
منها اقوى من الاخرى كلها فيقبلها ويستولي عليها حتى يصير اجميعا في صحبته وذلك بكون الاجتماع والغلب
على الناس والدول وسره ان العصبية العامة للقبيلي مثل المزاج للمتكون والمزاج انما يكون
عن العناصر وقد بينت في موضعه ان العناصر اذا اجتمعت متكافية فلا يقع منها مزاج اصلا بل لابد
ان يكون واحد منها غالبا على الاخر بغلبته اياها يقع الامتزاج وكذلك العصبات لابد ان يكون واحدة
منها هي الغالبة على الكل حتى تجمعها وتولفها وتصيرها عصبية واحدة شاملة لجميع العصائب وهي
موجودة في ضمنها وتلك العصبية الكبرى ايضا فانما تكون لقوم اهل بيت ورياسة فيهم ولابد ان
يكون واحد منهم رئيسا لهم غالبا عليهم فيتعين رئيسا للعصبيات كلها لغلبه سببه لجمعها
واذا تعين له ذلك ومن الطبيعة الحيوانية خلق الكبر والانفة فيأنف عندئذ من المساهمة
والمشاركة في استتباعهم والتحكم فيهم وهي خلق ثانية الذي في طباع البشر مع ما تقتضيه السياسة
من انفراد الحاكم لفساد الكل باختلاف الحكام لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا فحينئذ انوف
اهل العصبات وبكيح سكانهم عن ان يسموا الى مشاركة في الحكم وينزع عصبهم عن ذلك ويسعى به
ما استطاع حتى لا ينال لاحدهم من الامر مناله ولا محلا فينفرد بذلك المجد بكليته ويدفعهم عن
مساهمته فيه وقد يتم ذلك للاول من ملوك الدولة وقد لا يتم الا للثاني او الثالث

على قدر ممانعة العصبية وقوتها الا انه امر لا بد منه في الدول سنة الله في عباده

فصل في ان من طبيعة الملك الترف

وذلك ان الامة اذا غلبت وملكت ما بايدي الذي الملك قبلها كثر رياشها ونعمتها فتكثر عوائدهم ويتجاوزون ضرورات العيش وحظوظه الى نوافله ورقته ويذهبون الى اتباع من قبلهم في عوائدهم واحوالهم ويصير لتلك النوافل عوائد ضرورية في تحصيلها ويسترعون الى رقة الاحوال في المطاعم والملابس والفرش والآنية ويتفاخرون في ذلك ويفاخرون فيه عزائم من الامم في اكل الطيب ولبس الانيق وركوب الفارة وسائر حلهم في ذلك سلفهم الى اخر الدولة وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك وترفهم فيه الى ان يبلغوا من ذلك الغاية التي للدولة ان سلمها حسب قوتها وعوائد من قبلها سنة الله في خلقه

فصل في ان من طبيعة الملك الدعة والسكون

وذلك ان الامة لا يحصل لها الملك الا بالمطالبة والمطالبة غايتها الغلب والملك واذا حصلت الغاية انتفى المسعى اليها

قال

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها ... فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

فاذا حصل الملك اقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه وانزوا الراحة والسكون والدعة ورجعوا الى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس فيبنون القصور ويحرثون المياه ويغرسون الرياض ولا سيما تعون باحوال الدنيا ويؤثرون الراحة عن المتاعب ويبالغون في احوال الملابس والمطاعم والآنية والفرش ويبالغون ذلك ويورثونه من بعدهم من اجيالهم ولا يزال يتزايد فيهم الى ان يشاء الله بأمره

فصل في انه استحكمت طبيعة الملك مرابقران بالمجد

وحصول الترف والدعة اقبلت الدولة على الهرم وبيانه من وجوه الاول انها تقضي الانفراد بالمجد مما قدمناه ومهما كان المجد مشتركا بين العصابة وكان سعيهم له واحدا كانت همتهم في التغلب على الغير والذب عن الحوزة اسوة في وقوة سكانها ومرامها الى العز جميع فهم لا يستطيعون الموت في بناء مجدهم ويؤثرون الهلكة على فساده واذا انفرد الواحد منهم بالمجد قرع عصيهم وكبح من اعنتهم واستأثر باموالهم ونهم فتكاسلوا عن العز وقبل ذكرهم ورضوا الذلة والاستعباد ثم في الجيل الثاني منهم على ذلك يحسبون ما بايديهم من العطاء اجرا من السلطان لهم على الحماية والمعونة الاخرى في عقولهم سواه وقل ان يستأثر احد نفسه على الموت فيصير ذلك وهنا في الدولة وعضدا من السوء ويتزيد على مناحي الضعف والهرم لفساد العصبية بذهاب الباس من اهلها الوجه الثاني ان طبيعة الملك تقتضي الترف

كما قدمناه فيكثر عوائدهم ويزيد بقاؤهم على اعطيائهم ولا يفي خروجهم بدخلهم فالفقر منهم لهم لازم
والترف يستغرق عطاف بتروتهم ويزداد ذلك في اجيالهم المتاخرة الى ان تعصر العطاف عن الترف من
وعوائده ومنهم الحاجة وبطانتهم ملوكهم بحسب بقائهم في الغزو والحرب ولا يحدون ولحمة هم فيوقعون
بهم العقوبات ويتغرمون ما في ايدي الكثير منهم ليستأثروا به عليهم او يتوزون به ابناءهم وصنائع دولتهم
فيضعفون بذلك عن اقامة احوالهم ويضعف صاحب الدولة بضعفهم وايضا فالترف معسد
للخلق باعصل في النفس من الوان الشر والسفسفة وعوائدها كما ياتي في فصل الحضارة فتذهب
منهم خلال الخير التي كانت علامة على الملك ودليلا عليه ويتصفون باضدادها من خلال الشر فتكون
علامة على الادبار والانقراض بما جعل الله من ذلك في طبيعة وناحد الدولة مبادي العطب وتضعضع
احوالها ويترل بها امراضا مزمنة من الهرم الى ان يقضي على الوجه التالف ان طبيعة الملك تقتضي
الدعة كما ذكرناه واذا الحد والمدعة والراحة مالفا وخلقا صار لهم طبيعة وجبلة فسان العوائد
كلها وابدا فهي قريبا حالهم الحاوية في عضارة العيش ومهاد الترف والدعة وتسلب خلق التوحش
ويسقون عوائد البداوة التي كان بها الملك من شدة الناس وتعودهم الافتراس وركوب الميدا وهدلة
القفر فلا يعرف فيهم وبين السوقة من الحضر الا في الربقة والسادة فتضعف حمايتهم ومدب
باسهم وتحصد سوكهم وتعود وبال ذلك على الدولة بما يلبس به من ثياب الهرم ثم لا يزالون يتلونون
بعوائد الترف والحضارة والسكون والدعة ورقة الحاشية في جميع احوالهم وينغمسون فيها وهم في
ذلك يتعدون عن البداوة والخشونة ويشملهون عنها سيما فشيا ويستولي خلق البسالة التي
كانت بها الحماية والمدافعة حتى نكون وتعود واعيا على حامية اخرى ان كانت لهم واعتبر ذلك في الدول
التي اخبارها في الصحف لديك تجد ما قلته لك من ذلك صحيحا من غير شبهة والله وارث الارض ومن عليها

فصل في ان الدول لها اعمار طبيعية كما للاشخاص

اعلم ان العمر الطبيعي للاشخاص على ما ذكره الاطباء والمنجمون مائة وعشرين سنة وهي سنو العمر الكبرى
عند المنجمين وتختلف العمر في كل جيل بحسب القرابات وتزيد عن هذا او تنقص منه فتكون اعمار بعض
اهل القرابات مائة تامة وبعضهم ستين او ثمانين على ما تقتضيه ادلة القرابات عند الناظرين
فيها واعمار هذه الملة ما بين الستين الى السبعين كما في الحديث ولا يزيد على العمر الطبيعي الذي
هو مائة وعشرون الا في الصور النادرة وعلى الاوضاع الغريبة من الملك كما وقع في سنان نوح
وقليل من قوم عاد وثمود واما اعمار الدول الخ وان كانت تختلف بحسب القرابات
الا ان الدولة في الغالب لا تعدو اعمار ثلاثة اجيال والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط
فتكون اربعين الذي هو انتهاء النمو والنشو الى غايته قال تعالى حتى اذا بلغ اشده وبلغ
اربعين سنة وهذا قلت ان عمر الشخص الواحد هو عمر الجيل ويؤيده ما ذكرناه في حكمة
البيتة الذي وقع لبني اسرائيل وان المقصود بالاربعين فيها الجيل الاحياء ونشاة جيل آخر لم
يعهدوا الذل ولا عرفوه فقد على اعتبار الاربعين في عمر الجيل التي هي عمر الشخص الواحد

وانما قلنا ان عمر الدولة في الغالب لا يعدو ثلاثة اجيال لان الجيل الاول لم يزالوا على خلق البداوة
وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والسذاجة والافتراس والاشتراك في المجد فلا تزال بذلك
سورة العصبية محفوظة فيهم فحدهم مرهف وجانبهم مرهوب والناس لهم مغلوبون والجيل الثاني
تحول حالهم بالملك والرفه من البداوة الى الحضارة ومن الشظف الى الترف والخصب ومن الاشتراك
في المجد الى انفراد الواحد به وقل الباقين عن السعي فيه ومن عز الاستطاعة الى ذل الاستكانة
فتكسر سورة العصبية بعض الشيء ويدس منهم المهانة والخضوع ويغلب عليهم لهم الكثير من ذلك بما ادركوا
الجيل الاول وباشروا احوالهم وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم الى المجد ومزاحمتهم في المدافعة والمحاماة
فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية وان دسيسة ما دب ويكونون على رحام من مراجعة الاحوال
التي كانت للجيل الاول او على ظن من وجودها فيهم واما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة
والخشونة ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما عم فيه من ملكة الهوى ويبلغ الترف فيهم غايته
بما يسكن من النعيم وعضادة العيش فيصيرون عيالا على الدولة ومن جملة النساء والولدان
المحتاجين للمدافعة عنهم وتسقط العصبية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ويلبسون
على الناس في الشارة والزي وركوب الخيل وحسن السلاح ويتزينون بها وهم في الاكثر احسن من
النسوان على ظهور فاذا جاء المطالب لهم ولم يغنها مدافعته فيحتاج صاحب الدولة حينئذ الى
الاستظهار بسواهم من اهل النجدة ويستكثر من الموالي ويصطنع من يغني عن الدولة بعض الغناء حتى
باذن الله بانقراضها فقد بينا الدولة انما حملت هذه الامور الثلاثة اجيال فيها يكون هرم الدولة وتحلها
وقد اتيناك فيه ببرهان طبيعي ظاهر مبني على ما مهدناه قبل من المقدمات فتامله فان
تعده وجه الحق ان كنت من اهل الانصاف وهذه الاجيال الثلاثة اعمارها مائة وعشرون
على ما مر ولا يعدو الدول في الغالب هذا العمر سبب قبله او بعده الا ان عرض لها عارض
آخر من فقدان المطالب فيكون الهرم حاصلا مستوليا والطالب لم يحصها ولو قدحها الطالب
لما وجد مدافعا واذا اجالهم لا يتاخرون ساعة ولا يستقدمون وهذا العمر للدولة
بمثابة عمر الشخص من الرشد الى سن الوقوف ثم الى سن الرجوع وهذا الجاري على السنة الناس
في المشهور ان عمر الدولة مائة سنة وهذا معناه فاعتبره واتخذه قانونا يصحح لك عدد
الآباء في عمود النسب الذي تريده من قبل معرفة السنين الماضية اذا كنت قد اسقطت في عدتهم
وكانت السنون الماضية مدا ولم تحصله لديك فعد لكل مائة من السنين ثلاثة آباء فاربقدت
على هذا القياس مع تعود عددهم فهو صحيح وان نقص عنه بجيل فقد غلط عددهم بزيادة واحد
في عمود النسب وان زادت لمثله فقد سقط واحد وكذلك تاخذ عدد السنين من عددهم
اذا كان محصلا لديك فتاته مثله تجده في الغالب صحيحا والله مقدر الليل والنهار

فصل في انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة

اعلم ان هذه الاطوار طبيعية للدول فان الغلب الذي يكون به الملك انما هو بالعصبية

وما يتبعها من شدة الباس وتعود الافتراس ولا يكون ذلك غالبا الا مع البداوة فطور الدولة
من اولها بداوة ثم اذا حصل الملك بغتة الرفه والسماع الاحوال والحضارة انما هي بقرب في الترف
واحكام الصنايع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والانية
وسائر عوايد المنزل واحواله فلكل واحد منها صنايع في اجادته والناس فيه مختص به ويلونها
بعضا ويتكرر باختلاف ما يسرع اليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعم باحوال الترف ويتلون
به من العوايد فصار طور الحضارة للملك يتبع طور البداوة ضرورة بقية الدولة للملك واهل
الدول ابدا يتلدون في طور الحضارة واحوالها للدولة السالفة قبلهم فاحوالهم بسيا هدون
منهم ومنهم في الغالب ياخذون ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم
واستخدموا ابناءهم وابناءهم ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة وقد حكى
انهم قدم لهم المرفق فكانوا يحسبونه رقاعا وعثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في
عجنهم ملحا وامثال ذلك فلما استعبدوا اهل الدول قبلهم واستعملوهم في مهنهم وحاجات
منازلهم واخذوا منهم في امثال ذلك عليه افادوهم علاج ذلك والقيام
على عمله واليقين فيه مع ما حصل لهم من اتساع العيش واليقين في احوالهم فبلغوا الغاية في
ذلك وتطوروا وانتظم الحضارة والترف في الاحوال واستجادت المطاعم والمشارب
والغناء والملابس والمباني والاسلحة والفرش والانية وسائر الماعون والجفان وكذا
احوالهم في ايام المباهاة والولايم وليالي الاعراس فانوا من ذلك وراء الغاية فانظر
ما نقله المسعودي والطبري وغيرهما في اعراس المامون ببوران وما بذل ابوها لحاشية المامون
من وفاوة في خطتها الى اداء رسم الصلح وركب اليها في السفن وما انفق في املاكها وما حملها
المامون وانفق به عرسها تقف من ذلك على العجب ومنه ان الحسن بن سهل نثر يوم
الاملاك في الصنيع الذي حضره حاشية المامون فنثر على الطبقة الاولى منهم بنادق
المسك ملتوتة على الرقاع بالصياع والعقار وسوغه لمن حصلت في يده بقع لكل واحد منها
ما ادناه اليه الاتفاق والحظ وبرق على الطبقة الثانية بدر الدنانير في كل بدرة عشرة
الاف وعلى الطبقة الاخرى بدر الدراهم منها بعدان انفق في مقامه المامون بداره اضعاف
ذلك ومنه ان المامون اعطاها في مهرها ليلتيذ الف جمالة من اليواقيت واوقد تنوع العنبر
في كل واحد مائة من ومورطل وبسط لها فرشا كان الحصير منها منسوجا من الذهب مكللا
بالدر واليواقيت وقال المامون حين رآه قاتل الله ابا نواس كانه ابصر بهذا حيث
يقول في صفة الخمر

كان صغرى وكبرى من فواقعها ... حصباء در على ارض من الذهب

واعد بدار الطبخ من الحطب للوليمة نقل اربعين لغلامة عام كامل بلاث مرات في كل
يوم وفي الحطب ليلتيذ واوقد الوقيد ويصبون عليه الزيت واوعز الى النواتية باحضار
السفن لاجازة الحواص من الناس بدخله من بغداد الى الهاشمية لحضور الوليمة بدار السلطان

شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكانت الحرامات المعدة لذلك ثلثين الفا احاروا الناس فيها احرباب نفاريم وكثير من هذا ومثاله

ولذلك عرس المامون بذى اللون بطليطلة نقله ابن بسام في كتاب الذخيرة ابن حيان بعد ان كانوا في الطول الاول من الدولة عاجزين عن ذلك جملة لفقدان اسبابه والقائمين على صنائعه في عضاضتهم وسداجتهم **بدكان الحجاج** اولم في لحسان بعض ولده فاستحضر بعض الدهاقين سئله عن وليمة العرس وقال احرف باعظم صنع سمعته فقال له نعم ايها الامير بهذت بعض مزارعه كبرى وقد صنع لاهل فارس صنيعا احضر فيه صحاف الذهب على احوية الفضة اربعين على كل واحد وحمله اربع وصايف وجلس على اربع من الناس فاذا طعموا اتبعوا اربعتهم المائدة بصحافها ووصايفها فقال الحجاج يا غلام الحراجور واطعم الناس وعلم انه لا يستقل بمثل هذه الطبقة وكذلك كانت **ومن بعد النهاب** اعطية بني امية وجوايزهم فانما كان اكثرها الابل احدا عدام العرب وبداوتهم ثم كانت الجوايز في دولة بني العباس والعبيديين ومن بعدهم ما علمت من احمال المال وبحور الثياب واعداد الخيل بمراكبها وهكذا كان شان كل امة مع الغالبة بالوقيعة وفي طبع بمصر وشان امويه مع ملوك الطوايف بالاندلس والموحدين كذلك وشان زناتة مع الموحدين وهلم جرا يستقل الحضارة من الدول السابقة للدول الخالفة فاستقلت حضارة الفرس للعرب بني امية وبني العباس واستقلت حضارة بني امية بالاندلس الى ملوك المغرب من الموحدين وزناتة لهذا العهد واستقلت حضارة بني العباس الى الترك بمصر والتتار بالعراقين وعلى قدر عظم الدولة يكون سناء الحضارة وباذا امور الحضارة من توابع الترف والترف من توابع الثروة والنعمة والثروة والنعمة من توابع الملك ومقدار ما استولى عليه اهل الدولة فعلى نسبة الملك يكون ذلك فاعتبر وتفهم وتامل تجده صحيحا في العمران والله وارث الارض ومن عليها

فصل

والسبب في ذلك ان السبيل اذا حصل لهم الملك والترف كثر التناسل والولد والعمومة فكثرت العصابة واستكثروا ايضا من الموالي والصنايع وربيت احيالهم في حرد لك النعيم والرفه فازدادوا بهم عددا الى عددهم وقوة الى قوتهم نبيت كثرة العصايب حينيذ كثرة العدد فاذا نشا الجيل الاول والثاني واحدث الدولة في الهرم لم تستقل اولياء الصنايع والموالي بقسمهم في تاسيس الدولة وتمهيد ملكها لانهم ليس لهم من الامر شيء انما كانوا تبعا لاهل الدولة ومعونة لها فاذا ذهب الاصل لم تستقل الفروع بالرسوخ فتذهب وتلاشى ولا يبقى الدولة على حالها من القوة واعتبر هذا بما وقع في الدولة العربية في الاسلام كان عدد العرب كما قلناه لعهد النبوة والخلافة مايه وخمسين الفا او ما يقاربها من مضر وقحطان **ولما بلغ الترف** مبالغه في الدولة ولوفور عمومتهم بتوفر النعمة واستكثر الخلفاء من الموالي والصنايع بلغ ذلك العدد الى امثاله اضعافا **نبه** ان المعتصم لما افتتح في تسعة الف ولا نعدم مثل هذا العدد ان يكون صحيحا اذا اعتبرت حاميتهم في الثغور الدائمة والقاصية شرقا وغربا الى الجند الكامنين بدار الملك والموالي

والمصطنعين

والمصطفين قال المسعودي احصى بنو العباس من عند المطلب ايام المامون
للاتفاق عليهم فبلغوا الثلثماية ذكران واناث فاقطر مبالغ هذا العدد لاقل من مايتي سنة
واعلم ان سبب الرفه والنعيم الذي حصل للدولة وردي فيه ابيائهم والا بعد العرب
لاول الفتح لم يبلغ هذا ولا قريبا منه والله الخلاق العليم

فصل في اطوار الدولة واختلاف احوالها

وتبدل الاحوال باختلاف الاطوار اعلم ان الدولة تشتمل في اطوار مختلفة وحالات متجددة
وكيف تقوم بها في كل طور خلقا من احوال ذلك الطور لا يكون مثله في الطور الآخر لان الخلق
تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه وحالات الدولة واطوارها لا تعدو في الغالب خمسة اطوار
الاول طور الظفر بالبغية وغلب المدافع والممانع والاستيلاء على الملك وانتزاعه من ايدي الدولة
السالفة قبلها فيكون صاحب الدولة في هذا الطور اسوة قومه في اكتساب المجد وحماية المال
والمدافعة عن الحوزة والحماية لانفراد دونهم بالملك وهو مقتضى العصبية التي وقع بها الغلب
ولم تزل بعد حالها الطور الثاني طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك وكفهم عن
التطاول بالمسامة والمشاركة ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معتنيا باصطناع الرجال
واتخاذ الموالي والصنائع والاستكثار من ذلك لجمع الوف الى عصبيته وعشيرة المقاسمين له
في اسمه الصارمين في الملك بمثل بهمه فهو يدافعهم عن الامر ويصدهم عن موارده ويردهم على
اعقابهم ان يخلصوا اليه حتى يقوم الامر في نصابه وينفرد الى بيته عما سمى من مجده فمعاني مدافعتهم
ومغالبتهم مثل معاناة الاولين في طلب الامر واشد لان الاولين دافعوا الاجانب فكان
طماعهم في مدافعتهم اهل العصبية باجمعهم وهذا يدافع الاقارب ولا يطامع في مدافعتهم الا
الاقل من الاباعد فيركب صعبا من الامر الطول الثالث طور الراحة والدعة لتحصيل ثمرات الملك
بما يتبرع طباع البشر اليه من تحصيل المال وتخليد الاثار وبعد الصيت فيستفرغ وسعه في الجباية
وضبط الدخل والخرج واحصاء النفقات والتصرف فيها وتشييد المباني الحافلة والمصانع العظيمة
والامصار المتسعة والهياكل المرتفعة واجارة الوفود من اشراف الامم ووجوه القبايل وبث
المعروف في اهل هذا مع التوسعة على صنائعه وحاشيته في احوالهم بالمال والجاه واعتراض
جنوده وادراك ارزاقهم وانصافهم في اعطيائهم لكل هلال حتى يظهر اثر ذلك عليهم في ملابسهم
وشكتهم ايام الزينة فيباهي بهم الدول المسالمة وترهب الدول المحاربة وهذا الطور اخر
اطوار الاستبداد من اصحاب الدولة لانهم في هذه الاطوار كلها مستعلون بازائهم مالون لعزهم
موضحون الطرق لمن بعدهم الطور الرابع الدعوع والمسالمة ويكون صاحب الدولة في هذا
قانعا بما اولوه سلما لانظاره من الملوك واقيالهم متقلدا للماضين من سلفه تتبع اثارهم حذو
النعل وبعث على طرقهم باحسن منابع الاقتداء ويرى ان في الخروج عن تقليدهم فساد امره وانهم
ابرما بنوا من مجده الطور الخامس طور الاسراف والتبذير ويكون صاحب الدولة في هذا

الطور سلفا لما جمع اولوهم فى سبيل الشهوات والملاذ والكبر على بطانته وفى مجالسه واصطناع اخر السوء وحظاة الدنس وسلبهم عظيمات الامور التى لا يستقلون بحملها ولا يعرفون ما يأتون ويذرون منها مستفسدا لكبار الاولياء من قومه وصنايع سلفه حتى يصطنعوا عليه ويتحاذلوا عن نصرته مصغا من جده بما اتق عطاياهم فى شهواته وحجب عنهم وجه مباشرته وتفقده فيكون محروما لما كان سلفه يؤتونه وادما لما كانوا يأسون وفى هذا الطور تحصل فى الدولة طبيعة الهرم ويسرى عليها المرض المزمن الذى لا يكاد يخلص منه ولا يكون لها معه بؤء الى ان تعرض كما بيناه فى الاحوال التى تليها والله خير الوارثين

فصل فى انذار الدولة

والسبب فى ذلك ان الانذار انما يحدث عن القوة التى هى كانت وعلى قدرها يكون الانذار ومن ذلك مبادى الدولة وهى اول العظمة فانها تكون على نسبة قوة الدولة فى اصلها لانها الا بكثرة العصبة واجتماع الاندى على العمل والتعاون فيه فاذا كانت الدولة عظيمة فسيحة الجوانب كثيرة الممالك والرعايا كان العمل كثيرا جدا وحشروا من اقاصى الدولة وامصارها فتم العمل على اعظم هياكله او ترى الى مصانع قوم عاد وثمود وما قصه القرآن عنها وانظر بالمشاهدة الى ان كسرى وما اقتدر فى الفرس حتى انه اعزم الرشيد على هدمه وتخريبه وسكا دعته وشرع فيه ثم ادركه التحن وقصه استشارة ليحيى بن خالد فى ساباط معروفة فانظر كيف تقدر دولة على بناء لا يستطيع اخرى على هدمه مع تباين ما بين الهدم والبناء فى السهولة لعرف من ذلك تباين ما بين الدولتين وانظر الى بلاط الوليد بدمشق وجامع بنى امية بقرطبة والسطرة التى على وادى وكذلك بنا الحمايا لجلب المياه الى قرطاجنة فى افتقاد الاركة عليها واشارته سال وكثير من هذه الانذار الماثلة للعيان علم منه اختلاف الدول فى القوة والضعف واعلم ان تلك الافعال لا قدر من انما كانت بالهندام وباجتماع العملة وكثرة الايدى عليها فبذلك شيدت تلك المصانع والهياكل ولا يتوهم ما يتوهمه العامة ان ذلك لعظم اجسام الاقدمين عن اجسامنا فى اطرافها واقطارها فليس بين البشر فى ذلك كبير بون فما نجد بين الهياكل والانار ولهذا اوقع التفاضل بذلك وتعالوا فيه وسطروا عن عاد وثمود والعمالقة اخبارا عريقة فى الكذب من اعرفها ما يحكون عن عوج بن عناق رجل من الجاهلية الاولى زعموا انه كان لطوله يتناول السمك من البحر فيشويه الى الشمس ويرتدون الى جهلهم باحوال السر الجهل باحوال الكواكب لما اعتقدوا ان للشمس حرارة وانها شديدة فيما قرب منها ولا يعلمون ان الحر هو الضوء وان الضوء قرب من الارض اكثر لانعكاس الاشعة من سطح الارض بمقابلة الاضواء فيتضاعف الحرارة هنالك لاجل ذلك واذا تجاوزت مطارح الاشعة المنعكسة فلا حر هنالك بل يكون فيه حيث مجارى السحب وانما الشمس بنفسها حارة ولا باردة انما هو جسم بسيط مضيء لا مزاج له وكذلك عوج بن عناق هو فيما ذكروه من العمالقة الذين كانوا قريبا من اسرائيل عند فتحهم الشام واطوال بنى اسرائيل وجاء لهم لذلك العهد قريب من هياكلنا لتبعد لذلك الواب بيت المقدس فانها وان عجبت

وجدت لم تزل المحافظة على اشكالها ومقاديرها وكيف يكون التفاوت بين عوج وبين اهل عصره
لهذا المقدار وانما مثار عظمهم في هذا انهم استعظموا آثارا لامم ولم يفهموا حال الدول في الاجتماع
والتعاون وما يحصل بذلك وبالهندام من الآثار العظيمة وصرفوا الى قوة الاجسام وشدتها
بعظم هياكلها وليس الامر كذلك • وقد زعم المسعودي ونقله عن الفلاسفة مزعما انه مستند له
الا التحكم وهي ان الطبيعة التي هي جبلة الاجسام لما اراد الله الخلق كانت في تمام القوة
والكمال وكانت الاعمار اطول والاجسام اقوى لكمال تلك الطبيعة فان طور الموت انما هو بالخلا ل
النوعي الطبيعة فاذا كانت قوية كانت الاعمار مزيدة فكان العالم في اوليته شابا تام الاعمار كامل
الاجسام ثم لم يزل يتناقص لنقصان المادة الى ان بلغ الى هذه الحال التي هو عليها ثم لا يزال يتناقص
لنقصان المادة الى ان بلغ الى هذه الحال التي هو عليها ثم لا يزال ينقص الى وقت الاخلال
وانقراض العالم وهذا رأي لا وجه له الا التحكم كما تراه وليس له علة طبيعية ولا سبب برهاني ونحن
نشاهد مساكن الاولين وابنيتهم وطرقهم فيما اخذوه من البنيان والهياكل والديار والمساكن
كديار ثمود المنحوتة في الصخر من الصخر سوتا صغارا وابوابا ضيقة وكذلك بارض عاد ومصر
والشام وسائر بقاع الارض شرقا وغربا والحق ما قررناه **ومن آثار الدول ايضا**
عالها في الغراسة والولائم كما ذكرناه في وليمة بوران وصنيع الحجاج وابن ذي النون كما ذكرنا
ذلك كله • ومن آثارها ايضا عطايا الدول وانها تكون على نسبتها وتظهر ذلك فيها ولو اعتبرت
على الهرم فان الطعم التي لاهل الدول تكون على نسبة قوة ملكهم وعليهم للناس والهمم لا تزال صاحبة لهم
الى انقراض الدولة واعتبر ذلك بجوائز ابن ذي يزن لوفد قريش كيف اعطاهم من ارطال الذهب والفضة
وان عدد الوصائف عشرا عشرا ومن كرسي العنبر واحد واصغف ذلك لعشرة امثاله لعبد المطلب
وانما ملكه يومئذ قرارة اليمن خاصة تحت استبداد فارس وانما يحكمه على ذلك نفسه بما كان لتبع
التابعة من الملك في الارض والغلب على الامم في العراقين والهند والمغرب وكان الصماحيون
بافريقية ايضا اذا اجاروا امروا زناتة الوافدين عليهم فانما يطوعهم المال اجالا والكسى لحونا مملوة
والحلان جانبا عديدة **وفي تاريخ** ابن الرقيق من ذلك اخبار كثيرة وكذلك كان عطاء الحكم
وجوائزهم ونفقاتهم وكانوا اذا كسوا معتفا انما هو الملك والولاية والنعمة اخر الدهر لا العطاء
الذي يستغنى يوم او بعض يوم واخبارهم في ذلك كثيرة مسطورة وهي كلها على نسبة الدول جارية
هذا جوهر الصقلي الكاتب قائد العبيديين لما ارتحل الى فتح مصر استعد من الغرة وان بالف جمل
من المال ولا يحتاج بعدها الى يوم دولة الى مثل هذا فاعتبر ذلك في نسب الدول بعضها من بعض
ولا تكون ما ليس معهودا عندك وفي عصرك من امثاله فتضيق حوصلتك
عن ملتقط الممكنات فكثير من الخواص اذا سمعوا امثال هذه الاخبار عن الدولة السالفة بادروا
بالانكار ولبس ذلك من الصواب فان احوال الوجود والعمران متفاوتة • ومن ادرك منها رتبة
سفلى او وسطى فلا يحقر المدارك كلها فيها ونحن اذا اعتبرنا ما ينقل لنا عن دولة بني العباس وبني امية
والعبيديين وقايسنا الصحيح من ذلك والذي لا شك فيه فالذي يشاهد من هذه الدول

شبكة الألوكة www.alukah.net

التي نقل بالنسبة اليها وجدنا بينهما بونا وتولدا بينهما من التفاوت في اصل بنائها وعمرانها فالآثار
كلها جارية على نسبة الاصل في القوة كما قدمناه ولا سبيلنا انكار ذلك عنها اذ كثير من هذه الاحوال
في غاية الشهرة والوضوح بل فيها ما يلحق بالمستفيض والمتواتر وفيها المعاش المستمد من آثار النبات وغير
واحد من الاحوال المنقولة مراتب الدول في قوتها وضعفها وصحابتها او صغرها واعتبار ذلك بما تقتضيه
عليك من هذه الحكاية المستظرفة وذلك انه ورد على المغرب لعهد السلطان ابي عنان من ملوك بني
مرين رجل من مستجيبة طنجة يعرف بابن بطوطة كان رجل سنة عشرين سنة قبلها الى المشرق وتعلق في بلاد
اليمن والعراق والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند واتصل هناك لذلك العهد وكان له منه
مكان واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله ثم انقلب الى المغرب واتصل بالسلطان
ابي عنان وكان يحدث عن سنان رحلته وما رأى من العجايب بممالك الارض واكثر ما يحدث عن دولة صاحب
الهند وما في من احواله بما يستغرب السامعون مثل ان ملك الهند اذا خرج للسفر احصى اهل مدينته من
الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة اشهر يدفع لهم من عطائه وانه عند رجوعه من سفره
يدخل في يوم مشهود يتزين فيه الناس كافة الى صحراء البلد ويطوفون به وينصب امامه في ذلك المحفل
منجنيقات على الطهر ترمي بها اشكارا الذنابير والدراهم على الناس الى ان يدخل ابوابه واشباه
هذه الحكايات مما حاكى الناس بتكذيبه ولعبت ابا مندر وزير السلطان فارس بن وردان العبيد
الصيت فاوصته في هذا الشان واداته انكار اخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس من
تكذيبه فقال له الوزير فارس اياك ان تستكبر مثل هذا من احوال الدول عما انك لم تره فتكون
كابن الوزير الناسي بالحبس وذلك ان وزيرا اعتقل سلطانه ومكث في الحبس سنين
ربى فيها ابنه في ذلك المجلس على ادرك وعقل سأل عن الحمان الذي كان يغدى لجاجا فقال
له ابوه هذا الحمام العظيم يقول وما العظم فقصفها له ابوه بسنانها وعوطها فيقول يا ابت ما اراها
مثل الغراب فيشكو عليه ويقول ابن العظم من الغار وكذا في لحم البقر والابل اذ لم يعاين في
مجلسه من الحيوانات الا الغار فحسبها كلها ابناء جنس الغار وهذا اكبر اما يعتري الناس في الاخبار كما
يعتري بعضهم الوسواس في الزيادة عند قصد الاعراب كما قدمناه اول الكتاب فليرجع الانسان الى اصوله
ولكن معتمدا على نفسه وممتازا بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته فما دخل
في نطاق الامكان قبله وما خرج عنه رفضه وليس مرادنا الامكان بحسب المادة التي للشيء فانها اذا
نظرنا اصل الشيء وجنسه وصفته ومقدار عظمه وقوته اجرينا الحكم من ذلك على احواله
وحكمنا بالامتناع على ما خرج عن نطاقه وقل رب زدني علما

فصل في استظهار صاحب الدولة والمطبعين بالموالي على قومهم

اعلم ان صاحب الدولة انما يتم امره كما قلناه بقومه فهم عصابته
وظهراؤه على سائر وهم يقارع الخوارج على دولته ومنهم تعقد اعمال مملكته ووزارة دولته

وحمايته اموالهم لانهم اعوانه على الغلب وشركاؤه في الامر ومساهمون في سائر مهماته هذا
ما دام الطور الاول للدولة كما قلناه فاذا جاء الطور الثاني ونوطور الاستبداد عنهم والانفراد
بالمجد ودافعهم عنه بالزاح صاروا في حيثية الامر من بعض اعدائه واحتاج في مدافعتهم عن الامر
وصدهم عن المشاركة الى اوليا احرين من عرجلتهم ليستظهر بهم عليهم ويتوالهم دونهم فيكونون
اقرب له من سائرهم واخص به قربا واصطناعا واولى ايثارا واجاها لما انهم يستميلون دونه
في مدافعة قومه عن الامر الذي كان لهم والرتبة التي هو في مشاركتهم فيستخلصهم صاحب الدولة
حينئذ ويخصهم بمزيد التكرمة والايثار ويعتم لهم ما لكثير من قومه ويقلدهم جلة
الاعمال والولايات من الوزارة والقيادة والحجابة وما يختص بنفسه ويكون خالصة له دون
قومه من العتاب المملكة لانهم حينئذ اولياؤه الامرون وصحاؤه المخلصون وذلك حينئذ موجود
باعتصام الدولة وعلامة على المرض المزمن وهو فساد العصبية التي كان بها الغلب وهو من
قلوب اهل الدولة حينئذ من الامتهان وعداوة السلطان مقطعون عليه ويتربصون به الدوائر
ويعدون وبال ذلك على الدولة ولا يطمع في برئها من هذا الداء الا ما مضى تأكد في الاعتاب
الى ان يذهب رسمها واعتبر ذلك في دولة بني امية كيف كانوا انما يستظهرون في حروبهم وولاية
اعمالهم برجال من العرب مثل عمر بن سعد بن ابي وقاص وعبيد الله بن زياد بن ابي سفيان
والحجاج بن يوسف والمهلب بن ابي صفرة وخالد بن عبد الله القسري وابن هبيرة وموسى
ابن نصير وبلال بن ابي بردة بن ابي موسى الاشعري ونصر بن سيار وامثالهم من رجالات العرب
وكذا صدرا من دولة بني العباس كان الاستظهار بها ايضا برجالات العرب فلما صارت
الدولة للانفراد بالمجد وكبح العرب عن التطاول للولايات صارت الوزارة للعجم والصنائع
من الرامكة وبني سهل بن نوبخت وبني طاهر من بوبة وموالي الترك مثل بغا ووصيف
وبوتمان وابن طولون وابنائهم وغيرهم من موالي العجم فتصير الدولة لغير من مهدها
والعز لغير من اصلته سنة الله في عباده

فصل في احوال الموالي والمصطنعين في الدول

ان المصطنعين ستفاوتون في الالتحام بصاحب الدولة بقدر ما ينضم في القدم والحدوث
والسبب في ذلك ان المقصود من العصبية من المدافعة والمغالبة انما يتم بالنسب لاهل الشاعر
من ذوي الارحام والقربى والتحاذل في الاجانب والبعداء فمناه والولاية والمخالطة
بالرق او الحلف بمنزلة ذلك لان امر النسب وان كان طبيعيا فانما هو وهمي والمعنى
الذي كان به الالتحام انما هو العشيرة والمرافقة وطول الممارسة والصحبة بالمربا والرضاع
وسائر احوال الموت والحياة واذا حصل الالتحام بذلك جاء التعزز والناصر وهذا
مشاهد من الناس واعتبر مثله في الاصطناع فانه يحدث بين المصطنع ومن اصطنعه لسبة
خاصة من الوصلة بمنزلة هذه المنزلة ونؤكد اللحمة وان لم يكن من نسب فمن اثار النسب موجودة
فاذا كانت هذه الولاية بين القبيل وبين اوليائهم قبل حصول الملك لهم كانت عروقها

اوسع وعقائدها امسح وسببها اصرح لوجهين الاول انهم قبل الملك اسوة في حالهم فلا يميز السبب عن الولاية
الاعند الاقل منهم فيتركون منهم بسته ذوي قرباهم واهل ارحامهم واذا اصطنعوهم بعد الملك كانت مرتبة
الملك غيرهم للسيد عن المولى والاهل القرابة عن اهل الولاية والاصطناع لما يقتضيه احوال الرياسة
والملك من تميز الرتب وتفاوتها فيتميز حالهم ويترفعون مترلة الاجانب ويكون الالتحام بينهم
اضعف والناصر لذلك العصبية وذلك انتقص من الاصطناع قبل الملك الوجه الثاني ان الاصطناع
قبل الملك سيد عمده عن اهل الدولة ويخفي شان تلك اللحمة ويطن بها في الاكثر الشبه فيقوى حال
العصبية وبعد الملك ويقرب العهد ويستوي في معرفته الاكثر فيتبين اللحمة ويميز عن
النسب فتضعف العصبية بالنسبة الى الولاية التي كانت قبل الدولة واعتبر ذلك في الدول والرياسات
بعده فكل من كان اصطناعه قبل حصول الرياسة والملك لمصطنعيه لا يكون له من القرابة واللحمة ما
للاولين وهذا مشاهد بالعيان حتى ان الدولة في آخرها ترجع الى استعمال الاجانب واصطناعهم
ولا يبقى بها محمد ما بناؤه المصطنعون قبل الدولة لقرب العهد حينئذ بالوليتهم ومشاركة الدولة
على الانقراض فيكونون مخطئين في ذلك وانما يحمل صاحب الدولة على اصطناعهم والعدول
اليهم عن اوليائها الاقدمين وصنائعها الاولين ما يعتريهم في انفسهم من العزة على صاحب الدولة
وقلة الخضوع له وتطره بما يطره له من قبيله واهل بيته ليتاكد اللحمة مثل العصور المتطاولة
بالمراس والاتصال بابائه وسلف قومه والانتظام مع كبراء اهل بيته فتحصل لهم بذلك دالة عليه
واعتراض فينا بزعمهم لمشاركتهم صاحب الدولة وبعد عنهم الى سواهم ويكون عهد استحلاصهم واصطناعهم
قريبا فلا يستكثرون رتبا لمجد ويستولون على حاليهم من الخارجية وهكذا شان الدولة في اولها
واخرها والكرماء يطلق اسم الصنائع والاولياء على الاولين واما هؤلاء المحدثون فخدم واعوان والله
ولي المؤمنين

فصل فيما يعرض في الدول من حجر السلطان

والاستبداد عليه اذا استقر الملك في نصاب معين وسبب واحد من السبيل التي بين الدولة
والمتردد اليه وتدعو اسباب السبيل عنه وتداوله بيوم واحد اعني بحسب الترتيب فربما
حدث التغلب على المنصب من وزرائهم وحاشيتهم وسببه في الاكثر ولاية صبي صغير او مضعوف
من اهل البيت يترشح للولاية بعهد ابيه او بترشح ذويه وحوله ويؤنس منه العجز عن التيام بالملك
فيقوم به كافله من وزرائه ابيه او حاشيته ومواليه او قبيله ويوري بمعاط امره عليه حتى
يؤنس منه الاستبداد ويجعل ذلك ذريعة للملك فيحجب الصبي عن الناس ويعوده اللذات
التي يدعوه اليها تزوا حواله وتسميه في مراعيها متى امكنه وتنسيه النظر في الاموال السلطانية
حتى يستبد عليه وهو بما عوده يعتقد ان حظ السلطان من الملك انما هو جلوس السرير واعطاء
الصفقة وحظ التوقيع والعقود مع السماح في الحجاب وان الحل والعقد والامر والنهي
ومباشرة الاحوال الملوكية وتفقدها من التطرق الى الجيش والمال والثغور انما هو للوزير
ويسلم له في ذلك الى ان يستحكم له صبغة الرياسة والاستبداد ويتحول الملك اليه ويوشوه

عشيرته وابناءه من بعده كما وقع لبني يونة والترك وكانوا الاجشديين وعربهم بالمشرق والمنصوريين
بني عامر بالاندلس وقد يتغلب لذلك المجور للعلب لشانه فيحاول على الخروج من ربقة الحجر والاستبداد
ويرجع الملك الى نصابه ويضرب على ايدي المتغلبين عليه اما بقتل او بدفع عن الرتبة فقط الا ان
ذلك في الغالب والاقل لان الدولة اذا احدثت في تغلب لو زالوا الاولياء اسمر لها ذلك وقل
ان يخرج عنه لان ذلك انما يوجد في الاكثر عن احوال الترف ونساء ابناء الملك متمسنين في نعمته
قد نسوا عهد الرجولة والفوا اخلاق الدايات وربوا عليها فلا يرتفعون الى رياسة والعرفون
استبدادا من تغلب انما همهم في التنوع بالانعمة واليسير في اللذات وانواع الترف وهذا
التغلب يكون للموالي والمصطنعين عند استبداد عشير الملك على قومهم وانفرادهم به دونهم وهو
عارض للدولة ضروري كما قدمناه وهذان مرضان لابد للدولة منهما الى الاقل الغالب والله
يؤتي الملك من يشاء

فصل في ان المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب

الخاص بالملك وذلك ان الملك والسلطان حصل لاولية مداول الدولة بعصبية قومه وعصبيته
التي استتبعتهم حتى استحكمت له ولقومه صيغة الملك والملك وحيث لم تزل باقية وبقا الخط رسم
الدولة وبناؤها وهذا التغلب وان كان صاحب عصبية من قبل الملك او الموالي والصنايع
فعصبيته مندرجة في عصبية اهل الملك وتابعة لها وليس له صيغة في الملك وهو لا يحاول استبداده
انتزاع ثمراته من الامر والنهي والحل والعقد والابرام والنقض يوهم اهل الدولة فيها انه متعرف
عن سلطانه مستدن في ذلك من وراء الحجاب لاحكامه فهو يتحامى عن سمات الملك وشاراته والقابه
جهده وان حصل له الاستبداد لانه مستتر في استبداده ذلك بالحجاب الذي ضربه السلطان
واولوه على انفسهم عن القبيل مداول الدولة ومغالط عنه بالنيابة ولو تعرض لشيء من ذلك
لتعصبه عليه اهل العصبية وقبل الملك وحاولوا الاستيثار به دونه لانه لم يستحكم له صيغة في ذلك
عالم على التسليم لها والانقياد فيملك اول وهلة وقد وقع مثل هذا لعبد الرحمن بن الناصر
ابن المنصور من ابي عامر حين سما الى استبداد كمه هشام واهل بيته في لقب الخلافة ولم يتبع ما فتح به
ابوه واخوه من الاستبداد بالحل والعقد والمراسم التابعة فطلب من هشام خلعته ان يعهد
له بالخلافة فتمكن ذلك عليه بنو مروان وسائر قريش وبايعوا لابن عمه محمد بن عبد الجبار بن
الناصر وحجروا عليهم وكان في ذلك خراب دولة العامريين وهلاك المؤيد خليفتهم واستبدل
منه بسواه من ابناء الدولة الى آخر واصل مراسم ملكهم والله خير الوارثين

فصل

الملك منصب طبيعي للانسان لانا قد بينا ان البشر لا يمكن حياتهم ووجودهم الا باجتماعهم وتعاونهم
على تحصيل قوتهم وضرورتهم واذا اضعوا دعت المخالطة الى المعاملة واقتضاء الحاجات ومد
كل احد يده الى حاجته بما من صاحبه لما في الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان فيعض بعضهم
ويابغه الآخر عما يقتضي الغضب والانفة ومنتهى القوة البشرية في ذلك فيقع التنازع

المفضي الى المقاتلة وربما تؤدي الى الجرح وسفك الدماء وذهاب النفوس المفضي ذلك الى استطاع النوع
وهو مما حفظه الباري سبحانه بالمحافظة فاستحال بقاؤهم فوضى دون حاكم يدع بعضهم عن بعض واحتاجوا
من اجل ذلك الى نوازع وهو الحاكم عليهم وهو مقتضى الطبيعة البشرية الملك القاهر المحكم ولا
بد في ذلك من العصبية لما قدمناه من ان المطالبات هل والمدافعات لا تتم الا بالعصبية وهذه الملك
كما تراه منصب شريف تتوجه نحوه الطلبات ويحتاج الى المدافعات ولا يتم شيء من ذلك الا بالعصبيات
كما مر والعصبيات متعاونة في كل عصبية فلا تحكم وتغلب على من يليها من قوم او غيرهم وليس الملك
لكل عصبية وانما الملك على الحقيقة لمن يستبعد الرعية ويجبي الاموال ويبعث البعوث ويحمي
الثغور ولا يكون فوق يده يد قاهرة وهذا معنى الملك وحقيقته في المشهور فمن وصف به عصبيته
عن بعضها مثل حماية الثغور او حباية الاموال او بعث البعوث فهو ملك ناقص لم يتم حقيقته كما وقع
لكثير من ملوك البربر في دولة الاغالبة وبالعبيد وان وملوك العجم صدر الدولة العباسية
ومن قصرت به عصبيته عن الاستعلاء على جميع العصبيات والضرب على ايديها وكان فوقه
حكم غيره فهو ايضا ملك ناقص لم يتم حقيقته وهؤلاء مثل امراء النواحي وزعماء الجهات الذين
تجمعهم دولة واحدة وكثيرا ما يوجد هذا في الدول المتسعة البطاق اعني يوجد ملوك على قومهم في
النواحي والقاصية يدينون بطاعة الدولة التي تجمعهم مثل صنهاجة مع العبيديين وزناتة
مع الامويين تارة ومع العبيديين اخرى ومثل ملوك العجم في دولة بني العباس ومثل امراء
البربر وملوكهم مع الافرنجة قبل الاسلام ومثل ملوك الطوائف من العرب مع الاسكندر وقوم
النوبانيين وكثير من هؤلاء فاعتبر بحدة والله الظاهر فوق عباده

فصل

اعلم ان مصلحة الرعية في السلطان ليست في ذاته وجسمه من حسن شكله او ملاحة جسمه
او عظم جثمانه او اتساع علمه او جودة حفظه او ثقوب ذهنه وانما مصلحتهم فيه من حيث اضافته
اليهم فان الملك والسلطان من الامور الاضافية وهي نسبة بين شيئين فحقيقة السلطان انه
المالك الرعية القائم بامورهم عليهم فالسلطان من له رعية والرعية من لها سلطان والصفة التي
له من حيث اضافة اليهم هي التي تسمى الملكة وهي كونه تملكهم فاذا كانت هذه الملكة وتوابعها كما كان
من الجودة حصل المقصود من السلطان على اتم الوجوه فاما ان كانت جميلة صالحة كان ذلك مصلحة
لهم وان كانت سيئة معتسفة كان ذلك ضررا بهم وهلاكا لهم وبعود حسن الملكة الى الرفق فان
الملك اذا كان قاهرا باطشا بالعقوبات مستبدا على عورات الناس وتعديد ذنوبهم شملهم الخوف
والذل وعلاهم بالكذب والمكر والخديعة فتخلقوا بها وفسدت بصائرهم واخلاقهم وربما
حملوه في مواطن الحروب والمدافعات فتشدد كما بفساد النيات وربما اجمعوا قتله لذلك
فتفسد الدولة ويخرب السياج وان دام امر عليهم وفيهم فسدت العصبية بما قدمناه او لا
فتفسد السياج اصلا بالنجعي عن الحماية واذا كان رفيقهم متجاوزا عن سيئاتهم استناموا اليه ولاذوا
به واشربوا محبته واستماتوا دونه في محاربة اعدائه فاستقام الامر من كل جانب واما توابع حسن

الملك

الملك فهي النعمة عليهم والمدافعة عنهم فالمدافعة هي حقيقة الملك وأما النعمة عليهم والاحسان
لهم فمن جملة الرفق بهم والتطول لهم في معاشهم وسياستهم لكثير في التحبب الى الرعية واعلم انه قل
ما يكون ملكه الرفق فيمن يكون بتطاشد يد الذكاء من الناس واكثر ما يوجد الرفق في العقل والمتعقل
واقل ما في السطة انه يكلف الرعية فوق طوقهم لقعود نظره فيما ورآء مداركهم واطلاعه على عوائق
الامور في مبادئها لمعيشته فيهلكون ولذلك قال صلى الله عليه وسلم سيروا على سيركم اضعفكم
ومن هذا الباب اشتراط الشارع في الحاكم قلة الذكاء وما حدث من قصة زياد بن ابي سفيان لما عزله
عمر عن العراق وقال لم عزلتني يا امير المؤمنين لجرام لحاه فقال عمر لم اعزلك لواحدة منهما
ولكن كرهت ان احمل فضل عقلك على الناس فاخذ من هذا ان الحاكم لا يكون مفرط الذكاء والكيس
مثل زياد بن ابي سفيان وعمرو بن العاص لما يتبع ذلك من التعسف وسوء الملكة وحمل الوجود
على ما ليس في طبيعته كما بيناه في آخر هذا الكتاب والله اعلم والمالكين وتقرر من هذا ان الكيس والذكاء
عيب في صاحب السياسة لانه افراط في الملكة كما ان البلادة افراط في الجمود والطرفان مذمومان
من كل صفة انسانية والمحمود منها التوسط كما في الكرم مع التبذير والبخل وكما في الشجاعة مع الهوج
والجبن وعرف ذلك من الصفات الانسانية ولهذا يوصف الشديد الكيس بصفات الشيطان فيقال
شيطان ومتشيطن وامثال ذلك والله خلق ما يشاء

فصل

لما كانت حقيقة الملك انه الاجتماع الضروري للعمران ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من
آثار الغضب والحيوانية كانت احكام صاحبه في الغالب جائرة عن الحق مجحفة عن كثير من الخلق
في اموالهم وسائر احوالهم لحملهم اياهم في الغالب على ما ليس في طوقهم من اغراضه وشهواته واختلف ذلك
باختلاف المقاصد من الحلف منهم فتتعسر طاعته لذلك ويحمي المعصية المفضية الى الهرج والقتل
فوجب ان يرجع في ذلك الى قوانين سياسية مفروضة تسلمها الكافة ويقادون الى احكامها فكان
ذلك للفرس وغيرهم من الامم واذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب امرها
ولا تم استيلاؤها سياسة الله في الذين خلوا من قبل فاذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء
واكابر الدولة وصارت كانت سياسية عقلية واذا كانت مفروضة من الله بشارع تقررها وشرعها
كانت سياسة دينية نافعة في اخرى الدنيا والآخرة وذلك ان الخلق لبس المقصود بهم دنياهم
فقط فانها كلا عبث وباطل اذ غايتها الموت والفناء والله يقول افحسبتم انما خلقناكم عبثا والمقصود
بهم انما هو بهم المفضي بهم الى السعادة في آخرتهم صراط الله الذي له ما في السموات والارض فجاءت
الشرائع بحملهم على ذلك في جميع احوالهم من عبادة ومعاملة حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الانساني
فاحرته على منهج الدين فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب واعمال القوة العصبية في مرعاها فمحمود
وعدوان ومذموم عنده كما هو في مقتضى الحكمة السياسية وما كان منه بمقتضى السياسة واحكامها
فهو مذموم ايضا لانه نظر لغير الله ومن لم يجعل الله نصب عينيه انما هو بغير الله لان الشارع اعلم بمصالح الخلق
فيما هو مغيب عنهم من امور آخرتهم واعمال البشر كلها عائدة عليهم في معادهم من ملك او غيره

قال صلى الله عليه وسلم انما بعثت اكم ترد عليكم واحكام السياسة انما تطلع على مصالح الدنيا فقط يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا. ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الاحكام الشرعية في احوال دنياهم وآخرتهم وكان هذا الحكم لاهل الشريعة وهم الانبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء. فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة وان الملك الطبيعي هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الاخروية والدنيوية الراجعة اليها اذ احوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع الى اعتبارها بمصالح الآخرة فافهم ذلك واعتبره فيما نورده عليك

فصل في وجود الخلافة وشروطها

انه قد عرف من الشريعة وجوب نصب الامام لاقامة احكام الله في خلقه ووجوب طاعته على الخلق وانقيادهم له والمستند في ذلك الاجماع لا العقل كما يذهب اليه بعض المحدثة فان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فزعوا بعد وفاته الى نصب الامام واسلموا العهد على الطاعة والتسليم لنظرهم اليه لم يختلف منهم في ذلك اثنان فبايعوا ابا بكر جميعا ثم بايعوا عمر باختيار ابي بكر لهم وعهده بذلك ثم عثمان بما اختاره عمر الستة اهل الشورى وجعلوا الاختيار منهم لعبد الرحمن بن عوف وفوضوا اليه فاختاره لهم عثمان بعد الاجتهاد ثم عليا من بعده باتفاقهم واجماعهم. ثم الحسن ثم معاوية بتسليم الحسن له وهكذا في كل عصر وهذا اجماع على وجوب هذا المنصب ولم نعلم في ذلك خلافا الا ما ينقل من الخوارج انهم يذهبون الى القول بعدم وجوبه وان الواجب انما هو امضاء احكام الشريعة ولا يتعين ذلك لواحد فاذا تواطأت الامة على العدل وامضاء الحق لم يحتج الى امام ولا يجب نصبه والذي ذهب لهم الى هذا انما هو الفرار من الملك ومذاهبه ولما راوا الشريعة ممتلية بذم الملك واحواله من التغلب والقهر ومعنى الاستمتاع بالدنيا واشتبه عليهم المنصب حتى لا اشتباه وجودا فقضوا بتعقبه وعدم مشروعيته وهم محجوجون بالاجماع متى ذهبوا الى ذلك ولا يغنيهم الفرار عن الخلافة شيئا فان العصبية التي بها قام الدين لا بد منها وهي مقتضية للملك واحواله بطبعها كما ذكرناه وليست الخلافة مع ذلك من الملك في شيء فقد ميزنا كل واحد منهما بحقيقته وغاية ما ينتهي اليه نظرهم بعد هذا التحقيق ان يكون سد الذريعة وسد الذريعة لا يعارض الاجماع ثم ان اهل الحق من السلف والخلف مجمعون على ان تعيين الامام راجع الى اختيار الخلق والشيعة يقولون انه معين من عند الله بالنصوص اما الجلية ومعناه التي لا يظهر كما النبي صلى الله عليه وسلم للامة كقوله من كنت مولاه فعلي مولاه وقوله انت مني بمنزلة هرون من موسى وامثال ذلك ويقدحون في امامة الخلفاء الاربعة واما بالنصوص الخفية وهي نص من الله ورسوله على تعيين الامام واسمه ونسبه وكذا في كل عصر وهم لا يسمون الامامية لقولهم بالنص ومنهم الاثنى عشرية ومنهم الاسماعيلية وهم الرافضة يزعمون ان النبي صلى الله عليه وسلم اوصى الى علي بالخلافة وجحده الصحابة ويسمون عليا الوصي ويقولون

الخلافة منه الى جعفر الصادق ثم الى ابنه موسى الكاظم لم يستوفوها فى ولده الى المهدى المنتظر
وهو الثانى عشر من ولد على وسمى هؤلاء الاثنى عشرية • ومنهم من ساقها من جعفر الصادق الى ابنه
اسمعيل ثم لم يستوفوها فى ولده الى عبيد الله المهدى بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكنوم
ابن اسمعيل الامام وسموا باطنية ومن هذا المذهب نشأت دولة العبيديين وهو اصل دعوة
ابى عبد الله المحتسب لها وعد الامامية من الشيعة مثل الكيسانية والزيدية منهم يقولون ان الخلافة
لست بنص من الله ومامى باختيار من الخلق امامى نيابة عن النبى صلى الله عليه وسلم فيكون وراثة عنه واولى
الناس بها العباس لانه عمه وعاصبه لقوله واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض فى كتاب الله ولم ينعقد
امامة على الا بتسليم العباس له ثم انتقلوا عن ذلك اخرا وذهبوا الى ان الامة كانت لمحمد بن الحنفية بوصية
على ثم الى هاشم من بعده ثم لعلى بن عبد الله بن عباس من بعده ثم لابنه محمد بن على ثم لابنه ابراهيم الامام
ابن محمد ثم لاخيه عبد الله بن الحارثية وهو ابو العباس السفاح كل ذلك بالوصية **ومن هذا**
الباب نشأت دولة العباسيين وكان من امرهم ما هو فوق السبعة خارج على الدول لو تم امرهم
ولا تالوا من الدولة بغيتهم وهلك فيها ما شاء الله من الامم **واما شروط هذا المنصب**
فهى اربعة • العلم • والدين • والكفاءة • والنسب القرشى فاما اشتراط العلم فظاهر لانه انما يكون
مستند الاحكام الله اذا كان عالما بها وما لم يعلمها لا يصح تقدمه لها ولا يكفى من العلم الا ان يكون مجتهدا
لان التقليد نقص والامامة تستدعى الكمال فى الاوصاف والاحوال • واما الدين ايضا فلم يكن متبعا لاحكام
الله فى خاصة نفسه فكيف يكون حاملا لغيره على اتباعها اتامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم • واما
الكفاية فهو ان يكون حريا على اقامة الحدود واقتحام الحروب بصيرا بها غير غر بالعصبية واحوال
الدهاء قويا على معاناة السياسة **واما النسب** القرشى فلاجماع الصحابة يوم السقيفة
على ذلك واحتجوا على الانصار بان النبى صلى الله عليه وسلم اوصانا بان نحسن الى محسنكم ونتجاوز
عن مسيئكم ولو كانت الامارة فيكم لم تكن الوصية بكم فحجت الانصار وعدلوا الى ذلك عما كانوا اسموا به
من بيعة سعد سيدهم ولم يكن عدولهم الا عن قطعى • وثبت فى الصحيح الخلافة فى قريش واما ذلك
الا انه لما ضعف امر قريش وتلاشت عصبيتهم بما نالهم من الترف والنعيم وتغلبت عليهم الاعاجم
وصار الحل والعقد لهم فاستند ذلك الى كثير من المحققين حتى ذهبوا الى بقى اشتراط القرشية
وعدلوا طوايرى فى ذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم اسمعوا واطيعوا وان ولى عليكم عبد حبشى
دورسيبة وهكذا الا بعيد بقى اشتراط النسب فانه خرج مخرج التمثيل للمبالغة فى اجتماع الكلمة والطاعة
ومثل قول عمر لو كان سالم مولى حذيفة حيا او لبعته او لما دا خلنى فيه الظنة وهو ايضا لا يفيد
ذلك لما علمت ان مذهب الصحابى ليس بحجة • وايضا فمولى القوم منهم وعصبية الموالى حاصلة
وهى الفائدة فى اشتراط النسب وسالم حصلت له من قريش عصبية الولاء • ولما استعظم عمر امر الخلافة
ورأى شروطها فانها مفقودة عدل الى سالم فى ظنه لتوفر شروط الخلافة عنده حتى من النسب المفيد
للعصبية كما ذكر ولو ثبت الاشتراط النسب فرأيه عن محتاج اليه اذ الفائدة فى عصبية النسب حاصلة
دونه حرصا من عمر على النظر للمسلمين وتقليد امرهم لمن لا تخفى منه لائمة ولا عليه فيه عمدة ومن

القائلين بشرط استراط النسب للقاضي أبو بكر لما ادرك عليه الدولة القرشية من التلاشي والاضمحلال
والمحو واستداد العجم عليها وآخرون لم يروا الاخلال بشرط القول بالقرشية ولو ذهبت الولاية
الكفاية والقدرة وصاروا الى العجز فيقولون بولاية القرشي ولو كان عاجزا عن القيام بامور المسلمين
ويدهلون عن معنى الكفاية وانه اذا ذهبت العصبية جملة فهي مفقودة ولو فقد وقع الاخلال
بشرط الكفاية ليطرق الاخلال ايضا الى العلم والدين وذهبت شروط الخلافة رأسا ومن اعتبار
المنصب الخلافي فليستدل الشرع استراط النسب لنظهر به تحقيق هذه المذاهب منقول ان
الاحكام الشرعية كلها لابد لها من مقاصد وحكم تشتمل عليها وشرع لاجلها وسواء كانت الاحكام
امتثالية كما في التكاليف الحسنة او وضعية كما في الشروط والاسباب ونحن اذا بحثنا عن الحكمة في
استراط النسب القرشي ومقصد الشارع منه لم نستطرفه على الترك بوصلة النبي صلى الله عليه وسلم
كما مر في المشهور وان كانت تلك الوصلة موجودة الا ان الترك ليس من المقاصد الشرعية
كما علمت فلابد اذن من مصلحة في استراط النسب هي المقصودة في مشروعيته واذا استرسلنا
وقسمنا لم نجد الا اعتبار العصبية التي يكون بها الحماية والمطالبة وترتفع الخلاف والفرقة
بوجودها لصاحب المنصب فيكون الية الملة والدولة وتنتظم حبل الالفة فيها وذلك ان قريشا
كانوا اثنتي عشرة واصلهم واهل النسب منهم وكان لهم على سائر مضر العز بالكثرة والعصبية
والشرف فكان سائر العرب يعرفون لهم ذلك ويستكنون لعلمهم فلو قد جعل الامر في سواهم
لوقع افتراق الكلمة لمحالفتهم وعدم انقيادهم ولا يقدر عليهم من قبائل مضر ان يردهم عن اهوائهم
ولا يحملهم على الكره فتقع الفرقة وتختلف الكلمة والشارع محذر من ذلك حريص على الالفة
اتفاقهم ورفع التنازع والشتات بينهم بحصل اللحمة والعصبية وحسن الحماية بخلاف
ما اذا كان الامر في قريش لانهم قادرون على سوق الناس بعصا الغلب الى ما يريد منهم فلا
يخشى من احد خلاف عليهم ولا فرقة لانهم كفيلون حينئذ بدفعها واصطياد الناس عنها فاشترط
لسلمهم القرشي في الخلافة للعصبية القوية ليكون ابلغ في استظام المسلمين واتفاق الجماعة
واذا استظمت كلمتهم باستظامها كلمة مضر اجمع فادعن لهم سائر العرب وانقادت الامم
سواهم الى احكام الملة ووطئت جنودهم قاصية البلاد كما وقع في ايام الفتوحات واستمر بعدها في
الدولتين الى ان اضمحل امر الخلافة وتلاشت عصبية العرب وعلم ما كان لقريش من الكثرة والتغلب
على بطون مضر من مدارس اخبار العرب وسيرهم ونقطن لذلك من احوالهم وقد نقل عليه ابن اسحاق في
كتاب السير واذا تبين ان اشتراط القرشية انما هو لدفع التنازع بما كان لهم من العصبية والغلب وعلمنا
ان الشارع لا يحقق الاحكام بحسل ولا عصر ولا ملة علمنا ان ذلك انما هو من الكفاية فرددناه اليها وجردنا
العلم المشتمل على المقصود من القرشية وهي وجود العصبية فاشترطنا في القيام بامور المسلمين ان
يكون من قوم اولي عصبية قوية غالبة على من معها لعصرها ليستتبعوا من سواهم ويجتمع الكلمة على
حسن الحماية والنعم ذلك من الاقطار والافاق كما كان في القرشية اذ الدعوة الاسلامية التي كانت لهم
كانت عامة وعصبية العرب كانت وافية لها فقبلوا سائر الامم وانما محض كل قطر بن يكون لهم

فيه العصبية الغالبة فيشترط لهذا العهد في القائم بامور المسلمين بافريقية ان يكون من آل ابي حفص لانهم الغالبون على من فيه وبالمغرب ان يكون من زناتة لانهم الغالبون على من فيه وباقليم مصر والشام ان يكون من الترك لانهم الغالبون على من فيه وبالمغرب ان يكون من زناتة لانهم الغالبون على ما فيه واذا اطرقت سر الله في الخلافة لم بعد هذا الا سبحانه انما جعل الخليفة فاثيا عنه بالقيام بامور عباده ليحملهم على مصالحهم ويزجرهم عن مضارهم ومن يخاطب بذلك ولا يخاطب بالامرين لا قدرة له عليه الا ترى الى النساء في كثير من الاحكام الشرعية كيف جعلن تبعا للرجال ولم يدخلن في الخطاب بالوضع وانما دخلن بالقياس وذلك لما لم يكن لهن من الامر شيء وكان الرجال قوامين عليهن اللهم في العبادات التي كل احد قائم على نفسه فخاطبهن فيها بالوضع لا بالقياس ثم ان الوجود شاهد بذلك فانه لا يقوم بامامة او حمل الا من عليهم وقد ان يكون الامر الشرعي محالفا للامر الوجودي ● والله اعلم

● فافهم ذلك واعتمده فيما نورده عليك من بعد ●

فصل في تعقلات كلامية الى الملك

اعلم ان الملك غاية طبيعية للعصبية ليس وقوعه باختيار انما هو ضرورة الوجود وترتيبه كما قلناه من قبل وان الشرائع والديانات وكل امر محمل عليه الجمهور فلا بد فيه من العصبية اذ المطالبة لا تتم الا بها كما قدمناه في العصبية ضرورية للملك ولولاها لما قام امر الله بها قال علي رضي الله عنه ما بعث الله نبيا الا في منعة من قومه ثم وحدنا الشارع ذم العصبية وندب الى اطراحها وتركها فقال ان الله اذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالاباء انتم بنو آدم وآدم من تراب وقال تعالى ان اكرمكم عند الله اتقاكم ووجدناه ايضا قد ذم الملك واهله ونعى على اهله احوالهم من الاستبداد بالملذات والاسراف في غير القصد والانسلاك عن صراط الله وانما خص على الالفة في الدين وحذر من الخلاف والفرقة واعلم ان الدين واحوالها كلها عند الشارع مظنة للاخرة ومن فقد المظنة فقد الوصول وليس مراده فيما نهى عنه او ندمه من افعال البشر او ندب الى تركه اهمالها بالكلية واطراحه من الوجود وتعطيل الهوى التي تشارعها بالكلية انما قصده تصريفها في اغراض الحق جهد الاستطاعة حتى يصير المقاصد كلها حقا وتتحد الوجهة من كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امرأة ينزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فلم يذم العصب وهو مقصد مرعي من الشارع فانه لو زال منه قوة العصب لفقد منه الاستظهار بالحق وبطل الجهاد واعلاء كلمة الله وانما ذم العصب لفقد منه الانتصار للحق وبطل الجهاد واعلاء كلمة الله وانما ذم العصب للشيطان وللاغراض الذميمة فاذا كان العصب لله وفي الله كان ممدوحا وبهذا من سماه صلى الله عليه وسلم وكذا ذم الشهوات ليس المراد ابطالها بالكلية فان من بطلت شهوته كان ناقصا في حقه وانما المراد تصريفها فيما يتحمله باستمالة على المصالح ليكون الانسان عبدا مستمرا طوع سيده وكذا العصبية حيث ذمها الشرع فقال ليس منا من دعى الى عصبية او قاتل عصبية فانما مراده حيث تكون العصبية على الباطل واحوالها فما كانت في الجاهلية وان يكون لاحد

فحوها وحق على احد ان ذلك مجان من افعال العقلاء وغير دافع في الاخرة الى دار القرار فاما
اذا كانت العصبية في الحق واقامة امر الله فامر مطلوب ولو بطل لمطلق الشرائع اذ لا يكون قوامها
الا بالعصبية كما قلناه من قبل وكذا الملك لما ذمه الشارع لم يذم منه الملك بالحق وقهر الكافة على
الدين ومراعاة المصالح وانما ذمه لما فيه من التغلب بالباطل وتمريف الاذمين طوع الاغراض
والشهوات كما قلنا فلو كان الملك مخلصا في خلة الناس لله ولحملهم على عبادة الله وجهاد عدوه لم
يكن ذلك مذموما وقد قال سليمان صلوات الله عليه رب هب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي لما علم
من نفسه انه بمعزل عن الباطل في النبوة والملك ولما اتى معاوية عمر بن الخطاب عند قدومه الى الشام
في بهجة الملك وزينة من العتاد والعدة استنكر ذلك وقال اكسروه يا معاوية فقال يا امير المؤمنين
انا في ثغر تجاه العدو وبنا الى مبناهم بزينة الحرب والجهاد حاجة فسكت ولم يعطه لما اجتمع عليه
بمقصد من مقاصد الحق والدين فلو كان القصد رفض الملك من اصله لم تنفعه هذه الجوابات في تلك الكسروية
والتحاملها بل كان يحرص على خروجه عنها بالجملة وانما اراد عمر بالكسروية ما كان عليه اهل فارس في ملكهم من
ازكاب الباطل والبغي وسلوك سبله والعقلة عن الله واجابة دعوته فان القصد بذلك ليس كسروية
فارس وباطلهم وانما قصده بها وجه الله وسكت وهكذا شان الصحابة في رفض الملك واحواله وبساتين
عوائده حذرا من ابتناها بالباطل فلما احتضر رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلف ابا بكر على الصلاة
اذ هي اتم امور الدين وارتضاه الناس للخلافة وهي حمل الكافة على احكام الشريعة ولم يجز للملك ذكر
لما انه مظنة للباطل ومخلة بومينذ باهل الكفر واعداء الدين فقام بذلك ابو بكر ما شاء الله منبعا
سنن صاحبه وقاتل اهل الردة حتى اجتمع العرب على الاسلام ثم عهد الى عمر فاقتفى اثره وقال لامم
قبلهم وادن للعرب في انتزاع ما بايديهم من الدنيا والملك فقلبوهم عليه وانتزعوه منهم ثم
صارت الى عثمان ثم الى علي والكل مشتركون من الملك سكون عن طرقه واكد ذلك بهم ما كانوا عليه
من معاضة الاسلام وبداوة العرب فقد كانوا العهد بامم من احوال الدنيا وترفها لامن حيث دينهم
الذي يدعوهم الى الزهد في النعيم ولا من حيث بداوتهم ومواطنهم وما كانوا عليه من خشونة العيش
وشظفه فلم تكن امة من الامم اسرع عتيا من مصر لما كانوا بها كحاذ في ارض عرزى زرع ولا
ضرع وكانوا ممنوعين من الارياف وخوضها للبعد واختصاصها بمن وليها من سعته والبين
فلم يكونوا يتطاولون الى خصبها ولقد كانوا كثيرا ما يكلون العقارب والحنافس ويحرون
باكل العلهز وهو وبر الابل يمهنونه بالمجارة في الدم ويطبخونه وقريبا من هذا كانت حال
فارس في مطاعمهم ومساكنهم حتى اذا اصبحت عصبية العرب على الدين بما اكرمهم الله به من سبق
محمد صلى الله عليه وسلم رجفوا الى امم فارس والروم وطلبوا ما كتب الله لهم من الارض بوعد
الصدق فاستولوا على ممالكهم واستباحوا نعيمهم فرجحت بحار الرقة لديهم حتى كان الفارس الواحد
يقسم له في بعض الغزوات ثلاثين الفا من الذهب او نحوها فاستولوا من ذلك على ما لا يأخذه
الحصر ومع ذلك على خشونة عيشهم وكان عمر يرقع ثوبه بالجلد وكان على يقول اصفروا
بنصاكم عزى وكان ابن هوسى يتحافا عن اكل الدجاج لان السلف من قومه لم يأكلوه وكانت

المأصل

المتاجل مفقودة عندهم بالجملة وانما مكاسبهم الخطة بخالها ومكاسبهم مع هذا اعم ما كانت لاحد من اهل العالم **قال المسعودي** في ايام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال فكان له يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة الف دينار والف الف درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرها مائتا الف دينار وخلف ابلا وخيلا كثيرة وبلغ ممن ارتجع بعد وفاته خمسين الف دينار وخلف الف فرس والف امة وكانت غلة طلحة من العراق الف دينار كل يوم وساحة الشراة اكثر من ذلك وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف الف فرس وله الف بعير وعشرة آلاف من الغنم وبلغ الربع بعد وفاته اربعة وثمانين الفا **وخلف** زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤس غير ما خلف من الاموال والضياع بمائة الف دينار **وبنا** الزبير داره بالبصرة وكذلك بنو عمر والكوفة والاسكندرية وكذلك بنو طلحة دار بالكوفة وشيد دارا بالمدينة وبنا بالجص والاجر والساج وبنو سعد بن ابي وقاص دارا بالعقيق ورفع سمكها واوسع فضاءها وجعل على اعلاها شرفات وبنى المقداد دارا بالمدينة وصفها بمخصصة الباطن والظاهر وخلف لعلي بن مسبة خمسين الف دينار وعقارا وغير ذلك ما قيمته ثلاثمائة الف انتهى كلام المسعودي فكانت مكاسب القوم كما ترى ولم يكن ذلك سعيا عليهم في دينهم اذ هي اموال حلال لانها غنائم وفيء ولم يكن يصرفهم فيها بالاسراف انما كانوا على قصد في احوالهم كما قلناه فلم يكن ذلك بقادح فيهم وان كان الاستكثار من الدنيا مذموما فانما يرجع الى ما اشرنا اليه من الاسراف والخروج به عن القصد واذا كان حالهم قصدا وتعففهم في سبل الحق ومذاهبه كان ذلك استكثارا معونا لهم على طرق الحق واكتساب الدار الاخرة فلما ذهبت الدعوة والعصابة التي نشأت وصاف طبيعة الملك التي هي مقتضى العصبية كما قلناه **وجعل** التغلب والقهر كان حكم ذلك الملك عندهم حكم ذلك الرفد والاستكثار من الاموال فلم يصرفوا ذلك التغلب في باطل ولا خرجوا به من مقاصد الديانة ومذاهب الحق **ولما وقعت** الفتنة بين علي ومعاوية وهي مقتضى العصبية كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيوي او لانتهاب باطل او استشعار حقد كما قد يتوهمه متوهم ويترع الى ملحد انما اختلفت اجتهاد دينهم في الحق وسعى كل واحد بنظر صاحبه باجتهاده في الحق فقتلوا عليه وان كان المصيب عليا فلم يكن معوية فاسقا بقصد الباطل انما قصد الحق واخطأ والكل قاتلوا في مقاصدهم على حق ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستبداد الواحد به ولم يكن لمعاوية ان يدفع ذلك عن نفسه وقومه فهو امر طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته سواميه ولم يكن على طريق معاوية في اقتفاء الحق من اتباعهم فاعه وصبوا عليه واستبدوه ولو حلم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم بالانفراد بالامر لوقع في افتراق الكلمة التي كان جمعها وتالبها اهم عليه من امر ليس وراءه كبير مخالفة فالملك اذا حصل وفرضنا ان الواحد انفرد به وصرفه في مذاهب الحق ووجوهه لم يكن في ذلك مكر عليه **وقد انفرد** سليمان صلوات الله عليه وابوه داود ملك بني اسرائيل بما اقتضته طبيعة الملك فيهم من الانفراد به وكانوا اما

علت من السوء والحق وكذلك عهد معاوية الى يزيد حوفا من افتراق الكلمة بما كانوا ينوا امته لم يرضوا
بسلم الامر لمن سواهم فلو قلد عهدا اغير احلفوا فيه مع ان طنهم كان صالحا ولا يرتاب احد في ذلك
ولا يظن بمعوية غير فلم يكن ليعهد اليه وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق حاش لله لمعوية من ذلك
وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه وان كانوا ملوكا فلم يكن مذهبهم في الملك مذهب اهل البطالة
والعتى انما كانوا محترزين لمقاصد الحق حمدهم الا في ضرورة تحملهم على بعضها مثل حسبة افتراق الكلمة الذي
هو اتم لدفع من كل مفسدة يشهد بذلك ما كانوا عليه من الاتباع والاقتداء وما علم السلف من احوالهم
فقد اصبح ملك بعمل عبد الملك واما مروان وكل من الصحابة وعدالتهم معروفة ثم تذبذب الامر
في ولد عبد الملك واستعملوا طبيعة الملك في اغراضهم الدنيوية وسئموا بهم ولبنوا اما كان عليه سلفهم من
حرمي لمقصدها واعتماد الحق في مذاهبها وكان ذلك مما دعى الناس الى ان نفق عليهم افعالهم وادالوا
بالدعوة العباسية منهم وولى رجالها الامر وكانوا من العدالة مكان وصرفوا الملك في وجوهه
الحق ومذاهبه ما استطاعوا حتى جاءوا الرشد من بعدهم فكان منهم الصالح والطالح ثم افضى الامر
الى بنيهم فاعطوا الملك والترف حقه والعموا في الدنيا وباطلها وشدوا الدين وراءهم ظهريا
فبادن الله بخرابهم **والنزاع** الامر من اذى العرب جملة وامكن سواهم منه **والله** لا يظلم مثقال
ذرة **وامهات الملك** هو لاء الخلفاء والملوك واحلالهم في جري الحق من الباطل علم صحة ما قلناه
وقد حكى المسعودي مثله في احوال بني امية عن ابي جعفر المنصور وقد احضر عمومته وذكروا بني
امية فقال اما عبد الملك فكان جبار الابالي ما صنع **واما سليمان** وكان نمة بطنه وفرجه
واما عمر فكان اعور بين عميان وكان رجل القوم هشام قال ولم يزل بنو امية ضابطين
لما عهد لهم من السلطان يحوطونه ويحتفظون به ويصرفون ما وسعهم منه مع تسمتهم معالي الامور
وروسهم اداها حتى افضى الامر الى ابنائهم المترفين فكانت همتهم قصد الشهوات وركوب اللذات
من معاصي الله جهلا باسدراجه واما الكرم مع اطراحهم صيانة الخلافة واسحفافهم بحق الرياسة وضعفهم
عن السياسة فسلبهم الله العز والسهم الذل ونزع عنهم النعمة ثم استحضر عبد الله بن مروان فقص
عليه خبر مع ملك النوبة لما دخل ارضه فاراد امام بني العباس فقال امت ملبا نم انا ني ملكهم فقعد
على الارض وقد بسطت لي فرس ذات قيمة فقلت ما منعك من القعود على بساطنا قال لاني ملك
وحق كل ملك ان يتواضع لعظمة الله اذ رفعه الله اليه ثم قال لي لم تشربون الخمر وهي محرمة
عليكم في كتابكم فقلت احراعلى ذلك عيدنا واتباعنا واعاجم دخلوا في ديننا ثم رفع راسه الي
فقال ليس كما ذكرت بل انتم قوم استحللتم ما حرم الله وابحتم ما عنه نهيتم وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم
الله العز والسكم الذل بدلوبكم وسلطنته لم تبلغ غايتها فيكم وانا خايف ان حل بكم العذاب وانتم
ببلدي فما بالي معكم واما الضيافة فلات فزودني ما احببت الله وارحل عن ارضي فتعجب
المنصور واطرق فقدرت لك كيف انتقلت الخلافة الى الملك وان الامر في اوله كان خلافة
ووازع كل احد فيها من نفسه وهو الدين وكانوا موزونة على امور دنياهم وان افضت الى غلاتهم
وصدهم دون الدافة نهد اعتمان لما حصر في الدار جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر

وابن

وابن جعفر وامثالهم يردون المدافعة عنه فابى وسع من سل السيوف بين المسلمين مخافة الفرقة
وحقنا للالفة التى بها حفظ الكلمة وهذا على اشارة المغيرة لاول ولايته باستبقاء معاوية وادريس
وطلحة حتى يجتمع الناس على بيعته ويبقى لكلمة وله بعد ذلك ما ساء من امره وكان ذلك من سياسة
الملك فابى فزاد امن الغش الذى بينه الاسلام وعدا على المغيرة من العداة فقال لقد اسرت
علينا بالامس بما اسرت ثم عدت الى تطرى فعلمنا انه ليس من الحق والنصيحة وان الحق فيما اريته انت
فقال على لا والله لم اعلم انك بصمتنى بالامس وغششتنى اليوم ولكن منعنى مما اشرت به زاد الحق
وهكذا كانت احوالهم فى اصلاح دينهم بفساد دنياهم **ونحن**

• نرقع دنيانا بتمزيق ديننا • فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع •

ثم ان الامور صارت من بعد ذلك الى الملك وبقيت معانى الخلافة من تحرى الدين ومذاهبه والجرى
على مناهج الحق ولم يظهر التغير الا فى الوازع الذى كان دينيا ثم انقلب عصبيا وسيفيا وهكذا كان
الامر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الاول من خلفاء بنى العباس الى الرشيد ثم
نسيت معانى الخلافة ولم يبق الا اسمها وصار الامر ملكا محتا وجرت طبيعة التغلب الى غايتها
واستعملت فى اغراضها من القهر والتحكم فى الشهوات والملاذ وهكذا كان الامر لولد عبد الملك وملك
بعد الرشيد من بنى العباس واسم الخلافة باقيا فيهم لبقاء عصبيتهم العرب والخلافة والملك فى
الطورين ملتبس بعضها ببعض ثم ذهبت رسم الخلافة وآثارها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم وملاشى
احوالهم وبقى الامر ملكا محتا فما كان السلطان فى ملوك العجم بالمشرق يدينون بطاعة الخليفة تبركا والملك
بجميع القابه ومناجيه لهم ليس للخليفة منه شئ وكذلك فعل ملوك زناتة بالمغرب مشاهم مع العبيديين
ومعاون وبنى ايضا مع خلفاء بنى امية بالاندلس والعبيديين بالقيروان فقد تبين ان الخلافة
وجدت بدون الملك اولا ثم التبست معانيها واختلطت ثم انفرد الملك حيث افترت عصبية من
عصبية الخلافة • والله مقدر الليل والنهار ٥

اعلم ان البيعة هى العهد على الطاعة كان المبايع يعاهد امير على انه سلم له النظر فى
امر نفسه وامور المسلمين لا ينازعه فى شئ من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الامر على المنشط والمكره
وكانوا اذا بايعوا الامير وعقدوا عقدوا جعلوا ايديهم فى يده توكيدا للعهد فاستعير ذلك لفعل
البايع والمستوى فسمى بيعة مصدر باع وصارت البيعة مصافحة بالايدى عند العقد لولها فى عرف
اللغة ومعهود الشرع وهو المراد فى الحديث فى بيعة النبى صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وعند السخرة
وحيث ما ورد هذا اللفظ • ومنه بيعة الخلفا **واما البيعة المنهون** لهذا العهد
فهى تحية الملوك الكسروية من تقبيل الارض واليد او الرجل او الذيل اطلق عليها اسم البيعة التى
هى العهد على الطاعة لما كان هذا الخضوع فى التحية والتزام الاداب من لوازم الطاعة
ولوازمها وعلى مر حتى صار حقيقة عرفية واستغنى بها عن مصافحة الذى الناس التى هى الحقيقة
فى الاصل لما فى المصافحة لكل احد من الذل والابتذال المنافيين للرياسة وصون المنصب الملوكى

الا في الاقل ممن يقصد التواضع من الملوك فيأخذ به نفسه مع خواصه ومشاهير اهل الدين من رعيته
فافهم معنى السعة فانه اكيد على الانسان معرفته لما يلزمه من حق سلطانه وامامه ولا يكون افعاله عبثا
واعتبر ذلك من افعالك من الملوك والله الموفق العزيز ٥

اعلم ان العهد بالخلافة حسن لمن توفرت فيه شروطها او فصل عزيز بها وهو من النظر للمسلمين
فان الامام كما يبيطر للمسلمين في حياته ينظرهم بعد مماته لما قلده الله من امرهم فتولى عليهم من عرفت
استقامته وكفايته ولو توفرت فيه شروط الامامة وهو مختلف باختلاف العاهدين وقد فعل ذلك
ابو بكر من عهده الى عمر وعمل عمر في قصر الامر على ستة لم يحاوز بها سواهم وجعل اليهم الاختيار للمسلمين
منهم ومن سواهم وعلى هذين السببين جرى الامر ومن صحة العهد وبنائه على الحق ان لا يوثر به
اهل السبب الا اذا علم ان في العهد لمن سواهم مفسدة من افتراق الكلمة وشق عصا الجماعة فانه حينئذ
يوثره بذلك ولا سعة عنه لان اتفاق اهل الملة موالاتهم المقدم هنا ما لم يكن مشلوبا بشروط الخلافة وصفاتها
المعتبرة بالكلية فاما اذا كان بعضها موجودا او وصف على غير الكمال فرعاية الاتفاق مع نقصانها اولى
وارجح وهذا هو الذي حمل معاوية رضي الله عنه على العهد لابنه يزيد مع انه لم يعلم ما كان عليه من الخرج
كله انما نظر الخير وراعى المصلحة في اجماع الناس عليه واتفاق اهوائهم باتفاق بني امية اهل الحل والعقد
من قريش يومئذ وبنو امية يومئذ لا يرضون غيره وهم عصابة قريش واهل علمهم فاثره بذلك دون
غيره مما هو اولى بها منه وعدل الى المنصوص عن الفاضل حرصا على الاتفاق والاجماع اما هو الذي شانه
اهم عند الشارع ولا يظن بمعوية غير هذا فعدالته وصحابته مانعة مما سواه وكذلك الخلفاء الذين كانوا
يخرجون الحق من بعده مثل عبد الملك وسليمان وعمر والسفاح والمنصور واما لهم ممن عرفت عدالتهم
وحسن رايهم في المسلمين والنظر لهم والاعتناء عليهم ايثارا بنائهم واخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء
الاربعة في ذلك وشانهم غير شان اولئك الخلفاء فانهم كانوا على حين لم تحدث لهم طبيعة الملك وكان
الوازع دساسا فعند كل احد وازع من نفسه فعهدوا الى من يرتضيه الدين فقط واثروه على غيره
وكلوا كل احد ممن يسمو اليه ذلك الى وازعه واما من بعدهم من ملوك معاوية فكانت العصبية قد استولت
على غايتها من الملك والوازع الديني قد ضعف واجتمع الى الوازع السلطاني والعصابي فلو قد
عهد الى غير من يرتضيه العصابة لردت ذلك العهد واسعف امره سريعا وصارت الجماعة الى الفرقة
والاختلاف **سال رجل** عليا رضي الله عنه ما بال الناس اختلفوا عليك ولم يختلفوا
على ابي بكر وعمر فقال لان ابا بكر وعمر كانا والناس على مثلي وانا اليوم وال على مثلك يشير الى وازع
الدين افلا ترى الى المامون لما عهد الى علي بن موسى بن جعفر الصادق وسماه الرضى كيف انكرت العباسية
ذلك ونقضوا بيعته وبايعوا لعمه ابراهيم بن المهدي وظهر من الهرج والخلاف وانقطاع السبل
وتعدد الثوار والخوارج ما كان يضطلم الامر حتى بادر المامون من خراسان الى بغداد ورد امرهم
لمعاهده وهلك علي بن موسى الرضى وصلى عليه ولا تسل عن الكشف فالله اعلم بحقائق الامور فلا بد
من اعتبار ذلك في العهد فالعصبة تختلف باختلاف ما يحدث فيها من الاراء والقبائل والعصبيات

ويخلف باصلاح المصالح ودفع المضار حكم يخصه لطفا من الله بعباده واما ان يكون القصد بالعهد
حط التوابع على الابناء فليس من المقاصد الدينية اذ هو امر الله يختص به من يشاء فينبغي ان
يحسن النية فيه ما امكن خوفا من ان يبعث بالمقاصد الدنيئة والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده
واعترضت هنا حاشية انكروا عليك قتاده وبيانه ربما يظن ان ترك العهد اولى مما ان النبي صلى
الله عليه وسلم لم يعهد وليس ذلك بصحيح لاجماع الصحابة من بعده على امضاء عهد ابي بكر رضي الله عنه
لعمر وايضا ان العهد اولى وان النبي صلى الله عليه وسلم عهد كما تزعم الشيعة وانه اوصى بالامر
لعلي قالوا ولم يكن الذي يترك الناس لهم هم في دينهم وهذا امر لم يعرف ولا نقله احد من السلف
ولو عهد صلى الله عليه وسلم لعرف ونقل واشتهر وليس المنصب واحواله بالحقيرة ولا هذه
الراس عرضي والذي يبين لك الحق في ذلك ان تعلم ان امر الخلافة في الملك لم يكن مهما كما هو لعهد ما
لان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن همه الا اقامة الدين خاصة لما هو يعلم الناس شرائعهم ويدعوهم
الى دينهم الذي فيه سعادتهم ولم يرخ في معالم الدين واركانه امهم من الصلاة فكان يحافظ عليها
معينا ممضيا وكان يستخلف لها ابا بكر اذا غاب وفعل ذلك مرارا فحصل علم انه خليفته على المهم الاكبر
من الدين وهو العلاء واما منصب الخلافة فلم يتعين بعد اذ الملك معقود بمجموع
لما عرف من احوال النبي صلى الله عليه وسلم في دمه واطراح الهوى والعصبية وتنفيذ احكام
الله بين المسلمين راجع الى اجماعهم وامام صلاتهم كما قال للعجوز حين قالت
فان لم اجدك تعني الموت فقال لها ائتي ابا بكر ولم يظهر منصب الخلافة في الملك وتعنت الجاهلية
الا بظهور الردة والفتوحات فاحتيج الى حماية البيضة وحمل الناس على الجادة ولهذا ارتاب
عمر لما وقعت الردة وقال لابي بكر اعلق عليك بيتك حتى يحكم الله تعالى له ابو بكر استطر الوحي انه
اوحي بعد رسول الله حتى نصر الله عمر لمثله وصيد سعلوا سعالى اهل الردة وتمهر منصب الخلافة
في حماية البيضة وحمل الناس على الجادة وبعثوا البعوث حتى اسلمت العرب ثم حجروا العساكر لفارس
والروم ولما تعين المنصب لم يهمله ابو بكر فعهد لعمر نظرا للمسلمين وكذلك فعل عمر في الشورى
وراه مبلغ اجتهاده وبراءة عهدته واغتبط عثمان وعلى دون ذلك وعهد معوية لابنه
وطنة اجتهادا فما قدمناه والشيعة تحسبون ان الخلافة كانت على عهد النبي صلى الله عليه وسلم
كاني لعهدهم من الاهتمام بها فلذلك يؤدون انه اوصى الى علي ولم يهملها واثره بها لقرابته منه
وليس ما حسبوه من ذلك بالصحيح واما بي الآن مهمة لما بي الحاجة عليه من الاقبال على الدنيا
ومناصبها وحصول اللذات بحصول رتبتها • واما لو علموا حقيقة الامر فيها والعهدة التي يركب
صاحبها لعدوا انما قر الامتناع منها • والله غالب على امره •

اعلم ان الخطط الشرعية الدينية من القضا والفتيا والخطابة والصلاة والجهاد
والحسبة كلها تحت الامامة الكبرى التي هي الخلافة وكانها الام الجامع والاصل الكبير وهذه فروع
ناشئة عنها ومندرجة تحتها لان الخلافة راس الخطط الدينية كلها وانما منظرا اذ صاحبها ناظر

على اهل الملة وسد فيهم احكامها على العموم فرأيت الدين كله لنظره وتحت ربقته وارتفع كلام العلماء والخطابة ولقد يكون سيض الوجوه ارفع من الخلافة اذا حصت الخلافة بالنظر في السياسة العامة فقط وعمل الجمهور بتقدم ذلك استدلال الصحابة رض على خلافة ابي بكر لانهم لم يشكوا في خلافته على العامة الصلاة وانما كان فطريهم يومئذ في خلافته سبقه على الجمهور وتقدمهم على احكام الشريعة في امورهم ودينهم فاختصت حينئذ بهذا وقصت على الصلاة واما اذا اعتبرنا الخلافة بالمعنى الاعم فتكون الصلاة مندرجة فيها وكان الخلفاء الاولون لا يتقلدونها لعزتهم من الناس وانظر من طعن من الخلفاء في المسجد عند الاذان بالصلاة وذلك في اوقاتها يشهد لك ذلك مما شاهدناهم لها وانهم لم يكونوا يستخلفون فيها وكذلك كان خلفاء الدولة الاموية من بعدهم استبدادا بها واستعظاما لرتبتها

حكي عن عبد الملك انه قال لحاجبه قد حجبت لك صحابتي الا عن ثلاثة صاحب الطعام فانه يفسد بالتاخير والاذن بالصلاة فانه داع الى الله والرد فان في تاخيره فساد القاصية فلما جاءت طبيعة الملك وعوارضه من الغلظة والترفع عن مساواة الناس في دينهم ودنياهم استبدوا في الصلاة وكانوا يستنزلون في بعض الاعياد اساءة وسوء فعل ذلك كثير من خلفاء بني العباس والعبيديين صدر دولتهم

القضاء والقضاة

واما القضاء فكان الخلفاء الاولون يتقلدونه من سوء عنهم في الفصل بين الخصوم لسعتهم بالعام من مهمات الدين من امر الفتوحات وسد الثغور وحماية البيضة الا انهم لم يكونوا يتقلدونه الا لاهل عصبيتهم بالنسب او الولاء ولما استقر الملك والنفس بالخلافة جمع للقاضي النيابة في الصلاة والخطابة والنظر في اموال الوقف والمساجد وربما جعلوا له النظر والصوافي

مثل يحيى بن اكثم بالعراق ومنذر بن سعيد بالاندلس وكذلك رفع قصص المظالم وانهاؤها للخلفاء مثل ابن اكثم للمامون وابن ابي دؤاد للمعتصم وامثالهم فكان القاضي عندهم وزيرا ورتبته رتبة وزير وارفع لانه من اهل العصبية وكل رتبة دينية فقد كانت تجمع للقاضي حتى كان الدولة اقتسمت معه الدين والملك شطر اشطر كما كان الموبذان عند ملوك الفرس ولما كانت هذه الخطط من مراسم الدين والملة وكان الامر خلافه كان الخلفاء لا يولون فيها الا رجال العرب اهل عصبيتهم او الموالي المختصين باصطناعهم وولائهم من اهل الحرب وممارسة الجهاد وربما كانوا يجمعون في الولاية بين القضاء وقيادة الغزو والثغور وعساكر الصوافي والكل بزعمه لانها خطط جهادية

فقد كان يحيى بن اكثم قاضي المامون يخرج بالصائفة ويدرب وكان منذر بن سعيد البلوطي قاضي الناصر الاموي يخرج بالصائفة للثغر الاعلى وقد عقد زيادة الله بن الاغلب لاسد بن الفرات على غزو صقلية وكان شيخ الفقهاء بالقيروان فكان لسانه على يده في انتزاع سلطان الخلافة وحمل معالمها وصار الامر كله ملكا صارت هذه الخطط اجنبية عنه لانها ليست من العقابة ولا مراسمه ثم خرج الامر جملة عن العرب وصار الملك لسواهم من امم الترك

والبربر

في الحضر فزادت هذه الخطط بعدا عنهم بمحاة وعصبيتها وذلك ان العرب كانوا يرون ان
الشريعة دينهم والنبي صلى الله عليه وسلم منهم واحكامه وشرائعه حكم بين الامم وطريقهم والعجم
لا يرون ذلك انما يرونها جاءنا من التعظيم لما دانوا بالملة فقط فصاروا يقلدونها من غير عصابتهم
ممن كان بايديهم في دول الخلفاء السالفة وكان اولئك الممتلئون بما حدثهم ترف الدول مندسين
من السنين قد نسوا عهد البداوة وخشونتها والتسموا بالحضارة في عوائدهم ودعتهم وقلة
المانعين عن انفسهم وصارت هذه الخطط في الدول الملوكية من بعد الخلفاء مختصة بعبد الصنف من
المستضعفين في اهل الامصار وزال الباقي عن مراتب العز لفقدان اهليته باسنابهم وما هم عليه من
الخشونة فلحقهم من الاحتقار ما يلحق الحضر المتمسين في الترف والدعة البعداء عن عصبية الملك الذين
هم عيال على الحامية وصار اعتبارهم في الدولة من اجل قيامهم بالملة واقامة احكام شريعتها ولم يكن لاسنادهم
في الدولة حيثما كانوا لدوابهم وانما هو لما يسلم من التحمل كانهم في مجالس الملك لتعظيم الرتب الشرعية
ولم يكن لهم فيها من الحل والعقد شيء وان حضروه فحضور سمي لا حقيقة ورآه ومن اعتقد هذا منهم
فهو غالط في نفسه او مغالط اذ حقيقة الحل والعقد انما هو القدرة عليه ممن له القدرة له عليه
فالحال والمعتقد له به اللهم اخذ الاحكام الشرعية عنهم وتلقي الفتاوى منهم فنعم والله تعالى الموفق

ورد بما بطن لبعض الناس ان الحق فيما وقع ذلك وان المامول فيها فعاوم من اخراج الفقهاء والقضاة
عن الشورى غالطون وقد قال صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الانبياء فاعلم ان ذلك ليس بغلط
منهم وحكم الملك والسلطان انما يجري على ما تقتضيه طبيعة العمران والاكان بعيدا عن السياسة وطبيعة
العمران في هؤلاء لا يقتضي لهم شيئا من ذلك لان الشوري والحل والعقد انما يكون لصاحب عصبية يقدر به
على حل او عقد او فعل او ترك واما من لا عصبية له ولا ملك من امر نفسه شيء ولا من حمايتها وانما هو
عيال على غيره فاي مدخل له في الشوري واي معنى يدعوا الى اعتباره فيها اللهم سوى ما يعلمه من
الاحكام الشرعية فهو موجود في الاستفتاء خاصة واما سواه في السياسة فهو بعيد عنها لفقدانه
العصبية والقيام على معرفة احوالها واحكامها واما اكثر امهم من مدعيات الملوك والامراء الشعلة
لهم لجهل الاعتقاد في الدين وتعظيم من ينتسب اليه اي جهة انتسب واما قوله عليه الصلاة
والسلام العلماء ورثة الانبياء فاعلم ان الفقهاء في الاغلب هذا العهد وما اصبح به انما حملوا الشريعة
اقوالا في كيفية الاعمال في العبادات وكيفية القضاء في المعاملات مصنوعة على من يحتاج الى العمل
بها من غاية اقاربهم ولا يصفون الا بالاقل منها وفي بعض الاحوال السلف رضوان الله عليهم واهل
الدين والورع من المسلمين حملوا الشريعة اتصافا بها وتحققا بمذاهبها مثل اهل رسالة القشيري
واضرابهم ومن اجمع له الامران فهو العالم على الحقيقة وهو الوارث مثل فقهاء التابعين والسلف
والائمة الاربعة ومن اقتفى طريقتهم وجاء على اثرهم واذا انفرد واحد من الامة باحد الامرين فالعهد
اعم كوراثة من الفقيه الذي ليس بعابد لان العابد وارث صفة والفقيه الذي ليس بعابد لم يرث شيئا
انما هو صاحب اقوال بنيت على كيفيات العمل وهؤلاء اكثر فقهاء عصرنا الا الذين امنوا وعملوا
الصالحات وقليل ما هم **العدالة** ومعناها التبرز للشهادة بين الناس فيما لهم فيحكم

وكاتب الشهادة في السجلات وهي خطة شرعية موجودة في الامصار وهم العدول الذين يحصى القاضي الاحكام بين الناس في البلد بهم وليس معناه ان العدالة الشرعية منحصرة فيهم فان هذا باب اكثر الوجود واما القاضي لما كان لابد له من ديوان ومن كاتب يكتبون ديوانه كان القاضي بذلك مميزا بين عدولهم وغيرهم ومختصا به ايضا فالامصار كثيرة ومعرفة القاضي لا تستغرق الناس جميعا فاحتاج ان يعرف ذلك من خاطب به معرفته وممن يكون حسن الوثيقة وكاتبه ديوان القاضي ويعرف احكام تحمل الشهادات واداءها وبه الحدود والديات والقسامة والفرائض وسائر الاحكام التي تحتاج على كاتب القضاء معرفتها فلذلك اختصت في صنف من اهل المدينة دون غيرهم **واما العدالة** الشرعية فقد توجد في غير مولاء كثيرا ويكون ابلغ وانما اختص هذا المصنف لذلك لوجود الشروط فيهم والله تعالى اعلم ٥٥

ومما لعم به البلوى

ومن الرتب الشرعية هاتان الخطتان ومما تطرق في المعايش وفي شكة المسلمين خوفا على ذلك من العنت في صيده وورده وهي داخلة تحت الخلافة باعتبار انها شرعية **ومما لعم به البلوى** انها ليست في شرف غيرها فلهذا كانت نازلة عن غيرها من الرتب الشرعية وهناك رتب اخر ذهبت بذهاب ما تطرق فيه وهي فتح العنايم والاتيال كان يعين لها من يقوم بها من الناس حين كان امر الجهاد في دول الخلفاء ومن بعدهم فلما تعطل امر الجهاد ذهبت بالجملة وفي الاخبار السالفة ما يشهد لذلك بوجود ذلك ويؤيده والله مصرف الامور بحكمته ٥

وهو محدث عند الخلفاء وذلك انه لما بويع ابو بكر رضي الله عنه كان الصحابة وسائر المسلمين يسمونه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزل الامر على ذلك الى ان هلك فلما بويع لعمر بهذه اليه كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانهم استثقلوا هذا اللقب لطوله وكثرة اضافاته وانه يزيد فيما بعد دائما الى ان ينتهي الى الحبة ويذهب منه الغيبة بتعدد المضافات وكثرتها فلا يعرف فكانوا يعدلون عن هذا اللقب الى سواه مما يناسبه ويدعى به مثله وكانوا يسمون قواد البعوث بامير الامين وهو قبل من الامارة وقد كان اهل الجاهلية يدعون النبي صلى الله عليه وسلم امير مكة وامير الحاج ٥ وكان الصحابة ايضا يدعون سعد بن ابي وقاص امير المسلمين لامارته على جيش القادسية وهو معظم المسلمين يومئذ واتفق ان دعاه بعض الصحابة عمر رضي الله عنه باسم امير المومنين فاستحسنه الناس وصوبوه ودعوه به بقيا اول من دعاه بذلك عبد الله بن جحش ٥ وقيل عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وقيل يزيد بالفتح من بعض البعوث دخل المدينة فسئل عن عمر يقول ابن امير المومنين وسمعه اصحابه فاستحسنوه وقالوا اصبت والله اسمه انه امير المومنين حقا فدعي به وذهبت لغيبة في الناس وتوارثه الخلفاء من بعده سمة لابتدائهم فيها احد سواهم سائر دولة بني امية ثم ان الشيعة حضوا على اسم الامام تعتلة بالامامة التي هي احد الخلافة ولعرضها بمذهبهم

في انه احق باقامة الصلاة من ابي بكر وان الامامة ارفع رتبة من النبوة كما هو مذهبهم وبعضهم يخصون بهذا
اللقب ولمن يستوفون اليه منصب الخلافة من بعده وكان كلهم يسمى بالامام ماداموا يدعون لهم في الحقائق
اذا استولوا على الدولة يخولون اللقب فيمن بعده الى امير المؤمنين كما فعله بنو العباس فانهم ماداموا يدعون
امتهم بالامام الى ابراهيم الذي جهروا بالدعاء له وعقدوا الالوية للحرب على امره فلما هلك دعى اخوه السفاح
امير المؤمنين وكذا الرافضة بافريقية ماداموا يدعون الائمة من ولد اسمعيل بالامام حتى انتهى الامر لعبيد الله
المهدي وكانوا ايضا يدعون الامام ولابنه ابي القاسم من بعده فلما استولى لهما الامر دعوا من بعدهما امير المؤمنين
وكذا الادارسة بالمغرب كانوا يدعون ادريس بالامام وابنه ادريس الاصغر كذلك وهكذا سائرهم وتوارث
الخلفاء هذا اللقب بامير المؤمنين وجعلوه سمة لمن يملك الحجاز والشام والعراق المواطن التي هي دار العرب
ومراكز الدولة وازدادوا لذلك في عنفوان الدولة وبدئها لقبا آخر للخلفاء يتميز به بعضهم عن بعض لما في
امير المؤمنين من الاشتراك بينهم فاستحدث ذلك بنو العباس حجابا بالاسماء يشهر الاعلام عن امتها في
السنة السوقة وصونا لها عن الابتذال فتلقبوا بالسفاح والمنصور والمهدي والرشيد والهادي
الى آخر الدولة واقتفى اثرهم في ذلك العبيديون بافريقية ومصر وتجافى بنو امية عن ذلك اما بالمغرب
فلجريانهم مع الخشونة والسذاجة لان العربية ومنازعها لم تفارق حينئذ ولم يتحول عنهم شعار البداوة الى
شعار الحضارة واما بالاندلس فتقليدا لسلفهم مع ما علموا من انصرافهم من التصور عن ذلك بالتصور
عن ملك الحجاز اصل العرب وللبعد عن دار الخلافة التي هي مركز العصبية وانهم انما منعوا بامارة
القاصية انتقسم من هنالك بنو العباس حتى اذا جاء عبد الرحمن الداخل منهم سوان محمد بن الامير عبد الله بن
محمد اول الماية الرابعة واستمر حال الخلافة من الحجر والاستبداد الوالي وعنهم في الخلفاء بالمغرب
والاستبداد والقتل والشمل ذهب عبد الرحمن هذا الى مثل مذاهب الخلفاء بالمشرق وافريقية
ويسمى بامير المؤمنين ويلقب بالناصر لدين الله واحدث من بعده عادة ومذهبا لقن عنه ولم يكن
لابائه وسلف قومه واستمر الحال على ذلك الى ان انقرضت عصبية العرب اجمع وذهب رسم
الخلافة وبقيت الموالي من العجم على بني العباس والصنائع على العبيديين بالقاهرة وصنهاجة على امراء
افريقية وزناتة على المغرب وملوك الطوائف على الاندلس على امر بني امية واقتسموه وافترقوا امر
الاسلام فاختلف مذاهب الملوك بالمغرب والمشرق في الاختصاص بالالقاب فاما ملوك المشرق
من العجم فكان الخلفاء يخصونهم بالقاب تربية ليستشعروا بها انقيادهم وطاعتهم وحسن ولايتهم
مثل شرف الدولة وعضد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة ونصر الدولة ونظام
الملك وبهاء الملك وذخيرة الملك واما هذه وكان العبيديون ايضا يخصون
بها امراء صنهاجة فلما استبدوا على الخلفاء قنعوا بهذه الالقاب وتجافوا عن القاب الخلافة
اذ بها معها وعدلوا عن اسمائهم المختصة بهم سنن المتغلبين المستبدين كما قلناه مثل وديع المناوون
من اعاجم المشرق حين قوي استبدادهم على الملك وملاكهم في الدولة والسلطان وملأت
عصبية الخلافة واضمحلت بالجملة الى انتحال الالقاب الخاصة بالملك مثل الناصر والمنصور
وما اليها الى الالقاب كانوا يختصون قبل هذا الانتحال مستنكفا بالخروج عن رتبة الولاء والاصطناع

بما افاضوها الى الدين فقط فيقولون صلاح الدين اسد الدين نور الدين وهذا شان ملوك الترك بالقاهرة لتنوه من بني ايوب بوالهم الاعلى واسمى لهم الى هذا العهد واما ملوك الطوائف بالاندلس فاتسموا القاب الخلافة وتوزعوا لقوة استدادهم عليها بما كانوا من قبيلها وعصبيتها متلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفر واما بها فما قال ابن شرف

مما يزهدني في ارض اندلس ... اسماء معتمد فيها ومعتضد
القاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد

واما صنهاجة فاقتصروا على الالقاب التي كان خلفاء العبيديين يلقبونهم بها للتنويه مثل نصر الدولة وسيف الدولة ومعز الدولة واتصل لهم ذلك لما ادالوا من دعوة العبيديين بدعوة العباسيين ثم تعدت الشقة بينهم وبين الخلافة ونسوا عهدها فتسموا هذه الالقاب واقتصروا على اسم السلطان وكذا سائر مغراوة بالمغرب لم ينتحلوا شيئا من هذه الالقاب ولا اسم السلطان جريا على مذاهب البداوة والقناعة ولما محى رسم الخلافة وتعطل درسها وقام بالمغرب من قبائل البربر يوسف بن تاشفين كذلك العدوس وكان من اهل الخير والاقتداء نزعت به همته الى الدخول في طاعة الخليفة تمهيدا لمراسم دينه فخاطب المستظهر العباسي فاوفد عليه بيعته عبد الله بن العربي وابنه القاضي ابو بكر من شيخة اشبيلية فانقلبوا اليه بعهد الخليفة له على المغرب واستشعار زيهم في لبوسه وراياته وخاطبه فيه بامير المسلمين تشريفا له واختصاصا فاخذ به لقبا ويقال انه دعي له بامير المسلمين من قبل ادنا مع رتبة الخلافة لما كان عليه هو وقومه المرابطون من استحكام الدين واتباع السنة وجادة المهدي على التزام داعيا الى الحق احد المذاهب الاشعرية داعيا على اهل المغرب عدولهم عنها الى تقليد السلف في ترك التاويل لظواهر الشريعة وما يوول اليه ذلك من التجسيم وسمى اتباعه الموحدين تعريضا بذلك البتة وكان يرى رايهم اهل البيت في الامام انه لا بد منه في كل زمان لحفظ هذا العالم فسمى الامام لما قلناه اولا من مذهبه الشيعة في الغائب خلفا عنهم وارد بالمعصوم اشارة الى مذهبه في عصمة الامام ونسخة عن امير المومنين احد المذاهب المعتمدين من الشيعة ولما هلك من شاركه في الامر ولولده ان من اغرب اهل الخلافة يومئذ بالمشرق والمغرب ثم استحال عند المومن ولي عهده اللقب بامير المومنين وجرى عليه من بعده من خلفاء بني عبد المومن وان ابا حفص من بعدهم استيثارا به عن سوائهم لما دعا اليه تسميهم المهدي من ذلك وانه صاحب الامر واولياؤه من بعده دون كل احد لاسقاط عصبية قريش وتلاشيها فكان ذلك دائما ولما استفض الامر بالمغرب واتسعت رياته ذهبت اولوهم مذاهب البداوة والسذاجة واتباع السنة في استحال اللقب بامير المسلمين ادنا مع رتبة الخلافة التي كانوا على طاعتها لبني عبد المومن اولا ولبني ابي حفص من بعدهم ثم رجعوا الى الاسترداد وتزع المتاخر فيهم الى اللقب بامير المومنين واستحكم لهذا العهد استيلاؤهم على منازع الملك وتمهيدها لمذاهبه وسائه والله غالب على امره

فصل في معنى البابا في الملة النصرانية

اعلم ان البابا في الملة النصرانية هو خليفة المسيح القائم بدينه كما هو معنى الخليفة في الملة الاسلامية

الا ان الفرق بينهما دقيق وذلك ان صاحب ملتهم وهو عيسى صلوات الله عليه ليس من اهل عصبيتهم لانه من بني اسرائيل وانما احد قسطنطين ملك الروم ملته ودينه من الاساقفة اتباع الحواريين ووضعوا له وضعا كما يذكره في اجماع الروم على دين عيسى فلم يدينوا الملة لحامل حملهم على ذلك وارادهم عليه وانما كان احبارا ورهبانا من قسطنطين فلم يصطنعهم عصبية ولا التمس لدينهم ملك الخلافة انما تبع ملكهم لاهل عصبيتهم وخلافة دينهم لاهل ملتهم ولم يشترطوا في خلافة الباب نسبا اذ الضرورة تدعو الى ذلك وايضا فليس هناك نسب يرتضونه لو اشترط الا نسب صاحب الملة عيسى صلوات الله عليه وهو اسرائيلي وهم مستحوطون عندهم بقتلهم اياه بزعمهم وعدوبة لله ورسوله فليس بسبب مرضي في دينهم فترك الناظر عندهم مترلة الخليفة العباسي عند نا لهذا العهد لما خرج الملك عن عصبية الخليفة اجمع بلاشي عصبية العرب ورجوع الامر للعجم وعصابتهم وصار الخليفة عندهم للترك به خاصة وانما يشترطون في الباب معرفته باحكام الملة النصرانية والاتباع لهدي عيسى والحواريين من بعده مع ان ملة عيسى لم يكن فيها كثير احكام في المعاملات انما هي قربانات كلها لانه انما كان رهبانيا لهذا كان متبعوه يرضون على اقتفاء سننه وليس لهم دستور عاعندهم فلذلك لم يكن للباب عندهم حكم على ملوكهم في امور دنياهم وانما طاعتهم لدينه بتمكينه من اقامة مراسم العبادة التي لملة عيسى في بيعهم وكنائسهم بعث اليها الاقسسة والقمامسة وتولتهم اقامتها في ممالك النصرانية واذا سخط احد من الملوك فانما مظهر سخطه في تعطيل تلك الرسوم بارضه بان يوعز الى الاقسة والقمامسة باحراس الناقوس واحضار التماثيل وتعطيل الصلوات التي هي فرض كفاية عندهم وهي صلوات المسيح والوعيد على فرض اليقرية من الصلاة هذا مدلول هذا الاسم عندهم وهو صاحب هذه الخطة التي ذكرنا ويرتجون بالاستخلاف من بعده طبقات اخرى متتالية نيابة ان التي تليه منهم تسمى العرندادية وعددهم اثنى عشر نعدهم السبعون فاذا فقد الثانية اختير بمكانه احد العرندادية الاثني عشر واختير لمكانه الاخر من السبعين واختير لمكان الذي من السبعين من سواهم من الرهبان والاقسة العاكفين على العبادة والاقدة الهدى عيسى والحواريين وضبط هذه النقطة بيائين موحدتين من اسفل والنطق بها مفخمة سان هذا الحرف عند العجم ومعناه الاب فان هذه النقطة التي هي بايي عبارة الولدان عن ابائهم بالطبع في اهل كل لغة ولما كان هذا الرجل كافلا لامور دينهم فترلوه مترلة الاب وعبروا عنه بعبارة الولدان شانهم في النطق بالباء التحتية وربما يريد بعضهم في هذا الاسم ها وتشديد الباء الاخيرة وربما يسمه بعضهم الترك ماوما متوسطة بين مجيء الثاء والطاء على عادة العجم في النطق بها وراءها وكاف بعد الالف وهو اصطلاح النصاري المعاندين بالشرق لهذا العهد

العقد عندهم بعدد مذاهبهم في الديانة وفرقهم بين الملكية والمعقوبية واول من كان احدث هذا الدين من ملة الروم قسطنطين على ما ياتي في ذكرهم ولم يزل الباب واحدا في الملة النصرانية منذ ملك الروم وعليهم لاسم النصاري وكان مترله بالقسطنطينية فلما تلاشى امر الروم وضعف وضاق نطاق دولتهم وحبروا الى القسطنطينية وافترقت الامم النصرانية وتعدد ملوكها في الجانب الغربي من نواحي الشام اقام الافرنجيون وراءهم هنالك بابا لاعتقادهم

فسكنه لهذا العهد برومة ومن مذاهب البابه في الملة النصرانية انه يحضهم على الانقياد لملك واحد يرجعون في احكامهم واجمالهم اليه ويجري به العصبية التي للافوقها منهم ليكون يده عليهم وتسمه الابنطور وبياشرونه بوضع التاج على راسه فيستتب الملوج حرصا على اجماع الكلمة النصرانية لما لم يقدر هو عليها لفقدان العصبية فكان الابنطور في الملة الاسلامية قبل الاسلام من الروم لقوة بأسهم حينئذ وعليهم على الامم ثم لما افترق امر النصرانية وصار للروم بابه وللفرنجة بابه جعل باب الفرنجة الابنطور منهم وبقي الروم على عادتهم التي كانت لاولهم فما بهم لهم مترلة بالقسطنطينية كما كان الشان في الابنطور من قبلهم هذا ما بلغنا من اخبار الروم والله اعلم بصحتها

النصرانية

فصل في مراتب الملك والسلطان والقابها

اعلم ان السلطان في بقيته بشر ضعيف يحمل امرا ثقيلا فلابد له من الاستعانة عليه باناء جنسه واذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهمه فما ظنك بسياسة نوعه ومن استرعاه الله من خلقه وعباده وهو محتاج الى حماية الكافة ممن عداهم بالمدافعة عنهم والى كف عدوان بعضهم على بعض في انتهابهم بامضاء الاحكام الوازعة فيهم وكف العدوان في اموالهم باصلاح سالمهم والى حملهم على مصالحهم وما تقيمهم به البلوى في معاشهم ومعاملاتهم من تفقد المعايش والمكاييل والموازين حذرا من التطفيف والى النظر في السكة لحفظ النقود التي يتعاملون بها من الغش والى سياستهم بما يردعهم عن الانتهاب له والرضا بمقاصيصه فيهم والتعرض بالمجدد وهم فيحمل من ذلك فوق الغاية من معاناة القوت قال بعض الاشراف من الحكماء معاناة تقل الجبال من اماكنها اهون على من معاناة قلوب الرجال ثم ان الاستعانة اذا كانت بالقرني من اهل النسب او التربية او الاصطناع اقدم للدولة كانت اكمل لما سمع في ذلك من مجانسة خلقهم لخلقه فتتم المشاكلة في الاستعانة قال تعالى اجعل لي وزيرا من اهلي هرون اخي اشدد به ازري واشركه في امري وهو اما ان يستعين بسيفه او بقلمه او برايه ومعارفه او الحجابة عن الناس ان يردحموا عليه فيشغلون عن النظر في مهماتهم وقد يوجد لرجل واحد وقد يفترق في اشخاص وقد يفترع كل واحد منها الى فروع كثيرة كما قلم يفترع الى قلم الرسايل والمخاطبات وقلم الاوامر والى قلم المحاسبة وهو صاحب الجباية والعطاء وكالسيف يفترع الى صاحب الحرب وصاحب الشرطة وصاحب البريد وولاية التغور وكالمعارف تعرف الى صاحب الحرب وصاحب الشرطة وصاحب البريد وولاية معرفة الاحكام والدين وهو القاضي المعد لاحكام الشريعة اذ السلطان انما هو حارس للملة والى معرفة السياسة وهو الجليس والمشاور وكل واحد من هذه خطة في الدولة او خطط بما يتفرع ويتعدد وربما استوى في الكثير من هذه الخطط بعضها وتعدد شروطها واحكامها القاضي الماوردي في كتاب الاحكام السلطانية افرد ذلك الكتاب لها وبين كثيرا من الخطط والمراتب على ما تقتضيه الاحكام الشرعية وان كانت قد انتقلت الى السلطان والملك لكنه كانه جمع بينهما في ظاهر امره ولم يحضرني هذا الكتاب حين التاليف فاشوبه بكثير ذاكرها واحدة بعد واحدة وامر من اخواتها ما امكنني مما اطلعت عليه من احبار الدول

الوزارة

الوزاره

وهي ام الخطط السلطانيه والمراتب الملوكيه لان اسمها يدل على مطلق الاعانه فان الوزارة اما مأخوذة من المؤازرة وهي المعاونة او من الوزر وهو الثقل كانه يحمل مع متاعله اوزاره واثقاله وهو راجع الى المعاونة المطلقة وقد كنا قدمنا في اول الفصل ان احوال السلطان وتصرفاته الابعد والاربعه احوال اما ان تكون في امور حماية الكافة واستيفاء من النظر في الجند والسلاح والحروب وسائر امور الحماية والمطالبة وصاحب هذا هو الوزير في المتعارف واما ان يكون في امور مخاطبة لمن بعد عنه في المكان او في الزمان وتنفيذ الاوامر فيمن هو محجوب عنه وصاحب هذا هو الكاتب واما ان يكون في امور جباية المال وانفاقه وضبط ذلك من جميع وجوهه ان يكون بصنعه وصاحب هذا هو صاحب المال والجباية واما ان يكون في مدافعة الناس ذوي الحاجات عنه ان يزدحموا عليه ويشغلوه عن مهمه وهذا راجع الى صاحب الباب الذي يحجبه فلا يعدو احواله هذه الاربعة بوجه وكل خطة او رتبة من رتب الملك والسلطان فاليها يرجع الا ان الارفع منها ما كانت الاعانة فيه عامة فيما تحت يد السلطان من ذلك الصنف اذ هو مقتضى مباشرة السلطان دائما ومشاركته في صنف من احوال ملكه واما ما كان خاصا ببعض الناس او ببعض الجهات فيكون دون الرتب الاخر كتيابة ثغر او ولاية جباية خاصة او النظر في عمل خاص كحسبة الطعام او النظر في السكة فان هذه كلها نظر في احوال خاصة فيكون صاحبها بمعاناة اهل النظر العام ويكون رتبتهم مرؤسة لاولئك وما زال الامر في الدول قبل الاسلام هذا حتى اذا جاء الاسلام وصار الامر خلافة ذهبت هذه الخطط كلها برسم الملك الا ما هو طبيعي من المعاونة بالراي والمفاوضة فيه فلم يكن زواله اذ هو امر لا بد منه فكان صلى الله عليه وسلم يشاور اصحابه ويفاوضهم في مهمات العامة والخاصة ويختص مع ذلك اناسا بكرمخصوصيات اخرى حتى كان العرب الذين عرفوا الدول وباشروا احوالها في كسرى وقيصر والنجاشي يسمون ابا بكر وزيرا ولم يكن لفظ الوزير يعرف من المسلمين لذهاب رتب الملك بساحة الاسلام • وكذا عمر مع ابي بكر على وعثمان مع عمر • واما حال الحماية والاتفاق والحسبان فلم يكن عندهم رتبة لان القوم كانوا عربا اميين لا يحسنون الكتاب ولا الحساب فكانوا يستعملون في الحسبان اهل الكتاب او افرادا من موالي العرب ممن يحسنه وكان قليلا فيهم • واما استراقهم فلم يكونوا يحيدونه لان الاسر كانت صفتهم التي امتازوا بها وكذا حال المخاطبات وتنفيذ الاوامر لم يكن عندهم رتبة خاصة للامة التي فيهم والامانة العامة في كتمان السر وتادية ولم يحوج السياسة الى اختيار لان الخلافة اما هي دين وليست من السياسة في شيء • وايضا فلم تكن الكتابة صناعة فتستجاد للخليفة احسانها لان الكل كانوا يعرفون عن مقاصدهم بابلغ العبارات ولم يتوالا الخط وكان الخليفة ليستنيب في كتابته من له من يحسنه واما مدافعة ذوي الحاجات عن ابوابهم وكان محظورا بالشريعة فلم يعلموا فيها انتبلت الخلافة الى الملك وجاءت رسوم السلطان والحجابة كان اول شيء بدئ به في الدولة الاموية شان الباب وسده دون الجمهور لما كانوا يخشون على انفسهم من اعتيات الجوائح وغيرهم كما وقع لعمر من بعلبك ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم مع ما في فتحه من ازدحام

الناس عليهم وستعلمهم عن المهمات فاحمدوا من يقوم لهم بذلك ويسمو الحاجب وقد جاء ان عبد الملك
لما ولي حاجبه قال له ولسنا حجابه ما ولا عن ثلاث المؤذن للصلاة فانه داعي الله وصاحب البريد فامر ما جاء
وصاحب الطعام لئلا يفسد ثم ليسهل الملك بعد ذلك فطهر المشاور والمعين في امور القبائل والعصائب
واستيلافهم واطلق عليه اسم الوزير وبقي امر الحسبان في الموالي والدهقين واتخذ المسجلات كاتب
مخصوص حوطه على اسرار السلطان ان يشتهر فيفسد سياسته مع قومه ولم يكن بمثابة الوزير لانه انما
اضيف اليه من حيث الخط والكتاب لا من حيث اللسان الذي هو الكلام اذ ذلك لعهد على حاله لم
تفسد فكانت الوزارة لذلك ارفع رتبهم يومئذ هذا سائر دولة بني امية وكان نظره عاما في احوال
التدبير والمعاوضات وسائر امور الحمايات والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند وفرض
العطايا لاهلها وعرف ذلك فلما جاءت دولة بني العباس واستحال الملك وعظمت مراتبه وارتفعت
عظم شان الوزير وصار اليه النيابة في انفاذ الحل والعقد وتعينت مرتبته في الدولة وعنت
لها الوجوه وخضعت الرقاب وجعل اليه النظر في ديوان الحسبان لما يحتاج اليه حظه من قسم
الاعطيات في الجند فاحتاج الى النظر في جمعه وتعريفه واضيف اليه النظر فيه ثم جعل له النظر في
العلم والرسل لصون اسرار السلطان ولحظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور وجعل
الحجاب لحجلات السلطان ليحفظها عن الدفاع والسباع ودفع اليه وصار اسم الوزير جامعا لحظي السيف
والقلم وصار معاني الوزارة والمعاونة الاسنان الثلاث فنقل لصاحبه المسمى بالحاجب لاستكفاف الوزير
عن مثل ذلك ثم جاء في الدولة العباسية سنة ان استبداد على السلطان وتعاورتها استبداد الوزراء
مرة والسلطان اخرى وصار الوزير اذا استبد محتاجا الى استنابة الخليفة اياه لذلك ليصح الاحكام
الشرعية ويجري على اصلها فانقسمت الوزارة حينئذ الى وزارة سعد وهي حال ما يكون السلطان
قائما على نفسه والى وزارة تفويض وهي حال ما يكون الوزير مستبدا عليه ثم استمر الاستبداد
وصار للملوك العجم وتعطل رسم الخلافة ولم يمكن ذلك المتغلبون ان يتحلوا الالقاب الخلافية
واستنكفوا من مشاركة الوزراء في الالقاب لانهم حولهم فسموا بالامارة وكان المستبد على الدولة
يسمى امير الامرا الى ما تحلله به الخليفة من القابه كما مر في اخبارهم وتركوا اسم الوزارة الى من يتولاها للخليفة
في خاصيته ولم يزل هذا الشان عندهم الى اخر دولتهم وفسد اللسان خلال ذلك وصار صناعة يتحلى
بعض الناس فاستهنت وترفع الوزراء عنها لذلك ولانهم عجم وليس تلك البلاغة التي المقصودة من لسانهم
فتخيرا لها من سائر الطبقات واختصت به وصارت خادمة للوزير واقتصر اسم الوزير على معاني
الحروب والجند وما يرجع اليها ويد مع ذلك عالية على امر الدين وامر نافذ في الكل اما بانه
او استبداد واستمر الامر على هذا ثم جاءت دولة الترك اجراء بصر فاوا الوزارة قد ابتذلت
برفع اولياء عنها ودفعها لمن يقوم به الخليفة المحجور وتطرق مع ذلك مستعقب بسط الامير فضارت مرؤسة
ناقصة فاستكف اهل هذه الرتبة العالية في الدولة عن اسم الوزارة وصار يسمى عندهم بالحاجب لهذا
العهد ولم يزل اسم الحاجب في هذه الدولة واما دولة بني امية بالاندلس فابقوا اسم الوزير في مدلوله
اول الدولة ثم قسموا خطته اصنافا فردوا لكل صنف وزيرا فجعلوا لحسبان الدول وزيرا وللرسل

وزيرا وللنظر في مزاج المتكلمين وزيرا والنظر في احوال اهل الثغور وزيرا وجعل لهم بيت يجلسون
به على فرش معتدة لهم ويتقدموا امر السلطان هنالك كل فيما جعل له وافردوا بينهم وبين
الخليفة واحدا منهم ارتفع عنهم مباشرة السلطان في كل وقت فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوص باسم
الحاجب ولم يزل الشارع الى آخر دولتهم فارتفعت حظة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى كان ملوك
الطوائف يتحلون لقبها فاكرمهم كان يسمى الحاجب كما يذكره وجاءت دولة الشيعة بافريقية والقيروان
وكان للقائمين بهذا السوخ في البداوة فاعتلوا امر هذه الخطط اولا وسنح اسماؤها حتى اذا درجت دولهم الحضارة
صاروا الى تسديد الدولتين فعلم في وضع اسمائها كما تراه في دولهم • ولما جاءت دولة الموحدين
من بعد ذلك اعتلت الامر اولا للبداوة ثم صارت الى انتحال الالقاب وكان اسم الوزير في مدلوله
ثم اتبعوا دولة الامويين وقلدوها في مذاهب السلطان واصاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان
في مجلسه ويقف بالوفود والداخلين على السلطان عند الحدود في بحسه وخطابه والاداب التي يلزم
في الكون بين يديه ورفع حاجة الحاجة عنه ماسناوا ولم يزل الشان على هذا العهد الى
والله متولي الامور

قد قدمنا ان هذا اللقب كان مخصوصا في الدولة العباسية بمن يحجب السلطان عن العامة ويعلق
به ذوبهم او ينحجه لهم على قدره وفي مواقيته وكانت هذه الخطة مترلة لمؤسسة عن الخطط ورتبة لها اذ
الوزير مصرف لها بما يراه وهكذا سائر ايام بني العباس • والى هذا العهد فهي عصر مرؤسة لصاحب
الخطة العليا المتسمى بالحاجب عندهم هو المتصرف بين يدي السلطان القائم على رأسه في
المشاهد والمجالس العامة او الخاصة • واما في دولة بني امية بالاندلس فكانت الحجابة لمن يحجب السلطان
عن الخاصة والعامة ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم فكان في ذلك رفيعة غاية كما تراه
في اخبارهم كان جعدر وغيره من حجابهم ثم جاء الاستبداد على الدولة اختص المستبد باسم الحجابة لنفسه
فكان المنصور بن ابي عامر وابناؤه كذلك • ولما بدوا في مظاهر الملك واطوار جاء من بعدهم
من ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها وكانوا يعدونه سرفا لهم وكان اعظمهم ملكا بعد انتحال الالقاب
الملك والتسمية لا بد له من ذكر الحاجب وذي الوزارتين يعنون به السيف والقلم يدلون بالحجابة
على حجابة السلطان عن انظاره والخاصة وبذي الوزارتين جهة الخطتين السيف والقلم ثم لم
يكن في دول المغرب وافريقه ذكر هذا الاسم للدولة التي كانت فيهم وربما توجد في دولة
العبيديين بمصر عند استقلالها وحضارتها الا انه قليل ولما جاءت دولة الموحدين
لم يمكن فيها حضارة الداعية الى انتحال الالقاب وتميز الخطط وتعيينها باسمائها الا اخرا فلم يكن
عندهم من الرتب الا الوزير كانوا ولا يحضون هذا الاسم بالكاتب المتصرف المشارك للنظر في خاص
امر كان عليه وعند السلام • وكان له النظر في الحسبان والاستعمال ثم صار
الوزير لاهل الدولة من الموحدين كابن جامع وغيره ولم يكن اسم الحاجب عندهم وعند استبداد بني
ابي حفص كاسم الرياسة في • اولا والتقدم لوزيرها الداي والمشورة وكان يخص باسم شيخ
الموحدين وكان له النظر في الولايات والعزل وقود العساكر والحروب واخص الحسبان

برتبة اخرى سمى متولى بصاحب الاشغال ينظر فيها النظر المطلق في الدخل والخرج ويحاسب ويستخلص
الاموال ويعاقب على التفريط وليس صاحب الاشغال وكان من شرطه ان يكون من الموحدين واختص
العلم ايضا ممن يحيد الترسل ويؤمن على الاسرار لان الكتابة لم تكن من منحل القوم ولا الترسل بلسانهم
فلم يشترط فيه الدين واحتاج السلطان لاتساع ملكه وكثرة المترقين في ذاك الى فهرمان
خاص يدار في احواله بحرها على قدرها وترتيبها من رزق واعطاء وخص للدخل والاصطبلات ويفيد
ما يحتاج اليه من ذلك على اهل الكتابة مخصوص باسم الحاجب ولما استفحل امره كتب العلامة
على السجلات اذا اتفق ان يحسن صناعة الكتابة وربما جعلوه لغيره واستمر الامر على ذلك وحجب
السلطان نفسه عن الناس فصار هذا الحاجب واسطة بين السلطان واهل الارب كلهم ثم جمع له السيف
والحرب ثم الرأي والمشورة فصارت الحظة ارفع الرتب وازينها فلما طم جاه الاستبداد والحجر من بعد
موت السلطان الى يحيى ثم استبد السلطان على نفسه واذهب اثار الحجر والاستبداد باذهاب خطة الحاجب
التي كانت سلما اليه وباشر امورها بنفسه من غير استعانة باحد والامر على ذلك لهذا العهد واما دولة
زناتة فلا اثر لاسم الحاجب عندهم مرتين واما الحظة التي هي رياسة الحرب والعساكر فهي للوزارة ورتبة
العلم في الحسبان والكتاب راجعة الى من حسبها من اهلها وقد جمع عندهم وقد تفرق واما باب السلطان
وحجبته فهي رتبة عندهم يسمى صاحبها بالمزوار ومعناه الموقار على الحرس والجنادرة العرف
عليهم فالباب له واصل الناس ووقوف عند الحدود في دار العامة راجع اليه فكانها وزارة صغرى
واما دولة بني عبد الواد فلا اثر عندهم لشيء من هذه الالقاب ولا يميزون الخطط لبداوة دولتهم
وقصورها واما يختصون باسم الحاجب في بعض الاحوال يقيدها حاضر السلطان في داره كما كان في دولة
بني حفص وقد يجعلون له الحسبان والسجل كما كان فيها حملا على ذلك بعلبد الدولة بما كانوا عليه
بعضهم وقد يبين عوجها من اول امرهم واما اهل الاندلس لهذا العهد فالمخصوص عندهم
بالحسبان وتقييد حاضر السلطان وسائر الامور المالية يسمونها بالوكيل والوزير كالوزير الا انه قد
جمع له الترسل والسلطان عندهم يضع حظه على السجلات كلها فليس لصاحب حظة للعلامة كما لغيرهم من الدول

الكتابة والبلاغة

هذه الحظة غير مرضية في الدول لاستغنائها عن الدول عنها راسا وهي الدول العربية في البدو والتي
لم ياخذ بمذهب الحضارة ولا استحكام الصنايع وانما اكد الحاجة اليها في الدولة الاسلامية لسان اللسان
العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد فصار الكتاب يودي كنه الحاجة فابلغ من العبارة اللسانية
في الناطق فلما قيد اللسان وصار صناعة احتص بمن يحسنه وكانت عند بني العباس رفيعة وكان
الكاتب يصدر السجلات ويكتب في اخرها اسمه ويختم عليها بخاتم السلطان وهو طابع
منقوش فيه اسم السلطان او اشارة تعين في طين احمر مداف بالماء ويسمى طين الختم ويطبع به على
طرف السجل عند طيه والصاقه ثم صارت السجلات من بعدهم تصدر باسم السلطان ويضع الكاتب فيها
علامته اولا واخرا على حسب الاصطلاح في محلها وفي لغطها ثم قد تبدل هذه الخطة بارتفاع المكان عند

السلطان لغيرها او استبد وزيره فتصير علامة هذا الكتاب ملغاة الحكم بعلامة الرئيس عليه لستدل بها فتكتب صورة علامة المعهودة واكثر هذه كما وقع آخر الدولة الحفصية لما ازعج سنان الكلاكة انجابة وصار امره الى التنويض ثم الاستبداد صار حكم العلامة ملغى وصورتها نائبة انابة عما سلف من امرها فصار الحاجب يرسم للكاتب امضاء كتابة ذلك بخط يضعه بخزانته من

ماشاء فيما تمر الكاتب ويضع العلامة المعتادة وقد يختص السلطان بنفسه بوضع ذلك اذا كان مستبدا بامره قاعدا على نفسه فيرسم الامر للكاتب ليضع علامته ومن خطط الكتابة التوقيع وهو ان يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة اليه احكامها وانفصل فيها منلقاه من السلطان باوجز لفظ وابلغه فاما ان يصدر ذلك واما ان يحد الكتاب على مناها في سجل يكون سند صاحب القصة ويحتاج الموقع الى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه وقد كان جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدي الرشيد ويرمي بالقصة الى صاحبها فكانت توقيعاته مباعث للبلغاء في تحقيق الوقوف فيها على اساليب البلاغة وفنونها حتى قيل انها كانت تباع كل قصة منها بدينار وهكذا كان شان الدول

الاشغال

هذه خطة الحسبان والحباية وكانت اول الامر كما قلناه راجعة للموالي اهل الذمة ايام بني امية ثم اضيفت في دولة بني العباس للموريين كما كان سند بني برمك وبني سهل وغيرهم ثم اوردت في دولة بني امية بالاندلس والعبيديين وفي دولة الموحدين وكان صاحب هذه الخطة كما قدمناه لابد ان يكون من الموحدين مستقل النظر في استخراج الاموال وجمعها وضبطها وتعقب نظر الولاة والعمال فيها شديدا على قدر وفي مواقيتها وكان يعرف باصحاب الاشغال وكان ربما يلي في الجهات هذه الموحدين ممن يحسنها ولما استبد بنو ابي حفص بافريقية وكان سنان الحالية من الاندلس فقدم عليهم اهل البيوتات وفيهم من كان يستعمل في ذلك بالاندلس مثل بني سعيد اصحاب القلعة جوار غرناطة المعروفين بحماة الحسين فاسكنوا بهم في ذلك وجعلوا النظر لهم في الاشغال كما كان لهم بالاندلس وتداولوها بينهم وبين الموحدين ثم لما استغلظ امر الحاجب وتعدد امره في كل شان من شؤون الدولة تعطل هذا الرسم وصار صاحبه مرؤسا للحاجب واصبح من جملة الحاشية وذهبت تلك الرياسة التي كانت له في الدولة واما في دولة بني مرين لهذا العهد فصاحب هذه الرتبة هو الذي يصحح الحساب ويرجع الى ديوانه ونظره معقب نظر السلطان او الوزير وخطه معتبر في صحة الحسبان هذه اصول الرتب والخطط السلطانية وهي الرتب العالية التي هي عامة النظر ومباشرة السلطان وهنالك مراتب اخر وخطط خاصة باصناف الاحوال نشير على ذكرها لتتبعها واصطلاح الاصطلاح في الدول فمنها الحسبة وهي النظر على باعة الاسواق في المعاش واختبار الموازين وتقدير الاسعار واما ذلك وهي خطة ضرورية في المدن الا انها نازلة لاختصاصها بصنف مرؤس في عدم مباشرتها السلطان

لانها لسبب مهمة في خاصة مملكة وكذا خطة السكة وهما النظر في النقدين اللذين بهما يعامل الناس في بياعاتهم من الذهب والفضة ان يدخلهما الغش فيتلفا اموال الناس وحفظ ذلك بوضع العلامة السلطانية في نقوش تكتب عليهما اما خطا او صورا على اختلاف العوائد والاصطلاحات في ذلك فيكون ذلك علامة على خلوصه من الغش ومتوفي ذلك عليه وهاتان الخطتان من الخطط الخلافية وقد تقدم ذكرهما وانهما اجزاء في الخطط ٭ لانهما من المصالح العامة التي لا بد من النظر فيهما من حيث الدين او من حيث العادة فاشترك فيهما الملك والخلافة بخلاف الصلاة والقضاء فانها مخصوصة بالدين وما خوذة عنه ولا تعرف الا من الشرع فاختصت بالخلافة دون الملك وكان من الخطط الموكلة ايضا ٭ والله اعلم ٭

صاحب الطراز

وهو رسم قد ذهب لهذا العهد باستغراق الدول وكان عند استيلاء الدول وتوفر الواردات في ايدي النواب التي يبعث فيها بالسلطان للباسه وعطايه ويرسم فيها طراز باسم السلطان موشاة وكان السلطان يختص لها من يقوم لها وكانت من خطط الدول ومراتبها وكذا الاستغال للشعب الى مشرف ومحاسب وهو صاحب الديوان وعن ذلك وكذا خطة الحرب وكل واحدة من هذه ترجع الى الخطط الكبرى ويندرج بعضها في كل صغرى والله غالب على امره ومحكم سنته في خلقه ٭ والله اعلم ٭

الشرطة

ويسمى لهذا العهد الحكومة وفي دولة اهل الاندلس خطة صاحب المدينة وكان اصل وضعها في الدولة العباسية لمن يقيم احكام الجرائم في حال استيفائها او لانها الحدود بعد استيفائها فان الهم التي تعرض في الجرائم لا تطلع للشرع الا في استيفاء حدودها للسياسة النظر في استيفائه موجباتها باقرار عند الحاكم اذا احتفت به القرائن لما توجبه المصلحة العامة فكان الذي يقوم بهذه الاستيفاء وبالاستيفاء الذي بعد اذا ائتمن عنه القاضي يسمى صاحب الشرطة ونوهوا بهذه الرتبة وقلدوها مواليهم الخاصين بهم ولم تكن عامة التقليد من الناس انما كان حكم على وامل الدولة ثم عظمت بها هيبة في دولة بني امية بالاندلس وقسمت الى شرطة كبرى وشرطة صغرى وجعل حكم الكبرى على الخاصة وجعل له الحكم على ذوي المراتب السلطانية والضرب على ايديهم في الظلامات وعلى ايدي اقاربهم ومن الهم من اهل الجاه وجعل صاحب الصغرى مخصوصا بالعامة وجعلت لصاحب الكبرى كرسي بباب دار السلطان ورحل يقعد بين يديه ولا يبرحون عنها الا في ضرورة وكانت ولايتها للكبار من رجالات الدولة حتى كانت توشحا للوزارة والحجابة واما في دولة الموحدين فكان لها حظ من السوية وان لم يجعلوها عامة وكان لاهلها في دولات الموحدين وكبرائهم ولم يكن له الحكم على اهل المراتب السلطانية ثم فقد اليوم منصبها وحجبت عن ولاية رجال الموحدين وصارت ولايتها لمن قام بها من المصطنعين ٭ والله مقلب الليل والنهار

شيادة الاساطين

وهو من مزايات الدولة وحظها في ملك المغرب واوربيته وتسمون صاحبها في عرفهم باسم الكند بتخفيف
اللام منقولا من لغة الافرنجة فانه اسمها في اصطلاح لغتهم وانما اختصت هذه المرتبة بملك اوربية والمغرب
لانها جنس على صفة البحر الرومي من جهة الجنوب وعلى عدوة الجنوبية بلاد البربر كلهم من سبتة الى الاسكندرية
الى الشام وعلى عدوة الشمالية بلاد الاندلس والافرنجة والصقالبة والروم الى بلاد الشام ايضا
وتسمى البحر الرومي والبحر الشامي نسبة الى اهل عدوته والشاكون لسف هذا البحر وسواطئه من عدوته
يعانون من احواله ما لا يعانيه امة من امم البحار فقد كانت الروم والافرنجة والقوط بالعدوة الشمالية
من هذا البحر الرومي وكانت اكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن فكانوا مهرة في ركوبه البحر والحرب في
اساطيل ولما اسف من اسف منهم الى تلك العدوة الجنوبية مثل الافرنجة الى اوربية والقوط الى
المغرب صاروا في الاساطيل ومهروا وتغلبوا على البربر بها واثروا عوامل ايديهم امرا وكان لهم في
المدن الحافل مثل قرطاجنة وسبتلة وطلوة ومرسان وتلمسان وطنجة وكان
صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومة وسمعت الاساطيل لحربه مسخونة بالعساكر والعدد
فكانت عدة من اهل البحر الساكنين حافته معروفة في القديم والحديث ولما ملك المسلمون
مصر كتب عمر بن عبد العزيز الخطاب الى عمرو بن العاص ان صف لي البحر فكتب اليه ان البحر
خلق عظيم مركبه خلق ضعيف ودود على عود فاذا رعف عليه منع المسلمين من ركوبه ولم يركبه احد
من العرب الا من افتات على عمر وفي ركوبه ونال من عقابه كما فعل بعرفجة بن هرثمة الازدي سيد بجيلة
لما اعواه غلمانه فلجة عمرو في البحر ولم يزل السنان ذلك حتى اذا كانوا العهد معاوية اذن للمسلمين
في ركوبه والجهاد على اعواده والافرنجة ان العرب لبداوتهم لم يكونوا اول الامر
مهرة في ثقافة وركوبه والروم والافرنجة لما رسخهم احواله ومرابهم يتغلبون على اعواده مرنوا
عليه واحكموا الدربة بثقافته ولما استقر الملك للعرب وسمح سلطانهم وصارت امم العجم
حولهم وتحت ايديهم وتعرف كل ذي صنعة اليهم فبلغ صناعة واستحدثوا من العوائد في
حاجاتهم البحرية امورا وتكررت مما رسخهم للبحر وثقافته استحدثوا بصرا فشرعوا الى الجهاد فيه
والسق السفن والشواني وسخنوا الاساطيل بالرجال والسلاح وبسطوا المقاتلة لمن وراء
البحر من امم الكفر واختصوا بذلك من مما لكهم ويعودهم ما كان اقرب الى هذا البحر وعلى صفته
مثل الشام وافريقية والمغرب والاندلس وكانت الاساطيل بافريقية لعهد الاغالبة
واوعز الخليفة عبد الملك الى حسان بن النعمان باتخاذ دار صناعة بتونس لانشاء الاساطيل
البحرية حرصا على مراسم الجهاد وبها كان فتح صقلية ايام زيادة الله الاول ابراهيم بن الاغلب
على يد اسد بن الفرات شيخ الفقهاء وفتح قوصرة في ايامه بعد ان كان معاقبة بن خديج اعز اسطوله
ايام معوية بن ابي سفيان وكانت من بعد ذلك اساطيل افريقية والاندلس في دولة العبيديين
والاموييين معاقبة الى بلاد سمالك في سبيل الغنية فيخوضون خلال السواحل بالافساد والتخريب
وانتهى اسطول الاندلس ايام عبد الرحمن الناصر الى مايتي مركب او نحوها واسطول افريقية
كذلك مثله او قريب منه وكان قائد الاساطيل بالاندلس رماحس ومرقاها للحط والاقلاع

بحانه والمرية وكانت اساطيلا مجتمعة من سائر الممالك من كل بلد يحدد فيه السعن اسطول يرجع نظره الى
قايد من قوادهم مدبر امر حربه وسلاحه ومقاتلته وراس يدبر امر حربه بالرمح او بالمجاديف فاذا
اجتمعت الاساطيل لغزو ومحتمل او غرض سلطاني منهم عسكرت بمرفا المعلوم وسخرها السلطان برجاله
واجناد عساكره ومواليه وجعلهم لطوائر واحد من اعلى طبقات اهل مملكته يرجعون كلهم اليه ثم
سرحهم لوجههم وانطوا ايامهم بالفتح والغنيمة وكان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على
هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن للامم النصرانية قبل باساطيلهم في
شيء من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائر ايامهم فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنايم
وملكوا سائر الجزائر المستطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وصقلية
وقوصوة ومالطة واقريطش واغريبوش وسردانية وسائر ممالك البحر واعرفوا الى اقاصي
السبي وابنار حرس جنوه من المدينة مرات واغلبوا يا لظفر والغنيمة واقتحم مجاهد العامري
صاحب دانية من ملوك الطوائف جزيرة سردانية في اساطيل سنة خمس واربعماية واركبها النصارى
لوقتها والمسلمون خلال ذلك كله قد غلبوا على الاكثر من لجة هذا البحر وسارت اساطيلهم فيه جايبة
وذاهبة واسطولهم من صقلية قد ضيق على اهل الرابكبر من العدوة الشمالية وتحيرت امر
النصرانية باساطيلهم الى اجانب الشمالي البر في منه من سواحل الافرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية
لاقصى العدوة واساطيل المسلمين قد ضربت عليهم قرا الاسد بمرسية وقد ملات الاكثر من بسيط هذا
البحر عدة وعديدا واحتلت في طرقه سلما وحربا فلم يظهر للنصرانية فيه الواح حتى اذا ادركت
الدولة العبيدية والاموية الوهن والفشل وطرقها الاعتلال مد النصارى ايديهم الى جزائر البحر
مثل صقلية واقريطش ومالطة فملكوها ثم الحوا على سواحل الشام في تلك العزم فاستولوا عليها
وغلبوا على بيت المقدس وبنوا عليها الكنيسة لمظهر دينهم وعبادتهم وغلبوا على جزر من على طرابلس
ثم على فاس وصفاقس ووضعوا عليهم الجزي ثم ملكوا المهدية مقر ملك العبيديين من بني يكين
ابن زيري وكانت لهم في المايه الخامسة الكرة والجانب العزي من هذا العهد لذلك العهد موفور
الاساطيل ناسا القوة لم يحقبه عدو ولا كانت لهم مكره فكان قايد الاسطول يومئذ لعهد ملوك
بني سميون رنكمر من قادس ومن ايديهم اخذ عبد المومن بن علي طاعتهم انتهى عدد اساطيلهم
الى المايه من بلاد العدوتين جميعا ولما استقلت دولة الموحدين وملكوا العدوتين
اقاموا احاطة هذا الاسطول على اتم ما عرف واعظم ما عهد وكان قايد اساطيلهم احمد الصقلي
اصله من صدعبار الموطنين بحر بيبر جربه من سد ويكنى ابن النصاري من سواحلها وزني عندهم
واستخلصه صاحب صقلية واسكنه ثم هلك وولى ابنه فاسخطه بعض الزعات وحش على نفسه
فلحق بتونس ونزل على السيد بها واجاز الى مراكش فتلقاه الخليفة يوسف المنصور بالمبرة
والكرامة واجزل له الصلة وقلده امر اساطيله فحل في جهاد النصرانية وكانت له
امور ومقامات مذكورة في دولة الموحدين وانتهت اساطيل المسلمين على عهده في الكثرة
والاستجادة مالم يبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه ولما قام صلاح الدين بن ايوب ملك مصر

والشام لعهده باسترجاع ثغور الشام من يد الامم النصرانية وتطهير بيت المقدس من رجس الكفر وبنائه
بوقرت اساطيلهم الكفرية بالمدد لتلك الثغور من كل ناحية ببيت المقدس الذي كانوا قد
استولوا عليه فامدوهم بالعدد والاقوات ولم يقاومهم اساطيل الاسكندرية لاستمرار الخلل فيهم في ذلك
الجانب الشرقي من البحر وتعدد اساطيلهم فيه وضعف المسلمين منذ زمان طويل عن مماتعتهم هنالك فاوعز
صلاح الدين على يعقوب المنصور سلطان المغرب لعهده من الموحدين رسوله عبد الكريم بن منقذ طالبا منه دار اساطيل
للحول في البحر بين اساطيل الكفر وبين مرامهم من امداد النصرانية بثغور الشام واصحبه كتابه الله في ذلك
من انشاء الفاضل البساني يقول في افتتاحه فتح الله بحضرة سيدنا ابواب المنابح والمنايا من حسبما تعلمه
العماد الاصبهاني في كتاب الفتح القسي فيتم عليهم المنصور رجائهم عن خطابه بامير المؤمنين واسرافي نقمته
ولم يتهنأ وحملهم على مناجح البر والكرامة وورد دون حاجتهم وفي هذا دليل على اختصاص ملك
العرب بالاساطيل وما حصل للنصرانية في الجانب الشرقي في هذا البحر من الاستطالة • ولما هلك
يعقوب المنصور واعمل دولة الموحدين واستولت امم الخلافة على الاكثر من بلاد الاندلس والجوا
المسلمين الى سف البحر وملكوا الجزائر التي بالجانب الغربي من البحر الرومي قوبت رجهم في بسيط هذا البحر
واستدت سوكهم وكثرت فيه اساطيلهم وتراجعت قوة المسلمين فيه الى المساواة معهم كما وقع
لعهد السلطان ابي الحسن ملك زناتة بالمغرب فان اساطيله كانت عند مرامه الجهاد في مثل عدة النصرانية
وعديدهم ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في البحر لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر بكرة العوائد
البدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الاندلسية • ورجع النصاري فيه الى دينهم المعروف من الدربة
فيه والمران عليه والبصر باحواله وعلك الامم في بسيطه وصار المسلمون به كالاجانب الا قليلا
من اهل البلاد الساحلية لهم المران عليه واكثره من الانصار والاعوان او قوم من الدول السحيقة
لهم اعوان ولوضح لهم من هذا الغرض مسلكا وبقيت هذه الوتيرة لهذا العهد في الدولة
العربية محفوظة لما عساه يدعو اليه الحاجة من الاغراض السلطانية في البلاد البحرية والمسلمون
ليستهون البحر على الكفر واهله • فمن المشهور بين المغرب عن كتاب الحدثان انه لا بد للمسلمين
من الكرة على النصرانية • وافتتاح ما وراء البحر من بلادهم في ذلك وان ذلك يكون في الاساطيل
لهم والله ولي المؤمنين

فصل في التغابر وفي مراتب السيف والقلم

اعلم ان السيف والقلم كلاهما معين لصاحب الدولة يستعين به على امره الا ان الحاجة الى
السيف في اول الدولة ما دام الامر في تمهيد امرها اشد الى الحاجة الى القلم اذ القلم في تلك الحال
خادم فقط معتمد لحكم السلطان والسيف شريك في المعونة وكذلك في اخر الدولة حين تضعف
عصبيتها كما ذكرناه ونقل اقلامها بما بينا لهم من اسباب الهرم التي قدمنا فتحتاج الدولة الى الاستظهار
باربات السيوف وتتزود الحاجة اليهم في حماية الدولة والمدافعة عنها كما كان اول الامر
اني تمهيدها فيكون للسيف مزية في الحالتين على القلم ويكون ارباب السيف حينئذ اوسع جاها
واكثر نعمة واسنى اوطاعا • واما في وسط الدولة فيستغني صاحبها بعض الشيء عن السيف لانه قد

عمدا من ولم يوسمه الا في تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضبط ومباهاة الدول وسعيد الاعلم
واعلم ان المعين في ذلك فيعظم الحاجة الى وضع يده ويكون السيوف مهملة في مضاجع عمود اه
اذا امنت نابية او دعيت الى سد فرجة وما سوى ذلك فلا حاجة اليها ويكون ارباب الاقلام في هذه
الحال اوسع جاها واعلى رتبة واكثر نعمة ورزقا واوفر من السلطان محلبا واكثر اليه تردد ا
وفي طوائه حينئذ الة التي بها يستطهر على تحصيل ثمرات ملكه والتطرق الى اعطافه وسعف
اطرافه والمباهاة باحواله ويكون الوزر حينئذ واهل السيوف مستغنى عنهم معتزين عن باطل السلطا
صدرن على التهمهم من نوادره كما كتب ابو مسلم للمنصور حين امره بالعدوم اما بعد فان
مما حفظناه من كلمات الفرس ان حوف ما يكون الوزر اذا سكت الدهماسنة الله في عباده

فصل في شارات الملك والسلطان

الابهة

اعلم ان للسلطان شارات واحوالا يقتضيها الابهة والبذخ فيختص بها ويتميز باتخاذها
عن الرعية والبطانة وسائر الرؤساء في دولته فلنذكر ما هو مشهور منها بمبلغ المعرفة ووقوف
كل ذي علم عليم فمن شارات الملك اتخاذ الالة من البرش الالوية والرايات ووقع الطبول
والبوق في الالوية والعزوف وقد ذكر ارسطو في الكتاب المنسوب اليه ان السر في ذلك ارهاب العدو
في الحرب فان الاصوات الهائلة لها تاثير في النفوس بالروعة ولعمري انه امر واقع في مواطن الحروب
بحد كل احد من نفسه وهذا البيت الذي ذكره ارسطو ان كان ذكره فهو صحيح بعض الاعتبارات
واما الحق في ذلك فهو ان النفس عند سماع النغم والاصوات يدركها الفرح والطرب بلا شك فيصيب
مزاج الروح بسببه تستهل لها الطبع في ذلك الوجه الذي هو فيه وهذا موجود يستهل
حتى في الحيوانات العجم فانك لا بل الحدا والخيل بالصفير كما علمت ومن هذا ذلك مناسبة
تاثيرا اذا كانت النغم متناسبة كما في الغنا وانت تعلم ما يحدث لسامعه من مثل هذا المعنى
ولاجل ذلك يتخذ العجم في مواطن حروبهم الالات الموسوسيقاوية لا طبلا ولا بوقا فيحدق المغلوب
بالسلطان في موكبه بالامهم وعتادهم تحركون نفوس الشجعان وطبوعهم الى ولقد
رايتنا في حروب العرب المسند بعضنا امام الموكب بالسعر الابطال
عافها ويسارعون الى نحال الحرب وينبعث كل قرن الى قرنه وكذلك زمانة يقتدم الشاعر
عندهم امام الصفوف ويغني فيحرك لغنائه الخيال الرواسي ويسعف على من لا
يكن بها ويسمون ذلك الغنا الذي في الحروب ناصوكابت واصله فرح حدث في النفس فتنبعث
عنه الشجاعة كما ينبعث عن شرب الخمر مما حدث عنه من الفرح والله اعلم واما مكثرة الرايات
وتلوينها واطالتها فالقصد به التهويل لا اكثر وربما يحدث في النفوس من التهويل زيادة الاقدام
والوان النفوس عرضة والله الخلاق العليم ثم ان الدول والملوك يختلفون
في اتخاذ هذه السارات فمن مكثر ومقلل بحسب اتساع الدولة وعظمها فاما الرايات فانها
شعار الحروب مذ عهد الخليفة ولم تزل الامم تعتقدها في مواطن الحروب والعزوات

لعهد النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الخلفاء

واما فرع الطبول

والنفخ في الابواق فكان المسلمون لاول الملة منجاة فمن عنه تنزها من غلظة الملك ورفضا لاحواله واحتقارا لاهبته التي لبست من الحق في شيء حتى اذا انتقلت الخلافة ملكا وصحبوا في زمرة الدنيا وعيمها والاسم الموالي من الفرس والروم اهل الدول السالفة واروعهم ما كان او لملك يتحلونه من مذاهب البذخ والترف وكان مما استحسنوه اتخاذ الالة فاتخذوها واذنوا لها لهم في اتخاذها سوها بالملك واهله فكثيرا ما كان العامل صاحب الثغر او قائد البعث يعقد له الخليفة من الجيشين او العسكرين لواء ويخرج الى بعثه او عمله من دار الخليفة او دان في موكب من اصحاب الرايات والالة فلا يتميزون بموكب العامل والخليفة الا بكبرة الالات او قلتها او بما اختص به الخليفة من الالوان لرايته كالسواد في رايات بني العباس فان رايتهم كانت سوداء اخذا على شعار ابيهم من بني هاشم ولعبا على بني امية في قتلهم ولذلك سموا المسودة ولما افترقوا امر الطائفتين خرج الطالبيون على العباسيين في كل جهة وعصر ذهبوا الى مخالفتهم في ذلك فاتخذوا الرايات بيضا وسموا المبيضة لذلك سائر ايام العسكريين ومن خرج من الطالبيين بالمشرق كالداعي بطبرستان وداعي صعدة او من دعا الى بدعة الخوارج من غيرهم كالغرامطة ولما رجع المامون عن لبس السواد وشعاره في دولة عدل الى لون الخضرة فجعل رايته خضرا واما الاستكثار منها فلا ينتهي الى حد وقد كانت الة العسكريين لما خرجوا الى فتح الشام جمانية من البنود وجمانية من الابواق

واما ملوك البربر

بالمغرب من صنهاجة وغيرهم فلم تخصوا الطبول واتخذوا وشعوها بالذهب واتخذوا من الخرز الخالص ملونة واستمروا على الاذن فيها لهم صدر دولة الموحدين ومن بعدهم من بني مرين فقصروا الالة من الطبول والبنود على السلطان وحظروها على سواه من عماله وجعلوا الهامو كبا خاصا يتبع اثر السلطان في مسيره يسمى السواق ويهم فيه بين مكثر ومقلل باختلاف مذاهب الدول في ذلك فمنهم من يقتصر على سبع في العدد تبركا بالسبعة كما مر في دولة الموحدين وسمى الاحمر بالاندلس ومنهم من يبلغ العشرة والعشرين كما مر عند زناتة وقد بلغت ايام السلطان ابي الحسن فيما ادركناه من البنود مائة ومائة من الطبول ملونة بالحرير منسوجة بالذهب ما بين كبير وصغير وباذنون للولاة والعمال والقواد في اتخاذ راية واحدة صغيرة من ذلك بيضاء وطبل صغير ايام الحرب لا يجاوز ذلك

واما العجم لهذا العهد من امم الجلالقة فاكثر شاراتهم اتخاذ الالوية الكثيرة ذاهبة في الجو صعدا ومعها فرع الاوتار من الطنابير ونفخ الصفاقات يذهبون فيها مذهب الغناء وطريقه في مواطن حروبهم هكذا ابلغنا عنهم وعمن ورائهم من ملوك العجم

وفي خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم ايات للعالمين

المقصورة

فاما البيت المقصورة من المسجد لصلاة السلطان فاول من اتخذها مروان بن الحكم حين طعنه اليماني فخشي من حينئذ الخلفاء على انفسهم واتخذوها من بعده وصارت سنة في عمير السلطان

عن الناس في الصلاة وبهذا تحدث عند حصول الترف في الدول والاستحال شانا حوال
الابقة كلها وقد نقل انها انما اتخذها من الموحدين لعقوب المنصور عند استحال الدولة
وحصول الترف وهكذا سائر الدول سنة الله في عباده

السرير

واما السرير والمنبر ومواعواد منصوبة او ارايك معدة لجلوس السلطان عليها مرتفعا عن
اهل مجلسه ان يساويهم في القعيد ولم يزل ذلك من سنن الملك قبل السلطان الاسلام وفي دول
العجم وقد كانوا يجلسون على اسرة الذهب وكان لسليمان سرير من عاج مفضض بالذهب الاانه لا يضاد
به الدول الا بعد ان استحال والترف شان الامة كلها كما قلناه واما في اول الدولة عند البداوة
فلا يشتهون اليه واول من احدثه في الاسلام معاوية واستاذن الناس فيه وقال
لهم اني قد سئمت فاذنوا له فاتخذه واتبعه الملوك الاسلاميون فيه وصار من مذارع الابقة

السكة

وهي طابع السلطان منقوشة على الدنانير والدراهم وهي ايضا من مذارع الابقة بالملك وخصوصية
الدول اذ بها يتميز الخالص من المبهرج عند الناس ويسمون لعلامة السلطان الذي قام لهم
بذلك وكان ملوك العجم يتخذونها ويرسمون فيها تماثيل يكون معروفة بهم مثل تمثال السلطان
او تمثال حصن او حيوان او مصنوع وبقي هذا الشان عند العجم ولما جاء الاسلام اهمل ذلك
لسذاجة الدين وبداوة العرب وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزنا وكانت دنانيرهم
الفهر ودراهمهم بين ايديهم يردونها في معاملتهم الى الوزن وتصاروفها بينهم الى ان بدا
لعبد الملك شان السكة حرصا على صيانة النقدين الجاريين بين المسلمين في معاملاتهم من الغش
فضرب مقدار الدنانير والدراهم واتخذ الطابع ونقش فيه كلمات لا صورا لان العرب كانت
البلاغة اغلب مناحيهم على ان الشرع نهى عن التصوير فلما فعل ذلك استمر بين الناس في ايام
الملة كلها وكان الدينار والدرهم على شكلين مدورين والكتابة عليها في دوائر متوازية
كذا ايام العباسيين والعبيديين والاموريين واما صناجة فلم تتخذ واسكة الارض
الامر اتخذها المنصور صاحب بغداد ذكر ذلك ابن حماد ولما جاءت دولة الموحدين كان
مما سن لهم اتخاذ سكة الدرهم مربع الشكل وان يرسم في دائرة الدينار شكل مربع في وسط
ويملا كتابا السطور مثله وامر الخلفاء من بعده فتعمل ذلك وكانت سكة الموحدين على هذا
الشكل لهذا العهد وكان المهدي سمي لذلك صاحب الدرهم المربع بذلك لغنه المتكلمون بالحدثان
من قبله

الطراز

وكان لعهد الدولتين يرسم الخلفاء اسماءهم في طوز اسمائهم انوابهم الخاصة بليابيهم بخيط

الدست ليميز بعلم ذلك الطرز يريدون بذلك التنويه بالذكر وعوضا عما رسم العجم عليها من صور الملوك
واشكالهم وكان من الرتب الموهة في الدولتين وكانت خطة تسمى عندهم بالطران وكانوا يقلدونها
كبار موالهم وبنات دولهم وتلاشى هذا الرسم وضعف امره عند قصور الدول من احوال الترف
واقتصارها على الضروريات دون التمتع بضروب الاهبات واما الموحدون فلم ياخذوا بشيء
في دولهم لما بني عليه امرهم مداولة من مبارع الديانة والتورع الى ان نعم الامام المهدي طرقها وكانت
هذه الثياب في الاغلب منسوجة بالحرير والطرز بالذهب ولم يكن خلقا وهم يلبسون ذلك ولا يستعملونه
فسقط هذا الرسم من دولهم وادركا منه في الدولة المرينية لعنفوانها وسموخها رسما فلذوا فيه
ما كان بدولة ابن الاحمر بالاندلس فانه كان هنالك منه حلة من اثار الدولة الاموية السالفة هنالك
والله وارث الارض ومن عليها

الخاتم

واما الخاتم فكان من الخطط الخلافية وكان اصل اتخاذه للختم على الرسايل والصكوك فانه ثبت
في الصحيحين ان النبي صلى الله عليه وسلم اراد ان يكتب الى قيصر فقيل له ان العجم لا يقبلون كتابا
الا ان يكون مختوما فاتخذ خاتما من فضة ونقش فيه محمد رسول الله قال البخاري جعل ثلاث
كلمات في ثلاثة اسطر وختم به وقال لا ينقش احد مثله قال وختم به ابو بكر وعمر وعثمان من
بعده حتى وقع لعثمان في بير اريس وتوجه البير فلم يوجد فكان النقش في اتخاذ الخاتم او لاختم الكتب
ثم لم تزل الخلفاء من بني امية وبني العباس يتوارثون من شان الخاتم وكان مخصوصا عندهم بالوزير

وانظر ما نقل الطرطوشي وغيره ان الوليد لما اراد ان يستوزر جعفرا ويستبد به
من الفضل قال يحيى بن خالد ايها الامير قد اردت ان اعرفك امر الخاتم من يميني الى شمالي فعلم بحسبي
انه مستبد من الفضل بحفظ لما كان له من الوزارة بالخاتم اذ كانت خطة الخاتم من خصوصيات الوزارة
ومصورة عليها هكذا ثم وصفت الخاتم ثم لما تولى اول الخلفاء وحدث الابهة واحوال الترف
وصار اتخاذه عادة وبالعوائد استحالته كما مر سائرهم عند الترف في جميع الالة والماعون
فصاروا يصوغونه من الذهب ويحلونه بفصوص الياقوت والزمرد والفيروزج
ويتباهون في استجادة اصنافها واسقاها واتخذ للختم على الكتب طابع من الفضة ينقش فيه
كلمات يتضمن ذكر صاحب الدولة نصرها او تعريفا بلقبه او حليته ويطبعون به على الكتاب
في الشمع والذي رايناه للاحادس ان الختم على الرسايل والصكوك كان بطين الختم وما وقفت
على كيفية هذا العمل الا ان الذي يظهر لي بادي الراي انه طين احمر يداف بالماء ويعجن فيه الخاتم
ويجعل على ثم التجل بعد الدرج كما يفعل اليوم بالطوابع على الامتعة بالاسواق يعجن في طين
متخذ لذلك لسهولة المغمى ويطبعون به وكان طين الختم في دول بني العباس يرفع الى دار السلطان
من بلد سراف ويعرف بطين الختم انظره في اخبارهم عند ذكر هدايا التمال ومن نسج جهاتهم بجدة هنالك

الدعاء في الخطبة

وامّا الدعاء على المنابر فكان لسان او لامد الخلفاء ولاية الصلاة بانفسهم فلم يكونوا يتعلون ذلك فلما حدثت الالقبة وصدت في الخلفاء المانع من الخطبة والصلاة واستنابوا فيها فكان الخطيب يستدّ بذكر خليفته على المنابر تنويهًا باسمه ودعاء له بما جعل الله مصلحة العالم فيه ولان تلك الساعة مظنة للاجابة وامتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم من كانت له دعوة صالحة فليضعها في السلطان وكان الخليفة ينفرد بذلك فلما جاء الجور وان استبدّ او كان المتغلبون على الدول كثيرا ما يشاركون الخليفة في ذلك ويشاركونه باسمهم عقب اسمه ودمث ذلك بذهاب تلك الدول وصار الامر الى اختصاص السلطان بالدعاء له على المنبر دون من سواه وحظر ان يشاركه فيه احد وليس اليه وكثيرا ما يغفل الماهدون من اهل الدول عن هذا الرسم عند ما يكون الدولة في اسلوب الغضاضة ومنابي البداوة وفي المعاقل والحصون ويقتصرون بالدعاء على الامام والاجمال لمن ولي امور المسلمين وسيمون مثل هذه الخطبة اذا كانت على عهد المهدي عباسية يعنون بذلك ان الدعاء على الاجمال انما بتنا والعباسي تقلد في ذلك لما سلف من الامر ولا يجعلون بما وراء ذلك من بعده والتصريح به

يحيى ابن العزاف

ابن رمان ماهد دولة بني عبد الواد لما غلبه الامير ابو زكريا يحيى بن ابي حفص على تلمسان ثم بدا له في اعادة الامر اليه على شروط شرطها كان فيها ذكر اسمه على المنابر فقال يعزاس تلك اعوادهم يذكرون عليها من شاؤا وكذلك يعقوب بن عبد الحق ماهد دولة بني مرين حضر رسول المستنصر وتخلف عن شهود الجمعة فقيل له لم تحضر هذا الرسول كراهية لخلو الخطبة من ذكر سلطانه فانت في الدعاء له وكان ذلك سببا لاحدم بدعوة وهكذا شان الدول في بدايتها وتمكنها في الغضاضة والبداوة فاذا انهمت عيون سياستهم ونظروا في اعطاف ملكهم واستتموا ثبات الحضارة ومعاني البذخ والالفة استحلوا جميع هذه السمات وتعنتوا فيها وبجاروا الى غاياتها واتموا من المشاركة فيها وجرعوا من افقادها وخلعوا دلهم من اثارها والعالم بستان والله على كل شيء رقيب

الفساطيط والاقران

اعلم ان من سمات الملك وترفه اتخاذ الاحصر والفساطيط والعمارات من بناء الحمان والصوف بدل الحمان والقطن ساعي لها في الاسعار وسنوع منها الالوان مابين كبير وصغير على نسبة الدولة في الثروة والسعار وانما يكون الامر في اول الدولة على غير ذلك ويكون بكفي اهل الدولة في سترهم التي جرت عادتهم باتخاذها قبل الملك وكان العرب لعهد الخلفاء الاولين من بني امية انما يسكنون بيوتهم التي كانت لهم حيا ما من الوبر والصوف ولم يزل العرب لذلك العهد بادين الا القليل منهم فكانت اسفارهم لغزواتهم وحروبهم وسائر حللهم واحمالهم من الاهل والولد كما هو شان العرب لهذا العهد فكانت مساكنهم لذلك كهوم الحلل لعدة ما بين المنازل متفرقة الاحياء لعسر كل واحد منها عن نظر صاحبه من الاخرى كما هو شان المغرب لهذا العهد ولذلك ما كان عند الملك يحتاج شاقة لحشد الناس على ان يعتموا اذا طعن ولعل انه استعمل في ذلك الحجاج من اشار به روح بن زنباع وقصته في احراق فساطيط روح وخيامه الاول ولاية حين وفد هم

مُتيمين في يوم وصل عبد الملك قصة مشهورة ● ومن هذه الولاية تعرف رتبة الحجاج بين العرب فانه لا ... اراد قهم على الطعن الا من باس من بوادر السفها من اصابهم عالمة من العصبية الحاملة دون ذلك ولهذا اختصه عبد الملك بمثل هذه الرتبة نقه لعلمه فيها بتعصبه وصرامته فلما تغلبت الدولة العربية في مذاهب الحضارة والبذخ ونزلوا المدن والامصار وانتقلوا من سكنى الخيام الى سكنى القصور ومن ظهر الخيل الى ظهر الحافر اتخذوا للتكئ في اسفارهم بناب الكلان يستعملون منها بيوتا مختلفة الاشكال متعددة الامثال من العوراء والمستطيلة والمربعة ويخلعون فيها بالغ مذاهب الاحتفال والزينة وبدا للسلطان على قسطنطينة وفارانه من بينهم سياجا من الكلان تسمى في العرب بالسان البربري الذي هو لسان اهله اقران بالكاف التي بين القاف والكاف وحجف الدعة بالدنا والولدان الى المقام بقصورهم ومنازلهم لجف لذلك ظهرهم وتقاربت بين منازل العسكر واجتمع الجيش والسلطان في معسكر واحد بحضرة البصر في بسيطة وهذا اسما واسم الحال على ذلك في مذاهب الدول في بدئها وتزيدها وكذا كانت دول الموحدين وزناتة التي اطلسا كان سفرهم اول امرهم في سوت سكانهم قبل الملك من الخيام والعساطيس حتى اذا اخذت الدولة في مذاهب الترف وسكنى القصور عادوا الى اتخاذ الاجنة والعساطيط وتلبعوا من ذلك فوق ما ارادوه وهو من الترف بمكان اذ ان العساكر بمصر عرضة للسقاب لاجتماعهم في مكان واحد ليتعلم فيه الصحيح وحفتهم من الاهل والولد الذين يكون الاستماتة دونهم فيحتاج في ذلك الى تحفظ آخر كما ذكره ● والله سبحانه وتعالى اعلم بالصواب

فصل في الحرب ومذاهب الامم في ترتيبها

اعلم ان الحروب وانواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ برأها الله واصلها ارادة انتقام بعض البشر من بعض وتعصب لكل منهما اهل عصبيته فاذا تمادوا الذلك وتوافق الطائفتان احداثما بطلت الانتقام والعدو مدافع كان الحرب وهو امر طبيعي في البشر لا تخلو عنه امة ولا جيل وسبب هذا الانتقام في الاكثر اما غيرة ومنافسة واما عدوان واما غضب لله ولدينه واما غضب للملك وسعي في عمده فالاول اكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة والثاني وهو العدوان اكثر ما يكون من الامم الوحشية الساكنين بالبقر كالعرب والاكراد واشباههم لانهم صعاب ارزاقهم في رماحهم ومعاشهم فيما بايدي غيرهم ومن دافعهم عن متاعه اذنوه بالحرب ولا بغية لهم فيها وزاد ذلك من دينه ولا ملك واما همتهم ونفاسة عنهم غلب الناس على ما في ايديهم ● والثالث هو المسمى بالجهاد والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والى نفس طاعتها فهذه اربعة اصناف من الحروب الصنفان الاولان منها حروب بغي وفتنة والصنفان الاخيران حروب جهاد وعدل ● والامم البشرية كلهم على تفاوت احوالهم يستعملون الصفوف للقتال ويسوونها كما تستوي القداح او صفوف الصلاة يرون في ذلك ارتباطا واسداد

في عرف الشريعة

على صدق القتال لان وجود الصف وراء المقاتلة كالحائط الذي لا يبرح مكانهم في الكر والفر
بخلاف المتحيز متى اضطر اليه وفي التنزيل ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كانهم بنيان
مرصوص ووجه ان يشد بعضهم بعضا في الصف ففي الحديث المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه
بعضا ومن هنا يظهر لك حكمة التحريم في التولي يوم الزحف فان المراد بالصف صف النظام للقتال
كما قلناه لمن ولى العدو ظهره فقد احل بالصف وبالنظام الهزيمة ان وقعت وصار كانه حرقا على
المسلمين وامكن منهم عدوهم فعظم لذلك الريب وعد من الكبائر ثم لما احترق سياج الدين
بحرق سياج جماعته وحل نظامهم هذا وجه ترتيب التصنيف ثم ان الدول العديدة الكثيرة الجنود
المتسعة الممالك كانوا يسمون الجيوش والعساكر اقساما فيسمون فاكرا ديس ويسوون في كل كردوس
صفوفه وسبب ذلك انه لما كثرت جنودهم الكثرة البالغة وحشروا من قاصية النواحي استدعى
ذلك ان يهمل بعضهم بعضا اذا اختلطوا في مجال الحرب واعتوروا مع عدوهم الطعن والضرب
فيخشى من تواقعهم فما بينهم لاجل الكر والحمد بعضهم ببعض فلذلك كانوا يسمون العساكر الكرديس
ويجعلون المتعارفين كلا في ناحية ويرتبونها نحوا من الترتيب الطبيعي في الجهات الاربع
يسمونه التعبيه وهو مذكور في اخبار فارس والروم والدولتين صدر الاسلام فيجعلون من
بدي الملك عسكرا آخر في كردوس او كرديس من ناحية اليمين عن موقف الملك وعن سمته يسمونه
الميمنة ثم عسكرا آخر من ناحية الشمال كذلك يسمونه الميسرة ثم آخر من ناحية الخلف يسمونه
الساقة ويجعلون مكان الملك وكرديسه في الوسط من هذه كلها ويسمونه القلب فاذا تم
لهم هذا الترتيب الذي يسمونه التعبيه واحكموا ما في مدي واحد للنصر او على مسافة يوم
او يومين من كل عسكر من هذه او كنف ما اعطاه حال العساكر لعبد الملك تخلف عن رحله
لعبد المدي في التعبيه فاجتمع الى من يسوقها من خلفه وعين لذلك الحجاج بن يوسف كما اشرنا اليه
وكما هو معروف في اخباره وفي الدولة الاموية بالاندلس كثير منه ايضا وهو مجهول فيما له
نتاولنا انا ادركناه ولا قبيلة العساكر لا يمشي في مجال الحرب الى العساكر بل اكثر الجيوش من الطائفتين
معا يجهزهم لدياطه او مدسه ولعرف كل منهم قوته في حومة الحرب وبنادية باسه ولقبه فاستغنى
عن تلك التعبيه ومن مذاهب الامم في الحروب ضرب المصاف وراء العساكر من الجمادات او الحيوانات
العجم ينصبونها مثلما لحمالة في الكر والفر ليكون ادوم للحرب واحذر بالطعن فاما الفرس
فكانوا يتخذون لذلك الفيلة يحملون عليها صناديق الخشب امثال الفروج مشحونة بالمقاتلة
والسلاح والدارات ويصفونها وراءهم في حومة الحرب كانها الحصون فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد
ثباتهم واما الروم وملوك القوط بالاندلس بل واكثر العجم فكانوا يتخذون لذلك الاسرة
ينصبون للملك سريره في حومة الحرب ويحف به من حذمه وحاشيته وجنوده من يوزعهم بالاشتمام
دونه ويرفع الدارات في اركان السرير ويحدق به سريوسياج احرز من الرماة والرجالة فيعظم
هذا كل التعظيم ويصيره للمقاتلة وملجاة في الكر والفر واما العرب فاكثر
الامم البدوية الرحالة فيصفون لذلك الملثم والاظهر الذي يحمل طعانهم فيكون فيئة لهم ويسمونه

المحمودة ولسيرة من الامم الاولى تعقل ذلك في حروبها وترائها وتوقي الجولة وامن من العثرة والهزيمة وهو امر مشاهد وقد اعتمدته الدول لعهدنا بالجملة واختصاصها بالظهر الحامل للاثقال والعساطيط لجعلونها ساقة من خلفهم فلا يعتني عنادها القبيلة والابل فصارت العساكر بذلك عرضة للغرائم ومستعرضة للغرار في المواقف واغايتوسى ذلك بما داخل الدول من الترف وذلك انا حين ما تكون بدوة وسكانها في الخيام يستكثرون من الابل وحالها في السفر والحروب هي حالها في المقام والسلم من سكنى النساء والولدان معهم فاذا حصلوا على ترف الملك والقواسكنى الامصار والقصور وتركوا سان البادية والحلل فتنسون لذلك عمد الابل ويسقط عنهم كبرها ولا يمكنهم سفر النساء دونها مع ما تحملهم الملك والترف عليه مع انحاد العساطيط والاحمال فيقتصرون على الظهر الحامل لها فلا يعتني عنادها لان الظهر والعساطيط لا تحمل على الاستماتة دونها كما تحمل عليها الابل والمال فيحف لذلك صبرهم وتصير الضعيات منفسدة لهم محرمة لصنوفهم

وراجع على قاعدة قديمة

فصل في الخنادق على العسكر

كان من مذاهب الامم في حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم عند ما يتقاربون للزحف حذرا من مغرة الثبات والهجوم على العسكر بالليل لما في طلمته وحشنه من مضاعفة الخوف فيلوذ الجيوش بالغرار وتحد النفوس في الظلمة سرا من عار فاذا ساوروا في ذلك ارجف المعسكر ووقعت الهزيمة وكانوا لذلك يحفرون الخنادق على معسكرهم اذا نزلوا وضربوا السهم ويدورون الحفائر وطاطا عليهم من جميع جهاتهم حصنا ان خالطتهم العدو بالبيات فيجادلون وكانت للدول في امثال هذا قوة وعلى اقتدار باضطراد الرجل وجمع الايدي عليه في كل منزل من منازلهم بما كانوا عليه من وفور العمران وضخامة الملك فلما خربت العمران وتبعه ضعف الدول وقلة الجنود وعدم العلة لبس هذا الشان حمله كانه لم يكن والله خير الوارثين وقد اشار الى ذلك ابو بكر الصريح شاعر ملونة من اهل الاندلس يمدح سفيان ابن علي بن يوسف ويصف نباية في حرب تمدها ويذكره من امور الحرب نوصابا وتحذيرات

يقول

- يا ايها الملاء الذي يتقنع ... من منكم الملك الهمام الارفع
- ومن الذي عمد العدو به وحى ... فانهض كلا وسواه لا يتضعضع
- تحمي الفوارس في الطعان بعدها ... وتدبرها الوفا فترجع
- والليل من وهج الرماح كانه ... صبح على ام الجيوش مسفع
- اما ترى يا بني صنها حبه ... والبيض في الروع كان المعدع
- وصدوم عن باستن وانه ... لعقابه لو شاء فيكم موضع
- انسان عين لم يصنه منكم ... جن وقلب استلمته الاضلع
- ما ام الا اسود حفية ... كل بكل كريهة مستصلع

يا باسمس الم يحسك عذرة ٭ الذي لا يدفع
اهدك من ود السياسة فانه ٭ قاتت ملوك الترس والدولع
انى ادريك بما لكتها ٭ ذكرى نحص المومنين وتنفع
البس من الزرد الصناعة الذي ٭ وصى بها صنع الصنايع تبع
والهند وانى الرقيق فانه ٭ امضى على حد الاصر واقطع
واركب من الخيل السوابق عدة ٭ حصنا حصينا لين فيه مدفع
صدق عليك اذا لقيت محلة ٭ سيان يتبع طافرا او يتبع
والواد الا تعره واترك عنده ٭ بين العدو وبين جيشك منقطع
واجعل مناجزة الحصون عشية ٭ ووراء ظهرك الصدق الذي هو ممنع
واذا نوافقت الحصون بمعرك ٭ ضنك فاطواد الرياح توسع
واصدمه اول هلة لا تحبس ٭ وقتا يسيرا فالبطاء يمنع
واجعل من الطلاع اهل سهامه ٭ الصدق فيهم سنة لا تخدع
لا يسمع الكذاب ٭ مرحا ٭ لا راى المكذوب فيما يصنع

وفي قوله واصدمه اول هلة مخالفة لراي اكابر العرب في الحرب فقد قال عمر للاحنف عبد ابن مسعود انفقي لما ولاه حرب فارس والعراق فقال له اسمع من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وامرهم في الامور ولا تحسن سرعا حتى يستمكن فانها الحرب ولا يصلحها الا الرجل المكث الذي يعرف الفرصة ويمكث وقال له في اخرى انه لم يمنعني ان اومرك سلطانا الا سرعته في الحرب وفي الشرع في الحرب الا عن سباق وايم الله لولا ذلك لامرتك ولكن الحرب لا يصلحها الا المكث هذا كلام عمر وموسى محمد بان الثبات قبل الحرب اولى من الخوف حتى يستمكن عكس ما قاله الصريح الا ان يريد ان الصدم بعد البيات فله وجه والله تعالى اعلم

فصل في اسباب الغلب في الحروب

يجب ان يعلم ان سنن العالم انما وقعت بها الخلق والانفاق لا بسبب ولا علة وانما الغلب في الحروب والصيت لاهل الشهرة والذكر فاما الغلب في الحروب فان اسبابه في الاكثر مجتمعة من امور ظاهرة وهي الحوس وكثرتها والاسلحة وترتيب الصفوف وصدق القتال وما جرى مجرى ذلك ومن امور خفية وهي اما جهل العدو وخدعهم في الازحاف والمسايع التي يقع بها التخذيل واما ان يكون تلك الاسباب الخفية امورا سماوية لا قدرة للبشر على اكتسابها كما يلقى في القلوب فتستولي الرعب عليهم من اجله فيختل مراكزهم وتقع الهزيمة واكثر ما يقع الهزائم عن هذه الاسباب الخفية لكثرة ما يعتمل كل واحد من الفريقين فراحا على الغلب فلا بد من وقوع التاثير في ذلك لاحدهما ضرورة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة ومن امثال العرب رب حيلة امنع من قبيله ووقوع الاسباب الخفية هو معنى الحظ كما تقرر في موضعه

فاعتبره

فاعتبره وبينهم من وقوع الغلب من الامور السماوية كما شرحناه معنى قوله صلى الله عليه وسلم نصرت بالرعب مسيرة شهر وما وقع من غلبة المشركين في حياته وغلب المسلمين اياهم معه في الفتوحات فان الله سبحانه تكفل لنبيه بالقاء الرعب في قلوب الكافرين حتى يستولي على جميعهم فيهزمون معجزة لرسوله صلى الله عليه وسلم وكان الرعب في الغلب سببا في اكثر انتهم في الفتوحات الاسلامية الا انه خفي عن العيون خاصة وقد ذكر الطرطوشي ان من اسباب الغلب في الحروب ان يفصل عدة الفرسان المشاهير في احد الجانبين على عدتهم في الجانب الاخر مثل ان يكون احد الجانبين فيه عشرة او عشرون من الشجعان المشاهير وفي الجانب الاخر ثمانية او ستة عشر فالزائد فالجانب الزائد ولو بواحد يكون له الغلب واعاد في ذلك وابدا ومو ليس بصحيح وانما الصحيح المعتبر في ذلك حال العصبية ان يكون في احد الجانبين عصبية واحدة جامعة لكل وفي الجانب الاخر عصائب متعددة والجانبان معا متقاربان في العدة فان الجانب الذي عصبيته واحدة اقوى واغلب من الجانب الذي هو عصائب متعددة لان العصائب اذا كانت متعددة يقع بينها من التحاسد ما يقع في الوحدان المتفرقين الفاقدين للعصبية اذ يتنزل كل عصابة منهم منزلة الواحد ويكون الجانب الذي عصابته متعددة لا يقاوم الجانب الذي عصبيته واحدة لاجل ذلك فتفهمه **واعلم** انه اصح في الاعتبار مما ذهب اليه الطرطوشي ولم نجد على ذلك الا نسيان سائر العصبية في حيله وبلده وانهم انما يردون الدفاع والحماية والمطالبة الى الوحدان والجماعة الناشئة عنهم لا باعتبار عصابة ولا نسب وقد بينا ذلك اول الكتاب وهذا وامثاله ليس مما اعتبرناه في هذا الفصل اذ هو من الاسباب الظاهرة مثل اتفاق الجانبين في العدد وصدق القتال وكثرة الاسلحة وما اشبهها ونحن قد قررنا ذلك الان شيئا ما لا يعارض الاسباب الحقيقية من الحيل والخدع والامور السماوية من الرعب والخذلان الالاهي فاعلم وتفهم احوال الكون والله معذر القيل والهادي **واما الصيت** والشهرة ايضا فاعلم ان يصادف موضعها في احد من طبقات الناس من الملوك او العلماء او الصلحاء او المتحلين للفضائل على العموم فكثير ممن اشتهر وبعد صيته ليس هناك وكثير ممن اشتهر بالشر وهو بخلافه وكثير ممن حاورت عنه الشهرة وهو حائد بها وابها وقد يصادف موضعها ويكون طبعا على صاحبها والسبب في ذلك ان الشهرة والصيت انما يأخذ بالاخبار والاخبار يدخلها الدخول عن المقاصد عند الناقل ويدخلها الجهل بمطابقة الحكايات للاحوال لحقائها بالتلبيس والتصنع او لجهل الناقل ويدخلها التقرب لاصحاب النحلة والمراتب الدنيوية بالثنا والمدح وحسن الاحوال واشاعة الذكر بذلك والنفوس مولعة بحب الثنا والناس مسارعون الى الدنيا واسبابها من جاه او ثروة ولسواد الاكثر براغبين في الفضائل ولا منافسين في اهلها وان مطابقة الخبر مع هذه كلها فتكون هذه الاسباب او بعضها اسبابا حاصلة لحصول

تكملة م

الشهرة وكما سبع بسبب حتى فهو الذي يعتنى عنه بالبحث فما قدر ٥

فصل في الجباية وسبب قلتها وكثرتها

اعلم ان الجباية اول الدولة تكون قليلة الوزايع كثيرة الجملة واخر الدولة تكون كثيرة الوزايع قليلة الجملة والسبب في ذلك ان الدولة اذا كانت على سبيل سنن الدين فليس الا المغارم الشرعية وهي قليلة الوزايع لان مقدار الزكاة من المال قليل كما علمت وكذا زكاة الحبوب والماشية وكذا الخرج وجميع المغارم الشرعية فهي حدود لا تتعدى واذا كانت على سنن العصبية والتغلب فلابد من البداوة في اولها كما تقدم والبداوة تقتضي المسامحة والمكارمة وخفض الجناح والتجافي عن اموال الناس والغفلة عن تحصيل ذلك الا في النادر فيقل لذلك مقدار الوظيفة الواحدة والوزيعة التي تجمع المال من مجموعها واذا قلت الوزايع والوظايف على الرعايا تنشطوا للعمل ورغبوا فيه فتكثر الاعتمار وتزايد لحصول الاغتباط بقلة المغرم واذا كثرت الاعتمار كثرت اعداد تلك الوظايف والوزايع فكثرت الجباية التي هي جملتها فاذا استمرت الدولة فاتصلت وتعاقب ملوكها واخر العدا حر واتصفوا بالكيس وذهب سر البداوة والسذاجة وحلفها من الاعتمار والتجافي وجاء الملك العضوض والحضارة الداعية الى الكيس وخلوا اهل الدولة حينئذ بخلق التحذلق وبكثرة عوايدهم وحاجاتهم بسبب ما انغمسوا فيه من النعيم والترف فتكثر وتتنوع الوظايف والوزايع حينئذ على الرعايا والباكرة والتلاد وسائر اهل المغارم ويزيدون في كل وظيفة ووزيعة مقدار اليكثر لهم الجباية ثم تتدرج الزيادات فيها بمقدار بعض مقدار لتدرج عوايد الدولة في الترف وكثرة الحاجات والانفاق لسببه حتى يثقل المغارم على الرعايا وتضيم وتصير عادة مفروضة لان تلك الزيادة تدرجت قليلا قليلا ولم يشعر احد من زادها على العشر ولا من بعد واضعها انما بنيت على الرعايا كانها عادة مفروضة ثم يزيد الى الخروج عن حد الاعتدال فتذهب عيطة الرعايا في الاعتمار لذهاب الامل من تعويضهم بقلة التبع فيه اذا فاضل بين نفقته ومغارمه وبين عمرته فينقبض كثير من الايدي عن الاعتمار جملة فينقص حينئذ بنقصان بعض تلك الوزايع منها ويزيدون في مقدار الوظايف اذا راوا ذلك النقص في الجباية ويحسونه حتى ما ينقص حتى ينتهي كل وظيفة ووزيعة الى غاية ليس وراءها تبع ولا فايدة لكثرة الانفاق حينئذ في الاعتمار وكثرة المغارم وعدم وفاء الفايدة المرجوة به فلا تزال الجملة في نقص ومقدار الوزايع والوظايف في زيادة لما يعتقدونه من حرص الجملة لعلهم ان ينقص العمران يذهاب الامال من الاعتمار ويعودوا بال ذلك على الدولة لان فايدة الاعتمار عايد عليها واذا فهمت ذلك علمت ان اقوى الاسباب في الاعتمار تقليل مقدار الوظايف على المعتمرين ما امكن فبذلك ينشط الناس اليه لتقينهم بادراك المنفعة

فيم

فيه والله تعالى مالك الامور

فصل في ضرب الملوك

اعلم ان الدول تكون في اول تعاهدوه كما قلناه فتكون لذلك قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده فتكون في الحماية حينئذ وفا بما يبذ منها بل يفضل منها كثير عن حاجاتها ثم لا بد ان يأخذ من الحضارة والترف وعوائده وتجري على نهج الدول السالفة قبلها فيكثر لذلك خرج اهل الدولة ويكثر خرج السلطان خصوصا كثرة بالغة سعفته في حاشيته وكثرة عطاياه ولا يفي بذلك الحماية فتحتاج الدولة الى الزيادة في الحماية لما تحتاج اليه الحامية من العطاء فتزيد في مقدار الوظائف والوزائع اولا كما قلناه ثم يزيد الخرج والحاجات بالتدريج في عوائد الترف فتعطي الحامية وتدرك الدولة الهرم وتضعف عصابتها عن حمايتها لاستعمال سوال من الاعمال والقاصية فعل الحماية ويكثر العوائد ويكثر بكثرتها ارزاق الجند وعطاؤهم فيستحدث صاحب الدولة انواعا من الحماية يعرضها على الساعات يعرض لها قدرا معلوما على الايمان في الاسواق وعلى اعيان السلع في الانواب وهو مضطر لذلك بما دعاه اليه ترف الناس من كثرة العطاء مع زيادة الجيوش والحامية وربما يزيد ذلك في اواخر الدول زيادة بالغة فتكسد الاسواق بفساد الاموال ويؤذن ذلك باختلال العمران ويعود على الدولة ولا يزال ذلك يتزايد الى ان تضمحل وقد كان وقع منه بامصار المشرق في آخر دولة العباسيين والعبيديين كثير • وفرض المغارم حتى على الحاج في الموسم واسقط صلاح الدين تلك الرسوم جملة واعاضها بآثار الحر وكذلك وقع بالاندلس لعهد الطوائف حتى محى رسمه يوسف ابن تاشفين امير المرابطين • وكذا وقع بامصار الجريد من افريقية لهذا العهد حين استبد بها رؤساؤها

فصل في ان ثروة السلطان وحاشيته انما تكون في وسط الدولة

والسبب في ذلك ان الجباية في اول الدولة توزع على السلل واهل العصبية بمقدار عنائهم وعصبيتهم ولان الحاجة اليهم في تمهيد الدولة كما قلناه من قبل فهم شركاء في ذلك متحاف لهم عما يسمون اليه من الحماية معتاض في ذلك بما هو مرسوم من الاستبداد عليهم فلا عليهم غرم ولا اليهم حاجة فلا نظر في مهماتهم من الحماية الا القليل من حاجة فتمحد حاشيته لذلك واذبالة من الوزراء والكتاب والموالي فملكتين في الغالب وجاههم متقلص لانه من جاه مخدومهم وبطانته قد ضاق بمن يزاحمه فيه من اهل عصبيته فاذا استحلت طبيعة الملك وحصل لصاحب الدولة الاستبداد على قومه قبض ايديهم على الحمايات الا ما طهر لهم بين الناس في مهماتهم وقل خطوطهم اذ ذاك لقلة عنائهم في الدولة بما انكح من اعدائهم وصار الموالي والصنائع مساهمين لهم في القيام بالدولة وتمهيد الامر فينفرد صاحب الدولة حينئذ بالجباية او معظمها ويحتوي على الاموال ويحتجنها للنفقة في مهمات الاحوال فتكثر ثروته وتمتلئ خزائنه ويتسع نطاق جاهه ويستعبر على سائر قومه فتعظم حال حاشيته وذويه من ذرية وكابت

وحاجب ومولى وشرطي ويتسع جاههم ويعتون الاموال ويتأثلونها ثم اذا اخذت الدولة
في الهرم تلاشى العصبية وفناء القبيل المشاهدين للدولة احتاج صاحب الامر حينئذ الى
الاعوان والانصار بكثرة الخوارج والمنازعين والثوار وهم الاستقاص فصار حاجة لظهراء
واعوانه وهم ارباب السيوف واهل العصبيات واتسع حراسه وحاصله في مهمات حراسة الدولة
ويسند حاجة الدولة الى المال ويسقى بناء البطانة والحاشية ما مال اليهم من الاموال
في غير سبيل من اعانة صاحب الدولة على غيها كان عليه اباؤهم وسلفهم من المناصحة ويرى صاحب
الدولة انه احق بتلك الاموال التي اكتسبت في دولة سلفه وجاههم فيصطلمها ويتنزعها منهم لتقسيمه
سنا فسنا واحدا بعد واحد على نسبة رتبهم وشكر الدولة لهم بعد ذلك ويعود وبال ذلك
على الدولة بعقاب حاشيتها ورجالاتها واهل النعمة والثروة من بطانتها ويسوص من ذلك كثير من مباني
المجد بعد ان كان يزعمه اهله ويرفعوه وانظر ما وقع من ذلك لوزراء الدولة الاموية بالاندلس
عند انحلالها ايام الطوائف في بني حمديه وبني ابي عبيده وبني حدير وبني برد وامثالهم وكذا
في الدول التي ادركنا لعهد ناسئة الله وان يحدث بعد ذلك ما يشاء الله

ولما يوقعه اهل الدول من امثال هذه المعاطب صار الكثير منهم يرعون الى الفرار عن الرتب
والتخلص من ربقة السلطان بما حصل في ايديهم من مال الدولة الى قطر آخر ويرون انه اضاع لهم
واسلم في اعناقه واعلم ان الخلاص من ذلك بعد الحصول فيه غير ممتنع الحصول
كان صاحب هذا الغرض ان كان مولى الملك بنفسه فلا يمكنه الرجعية من ذلك طرفة عين ولا اهل
العصبية المرحومون له بل في ظهور ذلك منه هدم ملكه وخلاف نفسه لمجاري العادة بذلك
لان ربقة الملك يعسر الخلاص منها عند استحكام الدولة وضيق نطاقها وما تعرض فيها من البعد
عن المجد والخلال والتخلق بالشر واما ان كان صاحب هذا الغرض من بطانة السلطان
وحاشيته واهل الرتب في دولته فسهل ان يخلي بينه وبين ذلك اما اولا فلما يراه الملوك ان دوهم
وحاشيتهم هم وسائر رعاياهم ممالك لهم مطلوبون على دأب صدورهم فلا يسمحون في حط رتبته
من الخدمة ضنا باسرارهم واحوالهم ان يطلع عليها احد وعلمه من خدمته لسوامهم ولقد كان بنو امية
بالاندلس يمنعون اهل دولتهم من الحج لما يتوسمونه من وقوفهم باذني الناس فلم يحج سائر
ايامهم احد من اهل دولتهم وما ينح الحج لاهل الدول من الاندلس الا بعد فراغ شان الامويه
ورجوعها الى الطوائف واما ثانيا فانهم وان سمحوا بحل رتبته موفلا يسمحون بالتجافي
عن ذلك المال لما يرون انه جزء من مالهم كما كان رتبه جزءا من دولتهم اذ لم تكتسبها الا بها
وفي حمل جاههم فعوم نفوسهم على انتزاع ذلك او انتائه كما هو جزء من الدولة يستعوض به
ثم اذا توسمنا انه خلص بذلك المال الى قطر آخر وهو في النادر الاقل يمتد اليه اعين
الملوك بذلك النظر وينتزعه ارهابا وتخويفا او ظاهرا لما يرون انه مال الخيانة والدول
وانه مستحق للانتزاع في المصالح واذا كانت عيونهم تمتد الى اهل الثروة والبسار والمكسبين
من وجوه المعاش كما ذكرنا فاحرى بان يمتد الى اموال الخيانة والدول التي تجد السبيل اليه

بالشرع

بالشرع والعادة ولقد حاول السلطان ابو يحيى زكريا ابن احمد اللحياني تاسع او عاشر ملوك الحفصيين بافريقية الخروج عن عمدة الملك واللحاق بمصر فرارا من طلب صاحب المغرب العزيزية لما اجمع لغزو تونس فاستعمل اللحياني الرحلة الى الشرق طوالبس برقة ثم مصر وركب البحر من عيذاب وحل بالاسكندرية بعد ان حمل جميع ما وجده بيت المال من الصامت والذخيرة واتباع كل ما كان لهم من المتاع والعتاد والجوهر حتى الكتب واحمل ذلك كله الى مصر ونزل على الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة سبع عشر من المائة الثامنة فاكرم نزله ورفع مجلسه ولم يزل يتخلص فخرجته سنتان بالتعريض الى ان حصل عليهما ولم يبق معاش ابن اللحياني الا في حراسته الى ان هلك سنة ثمان وعشرين حسما يذكره في اخباره بعد او امثاله من جملة الوسواس الذي يعتري اهل الدول لما يتوقعونه من ملوكهم من المعاطب وانما يخلصون ان اتفق لهم الخلاص بنعمهم وما يتوهمونه من الحاجة فتغلط ووهم والذي حصل لهم من الثمرة بجملة الدول كاف في وجدان المعاش لهم بالحرامات السلطانية او بالجاه في انحاء طرق الكسب من التجارة والفلاحة والدول انما تكون لتكسر النفوس بالعنة

• النفس راغبة اذا رغبتها • واذا ترد الى قليل تقنع • وانما الدنيا لمن يقنع

فصل في ان بعض العطاء من السلطان نقص في الجباية

والسبب في ذلك ان الدولة والسلطان هي السوق الاعظم للعالم ومنه مادة العمران فاذا احتجر السلطان الاموال والحيايات او قدرت فلم يصرفها في مصارفها على حينئذ ما بايدي الحاشية والحامية وانقطع ما كان ينتضا يصل منهم بحاشيتهم وذويهم وقلة نفقاتهم جملة وهو معظم السواد وبقائهم اكثر مادة للاسواق من سواهم فوقع الكساد حينئذ في الاسواق وضعفت الارباح في المتاجر لقلة الاموال فنقل الخراج لذلك كان الخراج والجباية انما يكونان من الاعمار والمعاملات ونفاق الاسواق وطلب الناس للفوائد والارباح وزوال ذلك عائد على الدولة بالنقص لقلة اموال السلطان حينئذ بقلة الخراج فان الدولة كما قلناه هي السوق الاعظم ام الاسواق كلها واصلها ومادتها من دخل وخرج فاذا كسدت وقلت مصارفها فاحذر مما بعدها من الاسواق ان يلحقها مثل ذلك واشد منه وايضا فالمال انما هو متردد بين الرعية والسلطان منهم اليه ومنهم اليهم فاذا احتبسه عنهم فقد رد سنة الله في عباده

فصل في ان العلم

اعلم ان العدوان على الناس في اموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يؤوله حينئذ من ان غايتها ومصيرها انتهاء يقابل ايديهم واذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت ايديهم عن السعي في ذلك وعلى قدر الاعتداء وبسببه تكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب فان كان الاعتداء كثيرا وعاما في جميع ابواب المعاش كان العزوف عن الكسب لذلك لذهاب بالآمال جملة لدخوله على جميع ابوابها وان كان الاعتداء يسيرا كان الانقباض عن الكسب على نسبته والعمران ووجوه ونفاق اسواقه انما هو بالاعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين فاذا قعد الناس عن المعاش

وانقبضت ايديهم عن المكاسب كسدت اسواق العمران واستقصت الاحوال واذعر الناس في الافاق
من غير تلك الابالة وفي طلب الرزق فمنهم من مرج عن وطنه فحفت اكناف القطر وخلت ديار وخربت امصار واختل
باختلاله حال الدولة والسلطان لما انها صورة للعمران يتسند بتسنده وتمادت هذه الطرفة في ذلك ما حكاه
المسعودي في اخبار الفرس عن الموبذان صاحب الدين ايام بهرام بن بهرام وما عرض به الملك من انكاد
ما كان عليه من الظلم والعسف عن عايدته على الدولة مضرب المثل في ذلك على لسان البوم من سلك
سمع الملك اصواتها وسأله عن فهم كلامها فقال له ان يومة ذكر انها تروم نكاح بومي وانها شرطت عليه
عشرين قرية من الخراب في ايام بهرام فتقبل شرطها وقال لها ان دامت ايام الملك اقطعتك الف قرية
وهذا اسهل مرام فتنبه الملك من غفلته وخلا بالموبذان وساله عن مراد فقال ايها الملك ان
الملك لا يتم عزه الا بالشريعة والقيام بها بطاعته والتصرف تحت امره ونهيه ولا قوام للشريعة الا
بالملك ولا عز للملك الا بالرجال ولا قوام للرجال الا بالمال ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ولا سبيل
الى العمارة الا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة بضبة الرب وجعل له قيما
وهو الملك وانك ايها الملك عمدت الى الضياع فانتزعتها من ارباب وعمارها ومن ارباب الخراج ومن
يوصد منهم الاموال واقطعتها الحاشية والخدم واهل البطالة فتركوا العمارة والتطرق الى العواقب
وما يصلح الضياع وسوموا في الخراج لقربهم من الملك ووقع الحيف على من بقي من ارباب الخراج
واعمار الضياع فسكنوها فقلت العمارة فاحلوا من ضياعهم وخلوا ديارهم واووا الى ما تعذر
من الضياع فسكنوها فقلت العمارة وخربت الضياع وقلت الاموال وهلكت الجنود والرعية
وطمع في ملك فارس من جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع المواد التي لاستقامة دعائم الملك الا بها
فلما بلغ الملك ذلك اقبل على التطرق في ملكه وانتزعت الضياع من ايدي الحاشية ورددت الى
اربابها وحملوا على رسومهم السالفة واخذوا بالعمارة وقوي من ضعف منهم فعمرت الارض واخصبت
البلاد وكثرت الاموال عند حياة الخراج وقويت الجنود وقطعت مواد الاعداء وشحنت الثغور
واقبل الملك على مباشرة امور بنفسه فحسنت ايامه وانتظم ملكه فتفهم من هذه الحكاية
ان الظلم مخرب للعمران وان عايدته الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانقباض والتسبب
في ذلك الى ان الاعتداء قد يوجد بالامصار العظيمة من الدول التي بها ولم يقع فيها خراب

واعلم ان ذلك انما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء واحوال المصر فلما كان المصر
كبيرا وعمرانه كبيرا واحواله متسعة بما لا يحصر كان وقوع النقص منه بالاعتداء والظلم بسببها
اذا النقص انما يقع بالتدريج فاذا طرق بكثرة الاحوال واتساع الاعمال في المصر لم يظهر اثره الا
بعد حين وقد تدهب تلك الدولة المعتدية قبل خراب المصر وبحي الدولة الاخرى فترفعه بحدتها
وبحر النقص الذي كان حقيقا به فلا يجاد سبيله الا ان ذلك في الاقل النادر والغالب من هذا
ان حصول النقص في العمران عن الظلم والعدوان امر واقع لا بد منه لما قدمناه وويال عايدته
على الدول ولا يحسن الظلم انما هو اخذ المال او الملك من يد مالكه بغير عوض ولا سبب كما تلوفي المشهور
بل الظلم اعم من ذلك وكل من اخذ ملك احد او غصبه في عمله او طالبه بغرم او فرض عليه حق

لم يفرضه الشرع فقد ظلم فجباة الاموال يغرمونها ظلما والمعتدون عليها ظلما والمنتهبون لها ظلما والمانعون لحقوق الناس ظلما وغصاب الاملاك على العموم ظلما وبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي موماده الاموال من اهله **واعلم** ان هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم وموما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه وذلك موذن باقطاع النوع البشري وهي الحكمة العامة المراعاة للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال فما كان الظلم كما رأيت موذنا باقطاع النوع لما ادى اليه من خراب العمران كانت حكمة الحظر فيه موجودة فكان تحريمها واد لته من القرآن والسنة كثيرا اكثر من ان يحاط بها قانون الضبط والحصر ولو كان كل احد قادرا على وضع ما رآه من العقوبات الزاجرة ما وضع بادئ الرأي غير ما شرعه الشارع من المقدرات للنوع التي يقدر كل احد على اقترافها من الزنى والقتل والسكر الا ان الظلمة لا يقدر عليه الامن لا يقدر عليه لانه انما منع من اهل القدرة فيولع في ذمه وتكثير الوعيد فيه عسى ان يكون الوازع فيه للقادر عليه من نفسه وما ذلك بظلام للعبيد

والنفس

فصل ومن اسباء الظلامات واعظمها افسادا للعمران

التوثب

الاعمال وتحصيل الرقاب بغير حق وذلك ان الاعمال من قبيل المتمولات لما سنبين في باب الرزق او الكسب والرزق انما هو قيم اعمال اهل العمران فاذن مساعيهم واعمالهم كلها متمولات ومكاسب لهم بل لا مكاسب لهم سواها فان الرعية المستعملين في العمارة انما معاشهم ومكاسبهم من اعمالهم ذلك فاذا كلفوا العمل في غير شانهم واحدوا عن تحصيل معاشهم بطل كسبهم واعتصبوا قيمة عملهم ذلك وموما تموله فدخل عليهم الضرر وذهب لهم حظ كبير من معاشهم بل موما معاشهم بالجملة وان تكرر ذلك عليهم اشتد المهم بالعمارة وقعد واعن السعي في جملة فاوى ذلك الى اشاعل العمران وخرابه والله يرزق من يشاء بغير حساب

فصل في الحجاب كيف يقع في الدول

اعلم ان الدولة في اول امرها تكون بعيدة عن منازع الملك كما قدمناه لانها لابد لها من العصبية التي بها يتم امرها وتحصل استيلاؤها والمدافع هي العصبية والدولة ان كان قيامها بالدين فهو بعيد عن منازع الملك وان كان قيامها بعز العلب فقط فالمدافع التي بها حصل الغلب بعيدة ايضا عن مذاهب الملك ومذاهبه فاذا كانت الدولة في اول امرها بدوية كان صاحبها على حال العصابة والبداوة والقرب من الناس وسهولة الاذن فاذا رسخ عزه وصار الى الانفراد بالمجد احتاج الى الانفراد بنفسه عن الناس للحديث مع اوليائه في خواص شونه لما يكره حينئذ من فاشيته فيطلب الانفراد عن العامة ما استطاع ويتخذ الاذن ببابه على من لابد منه من اوليائه واهل دولته ويصير حاجبا له عن الناس ثم اذا استفحل الملك وجاءت مذاهبه ومنازعه استحالت خلق صاحب الدولة الى خلق الملك وهي خلق عزيزة محفوفة بحياض مباذلها

منازع ص

الى مدارتها ومعاملتها بما وجب لها ودعا جهل بذلك الخلق منهم لبعض من يباشرهم موقع فيما
برضهم فحظوظ وصاروا الى حالة الاستقام منه فاعتبر بمعرفة هذه الآداب معهم الخواص
من اولياهم وحجبوا عنها وذلك الخاصة عن لقائهم في كل وقت حظا على انفسهم من معاينة ما يخطهم
وعلى الناس من التعرض لعقابهم فصار لهم حجاب اخر اخص من الحجاب الاول
الذي منه ويحجبونه من سوائهم والحجاب الثاني يعني لمجالس الاولياء ويحجبونه
من سوائهم من العامة فالحجاب الاول كون في اول الدولة كما ذكرنا كما حدث ايام معاوية وعبد الملك
وخلفاء بني امية وكان القائم على ذلك الحجاب يسمى عندهم حرسا على مذهب الاشتقاق الصحيح ثم لما
جاءت دولة بني العباس وحدث للدولة من الترف والنعمة ما هو معروف وكملت خلق الملك على ما يجب
فادعى ذلك الى الحجاب الثاني وصار اسم الحجاب الخاص به وصار نواب الخلفاء وارباب المعاشد
دار الخاصة ودار العامة كما هو مسطور في اخبارهم • ثم حدث في الدول حجاب ثالث عند محاولة
الحجر على صاحب الدولة وذلك ان اهل الدولة وخواص الملك اذا نصبوا الابناء من الاعقاب وحاولوا
الاستبداد عليهم فاول ما يبتدأ به ذلك المستبد ان يحجب عنه بطانة آبيه وخواصه وانباءه
يومه ان في مباشرتهم اياه حرق حجاب الهيبة وفساد قانون الادب ليقطع بذلك عنه
لقاء الغير وتعويده اخلاقه حتى لا يتبدل به سواه الى ان يستحكم
عليه فيكون هذا الحجاب من دواعيه وهذا الحجاب لا يقع في الغالب الا في اواخر الدول كما قدمناه
في الحجر ويكون دليلا على هدم الدولة ونفاد قوتها وهو مما عشناه اهل الدول على انفسهم لان القائمين
بالدولة يحاولون على ذلك بطبيا عهم لما ركب في النفوس من محبة الاستبداد بالملك وخصوصا
مع الترشيح لذلك وحصول دواعيه ومباديه • والله غالب على امره •

فصل في انقسام الدول الواحدة بدولتين

اعلم ان اول ما يقع في اثار الهدم في الدولة انقسامها وذلك ان الملك عند ما يستفحل
ويستبد صاحب الدولة بالمجد ويتفرد به • ويبلغ احوال الترف والنعيم الى غايتها ويقف
حينئذ عن المشاركة ويصير الى قطع اسبابها ما استطاع بالملال من استراب به من ذوي قرابته
المرشحين لمنصبه فربما ارتاب المساهمون له في ذلك بانفسهم وترعوا الى العاصبة واجتمع
اليهم من يلحق بهم في مثل حالهم من الاعتداد والاستراسة ويكون نطاق الدولة قد اخذ في
وهن وارجع عن العاصبة ذلك النازع من الهرمة فيها ولا زوال امر
يعظم بتراجع نطاق الدولة حتى الدولة او يكاد وانظر ذلك في الدولة الاسلامية
العربية حتى كان امرها عزيزا ممتنعا ونطاقها ممتدا في الاتساع وعصبية بني عبد مناف
واحدة غالبة على سائر مضر فلم عرق من احلاف سائر ايامهم الا ما كان
من نزعة الخوارج بدعيهم لم يكن ذلك
ملكا ولا رياسة ولم يهم امر بم لزاحمتهم العصبية القوية ثم لما خرج الامر من بني امية

واستقل

واستقل بنو العباس بالامر وكانت الدولة العربية قد بلغت الغاية من التغلب والترف وادب
بالتقلص عن القاصية ترع عبد الرحمن الداخل إلى الاندلس فاصبه دولة الاسلام فاستحدث بها ملكا
واقتطعها عن دعوتهم وصار الدولة دولتين ثم ترع ادريس إلى المغرب وخرج به وقام بامر
وامر ابنه البرابر من اوربه ومغيله وزناته واستولى على ناحية المغربين ثم ازداد
الدولة تقلصا فاضطرب الاعاليه في الامتناع عليهم ثم خرج الشيعة وقام بامرهم كما مر وضاهت
واستولوا على افريقيه والمغرب ثم مصر والشام والحجاز وغلبوا على امرار الادارسة وصار الدولة
دولتين ادريس وصار الدولة العربية ثلاث دول دولة بني العباس بمركز العرب واصلهم
ومادة الاسلام ودولة بني امية المحدثين بالاندلس ملكهم القديم وخلافتهم بالمشرق ودولة
العبيديين بافريقيه ومصر والشام والحجاز ولم تزل هذه الدول الى ان كان انقراضها
متقاربا او جميعا وكذلك اعتبر في دولة صنهاجة لما بلغت الى غايتها ايام بادس بن المنصور
خرج عليه عمه حماد واقتطع ممالك المغرب لنفسه ما بين جبل اوراس الى تلمسان وملوية واختط
القلعة بجبل كتامة وجبال المسيلة وبرقها واستولى على مركز ثم استرسل يتطرق واستحدث
ملكا لعز فيها لملك آل بادس بالقيروان وما اليها ولم تزل ذلك الى انقراض امرهما جميعا
وكذلك دولة الموحدين اما تقلص ظل ثائرها فريقيه بنو ابي حفص فاستقلوا بها واستحدثوا
ملكا لاعقابهم مولانا الامير ابو زكريا يحيى بن السلطان ابي اسحاق ابراهيم رابع خلفائهم وتسموا به
الدولة قسمتين ثم استولوا على كرسي الحضرة بتونس ثم انقسم الملك ما بين اعقابهم ثم عاد السيل
فيهم اودية بينه وقد يتمنى الانقسام الى اكثر من دولتين وثلاثة وفي غير اعتراض الملك من قومه
كما وقع في ملوك الطوائف بالاندلس وملوك العجم بالمشرق وفي ملوك صنهاجة بافريقيه فقد
كان لآخر دولتهم في كل حصن من حصون افريقيه تابر مستقل بامره كما تقدم ذكره وكذا طال
والزاب من افريقيه صار هذا العهد كما ذكره وهكذا شان كل دولة لابد وان يعرض
فيها عوارض الهرم بالترف والدعة وتقلص ظل العلك فتنقسم اعتياضها او من غلب من
رجال دولته الامر والله وارث الارض ومن عليها

فصل في ان الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع

قد قدمنا ذكر العوارض الموذنة بالهرم واشبابه واحدا بعد واحد وبينا انها لاحقة للدولة
بالطبع وانها كلها امور طبيعية لها واذا كان الهرم طبيعيا في الدولة كان حدوثه بمثابة
حدوث الامور الطبيعية كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني والهرم من الامراض المزمنة التي
لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها لما انه طبيعي والامور الطبيعية لا تتبدل وقد يتبين كثير
من اهل النقل ممن له تيقظ في السياسة فنزل ما نزل بالدولة من عوارض الدم واسبابه
وحسبه ممكن الارتفاع فيما قد تعتبه بتلافي الدولة واصلاح مزاجها عن ذلك الهرم وفطن انه
لما لحقها التقصير من قبل او عقلة مو وليس كذلك فانها امور طبيعية للدولة والعوائد

في المبالغة الحضارة التي تدعوا لها الترف والدعة كما قدمناه وذلك مما يعوق عن البداوة ومنازعها
وايضا فالمدن والامصار دات جبايات واجرام عظيمة وبناء كثيرة هي موضوعة للعموم لا للخصوص
فيحتاج الى اصطناع الايدي وكثرة التعاون وليست من الامور الضرورية للناس التي يقوم بها اللوي حتى
يكون نزوعهم اليها سوقيا واضطراريا بل لا بد من اكراههم على ذلك وسوقهم مضطهدين بعض الملك
او مرغبين في الثواب والاجر الذي لا يفي بكثرة المال والدولة فلا بد في مصير الامصار واختطاط
المدن من الدولة والملك اذ هي المدينة وكل تشييد بحسب نطر من سده وبما اقتضته الاحوال
السماوية والارضية فيها فعمر الدولة حينئذ عمرها فان كان امر الدولة قصيرا وقف الحال فيها عند
انتهاء الدولة وتراجع عمرانها وخربت • وان كان امد الدولة طويلا ومدتها متسعة فلا زال
المصانع فيها تشاد والمنازل الرحبة تكثر وتتعدد وطاق الاسوار تتباعد الى ان تتسع الخطة
وتبعد المسافة ويعني درع المساحة كما وقع ببغداد وامثالها **ذكر ان الخطب في تاريخه**
ان الحمامات بلغ عددها ببغداد لعهد المامون خمسة وستين الف حمام وكانت مستملة على مدن
وامصار متلاصقة ومتقاربة تحاوز الاربعين ولم تكن مدينة واحدة بجمعها سور واحد لاتساع العمران
وكذا حال القيروان وقرطبة • والمدينة في الملة الاسلامية • وحال القاهرة ومصر
فيما سلف لهذا العهد واما بعد انقراض الدولة المستدة للمدينة فاما ان يكون نصواحي تلك
المدينة وما قاربها من الخيال مادة عمرانها دايما فيكون ذلك حافظا لوجودها ويستمر
عمرها بعد الدولة كما تراه بفاس ونحايه من المغرب وبعراق العجم من المشرق الموجود لها عمران
الخيال لان اهل البدو اذا انتهت احوالهم الى غاياتها من الرفه والكسب ترعوا الى الدعة
والسكون الذي في طبيعة البشر فيتزلون المدن والامصار ويتباهون بها • واما ان لم تكن
لتلك المدن المؤسسة مادة يمدها العمران بترادف الساكن من بدوها فيكون انقراض
الدولة حرقا لسياجها فتزول خططها ويتناقص عمرانها شيئا فشيئا الى ان يندرس اكثرها
ويخرب كما وقع في بغداد والبصرة والكوفة بالمشرق والقيروان والمهدية وقلعة بني حماد
بالمغرب امثالها فتفهمه وربما يترك المدينة بعد انقراض مختطها الاولين ملك اخر
ودولة ثانية تحدث قرارا او كرسيا وتستغني بها عن اختطاط المدينة لرسها فتحفظ تلك الدولة
سياجها وتزيد مبانيها ومصانعها بمدد احوال الدولة الثانية وثروتها ويستجد عمرها عمرانا
اخر كما وقع بفاس والقاهرة لهذا العهد فاعتبر ذلك • ويفهم سر الله في خلقه •

فصل في ان المدن العظيمة والهياكل المرتفعة

انما يشيدها الملك الكثير •

وقد قدمنا ذلك في اثار الدول من المباني وعمرها وانها تكون على نسبتها وذلك ان تشييد
المدن انما يحصل باجتماع العمل من اقطارها وربما استعين في ذلك اكثر الامر بالهندام الذي
يضاعف القوى والقدر في حمل الاثقال كالبناء لعجز القدر البشرية وضعفها عن ذلك

كالمثال

فالمحال وغيرهم وربما يتوهم كثير من الناس اذا نظروا الى اثار الاقدمين ومصانعهم العظيمة مثل ايوان كسرى
وهرم مصر وحمام المعلقة ومرسال انها كانت بقدرهم مقدرين ومجتمعين فيحيل لهم احتمالا ما شاء ذلك
اعظم من هذه بكثير في اطوالها وعروضها واقطارها لما سبق وبين القدر التي صدرت تلك المباني عنها وبعمل
عن شان الهندام والمنجنيق وما افتضته في تلك الصناعة الهندسية وكثير من المتقلبين في البلاد يعاين
من شان البناء واستعمال الحيل في نقل الاحجار عند اهل الدول المعتنين بذلك من العجم ما يشهد له بما
قلناه عيانا واكثر اثار الاقدمين لهذا العهد يسميها العامة عادية نسبة الى قوم عاد لتوهمهم ان مباني
عاد ومصانعهم انما عظمت لعظم اجسامهم وتضاعف قدرهم وليس كذلك فقد نجد اثارا كثيرة من اثار
الذين نعرف مقادير اجسامهم من الامم وهي في مثل ذلك العظم او اعظم كايوان كسرى ومباني العبيديين
من الشيعة بافريقية والقسطنطينية واشباههم بادي اليوم في صومعة قلعة ابن حماد وكذلك بناء الاغالبة
في جامع القيروان وبناء الموحدين في رباط الفتح وبناء السلطان ابي الحسن لعهد ازغبن سنة في
المنصورة بازاء تلمسان وكذلك الحمام التي على ساحل قرطاجنة الهابطة الماء في الغدران راكبة على ماء
ايضا لهذا العهد وغير ذلك من المباني والهياكل التي تقلت اليها اخبار الامم قبلها وبعدها وبنفضا
انهم لم يكونوا باوفر في مقادير اجسامهم وانما هذا راي وقع به التقاص عن قوم عاد وثمود والعمالقة
ونحن نجد بيوت ثمود في تلك الحجر منحوتة الى هذا العهد بمرأى الراكب الجازي اكثر النهار ولسائد ولا
نجد في حوماتها وساحاتها وسمكها على المقادير التي لبيوتنا فما نعتقدون من ذلك حتى انهم ليزعمون
ان عوج بن عناق من جيل العمالقة كان يتناول السمك من البحر طريا فيشويه في الشمس يزعمون
بذلك ان الشمس حارة فيما قربها ولا يعلمون ان الحر فيها لذبابا من الضوء لانعكاس الشعاع بمقابلة
سطح الارض والهوا وامّا الشمس في نفسها فغير حارة ولا باردة انما هي كوكب مضيء لا مزاج له وقد
تقدم لنا من هذا قبل في الفصل الذي حبث ذكرنا ان اثار الدول على نسبة قوتها في اصلها
والله خالق ما يشاء

فصل في ان المباني العظيمة جدا لا يستقل ببنائها الدول الواحدة

والسبب في ذلك ما قدمناه من حاجة البناء الى التعاون ومضاعفة القدر البشرية وقد
تكون المباني لعظمها اكثر من القدر معدودة او مضاعفة بالهندام كما قلناه فيحتاج الى معاونة قدر
اخر مساوية او زائدة متعاقبة الى ان تتم فتسند الاول منهم بالبناء والعقبة الثاني والثالث
وكل واحد منهم قد استكمل سنانه في حد العمل وجمع الاندى حتى تم القصد من ذلك ويوم ما مثلا
للعمان مظنة من مواه من الاخرين انه بناه دولة واحدة وانظر في ذلك ما نقله المؤرخون
في بناء سد مارب وان الذي بناه سيل بن لحث وساق اليه سبعين واديا وعاقه الموت
عن اتمامه فاتمته ملوك حمير من بعده وامثل هذا نقل في بناء قرطاجنة وهياكلها الراكبة على
الخلجان المعاينة واكثر المباني العظيمة في الغالب هذا شانها وليشهد لذلك ان المباني العظيمة
لعهدنا لحد الملك الواحد يشرع في تاسيسها واصطناعها فاذا لم يتبع ابن من بعده من الملوك
في اتمامها بقيت مجالها ولم تكمل القصد فيها وليشهد لذلك ايضا لما نجد كثيرا من المباني العظيمة

يحيى الدولة من هدمها وحرقها مع ان العدم اسهل من البناء بكثير لان العدم رجوع الى الاصل الذي هو العدم والبناء على خلاف الاصل فاذا وجدنا بانيا ضعف قدرته البشرية عن هدمه مع سهولة الهدم علمنا ان القدرة التي استمسكت معرطة القوة وانها ليست اثر الدولة واحدة وهذا مثل ما وقع للعرب في ايوان كسرى لما اعتم الرشيد على هدمه وتعالى يحيى بن خالد وهو في مجلسه استهزاء في ذلك فقال يا امير المؤمنين لا تفعل واتركه فانا لا نريد ان نعلي عظم ملك الملك الذين سلموا الملك ولا سبل ذلك الفيالق في الفضيحة وقال احدة العرب للعجم والله لا جرعه وشرع في هدمه وجمع الايدي عليه واحدله الفؤس وحماه بالنار ووضعت عليه الحبل حتى اذا ادركه التعب بعد ذلك كله وخاف الفضيحة رغب الى يحيى ليستشير ما بيانا في النجاة عن الهدم فقال يا امير المؤمنين لا تفعل واستمر على سائر ملك الايقاد عجز امير المؤمنين وملك العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم فغرم الرشيد واقصر عن هدمه وكذلك لما اتى المأمون في هدم الاهرام التي بمصر وجمع العمال لهدمها فلم يحل بطائل وشرعوا في نقبها فانتهوا الى حجر بين الحائط الظاهر وما بعده من الحيطان وهنالك كان منتهى هدمهم وهو الى اليوم فيما يقال منقد ظاهر وبعضهم زاعمون انه وجد هنالك دكان بين تلك الحيطان والله اعلم وكذلك حمام المعلقة لهذا العهد محتاج اهل مدينة تونس الى اصحاب الحجارة لساحتها وسعد الصناع حجارة تلك الحمام فحاولون على هدمها الايام العديدة ولا يسقط الصغير من حجارتها الا بعد عصب وجمع له المحافل المشهورة تمددت منها في ايام صان كبرا والله على كل شيء قدير

فصل في المساجد والبيوت المعظمة في العالم

ان الله سبحانه فضل من الارض بقاعا اختصها بعبادته وشرعه وسبقت عنايته بذلك فاظهر بانه على لسان انبيائه وجعلها مساجد يضاعف فيها الثواب ويتموا فيها الاجور لطفا بعباده وتسهيلا لطرق الخير والارشاد الى تحصيل السعادة لهم وكانت المساجد الثلاثة التي افضل بقاع الارض فيما علمناه حسبما بينت في الصحيحين وبين مكة والمدينة وبيت المقدس فبكة بيت ابراهيم صلوات الله عليه امره الله ببنائه واذن للناس بالحج اليه ودفن اسماعيل عليه السلام في حجر وبيت المقدس بيت داود وسليمان امرهما الله تعالى ببنائه مسجدا ونصب هياكله ودفن بها ثرا كثيرا من ولد اسحاق عليه السلام فيه وحوالبه والمدينة مهاجر نبينا صلوات الله عليه امره بالهجرة اليها واقامة دين الاسلام بها ومنها

وكان ملحدو العرب يزيدون هذه المساجد الثلاثة قرن عين المسلمين ومهوى افئدتهم وعصمة دينهم وفي الآثار من فضلها وتضاعف الثواب في مجاورتها كثير معروف فلنشر الى شيء من الخبر عن اولية هذه المساجد الثلاثة وكيف مدرجها الى ان بلغت ظهورها فاما مكة فكان فيما يقال ان آدم صلوات الله عليه بنا ثم هدمه الطوفان حتى اذا بوأ الله ابراهيم وكان من شأنه ما هو معروف وساق ابنه اسمعيل

وامه هاجر ابوضع مكة فتركهما هناك وكيف لهما من اللطف في بنائهما وما سهما يتزوك عزيهم
معهما ما نبت بحرم في مواضعه فاتخذه اسماعيل موضع البيت كما اوى اليه وكان الحرم
ثم جاء ابراهيم صلوات الله عليه لزيارته من الشام وقد امر ببناء البيت فبناه واستعان بابنه
اسمعيل ووضع الحجر الاسود في مكانه ودعى الى حجه هو واسمعيل من بعده ولم يزل اسمعيل صلوات
الله عليه قائما بامر البيت الى ان قبضه الله مع امه آخر وقام بنوه بعده بامر البيت مع اخوالهم من
جرهم واستمر الحال على ذلك والناس يحجون اليه من كل آوب من جميع اهل الخليقة لامن بني اسمعيل
ولا من جرهم ممن نأى ودنى فقد نقل البيان ان السابعة كانت تحج البيت وتعظمه وان تبعا كساه
وامر بتطهيره وجعل لها مفتاحا وقد نقل ايضا ان الفرس كانت تحجه وتقرب اليه
وان عمرا الذي وهد عند المطلب حين احتفر زمزم كان من قرابتهم ولم تزل جرهم الولاة
به حتى اخرجهم بنو اخراعة من غسان واقاموا به بعدهم ماشاء الله الى ان كثرة ولد اسمعيل وانتشروا وساد
ولاية خزاعة فغلبتهم قريش على امره واخرجوهم وملكوا امرهم واصاب البيت في ولايتهم
فهدم وبنوه ما كان وشهد النبي صلى الله عليه وسلم بناءه لما جاء الاسلام لبثر احجة الحج اليه
واوجبه وقرر مناسكه واخذ ما من فضله والعناية التي سبقت به مما هو معروف في الصحيح هذا
شان مكة وبيت الكعبة وبيت ابراهيم واسماعيل والمسجد الحرام وبناؤه اعظم واشهر من ان يطال
فيه القول **واما بيت المقدس** فكان اول امره مكانا لخيمة موسى عليه السلام وذلك
ان موسى صلوات الله عليه لما خرج ببني اسرائيل الى التيه ولم يكن لهم بيوت الا الخيام فلما انزل عليه
التوراة صلى في التابوت يحملونه على الظهر اذا رحلوا ويضعونه اذا نزلوا وكانوا يدورون عليه سبعا من
الاكمة ويجعلون عنده للعبادة واذا اراد والقربان قربوا عنده واراقوا الدماء حوله
وكانت لهم هياكل تشرع العبادة عنده والقربان والبخور فكانوا يضعونها مع ذلك التابوت
ولما ملكوا اريحا وقبض موسى وهرون صلوات الله عليهما وضع ذلك التابوت والهياكل في
مكان بيت المقدس لما سبق من عناية الله به وضبوا عليه خباء ودعوا معه عصا موسى صلوات
الله عليه ثم عظم ملكهم فبنوا مكان الخباء بيتا ووضعوا فيه تلك الهياكل والتابوت والعصا
والمعراج الذي كانوا يصعدون عليه الى تلك الهياكل والتابوت والعصا والمعراج الذي
كانوا يصعدون عليه الى تلك الهياكل لابتياد المنافع والمتوع ثم جاء داود عليه السلام وعظم
ملكه فبنى مسجدا ورآه للعبادة ثم استغل تلك سليمان بعده فبنى بيت المقدس اعظم ما يكون
من البناء وجعل تلك الهياكل من الذهب والفضة وكذلك المعراج والمنابر ورصع اكثرها
بالدر وذلك لنحو خمسمائة سنة من لدن موسى صلوات الله عليه واقام كذلك ما شاء
الله ثم خرب بخت نصر بعد ثمان مائة سنة واقام من بنائه واحرق التوراة والعصا
والهياكل ونثر الاحجار ثم لما عاد بنو عزير بنى سبى
اسرائيل لعهده باعانة بمن بقي من تلك الفرس التي كانت الولاية لبني اسرائيل عليه من سبي بخت نصر
ثم تداولهم ملوك يونان والقبط والروم ولم يعرض لامر هذا المسجد حتى فلما جاء طيطش

من ملوك الروم وغلبهم وملك امرهم حرب بيت المقدس وامر ان تخرب مكانه
ثم احد بدين المسيح فاعادوا بناءه وداروا بتعظيمه وبنوا اداءه بيت لحم وهو البيت الذي
ولد فيه عيسى صلوات الله عليه واوحيوا اليه جبايات عظيمة لزيارة قبور الانبياء وتعظيم ذلك المسجد
فيها وصنوف من تعظيمهم المتواضعة الى ان جاء الله بالاسلام فعظم من بنايته ما اذن الله في تعظيمه
وما سوى في ام الكتاب من فضله حسبما تقدم واما المسلمون فتلك الهياكل والمنار ربما
محاه الله من امره واحتفل الخلفاء من بني امية بعد ذلك في تشييد مسجده على
مساجد الاسلام ثم لما ضعف امر الخلافة اعوام الخمسمائة من الهجرة وكانت في ملكة العبيديين
ملوك القاهرة من الشيعة واحتل امرهم ونضا الغربة الى بيت المقدس فملكوه وملكوا
بعده عامة ثغور الشام وبنوا على الصخرة المقدسة كنيسة كما توا تعظمونها ويخرون بناءها
حتى اذا استقل صلاح الدين بن ايوب الكردي بملك مصر والشام ومحى اثار العبيديين ودعهم رحب
الى الشام وجاهد من كان به من الفرنجة حتى غلبهم على بيت المقدس وعلى ما قابلوا المسلمون من ثغور
الاسلام وهدم تلك الكنيسة وطهر الصخرة وبنى المسجد على النحو الذي هو عليه لهذا العهد
وذلك لنحو ثمانين وخمسمائة من سني الهجرة واما المدينة وهي المسماة يثرب
فهي من بناء يثرب بن مهلايل من العمالقة وبه سميت وملكها بنو اسرائيل من اعدائهم فيما ملكوه من
ارض الحجاز ثم جاورهم ابناء قيلة من غسان وغلبوهم عليها وعلى حصونها ثم امر النبي صلى الله عليه
وسلم بالهجرة اليها لما سبق من عناية الله بها فاجرا اليها ومعه ابو بكر رضي الله عنه وشيعه
اصحابه وترك بها وبني مسجده وبيوته فيها في الموضع الذي كان الله قد اعده للملك وشرفه
في سابق ازله واواه الانصار ونصروه وتمت كلمة الاسلام من المدينة حتى غلب
على الاقطار وعلب على قومه وظن الانصار انه يتحول عنهم الى مكة فاعلمهم ذلك فخطبهم النبي
صلى الله عليه وسلم واخبرهم انه غير متحول عنهم حتى اذا اقتضى صلى الله عليه وسلم كان ملحد الحرمين
بها وجاء في فضلها من الاحاديث الصحيحة ما لا خفاء به ووقع الخلاف بين العلماء تفضيلها
على مكة واصوب ما سمعت به المجد وجيه الامم بقدرهم من كل وجه فانظر كيف تدرجت
الفضيلة في هذه المساجد العظيمة لما سبق لها من عناية الله تعالى بها وبعلم سر الله في
الكون وتدريجه على ترتيبه في امور الدين والدنيا واما عن هذه المساجد الثلاثة
فلا نعلم في الارض الا ما يقال من مسجد آدم عليه السلام لسرنديب بجبال
من الهند لكنه لم يثبت فيه شيء يعول عليه وكانت للامم في القديم بيوت لعظمونها لاعتقاد
الديانة والمنزوعة منها بيوت النار للفرس وبيوت هياكل لبوان وبيوت العرب بالحجاز
التي امر النبي صلى الله عليه وسلم بهدمها وقد ذكر المسعودي منها بيوتا لسنا من ذكرها في شيء
اذ هي غير مشروعة ولا على طريق ديني فلا يليق بها ولا بالحديث عنها ويكفي في ذلك ما وقع في
التواريخ لمن اراد معرفة الاخبار والله يهدي من يشاء

فصل فيما يحب مراعاته في اوضاع المدن

وما

وما يحدث اذا اغفل عن المراعاة

المدن قد اتخذه الامم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه فيوثر الدعة والسكون ويتوجه الى ايجاد المنازل للقرار وجب ان يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع بتسهيل المرافق لها فاما الحماية من المضار فيراعى لها ان يدار على منازلها جميعا سياج الاسوار وان يكون وضع ذلك في ممتنع من الامكنة اما على هضبة متوعرة من الجبل واما باستدارة بحر او نهر حتى لا يوصل اليها الا بعد العبور على جسر او قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها • ومما يراعى في ذلك للحمايات من الافات السماوية طيب الهواء للسلامة من الامراض فان الهواء اذا كان راكدا جبيا او مجاورا للمياه فاسدة او منافع متعفنة او مروح خبيثة اسرع اليه العفن من مجاورها فاسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة وهذا مشاهد • والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الامراض في الغاية وقد استمر ذلك في قطر المغرب بكل فاس من بلاد الحمد وما بقيته فلا يكاد ساكنها او طارقها يخلص من سمي العفن بوجه • ولقد يقال ان ذلك حادث فيها ولم يكن كذلك من قبل **ونقل البكري** في سبب حدوثه انه وقع في احد ظهر فيه على انا من نحاس مختوم بالرصاص فلما فض ختامه صعد منه دخان الى الجو وانقطع وكان ذلك بدار لامراض الحميات فيه وارادة بذلك ان الاناء كان مشتملا على بعض اعمال الطلسمات لونا له وانه دبت سره بدهائه فرجع الى العين والوباء وهذه الحكاية من مذاهب العامة ومساجيم ابو بكر والبكري لم يكن من مبانيه العلم واستنارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا او سمع حرفا فنقله كما سمعه والذي يكشف لك الحق في ذلك ان هذه الاهوية المعفنة اكثر ما تعرض للعفن الاجسام واما امراض الجهات وكودها فانما تحدثها الريح ونتنها وذهابها يمينا وشمالا خف سنان العفن والمرض المتادي منها للحيوانات والناس اذا كان كثير الساكن وكثرت حركات اهله فيتموج الهواء ضرورة ويحدث الريح المحلل للهواء الراكد ويكون ذلك معينا له على الحركة والتموج • واذا خف الساكن ولم يجد الهواء معينا على حركته وتموجه فيبقى راكدا وعظم عفنه وكثر ضرره وبلد فاس هذه كانت عند ما كانت افريقية مسرح العمران كثيرة الساكن يموج بالناس موجا فكان ذلك معينا على تموج الهواء واضطرابه وتخفيف الاذى منه فلم يكن فيها كثير عفن ولا مرض • وعند ما خف ساكنها وكدموا فيها المتعفن بفساد مياهها فكثر العفن والمرض هذا وجه الاعتبار • وقد رأينا عكس ذلك في بلاد وصعب ولم يراع فيها طيب الهوى وكانت اولا قليلة الساكن فكانت امراضها كثيرة • فلما كثر ساكنها اسقل حالها عن ذلك وهذا مثل دار الملك بفاس لهذا العهد المسماة بالبلد الجديد وكثير من ذلك في العالم فتفهمه بحد ما قلته لك **واما جلب المنافع** والمرافق للبلد فتراعى فيه امور امنها المياه ان يكون البلد على نهر او بازائها عيون عذبة نمرة فان وجود الماء قريبا من البلد مسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورية فيكون لهم في وجوده من فقه عامة • ومما يراعى من المرافق ايضا

فى المدن طلب المرعى لسائمتهم اذ صاحب كل قرار لابد له من دواجن الحيوان للمتاع والضرع والركوب
ولابد لطعامه من المرعى فاذا كان قريبا طيبا كان ذلك ارفق لهم مما يعانون من المشقة فى بعد ومما تراعى
ايضا المزارع فان الزرع هو القوت فاذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك اسهل فى الحمل وارفق
فى تحصيله ومن ذلك السعى للحطب والبناء فان الحطب مما تعم البلوى فى اتخاذه لوقود النيران للاصطلا
والطبخ والخشب ايضا ضرورى لسقفهم وكثيرا ما يستعمل فيه الحطب وقد يراعى ايضا قربها من البحر لتسهيل
الحاجات المقصية من البلاد البعيدة الا ان ذلك ليس بمثل الاول وهذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجة
وما تدعوا اليه ضرورة ان كان وقد يكون الواضع عاقلا على حسن الاختيار الطبيعى وانما تراعى ما هو
اهم على نفسه وقومه ولابد وكحاضرة عصرهم كما فعله العرب لاول الاسلام فى المدن التى اختطوها بالعراق
والحجاز وافريقية فانهم لم يراعوا فيها الا المهم عندهم من مراعى الابل ولا يصلح لها من السخى ولم يراعوا
الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعى الشاء من ذوات الظلف ولا غير ذلك كالبقر والكوفة والبصرة
وبابل وسجلماسة وامثالها ولهذا كانت اقرب الى الخراب لعالم سواء فيها الا من ترى الطبيعة

فصل وتمام يراعى فى المدن الساحل التى على البحر

ان يكون فى جبل او يكون من امامه من الامم موفورة العدة يكون سريحا للمدينة متى طرقها طارق
من العدو والسبب فى ذلك ان المدينة اذا كانت حاضرة البحر لم يكن لساحتها عمران لتنقل اهل العساكر
ولا هو وضعها فى موضع من الجبال كانت فى عزة للسباب وسهل طروقها فى الاساطيل البحرية على
عدوها وكمعه لها لما بامن من وجود الفرج لها وان الجحى المتعودين للدعة قد صاروا عيالا وخرجوا
عن حكم المقاتلة وهذا كالاسكندرية من المشرق وطرابلس المغرب وقونه وسلا ومتى
كانت القبائل والعصابات موطنين بقرب بحيث يسلعهم الصريخ والنفير او كانت متوعرة المسالك
على من يرومها باختطاط فى مضايق الجبال او على اسنتها كان ذلك مانعا من العدو ويسون من
طروقها لما يكودهم من وعرها ومما يتوقعونه من اجابة صريخها فمن سبتة وبجاية ونلدا على عاصفها
فافهم ذلك واعتبره فى اختصاص الاسكندرية باسم التعرض دولة العباسية مع ان الدعوة كانت
من وراءها برقة وافريقية واما اعتبره فى ذلك المخافة المتوقعة فيها من البحر بسهولة وضعها
ولذلك والله تعالى اعلم كان طرق العدو للاسكندرية وطرابلس فى المدونات متعددة

فصل فى ان الامصار والمدن بافريقية والمغرب قليلة

والسبب فى ذلك ان هذه الاقطار كانت للبربر منذ ازمان قبل الاسلام وكان
عمرانها كله بدوا ولم يستمر فيهم الحضارة حتى استكمل احوالها الدول التى ملكتهم من الافرنجة والعرب
لم تطل امد ملكهم فيهم حتى درس الحضارة منها فلم يزل مدارة البداوة وشونها فكانوا لها اقرب
فلم يكثر مبانيهم وايضا فالصنائع بعيدة عن البربر لانهم اعرق فى العدو والصنائع من توابع الحضارة
وانما يتم الثانى بها فلابد من الحذق فى تعلمها فلما لم يكن للبربر استحال لها لم يكن لها تشوف الى المبانى

فضلا من المدن وانضافهم الى عصبيات واسباب لا تخلو عن ذلك جمع منهم والاسباب والعصبية
احمال البدو لذلك ليستكملون من سكنى المدينة والمقامة بها ولا يدعوا الى ذلك الا الترف والغنى
وقليل ما هو في الناس فلذلك كان عمران افريقية والمغرب كله اواكره بدويا الا خيام وظواعن
وضياطن وكمن في الجبال • وكان عمران بلاد العجم قلة او اكثرة قرى وامصارا وربما يتبين من
بلاد الاندلس • والشام • ومصر • وعراق العجم • واما نحلان العرب في الغالب ليسوا الا اهل الانساب
يحافظون عليها ويتباعون في صراحها والعامة الجهلة اقل واكثر ما يكون سكنى البدو لاهل الانساب
لان لحمة النسب اقرب واشد فيكون عصبية لذلك ونزع بصاحبها الى سكنى البدو والعافي عن المجد
الذي يذهب بالبسالة ويصير عيالا على غيره فافهمه • وقس عليه •

فصل في ان المباني والمصانع في اهل الاسلام

قليلة بالنسبة الى قدرها والى من كان قبلها من الدول • والسبب في ذلك ما ذكرناه مسلة في
الترف بعينه اذ العرب ايضا عرق في البدو وابعد عن الصنايع • وايضا فكانوا اجانب من الملك
التي استولوا عليها قبل الاسلام ولما ملكوها لم يسمح الامر حتى تستوفي رسوم الحكم الحضارة مع انهم
استغنوا بما وجدوا من مباني غيرهم وايضا فكان الدين اول الامر مانعا من المغالاة في البنيان
والاسراف فيه في غير القصد كما عهد لهم عمر حين استاذنوه في بناء الكوفة بالحجارة وقد وقع الحريق
في القصب الذي كانوا ابنوا به من قبل فقال افعلوا ولا تزيدون احدا على ملاءة بيات ولا طاولوا
في البنيان والزموا القصد يلزمكم الدولة وعمد الى الوفد وسلم الى الناس ان لا يرفعوا بيانا ..... فوق
سموكا العدر قالوا وما العدر قال ما لا يقربكم من السرف ولا يخرجكم من القصد فلما بعد العهد بالدين
والخروج في امثاله هذه المقاصد وغلبت طبيعة الملك والترف واستحدم العرب امة الفرس
واخذوا عنهم الصنايع والمباني ودعتهم اليها احوال الدعة والترف وحينئذ شيدوا المباني
والمصانع وكان عهد ذلك قريبا بتراخي الدول ولم يتسع الامد لكثرة البناء واختطاط المدن
والامصار الا قليلا وليس كذلك عربهم من الامم فالفرس طال مدهم الا فامن السنين • وكذا النبط
والنبط • والروم • وكذلك العرب الاولى من عاد • وثمود والعمالقة • والسابقة طالت
اعمارهم • ورسخت الصنايع فيهم فكانت مبانيهم وهياكلهم اكثر عددا وابقى على الايام امرا
واستمر في هذا الخبر كما قلت لك والله وارث الارض • ومن عليها •

فصل في ان المباني التي تحيط بالعرب يسرع اليها الخراب

الا في الاقل • والسبب في ذلك شان البداوة • واكتفاء اهلها من الصنايع بما قدمناه
فلا تكون المباني وثيقة في تشييد • والله اعلم وحكمه اخر وهو امين به • وذلك
قلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن بما قلناه من المكان وطيب الهوى والمياه
والمزارع والمراعي فان بالتفاوت في هذه تتفاوت جودة المصر او رداءته من حيث العمران

الطبيعي والعرب بمعزل عن هذا وأمثاله وأغلب العمران مراعى لهم خاصة لا يبالون بما ساطاب إن صعب
وأقل وكثر لا يسألون عن ذكاء المراعي والمنابت والأمونة لأسمائهم من الأرض وتعلم الحبوب
من البلد البعيد ولما الرياح فالعرب مختلف للتمهات كلها والطعن كفيل لهم بطبها والرياح
إنما تصح مع القرار والسكن وكثرة الفضلات **وانظر** لما احتطوا الكوفة والبصرة
والقيروان لكيف لم يراعوا في اختطاطها الا مراعي الهم وما يقرب من المقر ومسالك الظعن وكانت
تعتد في الموضع الطبيعي للمدن ولم يكن لها مادة بعد عمرانها من بعدهم مما قدمنا انه يحتاج اليه في
خطط العمران فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار ولم تكن في وسط الامم فلا أول ولا سلة من
الخلال امرهم وهذا بأن عصبيتهم التي كانت سياجا لها أتى عليها الخراب والاخلال
كان لم يكن والله يحكم لا معقب لحكمه

فصل في مباني الحواضر في الامصار

اعلم ان الامصار اذا اختطت لأول تكون قليلة المساكن وقليلا الآت المباني من الحجر
والخشب والجير وعزيزا ما يعان على الحيطان عند الثاني والرخام والفسيفساء والزليج
والمصنوع والزجاج فيكون بناؤها يومئذ بدويا والآلة قليلة فاذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت
الآلات بكثرة الاعمال حينئذ وكثرة الصناع الا ان بلوغ غايتها من ذلك كما سبق في
وإذا تراجع عمرانها وخف ساكنها قلت الصنائع لأجل ذلك فتفقد الاجادة في البناء والاحكام والمعالاة عليه بالهيئة
ثم تقل الاعمال بتعدم الساكن فتقل حينئذ الآلات من الحجر والرخام فيتقعد بناؤهم
وتتفيه فيهم من الآلات التي في مبانيهم يتقلونها من مصنع الى مصنع لاجل قلة اكثر المصانع والتصنع
والتأنق لقلة العمران وقصوره عما كان أولا ثم لا يزال ينتقل من مصر الى قصر ومن دار
الى دار الى ان تفقد الكثير منها جملة فتعود دون الى البداوة في البناء فاعلم ذلك
الخراب والقصور عن التميز بالكلية فتعود بناء المدينة مثل بناء المدينة والمدائر وطهر عليها
فسيح البداوة ثم تمر في النقص الى غايتها من الخراب اذا قدر لها به سنة الله في خلقه

فصل في ان تفاضل الامصار والمدن

في كثرة الرفه لأهلها ونفاق الأسواق انما هو بتفاضل عمرانها في الكثرة والقلة والسبب
في ذلك انه قد عرف ومر ان الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته في معاشه
وانهم متعاونون جميعا في عمرانهم على ذلك والحاجة التي تحصل بتعاون طائفة لشدة ضرورة
الاكثر من عددهم اضعاف فالقوت من الحنطة مثلا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه
واذا اعددت لتحصيله الستة او العشرة من حداد ونجار للآلات وقائم على البقر وأتارة الارض
وحصاد الفصل وسائر مؤون الفلح وتوزعوا على تلك الاعمال او اجتمعوا وحصل معاشهم
ذلك مقدار من القوت فانه حينئذ قوت لاضعافهم مرات والاعمال بعد الاجتماع زائدة
على حاجات العاملين وضرورتهم فاهل المدينة او المصر اذا زرعت اعمالهم كلها على مقدار

مرادهم

ضروراتهم وحاجاتهم لكنهم فيها بالاقل من اهل الاعمال وبقيت الاعمال فلها زائدة على الضروري
فتصرف في حاجات الترف وعوايده وما تحتاج اليه عزهم من اهل الامصار ويستحلونه منهم باعواضه
وقيمه فيكون لهم بذلك حظ الغنى وقد بينا لك في الفصل الخامس في باب الكسب والرزق
ان المكاسب انما تتم بالاعمال فاذا كثرت الاعمال كثرت فيها بتنهم فكثرت مكاسبهم ضرورية
وذعتهم احوال الترفه والغنى الى الترف وحاجاته من الملابس والمساكن والملابس واستحسان
الاسه والماعون واتخاذ الخدم والمراكب وهذه كلها اعمال تستدعي بقيمها وثمن المهن في
صناعتها والقيام عليها فيتسع سوق الاعمال والصنايع ويكثر دخل المصر وخرجه وتحصل
اليسار لمستحلي ذلك من قبل اعمالهم • ومتى زاد العمران زادت الاعمال ثانية ثم زاد الترف
تابعا للكسب وزادت عوايده وحاجاته فاستنبطت الصنايع لتحصيلها فزادت فيها وتضاعف
الكسب في المدينة لذلك وتنقت سوق الاعمال بها اكثر من الاول وكذا في الزيادة
الثانية والثالثة لان الاعمال الزايدة فلها تختص بالترف والغنى بخلاف الاعمال الاصلية
التي تختص بالمعاش والمصر اذا فصل المصر فعمران واحد فضله بزيادة كسب ورفه وعوايد
من الترف لا يوجد في الاخر فما كان عمرانه من الامصار اكثر واوفر كان حال العملة في الترف
ابلغ من حال المصر الذي دونه على وتيره واحده في الاصناف التاضي مع التاضي والناجر
مع الناجر والصانع مع الصانع والسوقي مع السوقي • والامير مع الامير • والشرطي
مع الشرطي واعتبر ذلك في الترف مثلا بفاس • مع غيرها من امصار الاخرى مثل تجاية
وتلمسان وسنتنه تجد بينهما بونا كثيرا على الجملة ثم على الخصوصيات فحال القاضي بفاس
اوسع من حال القاضي بتلمسان • وكذا كل صنف مع اهل صنفه وكذا ايضا حال تلمسان
مع وهران والجزاير • وحال وهران والجزاير مع دونها الى ان ينتهي الى المجاشي الذين
اعمالهم في ضرورات معاشهم فقط او يقصرون عنها • وما ذاك الا لتفاق الاعمال فيها
فكانها اسواق للاعمال • والخرج في كل سوق على نسبته فالقاضي بفاس دخله فاخره
وكذا القاضي بتلمسان • وحيث الدخل والخرج اكثر يكون الاحوال اعظم وبفاس
اكثر لتفاق سوق الاعمال بما يدعو اليه الترف فالاحوال اضخم • ثم كذا حال وهران
وقسنطينة • والجزاير • ونسكره حتى ينتهي ما قلناه الى الامصار التي لا توفي
اعمالها ضروراتها ولا تعدي الامصار اذ هي من قبيل القرى والمجاشر فلذلك ما
تجد اهل هذه الامصار الصغيرة ضعفا الاحوال متقاربين في الفقر والخصاصة
لما ان اعمالهم لا تعدي ضروراتهم ولا تحصل ما يتاثلونه كسبا فلا يتموا مكاسبهم وهم لذلك
مساكين محاويج الا في الاقل النادر واعتبر ذلك ممن في احوال الفقراء والسوال
فان السايل بفاس احسن حالا من السوال بتلمسان او وهران ولقد شاهدت
بفاس السوال يسالون ايام الاضاحي ايمان ضحاياهم ورايتهم يسالون كثيرا من احوال
الترف واقتراح المآكل مثل سوال اللحم والسمن • وعلاج الطبخ والملابس والماعون

كالغربال والآنية ولو سأل السائل مثل هذا السلطان او وزيره لاستنكر وعنف فرجع
وسلعت بهذا العهد كثيرا من الفقراء يرجعون الى السلة الى مضر لذلك ولما يبلغهم
من ان شأن الرقة عصر اعظم من عصرها • ويعتقد العامة من الناس ان ذلك لطول الاموال في تلك
الافاق وزيادة الاثمار من اصلها وان الاموال العظيمة محترمة لديهم ولديك ذلك وانما مولسا
معرفة من ان عمران مصر والقاهرة اكثر من عمران هذه الامصار التي لذلك فعظمت لذلك احوالهم
واما حال الداخل والخارج فمتكافئ في جميع الاحوال مصار ومتى عظم الدخل
عظم الخرج وبالعكس ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت احوال الساكن • ووسع المرء كل شيء يبلغك
من مثل هذا فلا تنكره فاعتبره بكثرة العمران وما يكون عنه من كثرة المكاسب التي تسهل لسببها
البذل والايثار على مستغربه • ومثله شأن الحيوانات العجم مع بيوت المدينة الواحدة
وكيف تختلف الحوالها في بحارها وعشبها فان بيوت اهل النعم والثروة والموائد الخصبة منها
تكثر بها اجارها واقتياتها سغبا بالحبوب وسواقط النبات فتزدحم عليها هوامي النمل والحشائش
وتخلق فوقها عصائب الطير حتى تروح بطانا وتمتلئ شبعا وريا • وبيوت اهل الخاصة والعمر
الكاسدة ارزاقهم لا تثري بساحتهم ذئب ولا يحلق بجوهم طائر • ولا يأوي الى زواياها بيوض
قادة ولا هر واعبر الاياسي العجم من الحيوانات وفيات الموذيات
تفضلات الترف وسهولتها على من يدها لاستعانتهم عليها في الاكثر من جوادها
لديهم • واعلم ان اتساع الاحوال تابع لكثرته • والله غني عن العالمين •

فصل في اسعار المدن

اعلم ان الاسواق كلها تشتمل على حاجات الناس فمنها الضروري وهو الاقوات من الحنطة وما
في معناها كالبقول والبصل واللحم واشباهه ومنها الحاجي • والكمالي مثل الادم والفواكه
والملابس • والماعون • والمراكب • وسائر الصنائع • والمباني • فاذا استبحر المصر وكثر ساكنه
رخصت اسعار الضروري من القوت وما في معناه • وغلت اسعار الكمالي من الادم والفواكه
وما يتبعها • واذا قل ساكن المصر • ورخصت عمرانه كان الامر بالعكس **والسبب فيه**
ان الحبوب من ضروريات القوت فتتوفر الدواعي على اتخاذها اذ كل احد لا يقسم قوت نفسه
ولا قوت منزله لشهر او سنة فيعم اتخاذها اهل المصر اجمع او الاكثر منهم في ذلك المقدار فما
فضل منه لا بد من ذلك وكل متخذ لقوته فيفضل عنه وعن اهل بيته فضلة كثيرة لسعة
حاله كثير من اهل ذلك المصر فيفضل الاقوات على اهل المصر من غير شك فترخص اسعارها
في الغالب الا ما يصيبها في بعض السنين من الافات السماوية ولولا احتكار الناس
لها لما توقع من تلك الافات لبذلت دون ثمن ولا عوض لكثرتها بكثرة العمران واما سائر
المرافق من الادم والفواكه واما الها فانها لا تعمها البلوى ولا يستغرق اتخاذها اهل
اهل المصر اجمعين ولا الكثير منهم • ثم ان المصر اذا كان مستبحرا موفور العمران كثر حاجات

الترف توفرت حينئذ الدواعي على طلب تلك المرافق والاستكثار منها كل بحسب حاله فيقصر الموجود عنها عن الحاجات قصورا بالغا ويكثر المتساومون لها وبي قليله في قسمها فترتفع الاغراض وتبدل احوال الرفه والترف انتهى بتصرف في العلاجهم انها اكثر من غرم منع فيها المغلاة كما تراه **واما الصانع والاعمال** الضائق في الامصار الموفورة العمران سبب المغلاة امور ثلاثة الاول كثرة الحاجة لمكان الترف في المصر بكثرة عمرانه • والثاني عثار اهل الاعمال بخدمتهم واتيان اكثرهم لسهولة المعاش في المدينة بكثرة اقواتها والثالث كثرة المترفين وكثرة حاجاتهم الى اتيان غرضهم والى استعمال الصناع في مهنهم فيبذلون في ذلك لاهل الاعمال اكثر من قيمة اعمالهم مزاحمة ومنافسة فيما يشترونه فتغتر اقوات الصناع واهل الحرف وتعلو اعمالهم وتكثر تقعات اهل المصر في ذلك **واما الامصار الصغيرة** والبقيلة الساكن فاقواتهم قليلة لقلة العمل فيها وما يتوقعونه لصغر مصرهم من عدم فيتساومون ما يحصل منه بايديهم ويحتكرونه فيعز وجوده لديهم ويغلا ثمنه على مستامه ولنا مرافعهم فلا يدعو اليها ايضا حاجة لقلة الساكن وضعف الاحوال فلا سوقة لديهم سوقة فيختص بالرخص في سعرهم • وقد يختص ايضا في قيمة الاقوات قيمة علاجها في النفع • ويحاط على ذلك في اسعارها ما وقع بالاندلس بعد العهد • وذلك انهم لما الجاهم النصارى الى سيف البحر وبلاده المتوعرة الحصنة الوراعة النكدة النبات وملكوا عليهم الارض الزاكية في البلد الطيب فاضاجوا الى علاج المزارع والغذاء صلاح بناها وفلحها وكان ذلك العلاج باعمال ذات قيم ومواد من المال وغيره لهاموئة وصارت في فلحها نفقات لها خطر فاعتروا بها في سعرهم واختص وطء الاندلس بالغلاء منذ اضطرتهم النصارى الى هذا المعمور بالاسلام مع سواه لاجل ذلك وحسب الناس اذا سمعوا بغلاء الاسعار في وطء انها لعدم الاموال والحبوب بارضهم وليس كذلك فهم اكثر اهل المعمور فلحا فيما علمناه وقوما عليه وقل ان يخلو منه سلطان او سوقة عن قدان او مزرعة او فلح الا القليل من اهل الصناعة والمهن والتطرا على الوطن من الغزاة المجاهدين • ولهذا اختصتهم السلطان في عطائهم بالعولة وبني اقواتهم وعلوفتهم من الزرع • واما السبب في غلاء السعر في الحبوب عندهم ما ذكرناه ولما كانت بلاد البربر بالعكس في ذلك في زكاء سهولها وطيب ارضها ارتفعت غنيهم المؤن جملة في الفلح مع كثرة وعمومه فصار ذلك سببا لرخص الاقوات ببلدهم • والله مقدر الليل والنهار

فصل في تفاوت احوال البادية عن ساكني المصر الكبير العمران

والسبب في ذلك ان المصر الكبير العمران بكثرة ترفه قد فسدت وكثرت حاجات ساكنه من اجل الترف • ولعمادة تلك الحاجات لما يدعو اليها فيقلت ضروراته وبصر الاعمال فيه كلها مع ذلك عزيزة والمرافق غاليه بازدحام الاغراض عليها من اجل الترف وبالمغارم السلطانية التي توضع على الاسواق والبياعات • ويعسر في قيم المصنعات ويعظم فيها الغلاء في المرافق والاقوات والاعمال فتكثر لذلك نفقات ساكنه كثرة بالغة على نسبة عمرانه ويعظم خرجه فيحتاج حينئذ الى المال الكثير للنفقة على نفسه وعياله في ضروريات عيشهم وسائر مؤنهم والبدوي لم يكن دخله

شبكة الألوكة www.alukah.net

كثيرا او كان ساكنا بمكان كاسد الاسواق في الاعمال التي سبب الكسب عليها بالكسب والاثمان فيتعذر
عليه من اجل ذلك سكنى المصر الكبير لغلاء مرافقه وعزة حاجاته وهو في بدو او لسد خلته اقل الاعمال
لانه قليل عوائد الترف في معاشه وسائر مؤنه فلا يضطر الى المال وكل من يتشوف الى المصر وسكناه
من اهل البادية وربما ينظهر عجز وينتضح في استطابته الا من تقدم منهم بامل المال وتحصيل له منه
فوق الحاجة وتجري الى الغاية الطبيعية لاهل العمران من الدعة والترف فحينئذ ينتقل الى المصر
وينتظم حاله مع احوال اهله في عوائدهم وسترهم وهكذا شان بداية العمران • والله بكل شيء محيط

فصل في ان الاقطار في اختلاف احوالها

بالرقة والعمر مثل الامصار

اعلم ان ما توقر عمرانه من الاقطار وتعددت الامم في جهاته وكثرت ساكنه اتسعت احوال
الملك وكثرت اموالهم وامصارهم وعظمت دولهم ومعالمهم • والسبب في ذلك كله ما ذكرناه من كثرة
الاعمال وما سيأتي ذكره من انها سبب للرزق بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضروريات في حاجات الساكن
من الفضلة البالغة على مقدار العمران وكثرته فتعود على الناس كسبا يتمولونه حسبما ذكرناه في فصل
المعاش وبيان الرزق والكسب فيرتد الرفه لذلك وتتسع الاحوال وتحسن المترف والغنى وتكثر
الحامية للدولة بانفاق الاسواق فتكثر حاميتها وتقوى سلطانها وتمس في احوال المعاقل والحصون
واختطاط المدن • وتشييد الامصار واعتبر ذلك باقطار المشرق مثل مصر والشام وعراق
العجم والهند والصين وناحية الشمال كلها واقطار وراء بحر الروم لما كثر عمرانها كيف
كثر المال فيهم وعظمت دولهم • وتعددت مدنهم وحواضرهم • وعظمت مآثرهم واحوالهم
فالذي يشاهد من هذا العهد من احوال بحار الامم النصرانية الواردين على المسلمين بالمغرب
في زفهم واتساع احوالهم اكثر من ان يحيط به الوصف • وكذا اخبار اهل المشرق وما يبلغنا عن
احوالهم وابلغ مما احوال اهل المشرق الاقصى من عراق العجم والهند والصين فانه يبلغنا عنهم
في باب الغنى والدقة غرائب تستبعد الاذهان تجدتها • وربما سألني بالكاري في غالب الامر وبحسب
من يسعها من العامة ان ذلك لزيادة في اموالهم او لان المعادن الذهبية والفضية اكثر ارضهم
او لان ذهب الاقدمين من الامم استأثروا به دون غيرهم وليس كذلك معدن الذهب
الذي يعرفه في هذه الاقطار انما هو في بلاد السودان وبحيال المغرب اقرب وجميع ما في ارضهم
من البضاعة فانما يجلبونه الى غير بلادهم للتجارة • فلو كان المال عندهم موفورا لما جلبوا بضائعهم الى سواهم ولا استغنوا عن اموال الناس بالجملة • ولقد ذهب المنجمون
لمارا او امثل ذلك واستغربوا ما في المشرق من كثرة الاحوال واتساعها ووفور اموالها
فقالوا ان عطارد الكواكب والبهائم في مواليد المشرق اكثر منها حصصا في مواليد اهل المغرب
وذلك صحيح من جهة المطابقة بين الاحكام النجومية والاحوال الارضية كما قلناه وهم انما
اعطوا في ذلك السبب النجومي وبقي عليهم ان يعطوا السبب الارضي وهو ما ذكرناه من كثرة العمران

واحتجاجهم

واختصاصه بالنواحي المشرق واقطاره وكثرة العمران بعيد كثرة السبب بكثرة الاعمال التي هي سببه
فلذلك اختص المشرق بالرقة من بين الافاق لان ذلك لمجرد الاشراف المجوسي فقد فهمت ما اشرنا لك
أولا انه لا يستقل بذلك وان المطابقة بين حكمه وعمران الارض وطبيعتها امر لا بد منه واعتبر
حال هذه الرقة من العمران في قطر فريقيه وبرقه لما حف ساكنها وتناقص عمرانها كيف تلاشت
احوال الملك وانتهوا الى الفقر والخصاصة وضعف جبايته فقلت اموال دوله لهذا بعد ان كانت
دول الشيعه وصنهاجه • اما على ما بلغك من الرقة وكثرة الحسابات واتساع الاحوال في معاقلهم وليطا
حتى لقد كانت الاموال ترفع من القيروان الى صاحب مصر لحاجاته ومهماته وكانت اموال الدولة
بحيث حمل جوهر القائد في سنة احدى الى فتح مصر الف حمل من المال لسعة هذه الارزاق الجنود واعطياتهم
ونفقات العراة وقطر المغرب • وان كان في القديم دون افريقيه فلم يكن بالقليل في ذلك وكانت
احواله في دول الموحدين متسعة وجبايته موفورة وهو لهذا العهد قد اقصر عن ذلك لقصور العمران
فيه وتناقصه فقد ذهب من عمران البربر منه اكثره ونقص عن معهوده نقصا ظاهرا محسوسا
وكاد ان يلحق في احواله بمثل احوال افريقيه لعهد ان كان عمرانه متصلا من الحي الدوي الى بلاد
السودان في طول ما بين السوس الاقصى وبرقه • وهي اليوم قلما واكرها قفار وخلاء وصحار
الا ما هو منها بسبيف الحي او ما يقاربه من الملوك والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

فصل في نابل العقار والضياع في الامصار وحالة فوائدها ومستغلاتها

اعلم ان نابل الضياع والعقار الكثيرة لاهل المدن والامصار لا تكون دفعة واحدة ولا في عصر واحد
اذ ليس يكون لاحد منهم من الثروة ما يملك به الاملاك التي يخرج فيها عن الحد ولو بلغت احوالهم في
الدقة ما عسى ان تبلغ وانما يكون ملكهم لها وتأثلهم تدريجا اما بالوراثة من اباء وذوي
رحم حتى يتادى امدان الكثير منهم الى الواحد واكثر لذلك ان يكون حواله الاسواق فان العقار
في اواخر الدولة واول الاخرى عند فناء الحامية وخرق السياج وتداعي المصر الى الخراب
هل العبطة به لعلة المنعة فيتلاشى الاحوال فرخص فيها ويتملك بالاثمان اليسيرة ويستخطى
بالميراث الى ملك الاخر وقد استحد المصر شبابه باستحال الدولة الثانية وانتظمت له احوال
حسبه يحمل معها العبطة في العقار والضياع لكثرة منافعها حينئذ فيغظم قيمها ويكون لها
خطر لم يكن في الاول وهذا معنى الحوالة فيها وبصح ما لكها من اعنى اهل المصر وليس ذلك لسعيه
والكتابه اذ قدرته يعجز عن مثل ذلك • واما فوائد العقار والضياع فهي غير كافية لحاجة
مالكها في حاجات معاشه اذ هي لا تفي بعوائد الترف واسبابه وانما هي في الغالب لسد الحاجة
ضرورة المعاش والذي سمعناه من مشيخة البلد اذا ان التقصد باقتناء الملك من العقار والضياع
انما هو الحشمة على من تترك خلفه من الذرية الضعاف ليكون مرباهم به ورزقهم فيه والسوم بقاية
ما دام اما حرص عن الاكتساب • فاذا اقتدروا على تحصيل المعاش سعوا فيها بانفسهم وربما
يكون ذلك من الوله من العجز عن التكسب بضعف في بدنه او آفة في عقله المعاني فيكون ذلك العقار

وأما حال هذا العدد المترفين في اقتنائه وأما التمول منه وأخبار أحوال المترفين فلا
وقد يتصد ذلك منه لتحصيل أو النادر بحوالة الأسواق وحصول الكرة البالغة والغاية
من مطلبه وقيمته في الخبر الآن ذلك إذا حصل فربما امتدت إليه أعين الأمراء والولاة فاغتصبوه
منه الأول فالأول وأرادوه على سهم منهم وناله أصحابه منه مضارة ومعاطب والله غالب على أمره

فصل في حاجة المتمولين من أهل الأمصار إلى الحماية والمدافعة

وذلك أن الحضري إذا عظم تموله وكثرة للعقار والضياع بالمدن والأمصار وصار أعني أهل المصر ورفعة العيون بذلك فاستحت أحواله في الترف والعوائد إلى الآلات والملوك وعصوابه ولما كان سائر طباع البشر من العدوان عند اختلافهم إلى تلك مآربهم وبما صنوه فيه وتحملون على ذلك بكل ممكن حتى يحصوله فربما حكم سلطاني وسيف من المواضي ظالم يقرع به ماله وأكثر الأحكام السلطانية جائرة في الغالب إذ العدل المحض إنما هو في الخلافة الشرعية وهي قليل الوقت قال صلى الله عليه وسلم الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تعود ملكا عضوضا فلا بد حينئذ لصاحب المال والترف المتميز في العمران من حامية يدود عنه وجاه يتحمي عليه من ذي قرابة للملك أو خالصة له أو عصبية تحامي السلطان لتستطل بظله ويربع في أمنه من طوارق التعدي وإن لم يكن له ذلك أصبح نهبا لوجوه المحتلات وأسباب الحكام والله يحكم لا معقب لحكمه

فصل في أن الحضارة في الأمصار من قبل الدول

وإنما ترسخ باتصال الدولة ورسوخها والسبب في ذلك أن الحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتعاون بتعاون الترف وتعاون الأمم في العلم والكثرة تعاون غير منحصر وتبع لها عند كثرة اليقين في أنواعها وأصنافها فتكون لها الصنائع وتعالج كل صنعة منها إلى النهاية عليه والمهرة فيه وتعدد ما يريد من أصنافها بتدارك صناعها وتبتون ذلك الحيل بها ومتى تصلت الأيام وتعاقبت تلك الصنائع حذق أولئك الصناع في صناعاتهم ومهروا في معرفتها والأعصار بطولها والتساخ أمرها وتكرر أمثالها تزيدها استحكاما ورسوخا وأكثر ما يقع ذلك في الأمصار لاستحكام العمران وكثرة الترف في أهلها وذلك إنما يجيء من قبل الدولة لأن الدولة تجمع أموال الرعية وتنفقها في حاجاتها ورجالها وتتسع أحوالهم بالجاه أكثر من اتساعهم بالمال فتكون دخل تلك الأموال من الرعايا وخرجها من أهل الدولة ثم فيمن تعلق بهم من أهل المصر وبهم الأكثر فتعظم لذلك ثروتهم وتكثر نعمائهم وتمتد عوائد الترف ومذاهبه ويستحكم لهم الصنائع في سائر فنونه وهذه هي الحضارة ولهذا نجد الأمصار التي في القاصية ولو كانت موفورة العمران متقررة على أحوال البداوة متبعدة عن الحضارة في جميع مذاهبها بخلاف المدن المتوسطة سوى الأقطار التي هي مراكز الدولة ومقارها وما ذلك إلا لمحاورة السلطان وقبض أمواله فيهم كالمال يحضر حاضر منه فما قرب إلى أن يمتحى إلى الخوف على البعد وقد قدمنا أن السلطان والدولة سوق للعالم

والبضائع

79

والبضايع كلها يتوجونه في السوق وما قرب منه واذا بعدت عن السوق فقدت الصنايع جملة ثم انه اذا اتصلت تلك الدولة وتعاقب ملوكها في ذلك المصر واحدا بعد واحد استحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخا واعرق ذلك في النهوض لياطان مكثهم بالشام نحو من الف وستمايه سنه وسخت حضارتهم وعدوا في احوال المعاش وعوايده والتفنن في صناعاته من المطاعم والملابس وسايراحوال المنزل حتى انه ليتعذر عنهم في العالب الى اليوم وسخت حضارة ايضا وعوايده في الشام منهم ومن دولة الروم بعدتهم ستمايه سنه وكانوا في غاية الحضارة وكذلك ايضا القبط دام ملكهم في الحليقه نحو الالاف من السنين فرسخت عوايد الحضارة في قديم مصر واعقبهم ملك اليونانيين والروم ثم ملك الاسلام الناسخ للكل فلم تزل عوايد الحضارة بها متصله وكذلك ايضا رسخت عوايد الحضارة بالمغرب لاتصال دولة العرب به منذ عهد الفاتحه والسابعه الا فما من السنين واعقبهم ملك مصر وكذا الحضارة بالعراق لاتصال دولة النبط والفرس لها من لدن الكلدانيين والكسروية والعرب بعدهم الا فما من السنين فلم يكن على وجه الارض لهذا العهد احضر من اهل الشام والعراق ومصر وكذلك ايضا رسخت عوايد الحضارة بالاندلس لاتصال الدولة العظيمة فيها للقوط ثم ما اعقبها من ملك بني امية الا فا من السنين وكلا الدولتين عظيم فيها للقوط ثم ما اعقبها فاتصلت فيها عوايد الحضارة فاستحكمت **واما افريقيه والمغرب** فلم يكن بهما قبل الاسلام ملك ضخم انما قطع الافرنجة على افريقيه البحر وملكوا الساحل وكانت طاعة البربر اهل الضاحيه لهم طاعة غير مستحكمه فكانوا عليها قلعة وادوية واهل المغرب لم تجاورهم دوله وانما كانوا يتغلبون بطاعتهم الى القوط من ورا البحر ولما جاء الله بالاسلام وملك العرب افريقيه والمغرب لم يلبث فيهم ملك العرب الا قليلا اول الاسلام وكانوا لذلك العهد في طور البداوة ومن استقر منهم بافريقيه والمغرب لم يحدثوا من الحضارة ما يتعلد فيه من سلفه اذ كانوا بربرا اقرب متقشفين في البداوة ثم انتقض سرايرة المغرب الاقصى لقرب العهد على يد ميسرة المطغري ايام هشام بن عبد الملك ولم يراجعوا امر المغرب بعدوا استقلوا بامرانفسهم وان بايعوا الادارسة فلا تعدد دولة عربية لان البرابرة هم الذين تولوها ولم تكن من العرب في كثير عدد وبقيت افريقيه للاغالبة ومن اليهم من العرب فكان لهم من الحضارة بعض الشيء بما حصل لهم من ترف الملك ونعمه وكثرة عمران القيروان ودور ذلك عنهم كلمة ثم صاروا من بعدهم وذلك كله قليل لم يبلغ ازيد من مايه سنه وانقرضت دولتهم واستحالت صنعة الحضارة بما كانت عند مستحكمه وتغلب بدو العرب الهلاليين عليها وخربوها وبقي ان نخص من حضارة العمران فيها والى هذا العهد بونس فنبين سكناه بالقلعة او القيروان او المهدية سكنى فيجمله من احوال الحضارة في سوق مثاله **وعوايد احواله** انا نراه سكنى القلعة هي الكبرى التي بعضر ثم وكذا في اكثر امصار افريقيه وليس ذلك في المغرب وامثاله لرسوخ الدولة بافريقيه اكثر منذ عهد الاغالبة والشيعة وصنهاجه **واما المغرب** فانتقل اليه منذ دولة الموحدين من الاندلس خلط كبير من الحضارة واستحكمت به عوايدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الاندلس واستقل الكثير من اهلها اليهم طوعا وكرها وكانت من اتساع

وكانوا

انطلق ما علمت وكان لها حظ صالح من الحضارة واستحكامها ومعظم من اهل الاندلس ما انتقل الى
الاندلس عند حالية النصارى الى فريقية فانتواها وبامصارها من الحضارة آثارا ومعظمها سوس
امرحت بحضارة مصر وما حمله المسافرون من عوائدها فكانت بذلك للمغرب وافريقية حظ من الحضارة
صالح غنى عليه الحلا ورجع على اعقابه وعاد البربر بالمغرب الى اديانهم من البداوة والخشونة
وعلى كل حال فانر الحضارة بافريقية اكثر منها بالمغرب وامصاره لما تداول فيها من الدول لسالفة اكثر
من المغرب ولعرب عوائدهم من عوائد اهل مصر بكثرة المتردد من بينهم فتنطق بهذا السر فانه حتى عن
الناس **واعلم** انها امور متناسبة وبين حال الدولة في القوة والضعف وكثرة العمائر والجيل
وعظم المدينة او المصر وكثرة النعمة والسيار وذلك ان الدولة والملك صورة الحليقة والعمران
وكلاهما مادة له من الرعايا والامصار وسائر الاحوال واموال الجباية عائدة عليهم في العطاء فعلى نسبة
مال الدولة يكون لسيار الرعايا وعلى نسبة سيار الرعايا ايضا وكثرتهم يكون مال الدولة واصله
كله العمران وكثرته فاعتبر وتامله في الدول تجده والله حاكم لا معقب لحكمه

فصل في ان الحضارة غاية للعمران

وغاية لعمره وانها موذنة بفساده وقد تبين لك فيما سلف ان الملك والدول غاية للعصبية
وان الحضارة غاية للبداوة وان العمران كله من بداوة وحضارة وملك وسوقة له عمر محسوس
كما ان للشخص الواحد من اشخاص الممكنات عمر محسوس وتبين في المعقول والمنقول ان الاربعين
للانسان غاية في تزايد قواه ونموه وانه اذا بلغ سن الاربعين وقفت الطبيعة عن اثر النمو
والتموين هنالك ثم تاخذ بعد ذلك في الانحطاط فلتعلم ان الحضارة في العمران ايضا كذلك لانه
غاية لا مزيد وراءها وذلك ان الترف والنعمة اذا حصلا لاهل العمران دعاهم بطبعه الى مذاهب
الحضارة والتحلي بعوائدها والحضارة كما علمت هي التفنن في الترف واستجادة احوالهم والتكلف
بالصنائع التي توتى من اصنافه وسائر فنون احواله من الصنائع المعينة للمطابخ او الملابس او
المباني او الفرش او الآنية ولسائر احوال المنزل وللتانق في كل واحد من هذه صنايع كثيرة لا
تحتاج اليها عند البداوة وعدم التانق فيها واذا بلغ التانق في هذه الاحوال المنزلة الغاية
تبعه طاعة الشهوات فتساوت النفس من تلك العوائد بالوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دينها
ولا دنياها اما دينها فلاستحكام صبغة العوائد التي لا تستبرا عنها واما دنياها فلكثرة الحاجات
والمؤنات التي تطالبها العوائد وعجز الكسبة عن الوفاء بها وما يعود منها على النفس من الضرر
بعدم تحصيل الحصول لون آخر من الوانها فذلك كثير منهم الفسق والشر والسفسفة والتعمل
على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه وصرف النفس الى التفكير في ذلك والغوص على وانتجاع
الجهلة له فيجدهم اجرا على الكذب والمقامرة والغش والخلابة والسرقة والنجور في
اليمين والربا في المعاملات ثم تحدهم اقرب طرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه
واطراح الحشمة في الخوض فيه حتى من الاقارب وذوي المحارم الذين يقتضي البداوة الحياء منهم

في الاقداح بذلك وجدتم ايضا ايضرا بالمكر والخديعة يدفعون بذلك ما عساه ينالهم من انتقام
وما يتوقعونه من العقاب على ملك التغالب حتى يصير ذلك عادة وخلقا لاكثرهم الا من عصمه الله
وعموج هذه المدينة بالسفلة من اهل الخلق الذميمة ومجاورتهم فيها كثير من ناشئة الدولة وولدانهم
ممن اهمل عن التاديب وغلب عليه خلق الجوار وان كانوا اهل انساب وابوات وذلك ان الناس
بسرمتهم ملونون وانما ضلوا وتمدروا بالخلق واكتساب الرذائل واجتناء الرذايل من
انحكمت فيه صبغة الرذيلة باي وجه كان وفسدت خلق الحرفة لم يستقم كاسبه ولا طيب
منبته ولهذا تجد كثيرا من اعقاب البيوت وذوي الاحساب والاصالة وابناء الدول مطرحين
في الغمار مستحقرين لتحرف الدنية في معاشهم بما فسد من اخلاقهم وما ملكوه بها من صبغة السوء
والاستسلام واذا كثر ذلك في المدينة او الامة باذن الله بخرابها وانقراضها وهو معنى قوله واذا
اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ووجهه
ان مكاسبهم حينئذ لا تفي بحاجاتهم لكثرة العوايد ومطالبة النفس بها فلا تستقيم احوالهم واذا
فسدت احوال الاشخاص واحدا واحدا اختل نظام المدينة وخربت وهذا معنى ما يقوله
بعض اهل الخواص ان المدينة اذا كثر فيها عرس التاريخ نادت بالخراب حتى ان كثيرا من العامة تحامى
عرس التاريخ بالدور وليس المراد ذلك ولا انه خاصية في التاريخ وانما معناه ان الدباتين
واهوار المياه هو من توابع الحضارة ثم ان التاريخ والنيلم والسرو واما ذلك مما
لا طمع فيه ولا منفعة هو من غايات الحضارة اذ لا يقصد بها في الدباتين الا اشكالها فقط ولا
تعريس الا بعد التقنين في مذانب الترف وهذا الطور هو الذي يحتفي معه اهلاك المصر
وخرابه كما قلناه ولقد قيل مثل ذلك في الدفلا وهو من هذا الباب اذ الدفلا لا
يقصد بها الا تلون الدباتين تتوزع ما بين احمر وابيض وهو من مذانب الترف فافهم ذلك
واعتبر ان غاية العمران في الحضارة والترف وانه اذا بلغ غايته انقلب الى الفساد وفسد
في الهرم كالاعمار الطبيعية والحيوانات بل يقول ان الخلق الحاصلة من الحضارة والترف عين
ممن فساد الانسانية لان الانسان انما هو انسان باقتداره على جلب منافعه ودفع مضاره
والاستعانة خلقه للتسعي في ذلك والحضري لا يقدر على مباشرة حاجاته اما عجزا او حصل له
من الدعة او ترفعا لما حصل من المربا في النعيم والترف وكلا الامرين ذميم وكذلك لا يقدر
على دفع المضار بما تقدم من خلق الانسان يتعود للدعة والنعيم والترف والمرباة في هذه الحالة
والحليم فهو كذلك عيال على الجماعة التي تدافع عنه فهو فاسد الدين غالبا اما فسد
من العوايد وطاعاتها وما ملكت به النفس من ملكاتها كما قررناه الا في الاقل النادر واذا
فسد الانسان في قدرته ثم في اخلاقه ودينه فقد فسدت انسانيته وصار مسخا على
الحقيقة والبادية اختارا سلم من هذه المفاسد ومن مفاسد الحضارة
ايضا الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها بكثرة الترف فيقع التفنن في شهوات البطن
من المآكل وملاذها ويتبع ذلك التفنن في شهوات الفرج فانواع المناكح من الزنا

والاختلاط يفضي ذلك الى فساد النوع اما بواسطة اختلاط الانساب فيجهل كل احد ابنه او بعدم رسوخ
وان المياه مختلطة في الارحام فتفقد الشفقة الطبيعية على البر والقيام عليهم فيهلكون او يؤدي
الى انقطاع النوع او يكون فساد النوع بغير واسطة كما في اللواط المؤدي الى عدم النسل اساسا وهو
اشد في فساد النوع اذ هو يؤدي الى ان لا يوجد النوع والزنا يؤدي الى عدم مألوف جدا ولذلك كان
مذهب مالك رحمه الله في حد اللواط اظهر من مذهب غيره ودليل • ودل على انه انصر مقاصد الشريعة
واعتبارها للمصالح فقد تبين ان الحضارة هي سن الوقوف لعمران التام من العمران والله اول والله الموفق

فصل في اختصاص بعض الامصار بشيء من الصنائع دون بعض

وذلك انه من البين ان اعمال اهل المصر يستدعي بعضها بعضا لما في طبيعة العمران من التعاون وما
يستدعي من الاعمال يختص ببعض اهل المصر يقومون عليه ويستبصرون في صناعته ويختصون بوظيفته ويحصلون
معاشهم فيه ورزقهم منه لعموم البلوى به في المصر والحاجة اليه وما لا يستدعي في المصر يكون عملا اذ
لا فائدة للمتحلي في الاحتراف به وما يستدعي من ذلك لضرورة المعاش فيوجد في كل مصر كالحداد
والنجار • والخياط وامثالها • وما يستدعي لعوائد الترف واحواله فانما يوجد في المدن المستجدة
في العمران الآخذ في عوائد الترف والحضارة مثل الزجاج والصابغ والدهان • والطباخ • والعطار
والسفاح • والمغراس • والدباغ • واما اللحام وهي متناولة ويقدر ما تعود الحضارة
ويستدعي احوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع فتوصف لذلك المفرد دون غيره • ومن هذا الباب
الحمامات انها توجد في الامصار المستجدة المستحضرة العمران لما تدعو اليه الترف والغنى من
التنعم ولذلك لا تكون في المدن المتوسطة وان نزع بعض الملوك والدولة فيها وحرى
احوالها الا انها ادا لم تكن لها داعية من كثرة الناس فسرعان ما تخرب وتنزعها العوامة
لقلة فائدتهم في معاشهم منها • والله يقبض ويبسط • واليه ترجعون •

فصل في وجود العصبية في الامصار وتغلب بعضهم على بعض

من البين ان الالتحام والاتصال موجود في طباع البشر وان لم يكونوا اهل نسب واحد الى آخر كما
قدمناه اضعف ما يكون بالنسب وانه يحصل به العصبية بعضا ما يحصل بالنسب واهل الامصار
كثير منهم ملتحمون بالصهر بحدث بعضهم بعضا الى ان يكونوا لحما وقرابة فتدانيهم وتحدثهم من
الصداقة والعداوة ما يكون بين القبايل والعشائر فيفترقون شيعا وعصائب فاذا نزل
الهرم بالدولة وتقلص الملك عن الناصية اصاخ اهل الامصار الى القيام على الهرم والتطوق بحمايته
بلديهم ورجعوا الى الشوري وتميز العلة عن المستلة والمغوس بطباعها متطاولة الى الغلب الرياسة
فتطمح المستجمة لخلاء الجو من الطغاة والدولة القاهرة الا ان استبداد وتنازع كل صاحبه ويستولون
بالاتباع من الموالي والشيع والاحلاف ويبذلون ما في ايديهم للاوغاد والاوباش فتعصب
كل صاحبه ويتعين الغلب لبعضهم فيعطف على الغابة لبعض من اعنهم ويتبعهم بالقتل والتعريب

81

حتى يحصد منهم الشوكات الطائلة ويتم الاطهار الحادثة ويشتد بمصر جمع ويرى انه قد احدث
ملكا ثورة عقبه فيحدث في ذلك الملك الاصغر ما حدث في الملك الاعظم من عوارض الحدة والهدم
وربما يسمو اسفل هؤلاء الى منازع الملوك الاعاظم اصحاب الدنايل والعشاير والعصبيات والزحوف
والركوب والاقطار والممالك فيتحاولون بها من الجلوس على السرير واتخاذ الالة واعداد المواكب
للتشهير باقطار البلد والهمم والتجبة والخطاب بالتمويل مما يحرمه من نشأ ملاحوالهم لما انحلوه من
شارات الملك التي لسواها مما دفعهم الى ذلك تغلص الدولة والتحام قعص العزايات حتى صار عصبيته
وقد تيزه بعضهم عن ذلك وجرى على مناسب السداجة فرارا من التعريض بنفسه في الحزبيا والعنت
وقع مثل هذا وبقيته لهذا العهد في احوال دولة الحفصية باهل بلاد الجريد من طرابلس وقابس وبعض
وبنطه وقفصه وسكره والزاب ومالي ذلك مما الى سلاه عند تغلص ظل الدولة عنهم عند
عقود من السنين فاستعلوا على امصارهم واستبدوا بامرهم على الدولة في الاحكام والجباية
واعطوا طاعة مموهة وقعدوا عن نصرته واقطعوا جانبا من الملاسة والملاطفة والانقياد وهم معول عنه
واورثوا ذلك اعقابهم لهذا العهد وحدث في حلومهم من الغلظ والبحرما يحدث لاعقاب الملوك
وحلومهم ونظروا انفسهم في عداد السلاطين على قرب عهدهم بالسوقة وقد كان مثل ذلك وقع في
اخر الدولة الصنهاجية واستبد اهل الجريد اهلها واستبد واعلى الدولة حتى انتزع ذلك منهم
صنع الموحدين وملكهم عبد المؤمن بن علي وتملكهم كلهم من امارتهم الى المغرب وكم من ملك البلاد
امارتهم كما ذكرناه في اخبارهم وكذلك وقع لبسة احدوله ببني عبد المؤمن وهذا العلت
تكون غالبا في اهل البدوات من الدسا والعوغا اذا حصلت له العصبية والالتحام بالكلاوغاة لاسباب
كثيرة لا يعدم منها على المتيحة والغلبة اذا كانوا قادرين بالعصابة والله غالب على امره

فصل في لغات اهل الامصار

اعلم ان لغات اهل الامصار انما تكون بملاك الاسما والجمل الدالين عليها او المحتملين لها ولذلك كانت
لغات الامصار الاسلامية كلها بالمشرق والغرب لهذا العهد عربية وان كان اللسان العربي المضري
قد فسدت ملكته ولغته اعرابه والسبب في ذلك ما وقع للدولة الاسلامية من الغلب
على الامم والدين والملة صورة للموجود والكمال وكل موادله والصورة مقدمة على المادة والدين
انما يستفاد من الشريعة وهي بلسان العربي لسان النبي صلى الله عليه وسلم عربي فوجب بحكم ما سوى
اللسان العربي من الالسن في جميع ممالكها واعتبر ذلك في نهي عمر رضي الله عنه عن ركانة الاعاجم
وقال انهن يعني مكر وخديعة فلما بحر الدين اللغات الاعجمية وكان لسان الشارع بالدولة
الكلامية عربيا بحرت كلها في جميع ممالكها لان الناس تبع لسلطانهم وعلى دينه فصار استعمال
اللسان العربي من شعائر الاسلام وطاعة العرب وبحر الامم لغاتهم والسنتهم في جميع الامصار
والممالك وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع امصارهم ومدنهم وصارت
الالسن العجمية دخيلة فيها وغريبة وفسد اللسان العربي بمخالطتها في بعض احكامه ولغاوا ضح

وان كان بقي في الدلالات على اصله وسمي لسانا حضريا في جميع امصار الاسلام وايضا فاكثر اهل الامصار
في الملة لهذا العهد من اعقاب العرب الملكين لها الهالكين في تركها بالكرة والعجم الذين كانوا لها وورثوا
ارضهم وديارهم والغات متوارثة فبقيت لغة الاعقاب على حال لغة الاباء وان فسدت احكامها
بمخالطة الاعجام بسبب فسادا وسميت لغتهم حضرية منسوبة الى اهل الحواضر والامصار بخلاف لغة البدو
من العرب فانها كانت اعرق في العروبية ولما ملك العجم من البربر والترك اختصوا ابناءهم ولغتهم
في اصقاعهم وبقي لسان الامصار على حاله وربما تعلب عليها اللسان الحضري فخالط اهل مضر لغاتهم
ويرجعون اليه اخيرا وسلقنا هذا العهد عن اهل المشرق الى وقتنا مثل اهل خوارزم وتوابعهم
انهم لا يتكلمون باللغة العربية ولا في مجالس تعليم العلم الا ما كان من قراءة القرآن او الحديث خاصة وما
سوى ذلك فعجمة كلا وهذا والله اعلم لما رسخ فيهم من ملكة العجمة وان الدولة الاسلامية لما تطاول امدها
فيهم ولم تطل محاورتها للعرب منعوا على عجمتهم فلما تقلص عنهم ظل العرب بعض الشيء بتقلص الدولة
راجعوا عوائدهم في لغاتهم ونسوا اعمدة اللسان العربي والله مقدر الليل والنهار

الفصل الخامس في المعائش ووجوهها

من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه مسائل

فصل في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما

وان الكسب هو قيمة الاعمال البشرية اعلم ان الانسان مفتقر بالطبع الى ما يقوته ويمونه في حالاته
واطواره من لدن نشوه الى اشده الى كبره والله الغني وانتم الفقراء والله سبحانه خلق جميع ما في
العالم للانسان وامتن به عليه في غير ما آية من كتابه فقال خلق لكم ما في السموات وما في الارض جميعا
منه وسخر لكم البحر وسخر لكم الفلك وسخر لكم الانعام وكثير من عباده وبد الانسان مبسوطة
على العالم وما فيه بما حصل الله له من الاستخلاف وانذى البشر ميسره فمن منتكم في ذلك وما حصل
على يديه هذا ممتنع عن اداء العوض فالانسان متى اقتدر على نفسه وجاوز طور الضعف سعى
في اقتناء اسباب لتقويمها اتاه الله منها فحصل حاجاته وضروراته بدفع الاعواض عنها قال
تعالى فابتغوا عند الله الرزق وقد حصل له ذلك لغير سعي كالمطوح المصلح للزراعة وامثاله
الا انها تكون معينة ولابد من سعيه معها كما يأتي فيكون له ذلك المكاسب معاشها ان كانت
بمقدار الضرورة والحاجة وربما وممنوع ان زادت على ذلك ثم ان ذلك الحاصل والمقتنى
ان عادت منفعته على العبد وحصلت له بمرته من اناقة في صالحه وحاجاته سمي رزقا
قال صلى الله عليه وسلم لمالك من مالك ما اكلت فافنيت او لبست فابليت او تصدقت
فامضيت وان لم ينتفع به في شيء من مصالحه ولا حاجاته فلا يسمى رزقا والمملك منه حينئذ
يسمى العبد وقدره تسمى كسبا وهذا مثل التراث فانه يسمى بالنسبة الى الهالك كسبا ولا يسمى
رزقا اذ لم يحصل به منتفع وبالنسبة الى الوارثين متى انتفعوا به يسمى رزقا هذا حقيقته

سمى

مسمى الرزق عند اهل السنة وقد اشترط المعتزلة في تسميته رزقا ان يكون بحيث يصح تملكه والتملك
عندهم فلا يسمى رزق ان يكون بحيث صح تملكه وما لا تملك عندهم فلا يسمى رزقا واخرجوا المغصوبات
والحرام كله عن ان يسمى رزقا والله تعالى يرزق الغاصب والظالم والمؤمن والكافر ويختص
برحمته وهدايته من يشاء ولهم في ذلك تخليط ليس هذا موضع بسطه ثم اعلم ان الكسب
انما يكون بالسعي والاقتناء والقصد الى التحصيل فلا بد في الرزق من سعي وعمل ولو في تناوله
واتساعه من وجوهه قال الله تعالى فابتغوا عند الله الرزق واسعوا له انما يكون
باقدار الله واقامته فالكل من عند الله ولا بد من الاعمال الانسانية في كل مكسوب ومقوم
لانه ان كان عملا بنفسه مثل الصنايع فظاهر وان كان متقنى من الحيوان والنبات او المعدن
فلا بد فيه من العمل الانساني كما تراه والا لم يحصل ولم يقع به انتفاع ثم ان الله سبحانه خلق
الجوهرين المعدنيين من الذهب والفضة قيما لكل متمول وهي الذخيرة والقنية لاهل العالم
في الغالب وان اقتضى سواهما في بعض الاحيان فانما هو لقصد تحصيلهما بما يقع في عرضهما من حوالة
الاسواق التي بها عما معرض فهما اصل المكاسب والقنية والذخيرة واذا تقرر هذا فكل عالم
ان ما يسده الانسان ويتقنيه من المتمولات ان كان من الصنايع فالمعاد المعتنى منه قيمة عمله
وهو القصد بالقنية اذ ليس هناك الا العمل وليس بمقصود بنفسه للقنية وقد يكون مع الصنائع
في بعضها غرضا مثل النجارة والحياكة معها الحسب والمرتبة الا ان العمل فيها اكثر فقيمته اكثر
وان كان من غير الصنايع فلا بد في قيمة ذلك المعاد والقنية من دخول قيمة العمل الذي حصلت به
اذ لولا العمل لم تحصل قنية وقد يكون ملاحظة العمل ظاهرة في الكثير منها فيجعل له حصة من القيمة
عظمت او صغرت وقد يخفى ملاحظة العمل كما في اسعار الاقوات من الناس فان اعتبار ان
الاعمال والنفقات فيها ملاحظ في اسعار الحبوب كما قدمناه لكنه خفي في الاقطار التي علاج
الفلح فيها ومؤنته يسير فلا يتعوبه الا القليل من اهل الفلح فقد تبين ان المعادات والمكتسبات
كلها واكثر الانتفاعات انما هي قيم الاعمال الانسانية وبهذا تبين ان المتنفع به قد يكون معنى
الرزق والكسب وشرح ذلك مما واعلم انه اذا فقدت الاعمال او قلت باشتغال
العمران باذن الله بوضع الكسب الا ترى الى الامصار القليلة الساكن كيف يقل الرزق
والكسب فيها او يفقد لقلة الاعمال الانسانية وكذلك الامصار التي يكون عمرانها اكثر يكون
الرزق فيها اوسع احوالا واسد رفاهية كما قدمناه مثل ومن هذا البلد يقول العامة
في البلاد اذا انتقص عمرانها انها قد ذهب رزقها حتى ان العيون والانهار تنقطع جريتها في القفر
لما ان فوار العيون انما يكون بالانباط والامتراء الذي هو بالعمل الانساني كالحال في صدوع
الارض فلم يكن امتراء ولا انباط نضبت وغارت بالجملة كما كيف الضرع اذا ترك امتراؤه
وانظره في البلاد التي تعهد فيها العيون لايام عمرانها ثم ساقي عليها الخراب كيف تغور مياهها
جملة كان لم يكن والله مقدر الليل والنهار

فصل في وجوه المكاسب واصنافه ومذاهبه

اعلم ان المعاش هو عبارة عن اتساع الرزق والسعي في تحصيله وهو يفعل من العيش كما ان العيش الذي هو الحياة لا يحصل الا بمده جعلت موضوعة على طريق المبالغة ثم ان تحصيل الرزق وكسبه اما ان يكون باخذه من يد الغير واستلابه بالاقتدار عليه على قانون معاوضة وتسمى مغرما وحراسة واما ان يكون من الحيوان الوحشي بافتراسه واحرازه برمته من البحر البر او البحر وتسمى اصطيادا واما ان يكون من الحيوان الداجن باستخراج فضوله المنتفع بها من الناس في منافعهم كالدر من الانعام والعسل من ذبابه او يكون من النبات في الزرع والسعي بالقيام عليه واعداده لاستخراج ثمرته وتسمى الصنائع من كتابة وبحارة وخياطة وحياكة وفروسية وامثال ذلك او في مواد غير معينة وهي جميع الامتهانات والتصرفات واما ان يكون الكسب من البيع واعدادها للاعواض اما بالتعليب في البلاد واحتكارها او ارتقاب حوالة الاسواق فيها وتسمى هذه الخمسة وجوه المعاش واصنافه وهي معنى ما ذكره المحققون من اهل الادب والحكمة كالحريري وغيره قالوا المعاش امارة وبحارة وفلاحة وصناعة فاما الامارة فليست بسبب طبيعي للمعاش فلا حاجة بنا الى ذكرها وقد تقدم شيء من احوال الحسابات الملكية والآلية في الفصل الثاني

واما الفلاحة والصناعة والتجارة فهي وجوه طبيعية للمعاش اما الفلاحة فهي متقدمة على الكل بالذات اذ هي بسيطة وطبيعية وطرية لا تحتاج الى نظر ولا علم ولهذا ابتدئ في الخليقة الى آدم ابي البشر وانه معلمها والقائم عليها اشارة الى انها اقدم وجوه المعاش فلذلك انتهى الى الطبيعة واما الصنائع فهي بالعكس وتاخرها عنها لانها مركبة وعلمية تعرف فيها الامكان والاطوار ولهذا لا توجد غالبا الا في اهل الحضر الذي هو متاخر عن البدو وبالعكس ومن هذا المعنى ينتقل الى ادريس الاب الثاني للخليقة عليه السلام وانه مستنبط لها من بعد من البشر بالوحي من الله واما التجارة وان كانت طبيعية في الكسب فالاكثر من شرطها وهذا انها مختلف في الحصول على ما من القسمين في الشراء والبيع لتحصل فائدة الكسب من ذلك الفضل وله ذلك اباح الشرع فيه المكاسب لما انه من باب المغامرة الا انه ليس اخذ المال الغير مجانا فلهذا اختص بالشروط

فصل في ان الخدمة ليست من المعاش الطبيعي

اما السلطان فلا بد له من اتخاذ الخدمة في سائر ابواب الامارة من الجندي والشرطي والكاتب وكل باب ممن يقيم اعناءه فيه ويكفل ارزاقهم من بيت ماله وهكذا كله في الامارة ومعاشها اذ كلهم تحت علمهم حكم الامارة والملك الاعظم هو ينبوع جداولهم واما مادون من الخدمة المترفين ممن يرتفع عن مباشرة الحاجات او يكون عاجزا عنها بما له علة من خلق السمع والترف والرفع فيتخذها والبا من دونه يوزعه من ماله على ذلك ويستغني به في حاجاته وهي ساولها مذمومة وهي حاجة مذمومة حسب الرجولة الطبيعية للانسان لان التعة بكل احد عجز ولانها زيادة على ان الانسان لا يستكفي بغيره في امره من يكون عاجزا عن ان يتولاه بنفسه ضرورة فهي من حالات الحيوانية التي ينبغي في مذاهب

الله جولته

الا وجوليته السرمدية الا ان العوائد تغلب طبائع الانسان والى ما تؤدي عوائده
ومع ذلك فالحكيم الذي يستكفي به ويوثق بعنايته كالمفقود اذ الحزم لا يعدو اربع حالات اما
ان يكون موثوقا على ما يدفع اليه واما بالعكس فيهما وان يكون غير مضطلع بامره ولا موثوق
فيما يتولاه واما بالعكس في احداهما فقط مثل ان يكون مضطلعا بامره وغير موثوق او موثوقا
غير مضطلع فاما الاول وهو المضطلع الموثوق فلا يمكن استعماله بوجه اذ هو باضطلاعه وامانته عن
اهل الريب الدسه واما بتطاوله الى الجاه بعينه على زيادة اكتساب او
فلا يستعمله الا امرا واما مغابن فلا ينبغي لعاقل استعماله لانه يحتجب به بالامرين معا فيضيع على
بعد الاضطلاع ويذهب ماله بالخيانة فيتوكد على مولاه فلم يبق الا استعمال موثوق غير مضطلع
او مضطلع ولو كان غير موثوق لانه غير مضيع وحذر من خيانته جهد استطاعته
واما ولو كان مأمونا مقصرا اعلم فاعلم ذلك واعده فانه يأتي باستكفاء الخدمة
والله قادر على ما يشاء

فصل في ان انتفاء الاموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعي

ان كثيرا من ضعفاء العقول في الامصار يحرصون على استخراج الاموال من تحت الارض يسعون لذلك
ويعتقدون ان اموال الامم السالفة مختزنة كلها تحت الارض مختوم عليها بطلاسم سحرية لا ينفض ختامها
الا من عثر على علم واستحضر ما تحتاج من البخور والدعاء والغريان واهل الامصار بافريقية
يرون انها فريضة الدين كما نوهنا قبل الاسلام ودفنوا اموالهم لذلك واودعوها في الصخور والكهوف
الى ان يحدوا السبيل الى استخراجها واهل الامصار بالمشرق يرون مثل ذلك في امم النبط والروم
والفرس وربما يقولون في ذلك احاديث تنسبها حوينة حرافة من انتهائها الى بعض الكاتبين لذلك
المحمرا الى موضع الحفر ممن لم يعرف طلسمه واصرم يحدوه حلوا او معقودا ايا لعله ان لو يسارف
الاموال والجواهر موضوعة والحرس دونها مستصفن بسيوفهم او يمهد به الارض حتى يطفئ خسفا
او مثل ذلك من الهذر وقد كثير امر طلبة البر بالمغرب العاطرين عن المعاش الطبيعي واسبابه
ينقلبون الى اهل الدنيا بالاوراق المخرمة الخواتي اما بخطوط اعجمية او ما يرجم بزعمهم انها من خطوط
اهل ملك الدفائن باعطاء الامانات عليها واما كانه يعونون بذلك الرزق منهم بما يعونهم على
الحفر والطلب ويعونون عليهم بانهم انما حملهم على الاستعانة بهم طلب الجاه في مثل هذا من مآل
الحكام والعقوبات وربما يكون عند بعضهم فادرة او قريبة من الاعمال المخرجة بهم على
تصديق ما يتلى من دعواه وهو معزول عن البحر وطرقه فيقع الكثير من ضعفاء العقول بحمع الله
على الاختيار والتسرع وبطلات الامل فحاقة الرقباء وعيون اهل الدول فاذا لم يعثر واعلى
شيء ردوا ذلك الى الجهل بالطلسم الذي ختم به على ذلك المال فحاذعون به انفسهم على خلاف
مطامعهم والذي حمل على ذلك في الغالب زيادة على ضعف العقل انما هو العجز عن طلب المعاش
بالوجوه الطبيعية للكسب من التجارة والفلح والصناعة فيطلبونه بالوجه المخرفة وعلى
غير المجرى الطبيعي من هذا وامثاله عجز عن السعي في المكاسب وذكرنا في اثناء الرزق

من غير تعب ولا نصب في تحصيله واكتسابه ولا يعلمون انهم يقولون لنفسهم فابتعاد ذلك من غير
وجهه فيه نصب ومتاعب وجهد شديد اشد من الاول ويعرضون انفسهم مع ذلك لمضايق
العقوبات وربما عمل على ذلك في الاكثر زيادة الترف وعوايده وخروجه عن عادته التي
هي بمصرعها وجوه الكتب ومذاهبه ولا يعني بطالبها فاذا عجز له الكتب بالمجرى الطبيعي لم يجد
وليجه في نفسه الا التمني لوجود المال العظيم دفعة من غير قلة يسعى له بذلك ذلك بالعوايد التي
حصلت في ايامه فيحرص على ابتغاء ذلك ويسعى فيه جهده ولهذا فاكثر من ترايتهم يحرصون
على ذلك ثم المترفون من اهل الدول او من سكان امصار الكثيرة والترف اكثر احوال اهل
مصر وما في معناها يجد الكثير منهم معرضين لابتغاء ذلك وتحصيله ومسايلة الركبان عن سوانح
كما يحرصون على الكيمياء لهذا سألنا عن اهل مصر في معاوضة من يعونه من طلبة المغاربة لعلهم
يعثرون منه على دفين او كنز ويريدون الى ذلك التحيل عن تعوير المياه لما يرون ان غالب
هذه الاموال الدفينة كلها في مجاري السيل وانه اعظم ما يستر دفنا او محرزا في تلك
الافاق وعموا عليهم اصحاب تلك الدفاين المستغلة في الاعتذار عن الوصول الى مجاري السيل
لتستر ابدا تلك كلة من الله حتى يحصل على مقاسته ويحرص سامع ذلك منهم على وصوب الماء بالاعمال
المتحيلة لتحصيل مبتغاه من بعده كلما سنا التحيل مسوغا لرفع ذلك النظر عن اولية فعلوم سهم التحيل
واثارها باقية بارضهم في البر الى وقتنا هذا وقصة تحيل وقعت شاهدة باصحاب ذلك وقد
تناول اهل المغرب قصيدة بنسبونها الى صحاء المترف يعطي فيها لطيفة العمل في التعوير بصناعة
تحيلية حسبما تراه فيها

وهي

يا طالبا للسر في التعوير ... اسمع كلام الصدق من خبير
واسمع اصدق مقالتي وضحيتي ... ان كنت ممن لا يرى بالزور
فاذا ارتفعت عقولك التي ... جادت لها الافهام بالتدبير
صور كصورتنا التي اوقفتها ... والراس راس السيل في التعوير
وبداه ما سحان الجبل الذي ... في الدلو مثل مزمار البعير
وبصدره كما عاينته ... عدد الطلاق احذر من التكرير
وبطابق الطاقات غير ملامس ... مثنى اللبيب الكيس النحرير
وبكون حول الكل خط دايرا ... ترسمه اول من التكوير
واذبح عليه الطير والخرفه ... واقصد عقيب الذبح بالتبخير
بالصندروس ولوبان ومايعه ... والبسط والمسه بزيت حرير
من احمر او اصفر لازرق ... لا اخضر فيه ولا تكدير
والسد حطان صوف ابيض ... او احمر من خالص التحمير
والطالع الاسد الذي دنسوا ... وبكون بدو الشمس غير منير
والبدر متصل بسعد عطارد ... في يوم سبت ساعة التدبير

يعني يكون الطالب من قدميه كانه يمشي على الماء • واعلم ان من الكنوز وان كانت قد توجد مهتى في حكم النادر وليس ذلك بامر يعم به البلوى حتى يحذر الناس غالبا اموالهم تحت الارض ويحتمون عليها بالطلاسم لا في القديم ولا في الحديث • والركاز الموجود من الجاهلية انما يوجد بالعثور والاتفاق لا بالقصد والطلب • واما من احرز ماله وختم عليه بالاعمال الحرزية فقد بالغ في احتياطه فكيف يبقى على الاولية والامارات لمن يبتغيه • ويكتب ذلك في الصحائف حتى يطلع على ذخيرته اهل الاعصار والاقاليم وهذا من قصد الاحياء • واما قولهم ان الاموال الامم من قبلنا وما علم فهو من الكثرة والوفور • فاعلم ان الاموال من الذهب والفضة والجواهر والامتعة انما هي معادن • ومكاسب مثل الحديد والنحاس والرصاص • وسائر العقارات والعمران بظهرها بالاعمال الانسانية • ويزيد فيها او ينقصها وما يوجد منها بايدي الناس فهو متناقل متوارث • وربما انتقل من قطر الى قطر ومن دولة الى اخرى بحسب احوالها والعمران الذي تستدعيه فان نفق المال في المغرب وافر بقيمته فلم ينفق في بلاد الصقالبة والافرنجة • وان نفق في مصر والشام فلم ينفق في الهند والصين وانما هي آلات ومكاسب والعمران يوفرها او ينقصها فيحتاج من دفع الى شيء من هذا الوسواس او اشتغل به ان يستعوذ بالله من العجز والكسل في طلب معاشه كما تعوذ صلى الله عليه وسلم من ذلك وينصرف عن طرق الشيطان ووسواسه ولا يشتغل نفسه بالمحالات والكاذب من الحكايات والله يرزق

فصل في ان الجاه مفيد للمال

وذلك انا نجد صاحب الجاه والحظوة في جميع اصناف المعاش اكثر يسارا وثروة من فاقد الجاه والسبب في ذلك ان صاحب الجاه محدوم بالاعمال يتقرب اليه في سبيل الزلف والحاجة الى جاهه فالناس معينون له بأعمالهم في جميع حاجاته من ضروري وحاجي او كمالي فتحصل قيم تلك الاعمال كلها من كسبه وجميع ما شانه ان تبذل فيه الاعواض من العمل يستعمل فيه الناس من غير عوض فيتوفر قيم تلك الاعمال عليه فهو يبتاع قيم الاعمال بكسبها وقيم لغير مدعوة الضرورة الى احرازها فيتوفر عليه والاعمال لصاحب الجاه كثيرة فتفيد الغنى بأقرب وقت ويزداد مع الايام يسارا وثروة وهذا المعنى كانت الامارة احد اسباب المعاش كما قدمناه وفاقد الجاه بالكلية ولو كان صاحب مال فلا يكون يسار الا بمقدار ماله وعلى نسبة سعيه وهو لا يسمى اكثر التجار ولهذا نجد اهل الجاه منهم يكونون اثرياء كثيرا • ومما يشهد لذلك انا نجد كثيرا من الفقهاء واهل الدين والعبادة اذا اشتهر حسن الظن بهم واعتقد الجمهور معاملة الله في ارفادهم فاخلص الناس في اعانتهم على احوال دنياهم والاعمال التي في مصالحهم يستوجب اليهم الثروة واصبحوا ميسورين من غير مال متأثل الا ما يحصل لهم من قيم الاعمال التي وقعت المعونة بها من الناس لهم وانا من ذلك اعداد اني الامصار والمدن في البدو يسعى لهم الناس في الفلح والنجح وهو قاعد عنه لا يبرح مكانه فينمو ماله ويعظم كسبه وتتأثل الغنى من غير سعي وتعجب من لا يفطن لهذا السر في حال ثروته واسباب

غناه وليسار ه والله يرزق من يشاء بغير حساب ٥

فصل في ان الفلاحة من معايش المستضعفين

واهل العافية من البدو • لانه اصيل في الطبيعة وبسيط في معاشه وهذا الاحتراف يتحلى احد من اهل الحضر في الغالب ولا من المترفين ويختص بتحلية بالمذلة قال صلى الله عليه وسلم وقد راى السكة ببعض دور الانصار ما دخلت هذه دار قوم الا ادخلته الذل • وحمله البخاري على الاستكثار منه وترجم على بـ ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع اويجاوز الحد الذي امر به • والسبب في ذلك والله اعلم ما يتبعه من المغرم المنتضى للحكم والبدء الغالبة فيكون المغارم دليلا بما يتناوله من ايدي الغرم والاستطالة قال صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تعود الزكاة مغرما اشارة الى الملل العصوص اقتضاه للناس الذي معه التسلط والعدو ونسيان حقوق الله في المتمولات واعتبار الحقوق فلها مغارم للملوك والدول • والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء ٥ •

فصل في نقل التاجر السلع

التاجر البصير بالتجارة لا ينقل من السلع الا ما تعم الحاجة اليه من الغني والفقير والسلطان والسوقة اذ في ذلك نفاق سلعته واما اذا اختص بنقله بما يحتاج اليه البعض فقد يتعذر نفاد سلعته حينئذ ما عوائد الترف على ذلك البعض لعارض من العوارض فتكسد سوقه ويعتذر ما حبه وكذلك اذا نقل السلعة المحتاج اليها فانما ينقل الوسط من صنفها لان العالي من كل صنف من السلع انما يختص به اهل الثروة وحاشية الدولة وهم الاقل واما يكون الناس اسوة في الحاجة الى الوسط من كل صنف من السلع انما يختص به اهل الثروة وحاشية الدولة وهم الاقل واما يكون الناس فيحتاج لذلك جميعه فتنفق سلعته اوكسادها وكذلك نقل السلع من البلد البعيد المسافة او في شدة الخطر فالطرقات بكونها كثيرة قائدة للتجار واعظم ارباحا واكثر لحوالة الاسواق لان السلع المنقولة حينئذ يكون قليلا معوزة لعدم مكانها او شدة الغرر في طريقها فيقل حاملوها ويغرق جودها واذا قلت وعزت علت اثمانها واما اذا كان البلد قريب المسافة او الطريق سابلا لا من فانه حينئذ يكثر ناقلوها فتكثر وترخص اثمانها وهذا اجدا لتجار الذين يولعون بالدخول الى بلاد السودان اذ هم الناس واكثرهم اموالا لبعد طريقهم ومشقته واعتراض المغارة الصعبة المخطرة بالخوف والعطش لوجود الماء الا في اماكن معلومة هتدي اليها ادلاء الركاب ولا يرتب خطر هذا الطريق وبعده الا الاقل من الناس فتجد سلع بلاد السودان قليلا لانها تختص بالغلا وكذلك يبلغنا لديهم فيعظم بضائع التجار من قبائلهم ويسرع اليهم الغنى والثروة من اجل ذلك وكذلك المسافرون من بلادنا الى المشرق لبعد المسافة ايضا واخطر واما المترددون في الافق الواحد ما بين امصاره وبلدانه فقايدتهم قليلة وارباحهم تافهة لكثرة السلع وكثرة ناقليها • والله الرازق • ذو القوة • المتين •

شبكة الألوكة www.alukah.net

85

فصل في الاحتكار

ومما اشتهر عند ذوي البصر والخبرة في الامصار ان احتكار الزرع ليحسن وقات الطعام مشوم وانه يعود على فاعله بالتلف والخسران وسيئة والله اعلم ان الناس لحاجتهم الى الاقوات يضطرون الى ما يبتدلون فيه من المال اضطرارا فيبقى النفوس متعلقة به وفي تعلق النفوس بما يحتاج اليه من يأمنه مجانا ولعله الذي اعتبر الشارع في احوال الناس بالباطل وهذا وان لم يكن مجانا فالنفوس متعلقة به لاعطائه ضرورة من عرسعة في العذر والما الاقوات والمأكولات من المبيعات لاضطرار الناس اليها وانما تبعهم على اليقين في الشهوات فلا يبذلون اموالهم فيها الا باختيار وحرص ولا سبيل لهم لتعلق بما اعطوه فلهذا تكون من عرف بالاحتكار يجمع النفوس المتشوفة على متابعته بما يأخذه من اموالهم فيفسد بحيه والله اعلم وسمعت فيما سبب هذا الحكاية طريفة عن بعض مشيخة المغرب اخبرني شيخنا ابو عبد الله الاعلى قال حضرت عند التاخي بقاس لعهد السلطان ابي سعيد وهو ... ابو الحسن المعلى وقد عرض عليه ان يحتار بعض الالفات المخزنية لحرائه فاطرق مليا ثم قال لهم من حسكس الحمر فاستضحك الحاضرون من اصحابه وعجبوا وسألوه عن صحة ذلك فقالوا اذا كانت الحمامات كلها حراما فاحتار منها ما لا يتابعه نفوس معطيه والحمر قل ان يذب فيه احد مسالة الا وهو طرف مسرود بوبدانه عير اشيب على اخراج ممنه ولا يتعلق به وهذه مذاهب عربية والله تعالى اعلم

فصل في ان الصنايع لابد لها من المعلم

اعلم ان الصناعة هي ملكة في امر عملي فكري وبكونه عمليا هو حسماني محسوس والاحوال الجسمانية المحسوسة تحصل بالمباشرة اوغب لها واكمل ان المباشرة في الاحوال الجسمانية المحسوسة تم فاين والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكريره مرة بعد اخرى حتى تمتد صورته وعلى نسبة الاصل يكون الملكة وتقل المعاينة ارغب واقل سأما من نقل الخبر والعلم فالملكة الحاصلة عنه اكمل وارسخ من الملكة الحاصلة عن الخبر وعلى قدر جودة التعليم وملكة العلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكتها ثم ان الصنايع منها البسيط ومنها المركب والبسيط هو الذي يختص بالضروريات والمركب هو الذي يكون للكماليات والمتقدم منها في التعلم هو البسيط لبساطته اولا ولانه مختص بالضروري الذي تتوفر الدواعي عليه فتكون سابقة في التعليم ويكون تعلمه لذلك ناقصا ولا يزال الفكر يخرج اصنافها ومركباتها باستنباط من القوة الى الفعل شيئا فشيئا على التدريج حتى تكمل ولا تحصل لها ذلك دفعة واحدة بل تحصل في ازمان واجيال اذ وضوح الاشياء من القوة الى الفعل لا تكون دفعة لا سيما في الامور الصناعية فلا بد له اذن من زمان ولهذا نجد الصنايع في الامصار الصغيرة ناقصة ولا يوجد منها الا البسيط فاذا اردت حضارتها ودعت امور الترف الى استعمال الصنايع خرجت من القوة الى الفعل وينقسم

الصنايع ايضا الى ما يختص بامر المعاش ضروريا كان او غير ضروري والى ما يختص بالبكار التي هي خاصة
الانسان من العلوم والصنايع الراجعة اليها الستة ومن الاول الحياكة والحراثة والتجارة
والحدادة وامثالها ومن الثاني الوراقة وهي معاناة الكتب بالانتساخ والتجليد والعنا
والشعر وتعليم العلم وامثال ذلك ومن الثالث الجندية وامثالها والله اعلم

فصل في ان الصنايع انما تكمل بكمال العمران

الحضري وكثرته والسبب في ذلك ان الناس ما لم يسعوا العمران الحضري وتمدن المدينة
انما هم في الضروري من المعاش وهو حاصل الاقوات من الحنطة وغيرها فاذا تمدنت المدينة
وتزيدت فيها الاعمال ووفت بالضروري وزادت عليه صرف الزائد حينئذ الى الكماليات من المعاش
ثم ان الصنايع والعلوم انما هي للانسان من حيث هو فكره الذي يميز به عن الحيوانات والقوى
من حيث الحيوانية والعدوانية فهو مقدم لضرورته على العلوم والصنايع وهي متاخرة عن الضروري
وعلى مقدار عمران البلد يكون جودة الصنايع للتانق فيها حينئذ واستجادة ما يطلب منها لحب دواعي
الترف والثروة واما العمران البدوي او القليل فلا يحتاج من الصنايع الا البسيط حاصلا
المستعمل في الضروريات من نجار او حداد او حياط او حايك واذا وجدت هذه بعده فلا يوجد فيه
كامله ولا استجاده وانما يوجد منها بمقدار الضرورة اذ هي كلها وسايل الى غيرها وليست مقصودة لذاتها واذا
زخر بحر العمران وطلبت فيه الكمالات كان من جملتها التانق في الصنايع واستجادتها فتكمل لجميع ما يمكن
وتزيدت صنايع اخرى معها مما تدعو اليه عوايد الترف واحواله من خزاز ودباغ وحرار وامثال ذلك
وقد تنتهي هذه الاصناف اذ استبحر العمران لتوفر كثير من الكماليات وتانق فيها في الغاية ويكون
من وجوه المعاش في المصر المستحكم بل يكون فايدتها من اعظم فوايد الاعمال لما يدعو اليه الترف في المدينة
مثل الدهان والصفار والحمامي والطباخ والسقاط والحراس ومعلم الغنا والرقص والنحت
في الخوخ وفرع الطبول على التوقيع ومثل الوراقين الذين يحاولون صناعة استنساخ الكتب وتجليدها
وتصحيحها فان هذه الصناعة انما يدعو اليها الترف في المدينة من الاشتغال بالامور الفكرية وامثال
ذلك وقد يخرج عن الحد اذا كان العمران خارجا عن الحد فيما بلغنا عن اهل القيروان فيهم من يعلم الطير العجم والحمر
الانسية وخيل استاذ من العجايب بانهم قبلا لاعيان ويعلم الحدا والرقص والمشي على الحبوط في الهوا
ورفع الاثقال من الحيوانات والحجارة وغير ذلك من الصنايع التي لو وجد عندنا بالمغرب لظن ان عمران
امصاره لم يبلغ عمران مصر والقاهرة والله سبحانه وتعالى الحكيم العليم

فصل في ان رسوخ الصنايع في الامصار

برسوخ الحضارة وطول امدها والسبب في ذلك ظاهر وهي ان هذه كلها عوايد للعمران والوان
والعوايد انما ترسخ بكثرة التكرار وطول الامد فيستحكم صبغة ذلك وترسخ في الاحوال فاذا استحكمت الصبغة
عسر نزوعها ولهذا فانا نجد الامصار التي كانت استبحرت في الحضارة لما تراجع عمرانها وتناقص بقيت فيها

اثار من هذه الصنايع ليست في غيرها من الامصار المسحدثة العمران ولو بلغت مبالغها في الوفور والكثرة
وما ذاك الا لان احوال تلك القديمة العمران مستحكمة راسخة مطول الاحقاب وتداول الاحوال وكثرتها
وهذه لم تبلغ الغاية بعد وهذا كالحال في الاندلس لهذا العهد فما تجد فيها رسوم الصنايع قائمة واحوالها
مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو اليه عوايد لمصارها فالمباني والطبخ واصناف الغنا واللهو من الالات
واللهو والرقص وتنضيد الفرش في القصور وحسن الترتيب والاوضاع في البناء وصوغ الانية
من المعادن والحرف وجميع المواعين واقامة الولايم والاعراس وسائر الصنايع التي تدعو اليها
الترف وعوايده فتجدهم لقوم عيلا والبرها وتحدثها مستحكمة لديهم فهم على حصة موفورة من ذلك
وحظ متميز بين جميع الامصار وان كان عمرانها قد ناقص والكثير منه كالسياوي عمران غيرها من بلاد العدوة
وما ذاك الا لما قدمناه من رسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الاموية وما قبلها من دولة القوط
وما بعدها من دول الطوايف الى هلم فتلعت الحضارة فيها مبلغا لم يبلغه في قطر الا ما ينقل عن العراق
والشام ومصر ايضا لطول امداد الدول فيها فاستحكمت فيها الصنايع وملكت جميع اصنافها على الاستجادة
والتميق وبقيت صنعتها نابتة في ذلك العمران لا تعارفه الى ان ينتقص بالكلية حال الصنع اذا رسخ
في التوب وكذا ايضا حال كل ما حصل فيها من الحضارة بالدول الصناجية والموحدين من
بعدهم وما استكمل لها ذلك من الصنايع في جميع الاحوال وان كان ذلك دون الاندلس الا انه
متضاعف برسوم منها بمنتقل لها من مصر بقرب المسافة بينهما وتردد المسافرين من قطرها الى قطر
مصر في كل سنة ورما سكن اليها هنالك عصور افينقلون من عوايد ترفهم ومحكم صنايعهم ما يقع
لديهم موقع الاستحسان فصارت احوالها في ذلك متشابهة من احوال مصر لما ذكرناه ومن
احوال الاندلس لما ان اكثر ساكنها من شرق الاندلس حين الجلا لعهد المايدة السابعة ورسخ فيها
من ذلك احوال وان كان عمرانها ليس بمناسب لذلك لهذا العهد الا ان الصنعة اذا استحكمت قليلا
ما تحول الا بزوال مادتها وكذا بجاية بالمغرب وان ومراكش وتلمسان ثمادا ثرا بها فيها من ذلك
وان كانت هذه كلها اليوم خرابا او في حكم الخراب ولا يقطن لها الا البصير من الناس فتجد من
هذه الصنايع اثارة تدل على ما كان منها كاثر الخط في الكتاب والله الخلاق العليم

فصل في ان الصنايع انما تستجاد وتكثر اذا كثر طالبها

والسبب في ذلك ان الانسان لا يسمح بعمله ان يبيع مجانا لانه كسبه وفيه معاشه اذ لا فايدة له في
جميع عمره في شيء مما سواه فلا يصرفه الا فيما له قيمة في مصره ليعود عليه بالنفع واذا كانت الصنعة
مطلوبة ولوجه الرغبة اليها اتقان كانت حينئذ الصنعة ممتثرة للسلعة التي تنفق سوقها وتحلت للبيع
فجهد الناس في المدينة لتعلم تلك الصناعة ليكون منها معاشهم واذا لم تكن الصناعة مطلوبة
لم تنفق سوقها ولا لوجه قصد الى تعلمها فاختصت بالقل وفقدت للاهمال وفي الحديث
عن علي رضي الله عنه قيمة كل امرء ما يحسنه بمعنى ان صناعة كل امرء قيمته اي قيمة عمله الذي هو
معاشه وايضا فهنا سر اخر وهو ان الصنايع واجادتها انما تطلبها الدولة فهي التي تنفق من سوقها

وبوجه الطبيعة اليه ومما لم يطلبه الدولة وانما يطلبه غيرها من اهل المصر فليس عن سنتها لان الدولة
هي السوق الاعظم وفيها تنفاق كل شيء والقليل والكثير فيها على نسبة واحدة فما يتفق فيها كان اكثر
ضرورة والسوقة وان طلبوا التناسه فليس طلبهم بعام ولا سوقهم بنافقة والله قادر على ما يشاء

فصل في ان الامصار اذا قاربت الهرم انتقص من الصنائع

وذلك لما بيناه من ان الصنائع انما تستجاد اذا احتيج اليها وكثر طالبها فاذا ضعفت احوال المصر
وامذ في الذم باسقاط عمرانه وقل ساكنه تناقص فيها الترف ورجعوا الى الاقتصار على الضروري من
احوالهم فتقل الصنائع كانت من توابع الترف لان صاحبها صيدلا يجد له بها معاش
فتقل الحرفة او تموت ولا يكون خلف منه فتذهب رسم تلك الصنائع جملة كما يذهب الناسجون والصاغون
والكتاب والنساخ من الصنائع لحاجات الترف ولاموال الصناعات في تناقص الى ان يضمحل والله الخلاق العليم

فصل في ان العرب لبعدهم عن الصنائع

والبيت في ذلك انهم اعرق في البدو وابعد عن العمران الحضري وما يدعو اليه من الصنائع وغيرها
والعجم من اهل المشرق وامم النصرانية عدوة البحر الرومي اقوم الناس عليها لانهم اعرق في العمران
الحضري وابعد عن البدو وغيرانه حيث ان الابل التي اغانت العرب على التوحش في القفر والاعراق في البدو
منقودة لديهم بالجملة ومنقودة مراعيها والرمال المهيئة لنتاجها ولمدادها وطال العرب وما
ملكوه في الاسلام قليل الصنائع بالجملة حتى جلبت اليه من قطر آخر وانطوى بلاد العجم من الصين والهند
وارض الترك وامم النصرانية كيف استكثرت فيها الصنائع واستجادها الامم من عديدهم وعجم المغرب
من البربر هم بمثابة العرب في ذلك لوسوحهم في البداوة منذ احقاب من السنين ولنهد لك
بذلك قبل الامصار بعطائهم كما قدمناه فالصنائع بالمغرب لذلك قليلة وغير مستحكمة الا ما كان
من صناعة الصوف في نسجه والجلد في خرزه فانهم لما استحضروا بالمغرب الحاضر الناطق لعموم البلوى بها
وكون هذين اغلب المتعلق في مطاعمهم ملابسهم على حال البداوة واما المشرق فقد رسخت الصنائع
فيه منذ تلك الامم الاقدمين من الفرس والنبط والقبط وبني اسرائيل ويونان والروم
اصنافا مستطاولة ورسخت فيهم لحال الحضارة ومن جملتها الصنائع كما قدمناه فلم تمح رسمها واما
اليمن والحبش وعمان والجزيرة وان ملكه العرب الا انهم بداوة ولو املكوا الا في السنين
في امم كثيرين منهم واختصوا ايضا بالحضارة ومدنه وبلغوا المبالغ من الحضارة والترف مثل
عاد وثمود والعمالقة وحمير من بعدهم والتبابعة والاذواء طال فيه امد الملك والحضارة
واستحكمت صبغتها وتوفرت الصنائع ورسخت فلم تزل الدولة كما قلناه فبقيت مستجدة
حتى الان واختصت بذلك الوطن كصناعة الوشي والعصب وما يستجاد من حوك البناء والحرير
فيها والله وارث الارض ومن عليها

فصل في ان من حصلت له ملكة في صناعة قبل ان تجيد بعدها

ملكة في صناعة فقل ان يجد بعدها ملكة في اخرى

ومثال ذلك الخياط اذا اجاد ملكة الخياطة واحكمها ورسخت في نفسه فلا يجيد من بعدها ملكة النجارة او البناء الا ان يكون الاولى لم يستحكم بعد ولم ترسخ صنعتها والسبب في ذلك ان الملكات صفات للنفس والوان فلا يزحم دفعة ومن كان على الفطرة كان اسهل لقبول الملكات واحسن استعدادا لحصولها فاذا الون النفس بالملكة الاخرى خرجت عن الفطرة وضعفت فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة وكان قبولها للملكة الاخرى اضعف وهذا بين يشهد له الوجود فقل ان تجد صاحب صناعة يحكم من بعدها اخرى ويكون فيهما معا على رتبة واحدة من الاجادة حتى ان اهل العلم الذين ملكتهم ملكة تهم هذه المثابة ومن حصل منهم على ملكة علم من العلوم واجاد في الغاية فقل ان تجد ملكة علم اخر على سنته بل يكون مقصرا فيه ان طلبه الا في الاقل النادر من الاحوال ومن سببه على ما ذكرناه من شان الاستعداد وكونه بلون الملكة الحاصلة في النفس والله اعلم

فصل في الانسان الى اتهات الصنايع

اعلم ان الصنايع في النوع الانساني كثيرة لكثرة الاعمال المتداولة في العمران فهي بحيث لا تنحصر ولا باحد العدد الان منها ما هو ضروري في العمران او شريف بالموضوع فنخصها بالذكر ونترك ما سواها فاما الضروري فكالفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة واما الشريف بالموضوع فكالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب فاما التوليد فلمعاضدته في العمران وعنايته اذ بقاء اشخاص المولود غالبا وموضوعها مع ذلك المولود ون وامهاتهم واما الطب فهو حفظ الصحة للانسان ودفع المرض وتنوع عن علم الطبيعيات وموضوعه مع ذلك بدن الانسان واما الكتابة وما يتبعها من الوراقة فهي حافظة على الانسان حاجته ومفيدة لها عن لسانه ومحله تاج الاذكار والعلوم في الصحف وراعيه

واما الغناء فهو الاصوات وبطهر للاسماع وكل هذه الصنايع الثلاثة داع الى محالطة الملوك الاعاجم في خلواتهم ومجالس انسهم فلهذا لك شرف ليس لغيرها وما سوى ذلك من الصنايع فتابعة ومهنة في الغالب وقد يختلف ذلك باختلاف الاغراض والدواعي والله الخلاق العليم

فصل في صناعة الفلاحة

هذه الصناعة نمرتها اتخاذ الاقوات والحبوب بالقيام على انارة الارض لها وارد راعيها فلاحة سماها وتعاهدها بالسقي والسقية الى بلوغ غايته ثم تحصيله واستخراج حبه من هلافه واحكام الاعمال لذلك وتحصيل اسبابه وذواعيه وهي اقدم الصنايع لما انها محصلة للقوت ولهذا ما اختصت هذه الصناعة بالبدو واذ قدمنا انه اقدم من الحضر وسابق عليه وكانت هذه الصناعة لذلك بدوية لا يقوم عليها الحضر ولا يعرفونها لان احوالهم كلها ناشئة عن البداوة بضائعهم بينة عن صنايعها وتابعة لها والله الخلاق العليم

فصل في صناعة البنا

هذه اول صنايع العمران الحضري واقدمها وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للسكن والمادي في المدن كل مدينة على ما يتعارفونه ويصطلحون عليه وبحسب مزاج هوائهم واحلاف احوالهم في الغنى والفقر وكذلك حال اهل المدينة الواحدة فمنهم من يجد القصور والصنايع العظيمة الساحة المشتملة على عدة الدور والبيوت والغرف لكثرة ولده وحشمه وعياله وما معه ويؤسس جدرانها بالحجارة ويلحم بينها بالكلس ويعالي عليها بالحص والاصبعة ويبالغ في كل ذلك والمتمول اطهارا للبسيطة في العناية لسان الماوي وصي مع ذلك الاسراب لاحسان افوانه والاصطبلات لربط مرتبة ان كان من اهل الجنود وكثرة التابع كالامراء ومن في معناهم ومنهم من يقتني الدور والبيوت لنفسه وسكنه وولده لا يبغي ما وراء ذلك لقصور حاله عنه واقتصاره على الكفاية الطبيعي وفي ذلك مراتب غير منحصرة وقد يحتاج اليها ايضا عند تأسيس الملوك واهل الدول العظيمة والهياكل المرتفعة وبالغون في ايقان الاوضاع وعلوم الاحكام مع الاحكام والاتقان فتبلغ الصناعة منتهاها وهذه الصناعة هي التي تحصل الدواعي لذلك كله واكثر ما يكون هذا في الاقاليم المعتدلة من الرابع وما حوله اذ الاقاليم المنحرفة لا ينابيها وانما يتخذون البيوت حظائر من العصب والطين وانما يوجد في الاقاليم المعتدلة القائمون على ذلك متفاوتون فمنهم البصير الماهر ومنهم القاصر ثم هي تتنوع انواعا كثيرة فمنها البنا بالحجارة المتخذ بنيام بها الجدران كلا ملصقا بعضها الى بعض بالطين والكلس الذي يعقد منها فتكون كانها حجر واحد ومنها البنا بالتراب فقط يتخذ له لوحان من الخشب معتدلان طولا وعرضا يختلف المعادات في التقدير واوسطها اربع اذرع في ذراعين وقد يوعد ما بينهما بما تراه صاحب البنا في عرض الحائط ويوصل بينهما بربط عليها بالحبال والحدل ويسد الجهتان اللتان من ذلك الخلاء بلوحين اخرين صغيرين ثم يوضع فيه التراب ممتلطا بالكلس ويدك بالمراكز المعدة لذلك حتى يعتم ركوه ويخلط الجراية بالكلس ثم يزاد التراب ثانيا وثالثا الى ان يمتلئ ذلك الخلاء من اللوحين وقد دخلت اجزاء الكلس والتراب وصارا جسما واحدا ثم يعاد نصب اللوحين على الصورة الاولى ويركب ذلك الى ان يتم وينتظم الالواح كلها سطرا من فوق سطر الى ان يتم الحائط كله ملتحما كانه قطعة واحدة ويسمى الطابية وصانعه الطواب ومن صنايع البنا ان يحمل الحوائط بالكلس بعد ان يبلها بالماء ويحرها اسبوعا او اسبوعين على قدر ما يعتدل مزاجه عن افراط النارية المفسدة لما فيه من قوة الاحكام فاذا تم له ما يرضاه من ذلك علاه من فوق عمل السقف بحسب الحائط وذلك ان يسقف المحل البيت ومن فوقها الالواح كذلك موصولة بالدسامر ويصب عليها التراب والكلس ويسلط بالمراكز حتى يدخل اجزاؤهما ويلحم ويعالا عليه الكلس

كما

كما عولى على الحائط • ومن صناعة البناء ما يرجع الى التمييق والتزيين كما يصنع من قول الحيطان الاشكال المجسمة من الحجر بعد بنائه ثم يرفع مجتمعا ومنه مقبنة النخل فيتكل على الناس بحرمانا يمتاق الحديد الى ان يبقى له رونق ورواء وربما عولى على الحيطان ايضا بقطع الرخام او الاجر او الجوف او الصدف او الزجاج بعد صل اجزا او محتلفه ويوضع في الكلس على نسب واوضاع معتبرة عند هم يتدوبه الحائط للعيان كما قطع الرياض المنمنمة الى غير ذلك من بناء الجاب والصهاريج يسيح الماء بعد ان يعد في البيوت فضاع لارخام القوارير المحكمة الخرط بالقوبات في وسطها لتبع الماء الجاري الى الصهريج عجلت اليه من جاج في القنوات المتصلة به الى البيوت وامثال ذلك من انواع البناء ويختلف الصناع في جميع ذلك باختلاف الحذق والقصر ومعظم عمران المدينة فيتسع ويكثر دن وربما يرجع الحكام الى تطريم بنيانهم انصرفه من احوال البناء وذلك ان الناس في المدن مكرهة الازدحام والعمران يتساحون في الفضاء الى الاعلى والاسفل • وفي الاتساع بظاهر البناء مما يقع معه حصول الضرر في الحيطان فيمنع حاكم من ذلك الا ما كان له فيه حق ويختلفون ايضا في استحقاق الطرق والمنافذ للمياه الجارية والعقلات المسترة في القنوات وربما يدعي بعضهم حق بعض في حائطه او علوه او قناة لتضايق الجوار او يدعي بعض على جاره اعتلال حائطه ويحتاج الى الحكم عليه بهدمه ودفع ضرره عن جاره ويحتاج الى الحكم عليه بهدمه ودفع ضرره عن جاره او يحتاج الى قسمة دار او عرصة بين شريكين بحيث لا يتفع معها في الدار ولا لمستغلها وامثال ذلك ومعنى جميع ذلك الاعلى اهل النظر بالبناء العارفين باحواله المستدلين على العاقد والنقط ومراكز الخشب ومثيل الحيطان واعدادها وقسم المساكن على هيئة اوضاعها ومنافعها وشرب المياه في القنوات محلوبة ومدفوعة بحيث لا تضر عما مرت عليه من السوت والحياض والحيطان وغير ذلك فلنبدأ بكلمة المصر والجزء الى الست لتعلم وبم مع ذلك يختلفون بالجودة والقصور في الاجيال باعتبار الدول وقوتها فانا قدمنا ان الصنائع وكمالها انما يوجد بكمال الحضارة وكثرتها بكثرة الطالب لها فلذلك عند ما كمل الدولة بدويه في اول امرها يقتصرون في امر البناء على غير قطعها كما وقع للوليد بن عبد الملك حين جمع بناء مسجد المدينة والقدس ومسجد دمشق الشام فبعث الى ملك الروم بالقسطنطينية في الفعلة المهرة في البناء فبعث اليه منهم بمن له غرضه من تلك المساجد وقد صاحب بدء الصناعة اشياء من الهندسة مثل تسوية الحيطان بالوزن واجراء المياه باحد الارتفاع وامثال ذلك فيحتاج الى بيان من مسائله وكذلك في حمل الاثقال بالهندام فان الاجرام العظيمة اذا اريد نقلها بالحجارة الكثيرة نحن قدر الفعلة عن رفعها الى امكانها من فتستعمل لذلك بمضاعفة قوة الحبل باد خاله في المعاليق من القاب متقدرة على نسب هندسية يصير الثقيل عند معاناة الرفع خفيفا فيتم المراد من ذلك بغير كلفة وقد اتم يتناولون هندسة معروفة متداولة بين البشر ومثلها كان بناء الهياكل • لهذا العهد الذي انتحلها الناس انها من بناء الجاهلية وان ابنيتهم كانت على نسبتها في عظم الجثمان وليس كذلك وانما انتحلوها بالجهل الهندسية كما ذكرناه فتعتهم ذلك والله يخلق ما يشاء •

فصل في صناعة النجارة

هذه الصناعة من ضرورات العمران ومادتها الخشب وذلك ان الله سبحانه جعل للادميين في كل مكون من المكونات منافع بكل منها ضرورة او حاجة وكل منها البحر فانه لما فيه من المنافع ما لا يحصر بما هو معروف لكل احد ومن منافعها الخاصة بالخشب اذا يبست واول منافع الخشب ان يكون وقودا للنيران في معاشهم وعصيا للاكا وعربها من ضرورياتهم ودعائم لما يحتاجون مده من انسانهم ثم بعد ذلك منافع اخرى لاهل البدو والحضر فالسقف لبيوتهم والاغلاق لابوابهم والكراسي لجلوسهم وكل واحد من هذه الخشب مادة لا ولا يصير الى الضرورة الخاصة بها الا بالصناعة والصناعة المتكفلة بذلك المحصلة واحد من صور النجارة على اختلاف رتبها فيحتاج صاحبها الى تفصيل الخشب اولا اصغر منه او بالواح ثم تركيب تلك الفضائل بحسب الصورة المطلوبة وهو في كل ذلك يحاول بصنعته اعداد تلك الفضائل بالانتظام الى ان يصير اعضاء لذلك الشكل المخصوص والقائم على هذه الصناعة هو النجار وهو ضروري في العمران ثم اذا عظمت الحضارة وجاء الترف وتانق الناس فيما يتخذونه من كل صنف من سقف او باب او كرسي او ما عون حدث التانق في صناعة ذلك واستجادته بغرائب من الصنعة كما لة لنسب من الضروري في سني مثل التخطيط في الابواب والكراسي ومثل قصه القطع من الخشب بصناعة الخرط محكم واتقنها ما توقف على نسب مقدرة وعلم بالهندسة حتى يسد ولو اي العين ملتحمة وقد احدثها اختلاف الاشكال على تناسب تصنع هكذا في كل شكل يتخذ من الخشب فيجيء الى ما يكون وكذلك في جميع ما يحتاج اليه من الآلات المتخذة من الخشب من اي نوع كانت وكذلك قد يحتاج الى هذه الصناعة في اتساء الستن المركبة ذات الالواح والدسر وسمي احراما لهندسة صنعت على قالب الحوت واعتبار سبحه في الماء بتعاديه وكلكله لتكون ذلك اعون لها في مصادمة الماء وصل لها عوض الحركة الحيوانية التي للسمك بتحريك الرياح وربما اميلت بحركة المجاديف كما في الاساطيل

والصناعة من اصلها ممتاحة الى حركة من الهندسة في جميع امثلها لان اخراج الصور من القوة الى الفعل على وجه الاحكام يحتاج لما معرفة التناسب في المقادير لا بد من الرجوع فيه الى الهندسة ولهذا كانت ائمة الهندسة في اليونانيين كلهم ابية وفي هذه الصناعة وكان اوقليدس صاحب كتاب الاصول يعرف بالنجار وكذلك ايلونيوس صاحب كتاب المخروطات وغيرها فتفهم اسرار الصنايع في الخليقة والله قادر على ما يشاء

فصل في صناعة الحياكة والخياطة

ان الصناعتان ضروريتان في العمران لما يحتاج اليه البشر من الدفء فالاولى نسج الغزل من الصوف والكتان والقطن سدى ولحمة في الطول والحمام في العرض واحكاما لذلك النسج بالاحكام

بالنجام الشديد وقسم منها قطع متدورة وهي الاكسية من الصوف للاسمال ومنها الثياب من القطن والكتان للناس والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات وصنايا على اختلاف الاشكال والعوايد بتفصيل او الملفاعن قطعا مناسبة لاعضاء الدرهية ثم يلم بالخياطة المحكمة وصلا او حكما او تنضيدا على حسب نوع الصناعة وهذه الثانية مختصة بالحضري لما ان اهل البدو يستغنون عنها وانما يستعملون الاكسية اشتمالا وانما تفصيل الثياب وتقديرها والحاجة الى الخياطة للناس من مذاهب الحضارة وفنونها وبهم هذا في شرح ابن الخطيب في الحج لما ان مشروعية الحج مشتملة على هذه العلايق الدنيوية فلا رجوع الى الله كما ملتنا اول مرة حتى لا يعلق العبد قلبه بشيء من عوايده تركه تماما طيبا ولا نسا ولا مخيطا ولا حذاء ولا تعرض لصيد ولا لشيء من عوايده انما حي كانه ورد على المحشر صارعا بقلبه مخلصا لوجهه وكان حراوه لان تم له الخلاص من ذلك ان يخرج من ذنوبه كيوم ولدته امه سبحانك ما ارفقك بعبادك وارحمك بهم في طلب هداياهم اليك وهاتان الصناعتان قديمتان في الخليقة لما ان الدفء ضروري للبشر في العمران المعتدل واما المحرف في الحرف لاحتياج هذه الى ذوق عين ولهذا يبلغنا عن الاقليم الاول من السودان انهم عراة في الغالب هذه الصنايع تنسبها العامة الى ادريس عليه السلام الذي هو اقدم الانبياء وربما ينسبونها الى الهرمس وقد يقال ان هرمس هو ادريس عليه السلام والله تعالى العليم

فصل في صناعة التوليد

وهي صناعة يعرف بها العمل في استخراج المولود الادمي من بطن امه من الرحم في اخراجه من رحمها وبقية اثبات ذلك ثم ما يصلحه بعد الخروج على ما نذكر وهي مختصة بالنساء في غالب الامر لما انهن الظاهرات بعضهن على عورات بعض ولتنتي الفاعلة على ذلك منهن الفاعلة استعير فيه معنى الاعطاء والقبول كان الملقف القى بعطيها الجنين وكانها تقبله وذلك ان الجنين اذا استكمل خلقه في الرحم واطواره بلغ الى غاية والمدة التي قدر الله لمكثه وهي تسعة اشهر في الغالب فتطلب الخروج بما يحصل له من النزوع لذلك ويضيق عليه المقعد فيعسر وربما مرق بعض حوايه بالضغط وربما انقلع ما كان للاعشية من الالتصاق والالتحام بالرحم وهذه كلها آلام يستدبها الوجع وهو معنى الطلق فيكون الفاعلة معينة له في ذلك بعض الشيء بعمر الظهر والوركين وما حاذى الرحم من الاسافل وساوق لذلك فعل الدافعة في اخراج الجنين وتسهيل ما يصعب منه بما مكنه وعلى ما يصتنعه في معرفة عسره ثم اذا خرج الجنين بقيت بينه وبين الرحم الوصلة التي كان يتغذى منها متصلة من سرته بمعاه وتلك الوصلة عضو فصل لتغذيه المولود خاصة فتقطعها القابلة من حيث لا يتغذى مكان لفضله ولا يضر بمعاه ولا برحم امه ثم تدمل مكان الجراحة منه بالكي او بما تراه من وجوه الادمال ثم ان الجنين عند خروجه في ذلك المقعد الضيق وهو رطب العظام سهل الانعطاف والانثنا فربما تغير اشكال اعضايه واوضاعها لقرب التكوين ورطوبة المواد فيها وللقابلة بالغمز والاصلاح حتى يرجع كل عضو الى شكله الطبيعي ووضعه المقدر له ويرد جلقه سويا ثم بعد ذلك يراجع النفساء ويحاذيها بالغمز والملاينة لخروج اعشية الجنين لانها ربما تاخرت عن خروج قليلا ويحتى عند ذلك ان يراجع الماسكة

فصل في ان الحاجة الى صناعة الطب في الاصحاء
والحواضر دون البدو

هو من الاغذية كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الجامع للطب وهو قوله المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء واصل كل داء البردة فاما قوله المعدة بيت الداء فظاهر واما قوله الحمية رأس الدواء فالحمية الجوع وهو الاحتماء من الطعام والمعنى ان الجوع هو الدواء العظيم الذي هو اصل الادوية واما قوله اصل كل داء البردة فمعنى البردة ادخال الطعام على الطعام في المعدة قبل ان يتهضم الاول وشرح هذا ان الله سبحانه خلق الانسان وحفظ حياته بالغذاء يستعمله بالاكل ويتغذى به القوى الهاضمة والغاذية الى ان تصير دما ملائما لاجزاء البدن من اللحم والعظم ثم باحدى النامية فيتقلب لحما وعظما ومعنى الهضم طبخ الغذاء بحرارة الغريزية طورا بعد طور حتى يصير جزءا بالفعل من البدن وتفسيره ان الغذاء اذا حصل في الفم ولاكته الاسنان اثرت فيه حرارة الفم طبخا يسيرا وقلبت مزاجه بعض الشئ كما تراه في اللقمة اذا ساولتها طعاما ثم اعدتها مضغا فترى مزاجها غير مزاج الطعام ثم يحصل في المعدة فتطبخه حرارة المعدة الى ان يصير كيموسا وترسله الى الكبد وترسل ما ترسب منه في المعا فلا تستدالي المخرج حتى يطبخ حرارة الكبد ذلك الكيموس الى ان يصير دما غليظا وتطبخ عليه رغوة من الطبخ هي الصفراء وترسب منه لطيفا يسمى السودا ويصعد الحار الغريزي بعض الشئ عن طبخ الغليظ منه فهو البلغم ثم ترسل الكبد ما في العروق والجداول واحدها طبخا الحار الغريزي هنالك فيكون عن الدم الخالص بخار حار رطب يسمى الروح الحيواني وباحدى النامية ما تقدم في الدم فيكون لحما ثم عظما ثم ترسل البدن ما ينفصل عن حاجته من ذلك وصلات مختلفة من العروق واللعاب والمخاط والدم عند صورة الغذاء وخروجه من القوة الى الفعل لحما ان اصل الامراض ومعظمها هي الحميات وسببها ان الحار الغريزي قد يضعف عن تمام النضج في طبخه في كل طور من هذه فيبقى ذلك الغذاء دون نضج وسببه غالبا كثرة الغذاء في المعدة حتى يكون اغلب على الحار الغريزي وادخال الطعام على المعدة قبل ان تستوفي طبخ الاول فيستعجل به الحار الغريزي ويترك الاول بحاله او سوء مزاج يعرض في طبخ الاول والمضغ وترسله المعدة كذلك الى الكبد فلا يقوى حرارة الكبد ايضا على انضاجه وربما بقي في الكبد من الغذاء الناقص فصل غير ناضج وترسل الكبد جميع ذلك الى العروق غير ناضج كما هو فاذا احتاج البدن حاجة الملائمة له ارسلته مع الفضلات الاخرى من العروق والدمع واللعاب ان اقتدر على ذلك وربما عجز عن الكثير منه فيبقى في العروق والكبد والمعدة ويتزايد مع الايام وكل ذي رطوبة من المركبات اذا لم ياخذه الطبخ والنضج يعفن فيتعفن ذلك الغذاء غير الناضج وهو المسمى بالخلط وكل متعفن ففيه حرارة غريزية وتلك هي المسماة في بدن الانسان بالحمى واعتبر ذلك في الطعام اذا ترك حتى يتعفن وفي الرمل اذا تعفن ايضا كيف يتبعث فيه الحرارة وباحدى ما قدمنا فهذا معنى الحميات في الابدان وهي رأس الامراض واصلها كما وقع في الحديث وهذه الحميات علاجات بقطع الغذاء عن المريض اسابيع معلومة ثم ما وله الاغذية الملائمة حتى يتم برؤه وكذلك في حال الصحة له علاج في التحفظ من هذا المرض وغيره وقد يكون ذلك التعفن في عضو مخصوص فيتولد عنه مرض في ذلك العضو او يحدث به جراحات في البدن اما في الاعضاء الرئيسة او في غيرها وقد يمرض العضو ويحدث عنه مرض القوى الموجودة له هذه هي جماع الامراض واصلها في الغالب من الاغذية وهذا كله مدفوع الى الطبيب ودفوع هذه الامراض في اهل الحضر والامصار اكثر لكثرة عيشهم وكثرة ما كلهم وقلة اصطبارهم على نوع واحد من الاغذية وعدم توفيتهم لساعاتها وكثرة ما يخلطون بالاغذية من البوابل والبقول

والتواكه رطبا ويابسا في سبيل العلاج بالطبخ ولا يتصرفون في ذلك على نوع ولا انواع وربما عدوا في القوى الواحد من الوان الطبخ اربعين نوعا من النبات والحيوان فيصير للعدو امزاج غريبة وربما تكون بعيدة عن ملاءمة البدن واخر ايهم ان الاتخمة في الامصار تفسد بمخالطة الاجرة العفنة من كثرة الفضلات والاتخمة منشطة للارواح ومقوية بمشاطرة الاشرار العوتزي في المنظوم ثم الرياضة مفقودة عند اهل الامصار اذ هم في الغالب واذ عوف ساكنون لا يعد منهم الرياضة سببا ولا تؤثر فيهم اثرا فكان وقوع الامراض كثيرا في المدن والامصار وعلى قدر وقوعه كانت حاجتهم الى هذه الصناعة **فاما اهل البدو** فاقلهم قليل في الغالب والجوع اغلب عليهم لقلة الحبوب حتى صار ذلك عادة وربما يظن انه حيلة لاستمرار دائم ان الدائم قليل لديهم او مفقودة بالجملة وعلاج الطبخ بالتوابل والفواكه انما يدعو اليه توفر الحضارة الذي يمنع منه بمعزل فيتناولون اعدتهم بسيطة بعيدة عما يخالطها بقرب مزاجها من ملاءمة البدن واما اموتهم فقليل فيها العفن لقلة الرطوبات والعفونات ان كانوا اهل الماء او الاحلاف الا موتة ان كانوا طواعين ثم ان الرياضة موجودة فيهم من كثرة الحركة في نزل الحل او القيد او طلب الحاجات او مهنة القسم في حاجاتهم فيحسن بذلك كله الهضم ويجود ويتعدد حال الطعام على الطعام فيكون امزجتهم اصلح وابعد عن الامراض فتقل حاجتهم الى الطب وهذا الامجد الطيب في البادية بوجه وما ذلك الا للاستغناء عنه او لوجوبه لانه يكون له بذلك في البدو مقاس يدعو الى سكناه سنة الله في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا

فصل في صناعة الطب

وهي صناعة يتطرق في بدن الانسان من حيث يمرض ويصح فيحاول صاحبها على حفظ الصحة ونفي المرض بالادوية والاغذية واما مهد هذه الصناعة التي ترجمت كتبه من الافرنجيين جالينوس بقال كان معاصرا لعيسى عليه السلام ويقال مات بصقلية في سبيل الله تعالى سلب وطاوعه اعراب وتوالفه وهي الامهات التي اقتدى بها جميع الاطباء من بعده وكان في الاسلام في هذه الصناعة امة جاوا من وراء العالم مثل الرازي المجوسي وابن سينا ومن اهل الاندلس ايضا كثير واشهرهم ابن زهر وفي هذا العهد في المدن الاسلامية كأنها بعضت لحقوق العمران وتناقصه وهي من الصنايع التي لا يتدعى بها الا الحضارة والترف

فصل في ان الخط والكتابة من عداد الصنايع الانسانية

وهو رسوم واشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس بمقتضى عن رتبة الدلالة اللغوية وموصاعة شريفة اذ الكتابة من خواص الانسان التي تميزه عن الحيوان وايضا فهو تطلع على ما في الضمائر وسائر الاغراض الى الكذا البعيد كلم وقد دفعت مؤونة المباشرة فلها وبطلع به على العلوم والمعارف وصحف الاولين وما كتبوه من علومهم واخبارهم فهي شريفة بمنع بذل الوجوه والمنافع وحرزها في الاثمان من القوة الى الفعل انما يكون بالتعليم وعلى قدر الاجتماع والعمران والتأنق في الكمالات والطلب لذلك يكون جودة الخط في المدينة اذ هو من حالة الصنايع وقد قدمنا ان هذا شأنها وانها تابعة للعمران وهذا مذاكر البدو امس لا يعرفون ولا يكتبون ومن قرأ منهم او كتب فيكون خطه قاصرا

وقرأته عبر ناقرة وقد تعليم الخط في الامصار الخارج عمرانها عن الحد ابلغ واحسن وابسهل طريقا لاحكام الصنعة
فيها محكما لها من مضر لهذا العهد وان معلمين منتصبين لتعليم الخط يلقون على المتعلم قوانين واحكاما
في وضع كل حرف ويردون في ذلك المباشرة بتعليم وضعه فيعتضد لديه رتبة العلم والحس في التعليم وما
ملكته على اتم الوجوه واما ابن هذا من تمام الصنائع ووفورها بكثرة العمران وافتساح الاعمال وقد كان
الخط العربي بالغا مبالغه من الاحكام والاتقان والاجادة في دولة السابقة لما بلغت من الحضارة والترف
وهو المسمى بالخط الحميري واستقل منهم لاهل الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر شيعة السابقة في العصبية والمجد
دين لملك العرب بارض العراق ولم يكن الخط عندهم من الاجادة كما كان عند السابقة لقصور ما بين الاوليين
فكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك ومن الحيرة لقنه اهل الطائف وقريش فيما ذكر
يقال ان الذي لقنه الكتابة من الحيرة بوسفيان بن امية عم ابي سفيان بن حرب وهو قول ممكن واقرب
ممن نسب الى انهم تعلموها من اياد اهل العراق لقول شاعرهم

• قوم لهم ساحة العراق اذا • سار واجفيا والخط والقلم •

وهو قول بعيد لان اياد اولو نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البداوة والخط من الصنائع
الحضرية • واما معنى قول الشاعر انهم اقرب الى الخط والقلم من غيرهم من العرب لقربهم من ساحة الامصار
وضواحيها فالقول بان اهل الحجاز انما لقنوها من الحيرة ولقنها اهل الحيرة من الشيعة وحمير هو الاليق من
الاقوال لانهم لم يكونوا مجيدين لهذه الصنائع اذا وقعت بالبدو فلا تكون محكمة المذاهب والاساليب
الى الاتقان والتنميق لتلون ما بين البدو والصناعة واستغنائها بالبدو وعنها في الاكثر فكانت كتابة العرب
بدوية مثلا ومرتبا من كتابتهم لهذا العهد او نقول ان كتابتهم لهذا العهد احكم صناعة لان هؤلاء
اقرب الى الحضارة ومخالطة الامصار والدول • واما مضر فكانوا اعرق في البدو والبعد عن الحضر من
اهل اليمن واهل العراق واهل الشام ومضر فكان الخط العربي اول الاسلام غريبا بالغاية من الاحكام
والاتقان والاجادة ولا الى المتوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع وانظر
ما وقع لاجل ذلك في رسم المصحف حيث كتبه الصحابة بخطوطهم وكانت غير محكمة في الاجادة فخالف كثير
من رسومهم رسوم صناعة الخط عند اهله ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بما رسمه اصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتابه وكلامه كما يقتفى لهذا العهد
خط ولي او عالم بركا ويتبع رسمه خطا وصوابا وابن بسنة ذلك من بسنة الصحابة وما كتبوه فاتبع ذلك
واثبت رسما ونبه العلماء بالرسم على مواضعه ولا ملتفت في ذلك الى ما يوهمه بعض المغفلين من انهم كانوا
محكمين لصناعة الخط وان ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لاصول الرسم ليس كما يتخيل من كل وجه ويقولون
في زيادة الالف في لا اذبحنه او ليأتيني ان الذبح لم يقع وفي زيادة الياء في بأييد انه متنبه على كمال
القدرة الربانية وانما ذلك مما لا اصل له الا التحكم المحض • وما حملهم على ذلك الا
اعتقادهم في ذلك منوطا للصحابة عن توهم النقص في قلة اجادة الخط وحسبوا ان الخط كمال
فنزهوهم عن نقصه ونسبوا اليهم الكمال باجادته وطلبوا تعليل ما خالف الاجادة من رسمه وذلك
ليس بصحيح واعلم ان الخط ليس بكمال في حقهم اذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية

كما ذكرناه مرارا والكمال في الصنائع اضافي وليس مكان مطلق إذ لا يعود نفعه على الذات في الدين ولا
الجلال وانما يعود على اسباب المعاش وبحسب العمران والتعاون عليه لاجل ذلك على ما في النفوس وقد
كان النبي صلى الله عليه وسلم اميا وكان ذلك كما لا في حقه وبالنسبة الى مقامه لشرفه وترفعه عن الصنائع
العملية التي هي اسباب المعاش والعمران كلا وليست الامية كمالا في حق غيره اذ هو مستطاع الى رتبة
ونحن متعاونون على اكتساب الانبياء سائر الصنائع كما تحيي العلوم الاصطلاحية فان الكمال في حقه ومنزهه
عنها جملة بخلاف سائر ما جاءت الملك للعرب وفتحوا الامصار وملكوا الممالك وتولوا البصرة والكوفة واحتاجت
الدولة الى الكتاب استعملوا الخط وطلبوا صناعته وتعلمه وتداولوه فرقت الاجارة فيه واستحكم وبلغ
في الكوفة والبصرة رتبة من الاتقان لا ابعد كانت دون الغاية والخط الكوفي معروف الرسم لهذا العهد
ثم انتشر العرب في الاقطار والممالك وافتتحوا افريقية والاندلس واختط بنوا العباس بغداد ونزعت
الخطوط فيها الى الغاية لما استجدت في العمران وكانت دار الاسلام ومركز الدولة العربية وكان الخط
البغدادي معروف الرسم وبنوا الخط الافريقي المعروف رسمه لهذا العهد يقرب من اوضاع الخط الشرقي
وبحر ملك الاندلس الامويين فميزوا اباعوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط فميزوا صنف خطهم
الاندلسي كما هو معروف الرسم لهذا العهد وظاهر العمران والحضارة في الدول الاسلامية في كل قطر
وعظم الملك ونفقت اسواق العلوم واستحدث المكتب واجيدت وتجلدت وملئت بالصور والكراسي
الملوكية بالاهالة وتنافس اهل الاقطار في ذلك وتناغوا فيه لما افعل نظام الدولة الاسلامية
وتناقصت تناقص ذلك اجمع ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة فانتقلت بنا من الخط والكتاب
بل والعلم الى مصر والقاهرة فلم تزل اسواقها بانا فقهة لهذا العهد والخطوط معلوم برسوم
تعلم الحروف بتعاليم وضعها واشكالها متعارفة بينهم فلا يبعد التعلم او الحكم اشكال الحروف
على ملاك الاوضاع ودلالتها حسا وصدق هادرم وكاما واحدا قوانين علمية فيما احسن ما يكون
واما اهل الاندلس في الاقطار عند ملاشي ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر وتغلبت
عليهم امم النصرانية فانتشروا في عدوة المغرب وافريقية من لدن الدولة الموحدية الى هذا
العهد وشاركوا اهل العمران نحالتهم من الصنائع وتعلموا باذيالها الدول فغلب خطهم على الخط الافريقي
وعفا عليه ولبس خط القيروان والمهدية بنسيان عوائدهما وصنائعهما وصارت خطوط اهل افريقية
كلها على الرسم الاندلسي بتونس وما اليها لتوفر اهل الاندلس لقاعدة الحالة من ترف الاندلس وبعي منهم رسم
بلاد الجريد الذين لم يخالطوا كتاب الاندلس ولا تمرسوا بجوارهم اذا ما كانوا يقدرون على دار الملك بتونس
فصار خط اهل افريقية من جنس خطوط اهل الاندلس حتى اذا تلخص طل الدولة الموحدية بعض الشيء
وتراجعت امور الحضارة والترف براجع العمران بعض حينه حال الخط وسددت رسومه وحمل فيه
وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقص الصنائع وظهرت فيه انار الخط الاندلسي بعهد لما كان
لهم من ذلك بما قدمناه من ان الصنائع اذا رسخت بالحضارة فتعسر محوها وحصل في دولة بني مرين
بعد ذلك بالمغرب لون من الخط الاندلسي لقرب جوارهم وسقوط من خرج منهم الى فاس قريبا واستعمالهم
اياهم سائر الدولة ولبني عبد الخط فيما بعد عن سدة الملك ودار فكان لم يعرف فصارت خطوط افريقية

والمغرب

والمغرب ما يئول الى الرداءة بعيدة عن الجودة وصارت الكتب ان تستنسخ فلا فائدة تحصل لبعضها
منها الا العناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتعذر الاستكمال الخطية عن الجودة حتى
يكاد تعذر الا بعد عسر ووقع فيه ما وقع في سائر الصنايع بتقص الحضارة وفساد الدول والله يحكم لا معقب لحكمه

فصل في صناعة الوراقة

كانت العناية قديما بالدواوين العلمية والسجلات في صحها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط وكان
سبيت ذلك ما وقع من صحامة الدولة وتوابع الحضارة وقد ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدول
وتناقص العمران بعد ان كان منه في الملة الاسلامية بحر زاخر بالعراق والاندلس اذ هو كله من توابع العمران
واتساع نطاق الدول ونفاق اسواق ذلك لديها فكثرت التواليف العلمية والدواوين وحرص الناس
على اقتنائها في الافاق والاعصار فنسخت وجلدت وجادت صناعة الوراقين المعانين للاستنساخ
والتصحيح والتجليد وسائر امور الكتب والدواوين واختصت بالامصار العظيمة العمران وكانت
السجلات اولا لانتساخ العلوم وكتب الرسايل السلطانية والاقطاعات الصكوك في الرقوق المهيأة
بالصناعة من الجلد لكثرة الرق وقلة التواليف صدر الملة على ما ذكره وقلة الرسايل السلطانية
والصكوك مع ذلك فاقتصروا على الكتاب في الرق لشرفها للمكتوبات ومثلا الى الصحة والاتقان
ثم طما بحر التواليف والدواوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وصار الرق من ذلك فاشار
العقيل بن يحيى بصناعة الكاغد وصنعه وكتب فيه رسايل السلطان وصكوكه فاخذ الناس من يومئذ
منها لمكتوباتهم السلطانية والعلمية ولغت الاجار في صناعته ما شاءت ثم وقعت عناية اهل
العلوم وسائر اهل الدول على ضبط الدواوين العلمية وتصحيحها بالرواية المسندة الى مؤلفيها وواضعيها
لما نالها من التصحيف والضبط فبذلك تسند الاقوال الى قايلها والناقلة الى الحاكم بها
المجتهد في طريق استنباطها وما لم يكن بتصحيح المتون باسنادها الى مدونيها فلا يصح اسناد قول لهم ولا
فتيا وهذا كان شان اهل العلم وحملته في العصور والاحال والآفاق حتى لقد قصرت فائدة
الصناعة الحديثية في الرواية على هذه فقط اذ ثمرتها الكبرى من معرفة صحيح الاحاديث وحسنها وسندها
ومرسلها ومعضلها وموقوفها من موضوعها قد ذهبت وتمحضت رتبة ذلك في الالهاء المتعلقاه
بالقول عند الامة وصار القصد الى ذلك لغوا من العمل ولم يبق ثمرة الرواية والاستعانة
بها الا في تصحيح تلك الامهات الحديثية وسواها من كتب العلم للشيء وعن ذلك من الدواوين
والتواليف العلمية واتصال سندها بمؤلفيها ليصح النقل عنهم والاسناد اليهم وكانت هذه الرسوم
بالمشرق والاندلس بعيدة الطرق واضحة المسالك ولقد نجد الدواوين المستحسة لذلك العهد
في العالم الطول اقطاره على غاية من الاحكام والاتقان والصحة ومنها لهذا العهد في العالم
اصول عتيقة تشهد بيلوغ الغاية لهم في ذلك واهل الآفاق يبتنافسونها الآن ويسدون على اسد
الصنايعة ولقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جملة من المغرب واهله لانقطاع صناعة الخط والضبط
والرواية منه بتناقص عمرانه وبداوة اصله وصارت الامهات والدواوين منسخ بالخطوط البدوية

يشتهيها طلبة العلم في صحائف مستجمعة برداءة الخط وكثرة الفساد والتصحيف فيستغلق على متعلمها والحامل منها فائدة الاقل الباد روايضا فقد دخل الخلل من ذلك في الغنا فان غالب الاقوال المعزوة عن مروية عن ائمة المذاهب وانما تتلقى من تلك الدواوين على ما هي عليه وتبع ذلك ايضا ما يصدي اليه بعض المتهم من التاليف لعلة تضهم بصناعة وعدم الصنائع آفاقية بمعاصره ولم يبق من هذا الاسم الا اسم بالاندلس حقيقة بالاضمحلال وموسى على الاضمحلال فقد كاد العلم ان ينقطع عن المغرب بالجملة والله غالب على امره ويبلغنا لهذا العهد ان صناعة الرواية قائمة بالمشرق وتصحيح الدواوين من مروياتها بذلك تسهل على متعلمها لتعاني اسواق العلوم والصنايع كما نذكره بعد والله يهدي من يشاء

في صناعة الغنا

هذه الصناعة هي تلحين الاشعار الموزونة بتقطيع الاصوات على نسب منتظمة معروفة يوقع على كل صوت منها توقيعا عند قطعه فيكون لذة تم تولف تلك النغم بعضها الى بعض على نسب متعارفة فيلذ سماعها لاجل ذلك التناسب وما يحدث عنه من الكيفية في تلك الاصوات كما نذكر في موضعه وقد يساوق ذلك التلحين في النغمات الغنائية بتقطيع اصوات اخرى من الجمادات اما بالقرع او النفخ في الآلات يحدد لذلك منها بالمغرب لهذا العهد اصناف منها مزمار يسمونه الشبابة وهي قصبة جوفاء يثقب في جوانبها معدودة يتخرق فتصوت وتخرج الصوت من فوهتها على سداده ومن تلك الثقب وتقطع الصوت بوضع الاصابع من اليدين جميعا على تلك الانقاب وضعا متعارفا حتى تحدث النسب بين الاصوات فيه ويتصل كذلك متناسبة فيلتذ السمع بادراكها للتناسب الذي ذكرناه

ومن احسن هذه الآلة الة الزمر التي تسمى الدلامي وهي شكل القصبة محدبة الجانبين من الخشب جوفاء من غير تدوير لاجل استلائها من قطعتين منفوبة كذلك بانقاب معدودة يتخرق فيها بقصبة صغيرة توصل بها فيتخرق بواسطتها اليها ويصوت بنغمة حادة ويجري فيها من تقطيع الاصوات من تلك الثقب بالاصابع مثل ما يجري في الشبابة

ومن احسن آلات الزمر لهذا العهد البوق والبوق من النحاس اجوف في مقدار الذراع يتسع لما ان يكون اندراج محدب في مقدار دور الكف على شكل بزي العلم ويتخرق فيه بقصبة صغيرة توذي الريح من الفم اليه فيمتزج الصوت بحيادها وفيه انقاب ايضا معدودة ويقطع نغمة منها كذلك بالاصابع على التناسب فيكون ملذوذا

ومن الآلات الاوتار وهي جوفا كلا اما على شكل قطعة من الكرة كالبربط والرباب او على شكل المربع كالقانون بوضع الاوتار على اسابيط مستوية في رؤسها الى دساتر عالية لتتباين شدا الاوتار ونحوها باذارتها من تقرع الاوتار اما بعود او بريشة وقد يطرق في حوشي مترعلا بعيدا دلجلا بالنقر والكندر ويقطع الصوت فيه بحسب اليد في امراره ونقله من وتر الى وتر واليد اليسرى مع ذلك في جميع الآلات الاوتار توقع باصابعها على اطراف الاوتار فما تقرع او تحك بالوتر فتحدث الاصوات متناسبة ملذوذة وقد يكون القرع في الطسوت بالقضبان في الاحوال بعضها بعض على توقيع متناسب تحدث

المدارك بالمسموع وليس لك التشبث في الآية الثانية عن العناد وذلك ان الكلام كما تقرر في موضعه
هي ادراك الملائم والمحسوس انما يدرك منه كيفية فاذا كانت مناسبة للمدرك وملائمة كانت ملذوذة
واذا كانت منافية له كانت منافرة مؤلمة فالملائم من الطعوم ما ناسبت كيفية حاسة الذوق في مزاجها وكذا
الملائم من الملموسات وفي الروائح ما ناسب مزاج الروح البخاري لانه المدرك والة بودية الحاسة ولهذا
كانت الرياحين والازهار والعطريات احسن رائحة واشد ملائمة للروح لغلبة الحرارة فيها التي هي مزاج
الروح الطبعي **واما المرئيات والمسموعات** فالملائم فيها ما تناسب الاوضاع في اشكالها
وكيفياتها فهو انسب عند الحس واشد ملائمة لها فاذا كان المرئي مناسبا في استكماله ومحاطيط التي له
بحسب مادته بحيث لا يخرج عما تقتضيه مادته الخاصة من كمال المناسبة والوضع وذلك هو معنى الجمال
في كل مدرك كان ذلك حينئذ مناسبا للنفس المدركة فيلتذ بادراك ملائمها ولهذا تجد العاشقين
المستهترين في المحبة يعبرون عن غاية محبتهم وعشقهم بامتزاج ارواحهم بروح المحبوب وفي هذا اشارة منهم
ان كنت من اهله وهو اتحاد المبتدا وان كل ما سوى اذا نظرته وتاملته رأيت بينك وبينه اتحادا
في البداية يشهد لك به اتحاد كما في الكون **ومعناه من وجه اخر** ان الوجود لشئ من الموجودات
كما يقوله الحكماء فتوجد ان ممزوج بماهيته فيه الكمال لمحمد به بل يستوم الحس حينئذ الخروج عن الوهم
الى الحقيقة التي هي اتحاد المبتدا والكون • ولما كان انسب الاشياء الى الانسان واقربها الى ان يدرك
ادراك كمال في مناسب موضوعها موشكله الانساني فكان ادراكه للجمال والحسن في مخاطيطه واصواته من
المدارك التي هي اقرب الى فطرة صليح كل انسان الحسن من المرئي او المسموع مقتضى البطر والحسن
في المسموع ان يكون الاصوات متناسبة لا متنافرة وذلك ان الاصوات لها كيفيات من المس والحمو
والرخاوة والشدة والقلقلة والضغط وغير ذلك والمناسب فيها ان لا يخرج من الصوت الى ضده وضم
بل بتدريج ثم يرجع كذلك وكذا الى المثل بل لا بد من تعاطي توسط المغايرين بين الصوتين وتامل هذا
من استماع اهل اللسان المركب من الحروف المتنافرة او المتقاربة المخارج فانه من شانه فاذا
كانت الاصوات على مناسب من الكيفيات كانت ملائمة ملذوذة • ومن هذا المناسب ما يكون
بسيطا ويكون الكثير من الناس مطبوعين عليه لا يحتاجون فيه الى تعليم ولا صناعة كما نجد المطبوعين
على الموازين لسرعة وقوع الرقص وامثاله ذلك وتسمى العامة هذه الغالبية بالمصامد
وكثير من القراء هذه المثابة يقرؤن القرآن فيجيدون في تلاحين اصواتهم كما في المزامير فتطربك
بحسن مساقهم وتناسب نغمهم **ومن هذا المناسب** ما يحذق بالتركيب وليس كل الناس
يستوي في معرفته ولا كل الطباع توافق صاحبه في العمل به اذ اعلم وهذا هو التلحين الذي يتكفل به
علم الموسيقى كما شرحه بعد عد الكل العلوم • **وقد انكر مالك** القراءة بالتلاحين واجازها
الشافعي وليس المراد بالتلحين الموسيقي الصرف فانه لا ينبغي ان يختلف في حظره اذ صناعة الغناء مباينة
للقرآن كل وجه • وانما المراد التلحين البسيط الذي يهتدي اليه صاحب المنهار بطبعه كما قدمناه
فيرد اصواته ترديدا على نسب يدركها العالم بالغناء وغيره ولا ينبغي ذلك لوجه كما قاله مالك هذا
هو محل الخلاف والظاهر تنزيه القرآن عن هذا كما ذهب اليه الامام رحمه الله لان القرآن هو محل خضوع

ترك الموت وما بعده وليس معناه ليزداد ران الحسن من الاصوات ومكذا كانت قراءة الصحابة كما في
اخبارهم فاما قوله صلى الله عليه وسلم لعد اوتي مزمارا من مزامير آل داود فليس المراد به الترديد
والتلحين وانما معناه حسن الصوت واذا القراءة والاناية في مخارج الحروف والنطق بها واذ قد
ذكرنا معنى الغنا فاعلم انه يحدث في العمران اذا توفر وتجاوز واحد الضروري الى الحاجي ثم الى الكمالي
وتتنوع فيه فيحدث هذه الصناعة لانه لا سبيل الى الامن فضل عن جميع حاجات الضروري والمهمة من
المعاش والمنزل وغيره فلا يطلبها الا الفارغون عن سائر احوالهم تفننا في مذاهب الملذوذات وكان في
سلطان العجم قبل الملة منها بحر راجر في امصارهم ومدنهم وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به
حتى لقد كان لملوك الفرس اهتمام باهل هذه الصناعة ولهم مكان من قولهم وكانوا احضر مساندهم
ومجامعهم ولعنون فيها وهذا شان العجم لهذا العهد في كل افق من افاقهم وممالكهم من ممالكهم **واما**
العرب فكان لهم ولا فن الشعر يولعون فيه الكلام احرا متساويه على ما ناسب بينها
في عدة حروفها المحركة والساكنة فلائم الطبع بالجرسة او لائم مناسب الاجزاء في المقاطع والمبادي فلهجوا
به واستاز من بين كلامهم بحظ من الترف ليس لغيره لاجل اختصاصه بهذا التناسب وحصلوه ديوانا
لاخبارهم وحكمهم وسيرهم ومحاكم لمراتبهم من اصابة المعاني واجادة الاساليب واستمروا على ذلك
وهذا التناسب الذي من اجل الاحرا والحركة والساكن من الحروف قطرة من بحر من مناسبة الاصوات كما هو
معروف في كتاب الموسيقى الا انهم لم يستعروا اما سواه لانهم لم ينتحلوا علما ولا عرفوا صناعة وكانت البداوة
اغلب لحالهم ثم اتخذاه منهم في حد البلم والتيان في فضا خلواتهم فرجعوا الاصوات
وترنموا وكانوا يسمون الترنم اذا كان بالشعر غناء واذا كان بالتهليل او نوع القراءة تغبرا بالغين
المعجمة والباء الموحدة من اسحق وعلله ابو اسحاق الزجاج بانه تذكر بالغابر وهو الباقي في ما حوال الاخرة
وربما ناسبوا في غنائهم بين النغمات مناسبة بسيطة كما ذكره ابن رشيق في كتاب العمدة وغيره وكانوا
يسمونه النسخ وكان اكثر ما يكون منهم في الخفيف الذي يرقص عليه ويمشى بالدف والمزمار فيطرب
ويستخف العلوم وكانوا يسمون هذا الفرع وهذا البسيط كلة من الملاجن هو من اوابلها ولا يبعد
ان يتطرق الضياع من غير تعلم شان البسايط كلها من الصنايع ولم يزل هذا شان العرب في بداوتهم
وجاهليتهم فلما جاء الاسلام واستولوا العرب على ممالك الدنيا وحاذوا سلطان العجم وغلبوهم على ممالكهم
وكانوا من البداوة والعضاضة على الحال التي عرفت لهم مع عضاضة الدين وشدته في ترك احوال الغناء
وما ليس بنافع في دين ولا معاش فمحى ذلك سيئا ما ولم يكن الملذوذ عندهم الا رجيع القراءة والترنم
بالشعر الذي كان دينهم ومذهبهم فلما جاء الترف وغلب عليهم الرقة بما حصل لديهم من عتايم الامم
التي صاروا بانتظارها العيش ورقة الحاشية واستحلا القراع واعترق المغنون من الفرس والروم فوفقوا
الى الحجاز وصاروا موالي للعرب وعنوا جميعا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير وسمع العرب
تلحينهم للاصوات فلحنوا عليها اشعارهم وطرقوا بالمدينة بنشيط الغريض وطويس وساب خاثر مولى عبد الله
ابن جعفر منهم واشعر العرب ولحنوه واجادوا وطار لهم ذكرهم احد عهما سعد وطبعه وابن سريج والطا
ومازالت صناعة الغنا تتدرج الى ان كملت ايام بني العباس عند ابراهيم بن المهدي وابراهيم الموصلي وابنه

اسحاق

اسحاق وابنه حماد وكان من ذلك في دولتهم ببغداد وما سبقه به الحديث عند به ومجالسته لهذا الهند وامعنوا في اللهو واللعب واحدثت آلات الرقص في الملبس والعصان والاستعارات التي يتم بها وعمل صنفا واحدة واحدث آلة اخرى للرقص تسمى بالبرج وهي تماثيل على صورة من الخشب معلقة باطراف اقبية يلبسها النسوان ويحاكون بها امتطاء الخيل فيكرون ويفرون ويناقفون واشال ذلك من اللعب المعد للولايم والاعراس ومجالس القناع واللهو وكثير ذلك ببغداد وامصار العراق وانتشر منها فيما سواها وكان للموصليين غلام اسمه زرياب احدثهم الغنا فاجاد وصرفوا الى المغرب وغيره منه فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل امير الاندلس فبالغ في تكرمته وركب للغاية واسنى له الجوايز والاقطاعات والجايات واصله من دولته وندمائه بمكان فاورث بالاندلس من صناعة الغنا ما تناقلوه الى اوان الطوائف وطما منها بشبيلية بحر زاخر وتناقل منها بعد ذهاب عصابتها الى بلاد العدوة بافريقية والمغرب وانقسم على امصارها وهي الآن منها سابح على تراجع عمرانها وتناقص دولها وهذه الصناعة آخر ما تحصل في العمران من الصنايع الانسانية في غير وظيفة من الوظايف الا وظيفة التاغ والترح وهي ايضا اول ما ينقطع من العمران عند اخلاله

وتراجعه والله الخلاق العليم

الفصل السادس من العلوم وصنايعها

والتعليم وساير طرقه وسايره وجوهه وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه مقدمة ولواحق

فصل في ان العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري

وذلك ان الانسان قد شاركه جميع الحيوانات في حواسيته من الحس في الحركة والغذاء والكن وغيره وانما يتميز عنها بالفكر الذي يهتدي به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بابناء جنسه والاجتماع المهيئ لذلك التعاون وقبول ما جاءت به الانبياء عن الله تعالى والعمل واتباع صلاح اخراه لهو يستكمل في ذلك كله دايما الا فتر عن الفكر في طرفة عين بل اصلاح الفكر اسرع من لمح البصر وعن الفكر ينشاء العلوم وما قدمناه من الصنايع لاجل هذا الفكر وما جبل عليه الانسان بل الحيوان من تحصيل ما تدعو اليه الطباع فيكون الفكر اغنايا في تحصيل ما البشر عنده من الادراكات فيرجع الله من سبقه بعلم او زاد عليه بمعرفة او ادراك او احد من بعد ممن الانبياء يبلغونه لمن بلغاه فيلقن ذلك عنهم ويعرض على اصله وعلمه ان فكره وتطره موجه الى واحد واحد من الحقايق وينظر ما يعرض له لذاته واحدا بعد واحد ويتمرن على ذلك حتى يصير الحاق العوارض بتلك الحقيقة ملكة له فيكون حينيذ على ما يعرض لتلك الحقيقة على محضوصا وينشوف بتوسل اهل الجيل الماشي الى تحصيل ذلك فيفرعون الى اهل معرفته ويحي التعليم من هذا اقتدرتين ان العلم والتعليم طبيعي في البشر والله اعلم

فصل في ان تعليم العلم من جملة الصنايع

شبكة الألوكة www.alukah.net

وذلك ان الحذق في العلم والاستيلاء عليه واليقين فيه انما يحصل للمكنة في الاحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من اصوله ومالم يحصل هذه المكنة لم يكن الحذق في الفن المتناول حاصلا وهذه المكنة هي غير الفهم والوعي لان الفهم المسئلة الواحدة من الفن الواحد ووعيها مشترك بين من سدد في ذلك الفن ومن هو مستدبر فيه وبين العامي الذي لم يحصل علما وبين العالم الخبير والملكة انما هي للعالم او الشادي في الفنون دون من سواه مدلل على ان هذه الملكة غير الفهم والملكات كلها صناعية سواء كانت في البدن او في الدماغ من الفكر وغيره كالحساب والحيانات فكلها محسوسة فتفتقر الى التعليم ولهذا كان السند في التعليم في كل علم صناعة الى مشاهير المعلمين فيها معتبرا عند اهل كل افق وجيل وبدليل ايضا على ان تعليم العلم صناعة اطلاق الاصطلاحات فيه فلكل امام من الائمة اصطلاح في التعليم يختص به سبيل الصنائع كلها فدل على ان ذلك الاصطلاح كتب تخالف في تعليمه اصطلاح المتقدمين والمتاخرين وكذا اصول الفقه وكذا العربية وكذا كل علم سوى الى مطالعة بحد الاصطلاحات في تعليمه مخالفة تدل على انها صناعات في التعليم والعلم واحد في نفسه واذا تقرر ذلك فاعلم ان سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد ان ينقطع عن اهل المغرب كلهم باختلال عمرانه وتناقص الدول فيه وما جر ذلك من نقص الصنائع وفقدانها كما مر وذلك ان العمران وقرطبة كانت حاضرة في المغرب والاندلس واسع عمرانها وكان فيها للعلوم والصنائع اسواق نافقة وبحور زاخرة ورسخ فيها التعليم لامتداد عصورها وما كان فيهما من الحضارة فلما خربا انقطع التعليم عن المغرب الا قليلا كان في دولة الموحدين بمراكش مستفادا امنهما ولم تزل الحضارة بمراكش لدى الدولة الموحدية في اولها وقريب عهدا بقرطبة واشبيلية فلم تضل احوال الحضارة فيها الا في الاقل وبعد انقراض الدولة بمراكش ارتحل الى المشرق من افريقية القاضي ابو القاسم بن زيتون لعهد الوسط المائة السابعة فادرك تلميذ الامام ابن الخطيب واخذ عنهم ولقن تعليمهم وحذق في العقليات والنقليات ورجع الى تونس بعلم كثير وتعليم حسن وجاء على اثره من المشرق ابو عبد الله بن شعيب الدكالي كان ارتحل الى المغرب فاخذ عن مشيخة مصر ورجع الى تونس فاستقر بها وكان تعليمه مفيدا فاخذ عنهما اهل تونس جيلا بعد جيل حتى انتهى الى القاضي محمد بن عبد السلام شارح ابن الحاجب وتلميذه واصل من تونس الى تلمسان ابن الامام وتلميذه فانه قرا مع ابن عبد السلام على شيخه واحد وفي مجالس اخر وتلميذ ابن عبد السلام بتونس وابن الامام بتلمسان لهذا العهد الا انهم من العلة بحيث انقطاع سندهم ثم ارتحل الى تلمسان من رواده في اخر المائة السابعة ابو علي ناصر الدين المشدالي وادرك تلميذ ابي عمرو بن الحاجب واخذ عنهم ولقن تعليمهم وقرا مع شهاب الدين القرافي في مجالس واحذ وحذق في العقليات والنقليات ورجع الى المغرب بعلم كثير وتعليم مفيد وترك بجاية واتصل سند تعليمه في طلبتها وربما انتقل الى تلمسان عمران المشدالي من تلميذه واوطنها وبث طريقته فيها وتلميذه لهذا العهد ببجاية وتلمسان قليل او اقل من القليل وبقيت فاس وسائر امصار المغرب خلوا من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والعمران وكلم يتصل سند التعليم فيهم فعسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم وايسر طرق هذه الملكة قوة اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسايل العلمية فهذا الذي يعبر

شانها وتحصيل مرامها فيجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من اعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكونا لا يطقون ولا يغاوضون وعناتهم بالحفظ اكثر من الحاجة فلا تحصل على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم ثم بعد تحصيل من يرى منهم انه قد حصل تجد ملكه قاصرة في علمه ان فاوض او ناظر او علم وما ذاك الا من قبل التعليم وانقطاع سنده والا فحفظهم ابلغ من حفظ سوانهم لشدة عنايتهم به وظنهم انه المقصود من الملكة العلمية وليس كذلك وما يمدك بذلك في المغرب ان المدة المعتنية لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة وهي بتونس خمس سنين وهذه المدة بالمدارس على المتعارف هي اقل ما يأتي فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية فالناس من يحصلها وطال امده في المغرب لهذه العصور لاجل عسر ما من قلة الجودة في التعليم خاصة واما سوى ذلك

واما اهل الاندلس فقد نبه رسم التعليم من بينهم وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ سنين من الستين ولم يبق من رسم العلم فيهم الا في العربية والادب اقتصروا عليه والحفظ سند تعليمه فيهم فالحفظ حفظه واما الفقه بينهم فرسم خلو واثر بعد عين واما التعليمات فلا اثر ولا عين وما ذاك الا لانقطاع سند التعليم فيها بتناقص العمران وتعذب العلوم على عامتها الا قليلا فيسير الجر شغلهم بمعايشهم اكثر من شغلهم بغيرها مما بعدها والله غالب على امره

واما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه بل اسواقه نافقة ومحوره زاخرة لاتصال العمران الموفور واتصال السند فيه وان كانت الامصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد والبصرة والكوفة الا ان الله قد ادال منها بامصار اعظم من تلك وانتقل العلم منها الى عراق العجم بخراسان وما وراء النهر من المشرق ثم الى القاهرة وما اليها من المغرب فلم تزل موفورة وعمرانها متصلا وسند التعليم بها قائما فاهل المشرق على الجملة ارسخ في صناعة تعليم العلم يدا وفي سائر الصنائع حتى انه ليظن كثير من رجاله اهل المغرب الى المشرق في طلب العلم ان عقولهم على الجملة اكمل من عقول اهل المغرب وانهم اشد براعة واعظم كيسا بنظرهم الاولى وان تعويم الناطقة اكمل بفطرتها من نفوس اهل المغرب ويعتقدون التفاوت بينهم وبينهم في حقيقة الانسانية ويسعون لذلك ويولعون به لما يرون من كيسهم في العلوم والصنائع وهو من الغلط والمذاهب العامية التي يجب على العلماء التعصب وليس بين وطر المشرق والمغرب تفاوت بعد المقدار الذي تفاوت في الحقيقة الواحدة اللهم الا اقاليم المحرفة مثل الاول والسابع فان الامزجة فيها محرفة والنفوس على نسبتها كما مر

واما الذي وصل به اهل المشرق اهل المغرب فهو ما تحصل من النفس من آثار الحضارة وذلك ان الحضر لهم آداب في احوالهم في المعاش والسكن والمساواة في الثروة والدنيا وكذلك سائر عاداتهم ومعاملاتهم وجميع نحلهم فلهم في ذلك كله آداب توقف عندها في جميع مأكلهم وملبوسهم ويتلبسون به من اخذ وترك حتى كأنها حدود لا سعدى معها ذلك صنائع ستقف على الاخر عن الاول منهم ولا شك ان كل صناعة مرتبة فرخ منها الى النفس اثر تكسبها عقلا مزيدا تستعد به لقبول صناعة اخرى وتهيأ به العقل لسرعة الادراك للعارف ولقد بلغنا في تعليم الصنائع عن اهل مصر غايات لا تدرك مثل انهم يعلمون الحمر الانسية

والحيوانات العجم من الماشي والطائر مفردات من الكلام والافعال يستعرب بدوها بعجز اهل المغرب
عن فهمها فضلا عن تعليمها وحسن الملكات في التعليم والصنائع وسائر الاحوال العائدة يزيد الانسان
ذكاء في عقله واضاءة في فكره بكثرة الملكات الحاصلة للنفس اذ قدمنا ان النفس انما تنشأ بالادراكات
وما يرجع اليها من الملكات فيزداد دون بذلك كيسا لما يرجع الى النفس من الاثار العلمية فيطنه العامي
معاونا في الحقيقة الانسانية وليس كذلك الا ترى الى اهل الحضر مع اهل البدو وكيف يحدث الحضري ممتلئا من الملكات
ممتلئا من الكيس حتى ان البدوي ليظن انه قد فاته في حقيقة انسانيته وعقله وليس كذلك وما ذلك
الا لاجادته من ملكات الصنائع والاداب في العوائد والاحوال الحضرية ما لا يعرفه البدوي فلما امتلأ
الحضري من الصنائع وملكاتها وحسن تعليمها ظن كل من قصر عن تلك الملكات انه لكمال في عقله وان
نفوس اهل البدو قاصرة بفطرتها وجبلتها من فطرته وليس كما نجد في اهل البدو من هو في اعلى درجته
من الفهم والكمال في عقله وفطرته وانما الذي ظهر على اهل الحضر من ذلك قصور دونق الصنائع والتعليم
فان لها اثارا ترجع الى النفس كما قدمناه وكذا اهل المشرق لما كانوا في التعليم والصنائع ارسخ رتبة
واعلى قدما وكان اهل المغرب اقرب الى البداوة لما قدمناه في الفصل قبل هذا ظن المغلوب
في بادي الراي انه لكمال في حقيقة الانسانية اختصوا به وبالفوت فيه عن اهل المغرب وليس ذلك
كما توهم فافهمه والله يزيد في الخلق ما يشاء

فصل في ان كثرة العلوم انما تكثر

حيث تكثر العمران وتعظم الحضارة والسبب في ذلك ان تعليم العلم كما قلناه من جملة الصنائع وقد
كما قدمنا ان الصنائع انما تكثر في الامصار وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والعلم والحضارة والترف تكون
نسبة الصنائع في الجودة والكثرة لانه امر زائد على المعاش فمتى فضلت اعمال اهل العمران عن معاشهم انصرفت
الى ما وراء المعاش من التصرف في حاجيات الانسان وهي العلوم والصنائع ومن يستوفي بنظره الى العالم
ممن يشاء في القرب والبعد امصار عن المتمدنة فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي بفقدان الصنائع في اهل
البدو كما قدمناه ولا بد له من الرحلة في طلبه في الامصار المستحكمة بسنان الصنائع كلها واعتبر ما قررناه
بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدر الاسلام واستوت فيها
الحضارة كيف زخرت فيها بحار العلم وتفننوا في اصطلاحات التعليم واصناف العلوم واستنباط
المسائل والفنون حتى ارسوا على المتقدمين وفاتوا المتاخرين ولما انتقص عمرانها واذعر ساكنها انطوى
ذلك البساط جملة بما عليه وفقد العلم بها والتعليم واسفل الى غيرها من امصار الاسلام ولم يزل هذا العهد
مرجان العلم والتعليم انما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما ان عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف
من السنين فاستحكمت فيها الصنائع ومنها تعليم العلم واكد ذلك فيها وحفظه ما وقع لهذه
العصور منذ مائتين من السنين في دولة الترك من ايام صلاح الدين بن ايوب والملك حرا وذلك ان
دولة الترك في دولهم يجتلبون عادة سلطانهم على من يخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق او الولاء
والمحتشم من معاطب الملك ونكباته فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها

الأوقاف المعلة يجعلون فيها شرطا لولدهم ينظر عليها أو يصيب فيها مع ما فيهم غالبا من الجنوح إلى الخير والتماس الأجر في المقاصد والأفعال فكثرت الأوقاف لذلك وعظمت الغلات والفوائد وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة مراسم منها وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب وانتقبت بها أسواق العلوم وازدهرت بحارها والله يخلق ما يشاء ويختار

فصل في أصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد

اعلم أن العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلا وتعليما هي على صنفين صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره ويسلي باحثا عن موضوعه والأول هي العلوم الحكمية الفلسفية وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره ويهتدي بمدارك البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براهينها ووجوه تعليمها مطروحة وبحثه على الصواب من الخطأ فيها من حيث هو إنسان وفكر والثاني هي العلوم النقلية الوضعية وهي كلها مستندة إلى الوضع والخبر عن الواضع ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول لأن الجهات الحادثة المتعاقبة لا تدرج تحت النقل الكلي بمجرد وضعه فيحتاج إلى الإلحاق بوجه قياسي الآن هذا القياس متفرع عن الخبر بثبوت الحكم في الأصل وهو نقلي فرجع هذا القياس إلى النقل لمتفرعه عنه وأصل هذه العلوم النقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة التي هي موضوعة لنا من الله ورسوله وما يتعلق بذلك من العلوم التي هي لها للاستفادة منها ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربي الذي هو لسان الملة وبه نزل القرآن وأصناف هذه العلوم النقلية كثيرة لأن المكلف يجب عليه أن يعلم أحكام الله المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه وهي مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص أو بالإجماع أو بالإلحاق فلا بد من النظر في الكتاب ببيان ألفاظه أولا وهذا هو علم التفسير ثم بأسانيد النقلة وروايته إلى النبي صلى الله عليه وسلم الذي جاء به من عند الله واختلاف روايات القراء في قراءته وهذا هو علم القراءات ثم بإسناد السنة إلى صاحبها والكلام في الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم فحد الهم ليتبع الموثوق بأخبارهم وهذه هي علوم الحديث ثم لا بد في استنباط هذه الأحكام من أصول لا من وجه وقوانين يهتدي بها العلم بكيفية هذا الاستنباط وهذا هو أصول الفقه وبعد هذه تحصل الثمرة بمعرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين وهذا هو الفقه ثم إن التكاليف منها بدني ومنها قلبي وهو المختص بالإيمان وما يجب أن يعتقد مما لا يعتقد وهي العقائد الإيمانية في الذات والصفات وأمور الحشر والنعيم والعذاب والقدر والحجاج عن هذه بالأدلة العقلية هو علم الكلام ثم النظر في القرآن والحديث لا بد أن يتقدمه العلوم اللسانية لأنه موقوف عليها وهي أصناف منها علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الأدب حسبما يتكلم عليها كل واحد من هذه العلوم النقلية كلها مختصة بالملة الإسلامية وإن كانت كل ملة على الجملة لا بد فيها من مثل ذلك فهي مشاركة لها في الجنس البعيد من حيث إنها علوم الشريعة المنزلة من عند الله على صاحب الشريعة المبلغ لها وأما على الخصوص فمباينة لجميع الملل ومباينة لها وكل ما قبلها من علوم الملل

محظور والتطوع به محظور وقد نهى الشرع عن ذلك في الكتب المنزلة غير القرآن وفي السنة صلى الله عليه وسلم لا تصدقوا اهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا امنا بالذي انزل الينا وانزل اليكم والهنا والهكم واحد ورأى في يد عمر ورقة من التوراة فغضب حتى بين الغضب في وجهه ثم قال الم اتكم بها بيضاء نقية والله لو كان موسى حيا ما وسعه الا اتباعي ثم ان هذه العلوم الشرعية التقليدية قد نفقت اسواقها في هذه الملة بما لا مزيد عليه وانتهت فيه مدارك الناظرين الى ما فوقها وهذبت الاصطلاحات وسهلت السبل لخبات وزاد العناية في الحسن والتنميق وكان لكل من رجال رجع اليهم واوضاع يستفاد منها التعليم واختص المشرق من ذلك والمغرب بما هو مشهور منها حسبما ذكره الان عند تعديد هذه الفنون وقد كسدت لهذا العهد اسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه وانقطاع سند التعليم كما قدمناه في الفصل قبله وما اظن ذلك الا بالمشرق والظن فيه بقاء العلم فيه وانصباب التعليم في العلوم وفي سائر الصنائع الضرورية والكمالية ووجود الاعانة فيه لطالب العلم باجرايه من الاوقاف التي اتسعت بها ارزاقهم • والله مقدر الليل والنهار •

علوم التفسير والقرآات

القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه المكتوب بين دفتي المصحف وهو متواتر من لدن الامة الى الصحابة رووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة في الفاظ وكيفيات الحروف في اداءها وهو قول ذلك واشتهر الى ان استقرت منها سبع طرق معينة تواترت نقلا ايضا واختصت بالنسبة الى من اشتهر رواتها من الجم الغفير فصارت هذه القرآآت السبع اصولا للقراة وربما زيد بعد ذلك قرآآت احرى الحقت بالسبع الا انها عند ائمة القراة لا تقوى قوتها وهذه القرآة السبع معروفة في كتبها وقد طالع بعض الناس في تواتر هذه القرآآت من طرقها لا نها عندهم في كيفيات الاداء وليس ذلك عندهم بقادح في تواتر القران واما الاكثر فلم يزل القرا يتداولون هذه القرآآت ورواتها الى ان كتبت العلوم ودونت فكتبت فيما كتب من العلوم وصارت صناعة مخصوصة وعلما مفردا وتناقلها الناس المشرق والاندلس واعتمدوا فيه الصحف في جيل بعد جيل الى ان ظهر لشرق الاندلس محمد من موالي العامريين وكان مبتدئا بهذا العلم من بين علوم القران لما اختص به مولاه المنصور بن ابي عامر واحمد في تعليمه وحرصه على من كان من ائمة القرا بحضرته فكان سهمه في ذلك وافرا واختص بعد ذلك • داسه والحرا بالشرقية فتفقت سوق القراة بما كان هو من ائمتها وبما كان له من العناية بسائر العلوم عموما وبالقراة خصوصا وظهر لهذا ابو عمرو الداني وبلغ الغاية فيها ووقفت عليه معرفتها وانتهت الى روايته اسانيدها وتعددت طرقها وفيها يعول الناس عليه وعدلوا عن غيره واعتمد ومن بينها كتاب التيسير له • ثم ظهر بعد ذلك فحاليه من العصور والاجيال ابو القاسم بن فيره من اهل شاطبة فعهد الى تهذيبه ابو عمرو وتلخيصه فنظم ذلك كله قصيدة لغز فيها اسماء القرا التيسير عليه ما قصده من الاختصار وليكون اسهل للحفظ لاهل بلده فاستوعب فيها الفن اسعد ما حسنا وعنى الناس بحفظها ولهجوا للولد المتعلمين

وجرى العمل على ذلك في امصار المغرب والاندلس وربما اضطر على في القرآن في الرسم وبيان
الوضع حروف القرآن في المصحف ورسومه الخطية ان فيه حروفا كثيرة رسمت على غير المعروف من
احكام الخط كزيادة الالف في ياسه وزيادة في لآاذبحنه ولا اوضعوا والواو في جزاء الظالمين
وحذف الالف في مواضع دون اخرى ومارسم فيه من الآيات ممدودا او الاصل فيه مربوط على
شكل الهاء وغير ذلك وقد سلم تعليل هذا الرسم المصحفي عند الكلام في الخط فلما جاءت مخالفة
لاوضاع الخط وقانونه اضيفت الى حضرها فكتب فيها الناس ايضا عندهم في العلوم وانتهت
بالمغرب الى ابي عمرو الداني المذكور فكتب فيها كتابا سماه كتاب المقنع واحدثه الناس وعولوا عليه
ونظمه ابو القاسم الشاطبي في قصيدته على روي الراء وولع الناس بحفظها ثم ذكر الخلاف في الرسم في كلمات
وحروف اوى ذكرها ابو داود سليمان بن نجاح من موالي مجاهد في كتبه وهي من تلميذ ابي عمرو الداني
والمشهور بحمل علومه ونقل بعده خلاف آخر فنظم الحرار من المتاخرين بالمغرب ارجوزة اخرى
زاد فيها على المقنع خلافا كثيرا وعزاه لناقليه واشتهر بالمغرب واقتصر الناس على حفظها وهجروا بها
كتب ابي داود الشاطبي في الرسم

واما التفسير

فاعلم ان القرآن نزل بلغة العرب وعلى اساليب بلاغتهم وكانوا كلهم يعلمونه ويعلمون معانيه
في مفرداته وتراكيبه وكان ينزل جملا جملا وآيات آيات لبيان المتوخى منه والغرض الديني منه
بحسب الوقايع ومنها ما هو في العقايد الايمانية ومنها ما هو في احكام الجوارح ومنها ما يتقدم
ومنها ما يتاخر ويكون ناسخا له وكان النبي صلى الله عليه وسلم هو المبين لذلك فما قال لبيان الناس
ما نزل اليهم فكان صلى الله عليه وسلم يبين المجمل ويميز الناسخ من المنسوخ ويعرفه اصحابه فعرفوه
وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولا عنه كما علم من قوله اذا جاء نصر الله والفتح
انها نعي الى النبي صلى الله عليه وسلم واما ذلك ونقل ذلك عن الصحابة رضوان الله عليهم وتداول
ذلك التابعون من بعدهم ونقل عنهم ولم يزل ذلك متناقلا بين الصدر الاول والسلف
حتى صارت المعارف علوما ودونت الكتب فكتب الكثير من ذلك ونقلت الآثار الواردة فيه
عن الصحابة والتابعين وانتهى ذلك الى الطبري والواقدي والثعالبي وامثالهم من
المفسرين فكتبوا فيه ما شاء الله ان يكتبوا من الآثار ثم صارت علوم اللسان صناعية من
الكلام في موضوعات اللغة واحكام الاعراب والبلاغة في التراكيب فوضعت الدواوين في
ذلك لعهد ان كانت ملكات للعرب لا ترجع فيها الى نقل واكتساب فيستوي ذلك وصارت تتلقى
من كتب اهل اللسان فاحتيج الى تفسير ذلك في القرآن لانه بلسان العرب وعلى منهاج بلاغتهم
وصار التفسير على صنفين تفسير نقل مستند الى الآثار المنقولة عن السلف وهو معرفة الناسخ
والمنسوخ واسباب النزول وكل ذلك لا يعرف الا بالنقل عن الصحابة والتابعين وقد
جمع المتقدمون في ذلك واودعوا مثل الطبري والواقدي والثعالبي وجاء ابو محمد
ابن عطية من المتاخرين بالمغرب فلخص تلك التفاسير فاوعى وحرى ما هو اقرب الى الصحة منها

ووضع ذلك في كتاب متداول بين اهل المغرب والاندلس حسن المبنى والصنف الآخر من التفسير وهو ما يرجع الى لسان من معرفة اللغة والاعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسن المقاصد والاساليب وهذا الصنف من التفسير قل عن ان يتعرض عن الاول اذ الاول هو المقصود بالذات واما جاء هذا بعد ان صار اللسان وعلومه صناعات فهم يكون في بعض التفاسير غالبا ومن لصق ما استعمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشري من اهل العراق الا ان مولفه من اهل الاعتزال في العقائد فمتى ما جاء الحجاج على مذاهبه الفاسدة حتى يعرض لها في آي القرآن فصار بذلك للمحققين من اهل السنة الخراق عنه والتحذير للجمهور من مكامنه مع اقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة واذا كان الناظر فيه واقفا على المذاهب السنية محسنا للحجاج عنها فلا حرج انه مأمون من غوائله فليغتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان ولقد وصل الينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين وهو شرف الدين الطيبي من اهل القرن السابع من عراق العجم شرح فيه كتاب الزمخشري هذا واتبع الفاظه وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بزعمها وبين ان البلاغة انما تتم في الآية على ما تراه اهل السنة لا على مذهب المعتزلة فاحسن في ذلك ما شاء مع اتباعه في سائر فنون البلاغة وفوق كل ذي علم عليم

علوم الحديث

واما علوم الحديث فهي كثيرة وذلك ان السنة من قول النبي صلى الله عليه وسلم وفعله مبينة للقرآن ومتممة للشريعة فلا بد من حفظها وتتبعها ليلا تستند منها شيء فيكون ذلك تضييعا للشرع واستيعابها انما هو بالنقل الصحيح عن الثقاة فشمروا لها الحفاظ ونقلوها عن العدول حتى كملت احاديث السنة وكتب مالك رضي الله عنه في ذلك كتاب الموطا تحرى فيه الصحيح ورتبه على ابواب الفقه كما ذكره ثم استرسل الحفاظ من بعده وكثرت التواليف واملا محمد بن اسماعيل البخاري من اهل العراق مسنده المشهور تحرى فيه الصحيح ونقحه مسلم بن الحجاج من بعده فاملا مسنده ايضا وتلقتهما الامة بالقبول واشتهرا بان اصح ما لهذا العهد يعرف بالصحيحين وكثرت رجال الاسانيد لذلك العهد في الحديث لامتداد الزمن بين عهد النبوة وتدوينه فاحتيج الى فحص احوال الرواة المنقول عنهم في العدالة والجرح واملاء الائمة في ذلك دولون مثل البخاري وابن معين وغيرهما وكان ذلك فنا من علوم الحديث صار رئيسا على طالبه ثم صارت العلوم صناعات بالتواليف وتحصيل الملكات وتميزت رتب الاحاديث فكان منها الصحيح الذي لا فوقه مثل المسند بن للبخاري ومسلم ثم اخبار الائمة في احاديث السنن وزادوا على ما في الصحيحين من شروطها فكتب الترمذي كما له في ذلك وابو داود والنسائي والدارقطني وغيرهم فصارت ستة امهات يعول عليها في السنة لهذا العهد وكان ما بعد الصحيح رتبا متفاوتة اصطلحوا على تمييزها بالالقاب فالحسن والمقبول والمردود والموضوع وكذلك ما بعد المسند نقل العدل عن العدل الى النبي صلى الله عليه وسلم تفاوت رتبة فاصطلحوا فيها

بالقاب غيرها كالمرسل والموقوف والمقطوع والمرفوع واما ذلك واختص ائمة الحديث باحكام في
الرواية وطرق النقل وتفاوت ذلك من السماع والقراءة والمناولة والاجازة ثم الكتابة والتقييد والمقابلة
واحكام ذلك كله حرصا على تصحيح الاخبار وضبطها فكثرت في فنهم الاصطلاحات وتشوقلت ودون ذلك ائمة
الحديث خمسة متباعدة وصار علما مستقرا واما كل اختص باسم علم الحديث ومن احسن من كتب فيه الحاكم من ائمتهم
ثم كتب ابن الصلاح كتابه المشهور اعتنى به المتاخرون وتلقوه بالقبول واختصره بدر الدين بن جماعة قاضي الديار
المصرية لعهد المائة السابعة فجاء من احسن مختصرات العلوم وابدعها وصار ما سوى ذلك من علوم الحديث كمعرفة
ناسخه ومنسوخه وشرح الغاطه وغريبه مدونا لمن يقوم بشرح تلك الامهات من العلماء وانقطع خرج الاحاديث
لهذا العهد اكتفاء بالامهات الستة • وما في معناها من تواليف الائمة لذلك العهد وانصرفت العناية
الى تصحيح تلك الامهات وضبطها بالرواية عن مصنفيها خاصة وقصرت همة الرواية على ذلك فقط واستغنى
عن التعديل والتجريح في رجال الحديث ممن قبل اولئك الائمة وصار همة وكدا مجودا الا ما يتعلل منه في
شرح تلك الامهات واعتنى العلماء بشرح هذه الامهات والاصول وخصوصا الصحيحين فاما البخاري
وموا علا نمارتبة في ستصعب شرحه والتعلق بمحاه لما يحتاج اليه من الفقه في تراجمه اذ هو تكرار الاحاديث
بحسب التراجم والابواب فيكثر الحديث في كل باب بحسب ما يتضمن من المعاني والاحكام فاتسع خلوف
وصعب المنفعة فيه وشرحه من شرحه مكاثرة هذا القصد فلم يستوف المراد فيه كابن بطال وابن المهلب
وابن التين وغيرهم • واما مسلم فكثرت عناية العلماء من اهل المغرب به واكبوا عليه لقرب منحاه وخلوه
من تكرير الاحاديث بحسب التراجم واميل الامام المازري عليه شرحا سماه المعلم واكمله القاضي عياض من
بعده وتممه وسماه اكمال المعلم ووصل الينا من تواليف اهل المشرق شرح النواوي وهو لعمري جليل
المقصد • واما كتب السنن الاربعة وما معظم مآخذ الفقه فاكثر شرحها في كتب الفقه لاجل ذلك هذه
علوم الحديث وموضوعاتها • ومسائلها • وفوق • كل ذي • علم • عليم •

الفقه وما يتبعه من الفرائض

وهو معرفة احكام الله في افعال المكلفين وهي ماخوذة من اصول الشريعة وادلتها استخرجها الائمة
واصلوا فيها انواعا من الاصطلاح على ما اداه الله اجتهادهم وكان وقوع هذا الخلاف بينهم ضرورة
ان الاحكام ملاءمة الى المنصوص من الكتاب والسنة واقتضاءاتها وهي مختلفة الطرق والاجتهاد
ايضا متفاوت وذلك كثير في الاحاديث وايضا فما تعقد النص عليه من الوقائع محمل على منصوص منها
بمشابهة ما وهذه كلها مثارات للخلاف ضرورة فلذلك وقع الخلاف بين ائمة السلف والخلف
ورجع الامر في ذلك الى الاجتهاد • وسلم لمن وثق بنظره وديانته ان يوخذ من الله عنه ووقف ذلك
عند الائمة الاربعة ابو حنيفة النعمان بن ثابت امام العراقيين • ومالك بن انس الاصبحي امام اهل
المدينة • ومحمد بن ادريس الشافعي امام اهل مصر • واحمد بن حنبل امام اهل الشام فاما ابو حنيفة
فقدم القياس على الحرج ومعتمده من بين المآخذ لوثوقه بالاطراد العقلية في المناحي الشرعية
واما مالك فمعتمده العمل عمل اهل المدينة لمباشرتهم عمل الرسول ومخالطته واتصال ذلك فيهم

خالفا من سالف وسوح في مناحي اجتهاده تغليب مقاصد الشرع اذا تحققت على جميع ما يعارضها من قياس
او خبر وكان مذهبه لذلك اصح مسنى وارجح فاضلا • واما الشافعي فمعتدم الحرمين العباسين ومعتمد رعاية احوال
الدلالات اللفظية في مناحي اجتهاده • وكان اعرف في اللسان لمرباه في مهده • واما ابن حنبل فمعول
على الاحاديث قلت او كثرت بانت دلالتها او خفيت ومامناطهم في ذلك الا مثال يوم وردت عليهم صحيفة من
سلطانهم يتضمن امرا او نهيا فيهم فقرعوا الى قراهم وذوي البصر بالكتاب فيهم فطائفة حملتها الفاظها على
مفهوم مقتضاها الوضعية خاصة وقدمتها على جميع ما سخ في اطارهم وهؤلاء مثل الشافعي وطائفة اعتدت في ذلك
بما عندها من الاصول النظرية الصحيحة وحملت تلك الالفاظ عليها وهؤلاء مثل ابي حنيفة وطائفة رجعت الى ما
يعرف من مقاصد صاحب الكتاب في مناحي اوامره ومناهيه وما باشرت من علم رسله مرة بعد اخرى وهؤلاء
مثل مالك وطائفة عضدت الفاظ الكتاب وغيره من كتاب المرسل بعضا ببعض فاعتمدت العمل بذلك
فهذه امثلتهم ثم ان الاجتهاد لما انتهى اليهم واستقر الخلاف في الشرعيات عندهم سد الناس باب
الخلاف وطرقه لما كثر من شعب الاصطلاحات في العلوم وعاق عن الوصول الى رتبة الاجتهاد والماخذ من
اسناد ذلك الى غير اهله ومن لا توثق براءته ولا ديانته وصرحوا بالعجز والاعواز وردوا الناس الى تقليد من
كل ومن اختص به من المقلدين وحظروا ان يتداول غير مظانهم تلهيا لما فيه من التلاعب • ولم يقل
بمثل هذا احد من المقلدين بعد صحيح الاصول واتصال سنده بالرواية لا محصول
للتقيد اليوم لمنتحله غير هذا • ومدعي الاجتهاد هذا العهد مردود على عقبه مهجور مقلده وصاد
اهل الاسلام اليوم على تقليد هؤلاء • فاما ابن حنبل فمقلده قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد واصالته
في معاضدة الرواية والاخبار بعضها ببعض • واما ابو حنيفة فمقلدوه اليوم اهل العراق وبلاد
الهند والصين • وما وراء النهر وبلاد العجم كلها لما كان مذهبه احض بالعراق ودار الاسلام وكان
تلميذه صاحبه المختار من بني العباس فكثرت تواليفهم ومناظراتهم مع المالكية والشافعية وصنفت
مناحيهم في الخلافيات وحاموا حول تعليل مستطرف واطراد عربية وتمهيد ابي زيد الدبوسي وبالمغرب
منها قليل منقله القاضي ابو بكر بن العربي وابو الوليد الباجي في رحلتهما واما الشافعي فمقلدوه
بمصر اكثر مما سواها • واما المالكية فاختص مذهبه باهل الاندلس والمغرب لسلمهم الى
الاقتداء وملاحظتهم ما لاحظ من عمل اهل المدينة ولما صار مذهب كل امام علما مخصوصا عند اهل
مذهبه ولم يكن لهم سبيل الى الاجتهاد والقياس لانهم مقلدون فاضاحوا الى مقيد المسائل في
الالحاق وتقريبها عند الاشتباه بعد الاستناد الى الاصول المتقررة من مذهب امامهم وصار ذلك كله
محتاج الى ملكة راسخة تسدد الى ذلك النوع من النظير والتفرقة واتباع مذهب امامهم فيها
ما استطاع وهذه الملكة هي علم الفقه لهذا العهد واهل المغرب جميعا مقلدون لمالك رضي الله عنه
وقد كان تلميذه اقرانه بمصر والعراق فكان بالعراق منهم القاضي اسمعيل وطبقته وكان بمصر ابن
القاسم واشهب وابن عبد الحكم وطبقتهم ورحل من الاندلس عبد الملك بن حبيب فاخذ عن ابن القاسم
وطبقته وبث مذهب مالك بالاندلس • ودون فيه كتاب الواضحة ثم دون العتبي من تلميذه
كتاب العتبية ورحل من افريقية اسد بن الفرات فكتب عن اصحاب ابي حنيفة ثم انتقل الى مذهب

مالك

مالك وكتب عن ابن ابي القاسم في جميع ابواب الفقه وجاء الى القيروان بكتابه وسمى المدونة نسبة
الى اسد بن الفرات فقرأ سحنون على اسد ثم ارتحل الى المشرق ولقي ابن القاسم واخذ عنه وطالبه بمسائل
الاسدية فرجع عن كثير منها وكتب سحنون مسائله ودونها وكتب معه ابن القاسم الى اسد ان محو من اسدية
ما رجع عنه وان يأخذ بكتاب سحنون فانصرف من ذلك فترك الناس كتابه واتبعوا مدونة سحنون على ما كان
فيها من اختلاط المسائل في الابواب وكانت تسمى المدونة المختلطة • وعكف اهل القيروان على هذه
المدونة والمختلطة في كتابه المسمى بالمختصر ولخصه ايضا الوسعيد البرادعي في كتابه المسمى بالمهذب
واعتمده المشيخة من اهل افريقية • واخذ وابه وتركوا ما سواه • وكذلك اعتمد اهل الاندلس كتاب
العتبية وحرروا الواضحة وما سواها • ولم يزل على المذهب يتعاهدون هذه الامهات بالشرح والايضاح
فكتب اهل افريقية على المهذب والمدونة ما شاء الله ان يكتبوا مثل ابن يونس واللخمي وابن محرز
والمعافري وابن بشير وامثالهم وكتب اهل الاندلس على العتبية ما شاء الله ان يكتبوا مثل ابن رشد وامثاله
وزخرت بحار المذهب المالكي في الاقطار الى ان انقرض عمران قرطبة والقيروان ثم نشبت بهما
اهل المغرب من بعد ذلك حتى جاء كتاب ابي عمرو بن الحاجب لخص فيه طرق اهل المذهب في كل
وبعد بدا قولهم في كل مسئلة فجاء كالمنهاج للمذهب وعكف عليه الكثير من طلبة المغرب وخصوصا اهل الجاية
لما كان كبير شيخهم ابو علي ناصر الدين هو الذي جلبه الى المغرب فانه كان قرأه على اصحابه بمصر ونسخ مختصره
ذلك وجاء به فانتشر بعطر بجاه في تلميذه ومنهم انتقل الى سائر امصار المغرب وطلبة الفقه بالمغرب
لهذا العهد تبدا ولون قراءة وتبدا ولونه لما نوه عن الشيخ ناصر الدين من الترغيب فيه وهم مع ذلك
يتعاهدون كتاب المهذب في دروسهم • والله يهدي من يشاء •

واما علم الفرايض

وهو معرفة فروض الورثة ومناسبتها وذلك اذا هلك احد الورثة وانكسرت سهامه على فروض
ورثته فانه حينئذ يحتاج الى حساب يصح الفريضة الاولى حتى يصل اهل الفروض جميعا في الفريضتين
الى فوق منهم وقد يكون ذلك من المناسخات اكثر من واحد واثنين ويتعدد ذلك تعددا كثيرا وبعدد
ما يتعدد يحتاج الى الحساب • وكذا اذا كانت الفريضة ذات وجهين مثل ان يعرض بعض الورثة بوارث
وينكره الآخر فيصح على الوجهين حينئذ ويسقط منكر السهام ثم قسمة التركة على نسب سهام الورثة من اصل
الفريضة وكل ذلك محتاج الى الحساب فافرد وا لهذا الباب من ابواب الفقه لما اجتمع فيه الى الفقه
من الحساب وكان غالبا فيه وجعلوه قاسما مشتركا والناس فيه نوالف كثيرة اسهلها من مناحي
الاندلس كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي ابي القاسم الحوفي ثم الحدي • ومن مناحي اهل افريقية ابن الممر
الطرابلسي وامثالهم وهو من شريف لجمعه بين المنقول والمعقول والوصول به الى الحقوق في الوراثات
عند ما يجهل الخطوط ويشكل على القاسمين • وللعلماء من اهل الامصار بها عناية • ومن المصنفين من
يخرج فيها الى الغلو في الحساب وفرض المسائل التي يحتاج الى استخراج المجهولات من فنون الحساب
كالجبر والمقابلة والتصرف في الجذور وامثال ذلك فيملون بها قوالب يقسم وهذا وان لم يكن مفيدا ولا

القاسمين

بين الناس وكا يفيد فيما يتداولونه من ورائهم فهو تفيد المران وتحصيل الملكة في المتداول على اكمل الوجوه • وقد صح الاكثر من اهل هذا الفن في فضله بالحديث المنقول عن ابي هريرة ان الفرائض ثلث العلم وانها اول ما ينسى • وفي رواية نصف العلم خرجه ابو نعيم الحافظ واصح به اهل علم الفرائض بناء على ان المراد بالفرائض فروض الورثة والذي يظهر ان هذا المحمل بعيد وان المراد بالفرائض انما هي الفروض كلها في العبادات والمعاملات والمواريث وغيرها وهذا المعنى يصح فيه التصفيه والتلقيب واما فروض الورثة فهي قليل من ذلك كله بالنسبة الى علم الشريعة وتعين هذا المراد ان حمل لفظ الفرائض على هذا الفن المخصوص او تخصيصه بفروض الورثة انما هو اصطلاح ناشئ عند حدوث الفنون والاصطلاحات • ولم يكن صدر الاسلام يطلق هذا اللفظ الا على عمومه من الفرض الذي هو التقدير والقطع وما كان المراد به في الحديث الا جميع الفروض كما قلناه فلا ينبغي ان يحمل الا على ما كان في عصرهم فهو ان لبق بمراديهم منه والله اعلم

اصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافيات

وهو معرفة قواعد واحكام لغوية وعقلية ووضعيه يعرف بها كيف يستنبط الحكم الشرعي من الادلة الشرعية وذلك ان الاصل العام لاحكام الشريعة كلها هو القرآن والسنن من قول النبي صلى الله عليه وسلم وفعله التي هي مسنده للقرآن ثم يقع عن السنة اضطران احدهما ان عامتها سترع عليها الاحكام الشرعية وهما الاجماع والقياس • والاجماع صار اصلا لدلالة الشرع على الامة معصومة من الخطأ والضلال فيما اجتمعوا عليه لقوله صلى الله عليه وسلم لا تجتمع امتي على ضلالة واما القياس فلحديث معاذ وغيره الدالة على جواز الاجتهاد والاعتبار في الاحكام الشرعية وذلك ان المنصوص الشرعية من الكتاب والسنة لا تفي بجميع الاحكام المحتاج اليها في جميع الواقعات فاذا افقد المجتهد الحكم في واقعة من الواقعات ووجد بين ذلك المحل وبين المحل المنصوص معنى مشتركا صلح ان يعلل به الحكم في المحل المنصوص الى الصورة الواقعة بالمحل المنصوص وعدي الحكم المنصوص منه اليها وجعلها فرعا لذلك الاصل الذي وقع فيه النص وكان هذا القياس لاجل هذه الحاجة اصلا من اصول الشرع التي هي الاحكام الشرعية على ان الظاهرية مخالفون في كونه اصلا مشروعا لاستنباط الاحكام به وانما الفقه هذا المذهب الا يمة الثلاثة ومن تابعهم عليه فلذلك صارت هذه الاصول الاربعة مبانى للاحكام الشرعية يستنبط منها ويوجد من ادلتها وكان اخذ الاحكام منها واستنباطها منها لنفس على اي وجه اتفق بل على سنن مخصوص مثل احكام المنصوص في دلالتها لغة وشرعا واحكام الخبر عند الفقهاء والنظار واحكام الحديث عند اهله واحكام الاجماع وتحقيق مناط العلة في القياس واحكام الاجتهاد والمجتهدين وكان الصدر الاول يعرفون اللغوي من ذلك كله بغير صناعة وعرفوا اللغوي مما مهدوه من ذلك حتى اذا انقضى السلف والصدر الاول وصارت العلوم صناعية احتيج الى الكلام في معرفة هذه القواعد والاحكام يستنبط بها فروع الفقه من الادلة الشرعية المذكورة وتعين العلم بهذه القواعد التي يعرف بها استنباط الفقه من المنصوص الشرعية

فسلموا واسموه اصول الفقه وكان اول من كتب في ذلك الشافعي رحمه الله كتب فيه رسالته المشهورة
في احكام الاوامر والنواهي والاجمال والبيان والاجماع والخبر والنسخ وحكم العلة المنصوصة
من القياس حتى اذا صار لسان العرب صناعة رسد في علم اصول الفقه ما سمي عليه من احكام اللغات وعلم
اصول الفقه انما ذلك لما تمهد قواعده واكمل مسايله والف فيها ائمة السنة والمعتزلة من بعدهم
فكان من تواليف اهل السنة فيها كتاب البرهان لامام الحرمين ابي المعالي وكتاب المستصفى لابي حامد
الغزالي وكان من تواليف ائمة المعتزلة فيها كتاب العمد لعبد الجبار وشرح المسمى بالمعتمد لابي الحسين
البصري واستوعب جميع ما في هذه التواليف الاربعة الامام فخر الدين بن الخطيب في كتاب المحصول
وسيف الدين الآمدي في كتاب الاحكام واختصر كتاب المحصول تلميذ الامام كسراج الدين في كتاب التحصيل
وتاج الدين الارموي في كتاب الحاصل ولخص نهاب الدين بن القرافي فيها اصولا للبيدي في كتاب سماه
التنقيحات فجاء من احسن المدارك واختصر كتاب الاحكام للآمدي ابو عمرو بن الحاجب في كتابه الذي سماه
منتهى الوصول والامل في علمي الاصول والجدل ثم اختصر هذا المختصر في كتاب تداوله طلبة العلم وعني
الائمة من بعده بشرحه وتفسيره كالسراجي وغيره من ائمة المتاخرين ووضع شمس الدين الاصبهاني على
شرحا واعاد فجاء من احسن الاوضاع والتواليف في الفن

وأما الخلافيات

فاعلم ان هذا الفقه المستخرج من الادلة الشرعية مفوض الى نظر المجتهدين والخلاف بينهم في
اضافة الحكم منها، خلاف مداركهم وانظارهم بموضوري كما قدمناه الا انه لما انتهى الى الائمة الاربعة
وكانوا من الشهرة ومن الظن بهم بمكان اقتصر الناس على تقليدهم ومنع من الاجتهاد لتعذر الوفاء
وتشعب العلم باتصال الزمان واخذت مذاهب هؤلاء الائمة كالاصول الشرعية واقيمت عند المقلد
بين
مقام الادلة الشرعية الاصلية واجري الخلاف بين الممكن بها والاخذين باحكامها مجرى الخلاف في النصوص
الشرعية والاصول النقلية وحررت بينهم المناظرات في تصحيح كل منهم مذهب امامه كجري على اصول صحيحة
وطرائق قويمة وصح بها كل على صحة مذهبه الذي قلده وتمسك به واجريت في مسايل الشريعة كلها وفي
كل باب من ابواب الفقه فتارة تكون الخلاف بين الشافعي ومالك وابو حنيفة موافق احدهما وتارة
بين الشافعي وابي حنيفة ومالك موافق احدهما وتارة بين مالك وابي حنيفة والشافعي يوافق احدهما
وكان من هذه المناظرات بين مجتهدي مولاء الائمة ومناظرات مذاهبهم ومواقع اجتهادهم وكان هذا
الصنف من العلم يسمى بالخلافيات ولابد لصاحبه من معرفة القواعد التي يتوصل بها الى استنباط الاحكام
كالاصولي والفرق بينهما ان الاصولي يحتاج اليها للاستنباط وهو التفقه المجتهد وصاحب الخلافيات
يحتاج اليها لحفظ تلك المسايل المستنبطة مذهبا ولها فالف وهو لعمري علم جليل الفايدة في تعرف
مآخذ الادلة الائمة واداتهم ومن ان المطالعين له على الاستدلال فيما يرد ومؤن الاستدلال
عليه وتواليف الحنفية فيه والشافعية اكثر من تواليف المالكية لان القياس عند الحنفية يقدم على
الخبر كما عرفت فهم اهل النظر والبحث واما المالكية فالخبر والعمل متقدم عندهم وليسوا باهل

تطرق ايضا فاكثر اهل المغرب وهم ما ادونه عمل من الصنايع الا في الاقل والغالب منه فانه الماضي الى زيد الدين كتاب التعليم ولابي بكر بن العربي من المالكية كتاب استخلص جليه من المشرق وقد جمع ابن الشاعاتي في مختصره من صناعة اصول الفقه جميع ما سبق عليه من الفقه الحنفي مسرودا في كل مسئلة منه ما اختص به من الخلافيات وجاء من احسن الاوضاع واهل المشرق يد اولية لهذا العهد فيما بلغنا

واما الجدل

وهو معرفة اداب المناظرة التي جرى بين اهل المذاهب الفقهية وغيرهم فانه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعا وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب مرسل عنانه في الاحتجاج ومنه ما يكون صوابا ومنه ما يكون خطا اصاح الايمان يضعوا ادبا واحكاما يسيف المتناظران عند صدوره في الرد والقبول وكيف يكون حال المستدل والمجيب وحيث ما يسوغ لهما ان يكون مستدلا وكيف يكون مقطوعا وعلى اعتراضه او معارضته وان يجب عليه السكوت ولحضه الكلام والاستدلال ولذلك قيل فيه انه معرفة بالقواعد التي يتوصل بها الى حفظ راي او هدمه فان ذلك الراي من الفقه او غيره وهو طريق نظرية البرهاني وهي خاصة بالادلة المرجع من النقل والاجماع والقياس وطريقه الجدلي وهي عامة في كل دليل يستدل به من اي علم كان وكثرة استدلال وهو من المباحث الحسنة عندنا والمغالطات في نفس الامر كثيرة الا ان صور الادلة والاقيسة فيها محفوظ مراعاة يجري فيها طرق الاستدلال كما ينبغي وهذا العهد هو اول من كتب فيها وتنصب وسبب الطريقة انه وضع كتابه المسمى بالارشاد مختصرا وتبعه من بعده من المتاخرين فالشفي وغيره جاوا على اثره وسلكوا مسلكه وكثرت في ايدي الناس وهي لهذا العهد كاسدة بحورة لنقص العلم والتعليم في الامصار الاسلامية والله غالب على امره

علم الكلام

وهو علم يتضمن الحجاج عن العقايد الايمانية بالادلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقاد من مذاهب السلف واهل السنة والقصد من العقايد الايمانية هو التوحيد فلنتكلم برهانا على ذلك عمليا على اقرب الطرق والمقاصد يرجع الى سبب حدوث علم الكلام في الملة وما دعى الى وضعه ودفاعه تلك الداعية لهذا العهد فنقول اعلم ان كل حادث من الحوادث في العالم سواء كان من الذوات والافعال البشرية او الحيوانية فلا بد له من اسباب متقدمة عليه بالطبع في مستقر العادة وغير متم كونه وكل واحد من تلك الاسباب حادث ايضا فلا بد له من اسباب اخرى ولا تزال تلك الاسباب مرتقية حتى تنتهي الى مسبب الاسباب وموجدها وخالقها سبحانه وتعالى الا هو وتلك الاسباب في ارتقاءها مضاعف فيتفسح طولا وعرضا وحار العقل في ادراكها وتعدادها قاصرة دون الاحصاء الا العلم المحيط بسائر الافعال البشرية والحيوانية فان من جملة اسبابها في اسبابها الشاهد القصود والارادات امورا نفسانية فاشئة في الغالب عن تصورات سابقة تتلو بعضها بعضا وتلك التصورات هي اسباب وصدا الفعل وقد يكون اسباب تلك التصورات تصورات اخرى وكذلك ما يقع في النفس

من

من التصورات بحيث لم يبق له ان لم يطلع احد على مبادي الامور المتشابهة ولا على ترتيبها الطبيعي استتابعها
الله في الكل بتبع بعضها بعضا والانسان عاجز عن معرفة مبادئها وغاياتها وانما يحيط علما في الغالب
بالاسباب التي هي طبيعية ظاهرة ويتبع في مدارکها على نظام وترتيب لان الطبيعة محصورة
للنفس ويحب طورها واما التصورات فنطاقها اوسع من النفس لانها للعقل الذي هو فوق طور
النفس فلا تكاد النفس تدرك الكثير منها فضلا عن الاحاطة وتامل ذلك من حكمة الشارع في نهيه
عن النظر في الاسباب والوقوف معها فانه واد يهتم فيه الفكر والحلوم منه بطايل ولا تظفر بحقيقة
قال الله تعالى ذرهم في خوضهم يلعبون • وربما انقطع في وقوفه عن الارتقاء الى ما فوقه فرجعت قدمه
واصبح من الضالين الهالكين نعوذ بالله من الحرمان والخسران المبين ولا يحسن ان هذا الوقوف او
الرجوع عنه في قدرتك واختيارك بل هو امر يحصل للنفس منه وصمة يحكم من الخوض في الاسباب
على سنة لا تعلم اذ لو علمنا لتحرزنا منها فليحترز من ذلك بقطع النظر عنها جملة وايضا فوضع تاثير
هذه الاسباب في اكثره من مسمياتها مجهول لانها انما توقف على العادة والظاهر وحقيقة التاثير
وكيفيته مجهولة وما اوتيتم من العلم الا قليلا فلذلك امرنا بقطع النظر عنها والغائها جملة والتوجه
الى مسبب الاسباب وفاعلها وموجدها لتصح صفة التوحيد في النفس على ما علمنا الشارع
الذي هو اعرف بمصالح ديننا وطرق سعادتنا واطلاعه على ما وراء الحس قال صلى الله عليه وسلم
من مات يشهد ان لا اله الا الله دخل الجنة • عند ذلك الاسباب فقد انقطع وحقت
عليه كلمة الكفر وان تعمق في بحر النظر والبحث عنها وعن اسبابها وثمراتها واحدا واحدا
فانا الضامن له ان لا يعود الا بالخيبة فلذلك نهانا الشارع عن النظر الى الاسباب وامرنا
بالتوحيد المطلق • قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد وتامل
اسرار الضمير المبتدا في قل هو الله احد تحد فيه رايحة هذا النهي ان كنت ادركت شيا من ذوق
البلاغة والمعتبر في التوحيد قطع النظر عن الاسباب علما وحالا • اخبرني الثقة عن نسخ العارفين
عصر بعهدنا يوسف الكوراني قال تكلم ذات يوم في مقام تعليمه وارشاده فيما ينبغي للمريد ان
يكون عليه من قطع النظر عن الاسباب ثم ضرب لنا في ذلك مثلا فامسك سبابته ذنب لحيته
وفصل شعراته واحدة واحدة وقال انظركم ترى بحارس هذه الشعرات من واحدة
الى اخرى فلا يكاد يسبق له مع انحصارها في يده وتحت طوره ثم قبض على اصل الشعرات
وهو اصل الذنب وقال اذا امسكت تحته الى جانب الكل فقد امسكت بالكل فما تراه قادرا
بهذا المثال عن التوحيد على طريقة القوم في تعليمهم بالامثال ولا تقنع ما ترعم لك الفكر من
انه مقتدر على الاحاطة والوقوف على الوجود وسعة راية في ذلك واعلم ان الوجود
عند كل مدرك في بادي رايه انه منحصر في مداركه لا يعدوها والامر في نفسه بخلاف ذلك
والحق من وراء الاترى الى الاصم كيف تحضر الوجود عنده في المحسوسات الاربع والمعقولات
وسقط من الوجود عنده صنف المسموعات وكذلك الاعمى ايضا سقط من الوجود عنده
صنف المسموعات وكذلك الاعمى ايضا سقط من الوجود عنده صنف المرئيات ولولا ما ورد هم

الى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من اهل عصره والكافة لما اقروا به بكنهم سعون الكافة في اثبات هذه الاسباب لاقتضى فطرتهم وطبيعة ادراكهم كما يسعل الحيوان ويطق لوجدناه مدركا لاشياء محسوسات ومتواطئا لديه بالكلية واذا علمت ذلك فاعلم هناك فرانا الادراك غير مدركا تماما ان ادراكا تماما محدودة محدد وعلى الله اكثر من خلق الناس واكثر مجهول والوجود اوسع نطاقا من ذلك والله من ورائهم محيط فاهم ادراكك ومدركاتك في الخبر واسع مما اصول السامع به في اعتقادك وعملك فهو احرص على سعادتك واعلم ما سعقك لانه من طور فوق ادراكك ومن نطاق اوسع نطاقا من عقلك وليس ذلك تعادح في العقل ومداده بل العقل ميزان صحيح واحكامه يقينية لا كذب فيها غير انك لا تطمع ان يزن به امور التوحيد والاخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات وكل ما وراطوره فان ذلك طمع في محال ومثال ذلك رجل راى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع ان يزن به الجبال وهذا لا يدل على ان الميزان في احكامه غير صادق بل العقل حد يقف عنده ولا يتعدى طوره حتى يحيط بالله وبصفاته فانه درة من درات الوجود الحاصل منه ونقطة من هذا البحر فتقدم العقل على السمع في امثال هذه القضايا وقصوره فيها واضمحلال رايه فقدس لك الحق من ذلك واذا تبين ذلك فلعل الاسباب اذا تجاوزت في الادراك وجودنا خرجت عن ان تكون مدركة فضيل العقل في بيداء الاوهام ويحاوز ويقطع فاذن التوحيد هو العجز عن ادراك الاسباب وكيفياتها مرارا وتفويض ذلك الى عالمها المحيط بها اذ لا فاعل غيره وكل ما سعى اليه وتوجع الى قدره وهذا هو معنى ما نقل عن بعض الصديقين العجز عن الادراك ادراك ثم ان قال هذا التوحيد يحصل صفة وحالا او علما ومقالا والفرق بين الحال والعلم فوق ما بين القول والاتصاف وشرحه ان كثيرا من الناس يعلم ان رحمة اليتيم والمسكين قربة الى الله مندوب اليها ويقول ذلك ويعترف به ويذكر ما ورد من الشريعة هو لو راى يتيما او مسكينا من ابناء المستضعفين او ارضا تعوعنه فاستحق ان يباشره فضلا عن المسح عليه للرحمة وما بعد ذلك من مقامات العطف والخلق والصدقة فهذا انما حصل له في رحمة اليتيم مقام العلم ولم يحصل له مقام الحال والاتصال ومن الناس من حصل له مع مقام العلم والاعتراف بان رحمة المسكين قربة الى الله مقام اخر اعلى من الاول وهو الاتصاف بالرحمة وحصول ملكتها فمتى راى يتيما او مسكينا بادر اليه ومسح عليه والمس الصوف على الماسه والشفقة عليه لا تكاد تصبر عن ذلك ولو قمع عنه ثم يتصدق عليه بما حضره من ذرات يده وكذا علمك بالتوحيد مع اتصافك به والعلم حاصل عن الاتصاف ضرورة وهو اوثق معنى من العلم الحاصل قبل الاتصاف وليس الاتصاف بحاصل عن مجرد العلم حتى يمنع العمل وتكثر معه اغراره فيحتمه فرسخ الملكة وتحصل الاتصاف بالتحقيق وهي العلم الثاني النافع في الاخرة فان العلم الاول المجرد عن الاتصاف قليل الجدوى والنفع واعلم ان الكمال عند الشارع في كل ما طلب انما هو في هذا فما طلب اعتقاده والكمال فيه في العلم الثاني الحاصل عن الاتصاف وما طلب علمه من العبادات فالكمال فيه في حصول الاتصاف والتحقق بها ثم ان الاقبال على العبادات والمواظبة عليها هو المحصل لهذه المرتبة قال صلى الله عليه وسلم في راس العبادات جعلت قرة عيني في الصلاة فان الصلاة صارت له صنعة وحالا بل وجدها منتهى لذته وقرة عينه وان هذا من صلاة الناس ومن لهم بالمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون اللهم وفقنا وارشدنا الصراط المستقيم صراط

الذين

الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين وقد بين لك من جميع ما ذكرناه ان المطلوب في
التكليف كله حصول ملكة راسخة في النفس ينشأ عنها على اضطراري للنفس وهو الذي يحصل به السعادة
وان ذلك سواء في التكاليف القلبية او البدنية ويتبين منه ان الايمان الذي هو اصل التكاليف
كلها هو بهذه المثابة وانه ذو مراتب اولها التصديق القلبي الموافق للسان واعلاها حصول
من ذلك الاعتقاد القلبي على القلب فيستتبع الجوارح وتندرج
في طاعته جميع التصرفات حتى يخيط الافعال كلها في طاعة ذلك التصديق وهذا ارفع
مراتب الايمان وهو الايمان الكامل الذي لا يفارق المؤمن معه كبيرة ولا صغيرة اذ حصول الملكة ورسوخها
مانع من الانحراف عن مقتضاها حتى قال صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن
ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن وقد ذهب مرقل لما سأل سفيان بن عيينة عن النبي
صلى الله عليه وسلم واصحابه قال ايزيد احد من اصحابه بسخطه لدينه قال لا قال كذلك الايمان حين يخالط
بشاشة القلوب ومعناه ان ملكة اذا استقرت عسر على النفس مخالفتها وهذه
هي الرتبة العالية من الايمان وهي بمثابة العصمة للانبياء اذ ان العصمة واجبة للانبياء وجوبا
سابقا وهذه حاصلة للمؤمنين حصولا تابعا لاعمالهم وتصديقهم فهذه الملكة ورسوخها مع التفاوت
في الايمان كالذي يسمى عندنا من اقاويل السلف وفي سراج البخاري كثيرة مثل ان الايمان قول
وعمل وانه يزيد وينقص وان الصلاة والصيام من الايمان وان تطوع رمضان من الايمان
والحياء من الايمان والمراد بهذا كله الايمان الكامل الذي اشرنا اليه والى حصول ملكته **واما**
التصديق الذي هو اول مراتبه والتفاوت فيه فمن اعتبر اوائل الابتداء وحمله على التصديق
منعه من التفاوت ومن اعتبر اواخر الابتداء وحمله على هذه الملكة التي هي الايمان الكامل
ظهر له التفاوت وليس ذلك بقادح في اتحاد حقيقة الاول التي هي التصديق فافهمه **واعلم**
ان هذا التصديق الذي في المرتبة الاولى ليس هو بكل شيء بل هو امر مخصوص
معلوم كلفنا التصديق به لتعلقه مع الاقرار به بالسنتنا وهي العقائد الايمانية المقررة في
علم الكلام ولنشر هو الها مجملة لتتبين لك حقيقة هذا الفن وكيفية مدونه **فنقول**
اعلم ان الشارع لما امرنا بالايمان بهذا الخالق الذي رد الافعال كلها اليه وافرده بها كما كان
قدمناه وعرفنا ان في هذا الايمان نجاتنا اذا حضرنا عند الموت لم نعرفنا بكنه حقيقته اذ ذلك
متعذر على ادراكنا ومن فوق طورنا فوصفه لنا بصفات نرجع اليه من اماراتنا ونتعقل من معقولية
صفاتنا وهي العلم والقدرة والارادة والسمع والبصر وان ما جاء به
فهو خطابه وكلامه وانه بعثنا بعد الموت وانه بعث الرسل لنجاتنا في ذلك المعاد وان نعيمنا في
ذلك المعاد الجنة واحوال تناسبها وعذابنا فيه جهنم واحوال تناسبها وانه منذر لكل ما سبق بنا في الدنيا
والاخرة من خير او شر ولا محيص لنا عن قضايا وقدره هذه جماع الايمان والتوحيد قال صلى الله
عليه وسلم حين سئل عن الايمان فقال ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر وبالقدر
خيره وشره هذه عقيدة الايمان اخذ عن السلف واقتفاء التابعون وحققها الائمة الاربعة

واسند اليها العلماء من بعدهم وهي مبسوطة في كتب المتعلقين على الرسالة لابن ابي زيد ولسناهية
ثم عرض من بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقايد اكثر مناراً من لاي المتشابهة وعدد
كثير من الملحدة عن فهم السلف فيها او اقرارهم على ما جاءت الى انفهم التاصيم فالحدوا في الدين
وعظم ضررهم لما كثر العقايد والاحتياط فيها على المومنين وفشا في الخواص من اراء الملحدة القول
بخلق القرآن وكان هذه البدعة خلفاء الاسلام المامون والمعتصم والواثق وجهم
كان المعتزلة ابن ابي داود وحمل على امتحان اهل السنة عليه فامتحن احمد بن حنبل وقتل خلق كثير
من علماء اهل العصر وان وعزهم وطال مع ذلك الخوض من الشيعة في الامامة وتعصبهم على البيوت
وتقديم علي على الشيخين وما مطوفوهم من الجرح في سنانه وكثر الالحاد وتفرع وتشعب الى
المنازعة طرقه فيه المبتدعة من كل الفرق من كل جانب فقام لمحاجهم ومدافعتهم من الائمة من
الهمه الله الى ذلك ودفعه اليه وجعله وظيفة في الدين في ائمة الاشعرية وكان فيهم المتضلع للان
لسبق علم الكلام فكثرت فيه التواليف والصحف وطال فيه القول وارتفعت المناظرات
صدراً من المله وبقيت دواوينهم وانار علومهم فيها بادية لمن يتصفحها ومقاماتهم في قمع العقايد الاعلام
راسخة عند من عرفها وهذا موضع علم الكلام في هذه الملة ومومن العلوم التي تستوي فيه صدوث
الملل فان العقايد الايمانية بادية في كل ملة والاختلاف حادث لاجل المتشابهات من النصوص اذ مجال
العبادة تضيق عن تلك الاحوال ومن المتشابه يكون منار الخلاف فنحى علم الكلام وكان اول من كتب
فيه عبد الله بن سعيد بن كلاب عند ما امتحن احمد بن حنبل ثم جاء من بعده الشيخ ابو الحسن الاشعري
فكتب فيه عقايد حمة ودواوين مبسوطة بين فيها عقايد السلف ورضها بالحجج العقلية واقتفى طريقته
من بعده تلميذه واحد عهم القاضي ابو بكر الباقلاني وتصدر للامامة في تلك الطريقة وعمد فيها
واميل فيها على مذهب الشيخ ابي الحسن الاشعري كتبا مطولة ومختصرة ووضع المقدمات العقلية التي يوقف
عليها ادلتهم مثل اثبات الجوهر والخلاف انا العرض لا يقوم بالعرض وامثال ذلك مما هو من احس الطرايق
واوضحها مبنى الان صور الادلة فما عرض شبهة على الوجه الصناعي في الاقيسة والادلة لسداجة
القوم ولان صناعة المنطق التي تثبت بها الاقيسة وتعلم لم تكن لذلك العهد ظاهرة في الملة ولما
ظهرت لم ياخذ بها المتكلمون لملابستها للعلوم الفلسفية التي هي مباينة لعقايد الشرع بالجملة
وكانت محجوبة وحاد من ائمة الاشعرية ابو المعالي امام الحرمين فامعن في الطريقة كتاب الشامل
واوعبها فيه ثم لخصه في كتاب الارشاد فاخذ الناس امامها وعقدوه دينا مرضيا ثم امعن علم المنطق
في الملة وقراه الناس وميزوا بينه وبين العلوم الفلسفية وعلموا انه قانون ومعيار للادلة
والعلوم لا عين ولا اثر في قراءة ونظره فصححوا الادلة بمواضعها واسبروها بمعيان وزيفوا
علم الكلام ترتيبا احسن في تميز ادلته وتوقيعها على الوجه المنطقي وربما اصلحوا فيها كثيرا من
المباحث الفلسفية في الطبيعيات والالهيات ورددوا عليهم فيما خالف عقايد الشريعة
واصطلح مباحث علم الكلام بمباحث الحكما وصارت هذه طريقة اخرى مباينة للطريق الاول
وسمي طريقة المتاخرين واول من كتب فيها الغزالي وتبعه الامام ابن الخطيب وجاء

من

من بعدهم على انزم وهلم جرا • فاما العرب لهذا العهد فكتاب الارشاد هو المرجوع اليه في عقايد
السنة ولبعد عقايد ومقدمات كثير اختلف باختلاف الاصطلاح في التعليم واختلاف
طريقة المتقدمين والمتاخرين الان طريقة المتاخرين انما هي هيئة الطلبة للاعراق في معرفة
الحجاج والاطلاع على المذاهب • واما التقليد في العقايد فانما هو في الطريقة القديمة وانها الارشاد
والذي ينبغي ان يعلمه ان هذا العلم الذي يسمى علم الكلام عرض ضروري لهذا العهد على طالب العلم اذ
الملحدة قد انتصبوا والائمة من اهل السنة كفونا سانهم فمادوا وكتبوا والادلة العقلية
انما احتيج اليها لمادة فحولوا نصروا سئل الجنيد عن اهل علم الكلام فقيل له قوم يتكلمون
الله بالادلة عن صفات الحدوث وسمات النقص فقال سبحان الله حسبك العلم عن كل فائدة
اليوم في اعداد الناس وطلبة العلم فايدة معتبرة اذ لا يحصل حسن حامل السنة الجمل بالحجاج على عقايدها

علم التصوف

وقبل التنبيه على مذاهب الغلاة من المتصوفة وبيان فسادها اعلم ان هذه الطريقة
كانت طريقة الحق والهداية عند سلف الامة وكبارها ثم خلطت والتبست ثم تحضت عند الغلاة
الى الباطل وصرفت فيه وذلك ان اصل هذه الطريقة كانت كما للسلف وهي العكوف على العبادة
وانفراد بالاقبال الى الله والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة
ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة ويتبع ذلك غالبا كشف حجاب الحس والاطلاع
على عالم الروح والانس بالله اذا رجعت عن الحس الى الباطن وعدته بالذكر منعكفت احوال الحس
وقويت احوال الروح وتحمد وتسوم واعان على ذلك عدا الذكر في تهيئة ولا يزال ذلك تزايد
الى ان يصير بهتوة او يكشف حجاب الحس • وقوى الحس وتم وجود النفس الذي لها من ذاتها وهو
محل الادراك واستدلا عدة ملابة للروح في تهيئة فوائد هو الذكر والمقبلون على العبادة سائهم
هذا • وكان خط الصحابة والسلف رضوان الله عليهم من ذلك اوفر الحظوظ موقف
صلى الله عليه وسلم ان فيكم محدثين وان منهم عمر وفي فضائل ابي بكر وعلي وغيرهم من الصحابة كثير من هذا
وكان الاقبال على العبادة علما في الصحابة والسلف فلما فشى الاقبال على الدنيا في القرن الثاني
وما بعده وصح اليها الناس اختص المقبلون على العبادة باسم المتصوفة واستحقاق هذا الاسم في
التحقيق من لبس الصوف لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب الى لبس الصوف
واختصوا بمذهب الزهد والانفراد والاقبال على العبادة كانها لخلة مخصوصة ولم يكن الاعلى بهم
وسع ذلك في اكثرهم ما يتبعه غالبا من كشف حجاب الحس والاطلاع على عالم الارواح والمكاشفات
عوارض لا يعتد بها ولا يركن اليها ولا يسلون في طريقهم الى الله عندها ولا يلتفت المذكورون
في رسالة القشيري ومن اقتفى اثرهم من بعدهم وصارت علوم الشريعة على صنفين صنف مخصوص
بالفقهاء واهل القضا وهي الاحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات وصنف
مخصوص باهل الورع في العبادات ثم قصد اهل الطريقة الوضع فيها من لدن القشيري فما بعده

قد توفى ذلك منهم من حقق في احكام الاقتداء والورع ومن احسن التواليف في كتاب
الرعاية للمحاسبي واقتصر اخرون على آداب الطريقة وحدودها ومواجد القوم في حال كشف حجاب
الحس وسموا اصطلاحاتهم في العبارة عن ذلك كله وصيروه علما كما فعله القشيري في الرسالة والسهروردي
من المتاخرين واما لهم وجمع الغزالي بين الامرين في كتاب الاحياء فذكر فيه احكام الاقتداء واشار
الى الاصطلاحات وهو لعمري من احسن ما الف في ذلك لا معانه في الاقتداء باحكامه وصار علم التصوف
في الملة علما صناعيا بعد ان كانت الطريقة عبادة واقتصادا فقط وهو لعمري حسن على ما فيه من زيادة
علم لا ينتظم اليه اذ محصول الطريقة ايضا هو العبادة والاقتداء بمن لهما مارسه حالة مخصوصة فامينا هو
وكان اصطلاحا اصليا واداهم كذلك احتاجت الى بيان وتعليم وقيد ذلك بالدواوين
ثم ان قوما من المتاخرين من ابنائهم في اسم هذه النحلة ذهبوا الى الغرض على كشف الحجاب والاطلاع على عالم
الروحانيات صار رأس معقدهم وغاية مستحلهم وطريقتهم واعمدوا في ذلك رياضات مختلفة
الطرق لديهم باختلاف تعليمهم في امانة القوى الجسمانية ولعدية الروح العاقل للذكر وركود الحس حتى
تحصل للنفس ادراكاتها التي لها من ذاتها بتمام نشاتها وتعديتها ويتبع ذلك فاذا حصل لها ذلك الادراك
زعموا ان الوجود قد انحصر في مدركاتها حينئذ وانهم كشفوا ذوات الموجودات وتربيت وجودها
واعطاء حقايقها فربما من حكم الفلاسفة في مذاهبهم بل الفلاسفة اخرون فهم مدركاتهم اذا استلوا
عن مستندات اقوالهم جاؤا بامور اعتباطية منهومة الالفاظ متعلقة المعاني للفاظها مجال في الرد
او القبول واما هؤلاء فيقولون نحن ادركنا وحدانيا ورأينا عيانا قلنا وانت عنا مغيب
فادخل فما دخلنا فيه يطارحك ويتبين لك وفي هذا ما فيه ثم يصرحون باقوال وآراء مخالفة لظواهر
الشريعة وعقائد ويتهمون بذلك من لا وثوق له بدينه ويوقعونهم في مهاوي الضلال والبدع
وصار على الملة منهم دوائر لا باجتنابها ومذاهبهم واهل نحلتهم اجتناب السموم القاتلة
المهلكة ومن فوق هؤلاء الباطنية والجاولية واصحاب الحلي والطاهر والحضرات يرسون
صدور الوجود كلها عن صفة الواحدية التي هي مظهر الاحدية وتماما صادرات عن الذات الكريمة
التي هي عين الوحدة لا غير وسمى هذا الصدور التجلي واول مراتب التجليات تجلي الذات
في نفسها وهو متضمن الكمال بافاضة الايجاد والظهور لقوله في الحديث الذي تتناقلونه كنت
كنزا مخفيا فاحببت ان اعرف فخلقت الخلق ليعرفوني وهذا الكمال في الايجاد المترتب في الوجود وحصل
الحقايق هو عندهم علم المعاني والحضرة العماية والحقيقة المحمدية وهي حقايق الصفات واللوح وحقايق
الانبياء والرسل اجمعين والكمل من اهل الملة المحمدية وهذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية وتصدر
عن هذه الحقايق حقايق اخرى في الحضرة العماية وهي مرتبة المثال ثم عالم العرش والكرسي ثم
الافلاك ثم عالم العناصر ثم عالم التركيب هذا في عالم الرتق فاذا تجلت فهي في عالم الفتق وهذا
كما تراه مثل ترتيب الفلاسفة لعنته من عزير وان ولا دليل الا دعوى مشاهدة ووجدان ممتلط
بالخيالات والاوهام ومن هؤلاء ابن العربي وابن الفارض وابن سبعين وابن برجان
والبوني والحايمي وابن سودكين ومن لا يحصى كثرة وقصيدة ابن الفارض على روي التاء مملوة

من

من هذا المذهب وشرحها للغرض على كذلك وهذا محصول رأيهم **واما الحلولية والباطنية**
فذاهبهم اعرق في الكفر من هذه واقرب الى الباطل من قولهم بحلول الذات الالهية في كل موجود من
الموجودات بما يتضمن ذلك من التناسخ والآراء الكفرية ومن قرب مواخذ اصحاب الوحدة وهو راي
اغرب من الاول في تعقله وتفاريعه وهم يزعمون ان الوجود جملة له قوى في تفاصيله بها كانت حقايق
الموجودات وصورها ومواداها والعناصر انما كانت بما فيها من القوى وكذلك مادتها لها في ذلك
نفسها قوة بها كان وجودها ثم ان المركبات فيها تلك القوى متضمنة في القوة التي كانت بها التركيب
كالقوة المعدنية هي قوى العناصر بعينها وزيادة القوة المعدنية ثم القوة الحيوانية متضمن
القوى المعدنية وزيادة قوة في نفسها وكذا القوة الانسانية ثم الملك متضمن القوة الانسانية
وزيادة وكذا الذوات الروحانية والقوة الجامعة للكل من غير تفصيل هي القوة الالهية فهي الذي
انبثت في جميع الموجودات كلية وجزئية وجمعها واحاطتها من كل وجه لا من جهة الظهور ولا
من جهة الخفاء ولا من جهة الصورة ولا من جهة المادة فالكل واحد وهو نفس الذات الالهية وهي
في الحقيقة واحدة بسيطة والاعتبار هو المحصل بها فالانسانية مع الحيوانية الارضية بقيا
متدرجة فيها وكانه يكون فيارة ممتلوها بالحبس مع النوع في كل موجود موجود كما ذكرناه وفاز
بالكل مع الجزء على طريقة الممتنع وهم في ذلك كلهم يعزون في التركيب والكثرة هو منه من الوحدة
وانما اوجبها عندهم الوهم والخيال ومن هؤلاء ابن سبعين والسنوسي في تفاصيل في هذا الخباط
كثير واختلاف والحق ان من عثر على مشاهدة العالم الروحاني وكشف له حجاب الحس وسلم في ذلك
من الاوهام والخيالات غرق في بحر المعرفة وادرك ادراكا سادحا بسيطا عاما غير مشوب بشيء من
هذه الاوهام غير المحصلة فكيف بمن له التفصيل والتعرفة ونعين خلق الموجودات الاحياء
بحيث له العوارض الوهمية فليتهم نفسه وليراجع حسه للاقبال على عبادة ربه حتى يحكم الله فيه بما شاء
وسلف المتصوفة من اهل الرسالة اعلام ملة الدين اسرنا اليهم من قبل لم يكن لهم حرص على كشف
الحجاب ولا هذا النوع من الادراك انما همهم الاتباع والاقتداء بما استطاعوا ومن عرض له شيء من
ذلك اعرض عنه ولم يحفل به بل يفرون منه ويرون انه من العوائق وانه ادراك من ادراكات
النفوس مخلوق وحادث وان الموجودات لا تنحصر في مدارك الانسان وعلم الله اوسع وخلقه
اكبر وشريعته بالهداية املك فلم يتطلعوا الى مما در كون بل حظروا الخوض في ذلك ومنعوا من
يكشف له الحجاب من اصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده بل يلزمون طريقتهم كما كانوا في عالم
الحس قبل الكشف من الاتباع والاقتداء ويامرون اصحابهم بالزامها وهكذا ينبغي ان يكون حال المريد

العلوم العقلية واصنافها

واما العلوم العقلية التي هي طبيعية للانسان من حيث انه ذو فكر فهو غير مختص بها بل يوجد
النظر فيها اهل الملل كلهم ويشتركون في مداركها ومباحثها وهي موجودة في النوع الانساني منذ كان
عمران الخليقة ولنسمي هذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة وهي مشتملة على اربعة علوم الاول

علم الهندسة وهو قانون يعصم الذهن عن الخطأ في اقتناص المطالب المجهولة من الامور الحاصلة المعلومة
وفائدته تحقيق احكام القوات فيما يليه الباطن من الموجودات وعوارضها بالبحث على الحق اليقيني في
الكائنات بمنتهى فكره ثم النظر بعد ذلك عندهم اما في المحسوسات من الاجسام العنصرية والمكونات
عنها من المعدن والنبات والحيوان والاجسام الفلكية والحركات الطبيعية والنفس التي نعت عنها
الحركات وعرف ذلك ويسمى هذا العلم بالعلم الطبيعي وهو العلم الثاني منها واما ان يكون النظر في الامور
الروحانية التي وراء الطبيعة ويسمونه العلم الالهي وهو العلم الثالث فيها والعلم الرابع وهو النظر
في المقادير ويشتمل على اربعة علوم تسمى علوم التعاليم اولها علم الهندسة وهو النظر في المقادير
على الاطلاق اما المتصلة من حيث كونها معدودة او المتصلة وهي اما ذو بعد واحد وهو الخط
او ذو بعدين وهو السطح او ذو ابعاد ثلاثة وهو الجسم التعليمي يطلق في هذه المقادير وما يعرض لها
من حيث انها او من حيث نسب بعضها من بعض وعلم الارثماطيقي وهو معرفة ما يعرض للكم
المتصل الذي هو العدد ويوصله من الخواص والعوارض اللاحقة وثالثها علم الموسيقا وهو معرفة
نسب الاصوات والنغم بعضها من بعض وتقديرها بالعدد ومعرفة معرفة ملاحن الغناء ورابعها
علم الهيئة وهو معرفة الاشكال للافلاك وحصرها وعدها وعقدها لكل كوكب من السيارة من قبل حركات
السماوية بالمسامتة الموجودة لكل واحد منها ومن مراجعها واستقامتها واجتماعها وادبارها وغير ذلك
من اصول العلوم الفلسفية وهي سبعة المنطق وهو المقدم منها وبعد التعاليم فالارثماطيقي
اولا ثم الهندسة ثم الهيئة ثم الموسيقي ولكل واحد منها فروع يتفرع عليه **فمن فروع**
الطبيعيات الطب ومن فروع علم العدد علم الحساب والفرائض والمعاملات ومن
فروع الهيئة الازياج وهي موازين الحسابات حركات الكواكب وتعديلها للوقوف على مواضعها
متى قصد ذلك **ومن فروع** النظر في النجوم علم الاحكام النجومية ونحن نتكلم على
واحد بعد واحد الى اخره **واعلم** ان الكثير ممن عنى بها في الاجيال الذين عرفنا اخبارهم
الامتان العظيمتان في الدولة قبل الاسلام وهما فارس والروم وكانت اسواق العلوم نافقة
لديهم على ما بلغنا لما كان العمران موفورا فيهم والدولة والسلطان قبل الاسلام وعصره
لهم فكان لهذه العلوم بحور زاخرة في لغاتهم وامصارهم وكان للكلدانيين وهم النبط ومن قبلهم
من السومانيين عناية بالنجامة والنجامة وما يتبعها من التاثيرات والطلسمات واحدث ذلك عندهم
الامم من فارس ويونان واختص به النبط وظهر فيهم كما وقع في المنقول من جزاروث وماروت
وشان النجرة وما نقله اهل العالم من شان البرابي ثم بنابعثا الملل بخط ذلك وتخريجه قد رسمت على جمله
وطلبت كان لم تكن الابقايا متناقلة مستحاة وهذه الصنايع الله اعلم بصحتها مع ان سيوف الشرع
قايمة على ظهورها وما نافعه من احتمالها **واما الفرس** وكان شان هذه العلوم المتعلقة عندهم عظيما
ونظامها متسعا لما كانت عليه دولهم من الضخامة واتصال الملك الا ان المسلمين لما افتتحوا بلاد فارس
واصابوا من كتبهم وصحايف علومهم ما لا ناض حصر كتب سعد بن ابي وقاص الى عمر بن الخطاب يستاذنه
في شانها ويستشيره للمسلمين فكتب اليه عمر ان اطرحوها في الماء فان يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله

بامدي

بالهدى منه وان يكن ضلالا فقد نجاه الله فطرحوه في الماء او النار وذهبت علوم الفرس فيهما
عن ان يصل الينا واما الروم فكانت الدولة منهم لليونان اولا وكان طبقة العلوم عندهم عالية
رتبة وحملة مشاهير من رجالهم مثل اساطين الحكمة وغيرهم واخص فيها المشاؤون منهم اصحاب الرواق
بطريقة حسنة في التعليم كانوا يعرفون في رواق يتعلمون فيه من السقف والبرد على ما زعموا واتصل فيها سند تعليمهم
على ما يزعمون من لدن لقمان الحكيم في تلميذه الى سقراط الذي تم الى تلميذه افلاطون ثم الى تلميذه ارسطو
ثم الى تلميذه الاسكندر الافرودوسي وامسطوس وغيرهم وكان ارسطو معلما للاسكندر ملكهم الذي
غلب الفرس على امرهم واستولى الملك من ايديهم وكان ازدحامهم في هذه العلوم قديما وانعدامها صدرا
وشهرة وكان لتعلم الاول فطارله في العالم ذكر ولما انقرض امر اليونانيين وصار الامر للروم
واحد وابدين النصرانية بحرت الملل العلوم كما تقتضيه الملل والشرائع وبقيت في صحفها ودروسها محلها
باقية في خزائنهم ثم ملكوا الشام وكتب هذه العلوم باقية فيهم ثم جاء الله بالاسلام وكان الظهور الذي
لا نظير له واثر والروم منكم فيما اثروه للامم وابدا امرهم بالسذاجة والغفلة عن الصنائع حتى اذا
صحح السلطان والدولة واخذ وامن الحضارة بالحظ الذي لم يكن لغيرهم من الامم وتفننوا في الصنائع
والعلوم تشوفوا الى الاطلاع على هذه العلوم الحكمية ما سمعوا من الماشقة والريشان بعض ذكر
منها فبعث ابو جعفر المنصور الى ملك الروم ان يبعث اليه كتب التعاليم مترجمة فبعث اليه بكتاب
اقليدس وبعض كتب الطبيعيات وقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها وازداد واحرصا على الظفر
بما بقي منها وجاء المامون من بعده فكان له في العلم رغبة مما كان ينتحله فابتعث لهذه
العلوم حرصا واوفد الرسل على ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين وابتياعها
بالخط العربي ورغب المترجمين لذلك فنمى منه واسوعت وعكف على النظار من اهل
الاسلام وصدقوا في شوقها وانتهت الى الغاية انظارهم فيها وخالفوا كثيرا من آراء العلم الاول
واختصوه بالرد والقبول لوقوف الشهرة عنده وردوا في ذلك الدواوين واولعوا
على من تقدمهم في هذه العلوم وكان من اكابرهم في الملة ابو نصر الفارابي وابو علي بن سينا
بالمشرق والقاضي ابو الوليد بن رشد وابو بكر بن الصائغ بالاندلس الا احوش نفعوا
الغاية في هذه العلوم واختص بولاء بالشهرة والذكر واقتصر كثير على انتحال التعاليم
وما يضاف اليها من علوم النجامة والتنجيم والحسبات ووقفت الشهرة في هذا المنتحل على
مسلمة بن احمد المجريطي من اهل الاندلس وتلميذه ودخل على الملة من هذه العلوم وانحلة
واستهوت الكثير من الناس بما صنعوا اليها وقلدوا اراءها والذنب في ذلك لمن ارتكبه ولو
شاء الله ما فعلوه ثم ان المغرب والاندلس لما ركدت ريح العمران به وتناقصت العلوم
بتناقصه اضمحل ذلك منه الا قليلا مر رسومه تجدها في تضاعيف من الناس وبحر رقعة من على
البسيطة وبلغنا عن اهل المشرق ان بضاعة هذه العلوم لم تزل عندهم موفورة وخصوصا
في عراق العجم وما بعده فيما وراء النهر وانهم على نمط من العلوم للعقلية والنقلية لموفور عمرانهم
واحكام اكثاره فيهم وكذلك بلغنا لعهدنا العهد ان هذه العلوم الفلسفية

بلاد الروم والعربية من ارض رومة وما اليها من العدوة الشمالية تأنقه الاسواق
وان رسومها هنالك محدثة ومجالس تعليمها معدة ومؤدوها جامعة وجملة متوفرون
وطلبتها منكثرون والله اعلم بما هنالك وهو يحق ما نبتناه ويختار

العلوم العددية

واولها الارثماطيقي وهو معرفة خواص الاعداد من حيث التاليف اما على التوالي او بالتضعيف
مثل ان الاعداد اذا توالت متفاضلة بعدد واحد فان جمع الطرفين منها مساو لجمع كل عددين
بعدهما من الطرفين بعدد واحد ومثل ضعف الواسطة ان كانت عدة تلك الاعداد فردا مثل الاعداد
على توالها او الازواج على توالها او الافراد على توالها ومثل ان الاعداد اذا توالت على نسبة واحدة
يكون او لها ضعف ثانيها وثانيها نصف ثالثها او تكون اولها ثلث ثانيها وثانيها ثلث
ثالثها الى اخرها فان ضرب الطرفين احدهما في الاخر كضرب كل عددين بعدهما من الطرفين بعدد واحد احدهما
في الاخر ومثل مربع الواسطة ان كانت العدة فردا وذلك مثل اعداد زوج الزوج المتوالية
من اثنين فاربعة فثمانية فستة عشر ومثل ما يحدث من الخواص في وضع المثلثات العددية والمربعات
والمخمسات والمسدسات اذا وضعت مثلثية في سطور بان جمع الى العدد مكون
مثلثة فتزيد فانها تحدث في جميعها وقسمة بعضها على بعض طولا وعرضا خواص
عجيبة استغربت منها وتعجبت في دوايتهم مسايلها وكذلك ما يحدث للزوج والفرد
وزوج الزوج وزوج الفرد وزوج الزوج والفرد فان لكل منها خواص يختص بتقسمتها هذا
الفن وليست في غيره وهذا الفن اول اجزاء التعاليم واسنها ويدخل في براهين الحساب والاحكام
المتقدمين والمتاخرين فيه تواليف اكثرهم يدرجونه في التعاليم ولا يفردونه بالتاليف
مثل ذلك ابن سينا في كتاب الشفا والنجاة وغيرهم من المتقدمين واما المتاخرون فهو عندهم
مهجور اذ هو غير متداول ومتعبة في البراهين لانهم يجرون لذلك بعد ان استخلصوا بديهة
في البراهين الحسابية مما فعله ابن البناء في كتاب رفع الحجاب وغيره والله اعلم

ومن فروع العدد صناعة الحساب

وهي صناعة عملية في حساب الاعداد بالضم والتفريق فالضم يكون في الاعداد بالافراد وهو الجمع
وبالتضعيف اي بتضاعف عدد ما حاد عدد اخر وهو هذا الضرب والتفريق ايضا يكون في الاعداد
اما بالافراد مثل ازالة عدد من عدد ومعرفة الباقي وهو الطرح او تفصيل عدد باجزاء متساوية
يكون عددها محصلا وهو القسمة وسواء كان هذا الضم والتفريق في الصحيح من العدد او الكسر
ومعنى الكسر نسبة عدد الى عدد فان تلك النسبة تسمى كسرا وكذلك يكون الضم والتفريق
في الحدود ومعناها العدد الذي ضرب في مثله فيكون منه العدد المربع فان تلك الحدود ايضا
يدخلها الضم والتفريق ومن احسن التواليف المبسوطة فيها لهذا العهد بالمغرب كتاب الحصار

الصغير

الصفر ٥ وابن البنا المراكشي فيه تلخيص ضابط لقوانين اعماله سنذكره شرحه بكتاب تنبيه الحساب
وهو مستغنى عليه المبتدي بما فيه من البراهين الموثقة الثاني وهو كتاب جليل القدر اودع كل المنفعة
معظمه وهو جدير بذلك وانما جاءه الاستغلاق من طريق الرمز لان فنان علوم التعاليم لان مسايلها واعمالها
واضحة واذا قصد شرحها اعطا العلل في تلك الاعمال فانما هو البراهين وفي ذلك من العسر على الفهم
ما لا يوجد في المسايل وما تعلله والله يهدي نوره من يشاء

ومن فروع الجبر والمقابلة ٥

وهي صناعة يستخرج بها العدد المجهول من فقد المعلوم المفروض اذا كانت بينهما نسبة فاصطلحوا
فيها على ان جعلوا المجهولات مراتب من طريق التضعيف بالضرب اولها الشيء لان كل مجهول مهوس وهو ايضا
صدر لما يلزم من تضعيفه في المرتبة الثانية وثانيها المال وثالثها الكعب وما بعدها فعلى نسبة الاس
والمضروب في المسئلة فتخرج اي معادله من هذه الاحياز فتعاملون بعضها ببعض وتحرون
ما فيها من الكسر حتى يصير صحيحا وتحطون المراتب الى اقل الاسوس ان امكن فان كانت المعادلة من واحد
وواحد نفس وان كان من واحد واثنين اخرجه العمل الهندي من طريق تفضيل الاثنين بالضرب
ولا يمكن المعادلة من اثنين واثنين واكثر ما انتهت عندهم الى ست مسايل لان المعادلة من عدد
وجذر ومال معرده او مركبة بحسبه واكثر من كتب فيه ابو عبد الله الخوارزمي وبعده ابو كامل فتتابع
وجاز الناس على ارثه فيه وكاد في مسايله الست وشرحه كثير من اهل الاندلس فاجادوا ومن احسن
شروحه كتاب العربي وهذه الصناعة حادثة احتيج اليها للحسبان في المعاملات والف فيها
الناس كثير وتداولوها في الامصار بالتعليم للولدان ومن حسن التعليم عندهم الابتداء بها لانها معارف
منتجة ومراضها منتظمة فتشاعها في الغالب عمل رب على الصواب نعم سوقد وقد يفات
من احد بعشه بتعلم الحساب اول امره فيغلب عليه الصدق لما في الحساب من صحة المباني ومناقشة
النفس فيصير له ذلك خلقا وتعود الصدق ويصير له مذهبا ٥

المعاملات

وهو بتصريف الحساب في معاملات المدن في البياعات والمساحات والركوات وسائر
ما يعرض فيه العدد من المعاملات يصرف في ذلك صناعة الحساب في المجهول والمعلوم والكسر
والصحيح والجذور وغيرها والغرض من تكثير المسايل المفروضة في المجهول والمعلوم وفيها حصول
المران والدربة بتكثيرها لتعمل حتى يتسع الملكة في صناعة الحساب ولاهل الصناعة من اهل
الاندلس تواليف فيها متعددة من اشهرها معاملات الزهراوي وابن السمح وابي مسلم بن خلدون
من تلميذ المجريطي واضرابهم

الفن الرابع

وهي من صناعة الحساب اذ هذا جزء كثير من صحيحه وكسوره وجذوره ومعلومه ومجهوله

وترتيب كما ترتيب ابواب الفرائض الفقهيه ومسايلها فتستعمل حينئذ هذه الصناعة على ما عرف من الفقه وسواحكام الورثات في الفروض والعول والاقدار والانكسار والوصايا والتدبير وغير ذلك من مسايلها وهي من اجل العلوم وقد تورد انها احاديث نبويه تمهد بعضها مثل الفرائض تلث العلم وانها اول ما يرفع من العلوم وغير ذلك وعندي ان ظواهر تلك الاحاديث انما هي في الفرائض العينيه كما تقدم لا فرائض الوراثات فانها اقل من ان تكون ثلث العلم واما الفرائض العينيه فكثيره • وقد الف الناس في مثل هذا الفن قديما وحديثا واوعبوا ومن احسن المؤلفات فيها كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي ابي القاسم الحوفي وكتاب ابن الهمزي والعبدري والصوري وغيرهم بل الفصل للحوفي وكتابه مقدم على جميعها وقد شرحه ابو عبد الله محمد بن سليمان البسطي كبير مشيخة فاس فاوضح واوعب ومقامات الناس في العلوم مختلفة والله يهدي من يشاء •

العلوم الهندسيه

هذا العلم هو النظر في المقادير اما المتصله كالخط والسطح والجسم او المنفصله كالاعداد وفيما يعرض لها من العوارض الذاتيه مثل ان كل سببين فروايا هما مثل ثنيتين ومثل كل خطين متوازيين لا يلتقيان وان خرجا الى غير نهايه ومثل ان كل خطين متقاطعين فالزاويتان المتقابلتان منهما متساويتان ومثل ان الاربعه المقادير المتناسبه ضرب الاول منها في الثالث كضرب الثاني في الرابع وامثال ذلك والكتاب المترجم لليونانيين في هذه الصناعة كتاب اوقليدس كتاب الاصول وكتاب الارقاط ومواسط ما وضع فيها للمتعلمين ترجم ابام ابي جعفر المنصور ونسخه مختلفه باختلاف المترجمين منها لحسن بن اسحاق ولثابت ابن قره وللحجاج بن يوسف ويشتمل على عشره مقاله اربعه في السطوح وواحده في الاقدار المتناسبه وثلث في العدد والعاشره في المنطقات على المنطقات وحسن في المجسمات وقد اختصره الناس مختصرات كثيره كما فعله ابن سينا في تعاليم الشفا وله جزء منها واختصره به وكذلك ابن الهيثم في كتاب الاقتصاد وغيرهم وشرحه اخرون شروحا كثيره وهو مبدا العلوم الهندسيه كلها واعلم ان الهندسه تعتمد صاحبها اضاءة في عقله واستقامة في فطرته لان براهينها كلها بينه الانتظام جليه الترتيب لا يكاد الغلط يدخل اقيستها لترتيبها وانتظامها فيبعد الفكر بسببها عن الخطا وينشا الصاحبها عمله على ذلك الطبع • ولقد زعموا انه كان مكتوبا على باب افلاطون من لم يكن مهندسا فلا يدخلن منزلنا وكان سنوحا رحمهم الله يقولون ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للثوب الذي يغسل منه الاقذار وينقيه من الاوساخ وانما ذلك لما اشرنا اليه من ترتيبه وانتظامه والله اعلم •

ومن اصول هذا الفن الهندسة المخصوصة بالاشكال

الكريه والمحروطات •

اما الاشكال الكريه فيها كتابان من كتب اليونانيين لثاودسيوس وميلاوس في سطوحها وقطوعها وبادوسيوس مقدم في التعليم على ميلاوس لتوقف كثير من براهينه عليه ولا بد منها لمن يريد تحصيل علم الهيئه لان براهينها متوقف عليها فان الكلام في الهيئه كله كلام في الكريات السماويه وما يعرض

فهم من المقطوع باسباب الحركات فما يذكره فقد توقف في معرفة احكام الكرية سطوحها وقطوعها وانما المجروطات فهو من فروع الهندسة وهو علم ينظر فيما يتبع في الاجسام المجروطة من الاشكال والقطوع ويبرهن على ما يعرض لذلك من العوارض ببراهين هندسية متوقف على التعليم الاول وفائدته تظهر في الصنايع العملية التي مواده الاجسام مثل النجارة والبناء كيف يصنع التماثيل الغريبة والهياكل الغريبة وكيف يتحيل على جر الاثقال • ونقل الهياكل بالهندام والمحال وقد افرد بعض المولفين في هذا الفن كتابا في الحيل العملية تضمن من الصناعات العزيزة والحيل المستظرفة كل عجيب على الفهم وهو موجود بايدي الناس

المساحة

وهو من فروع الهندسة يحتاج اليه في مسح الارض ومعناه استخراج مقدار ارض معلومة بنسبة شبر او ذراع او غيرها او بنسبة ارض من ارض اذا قوبلت بمثل ذلك ويحتاج اليه ذلك في الخراج على المزارع والقدن وفي قسمة الاراضي بين الشركاء او الورثة وامثال ذلك وللناس في موضوعات حسنة وكثيرة •

المناظر

من فروع الهندسة وهو علم يتبين به اسباب الغلط في الادراك البصري بمعرفة كيفية وقوعها بناء على ان ادراك البصر يكون بخروط شعاعي راسه سطح الباصر وقاعدته المرئي ثم يتبع الغلط كثيرا في رؤية القريب كبيرا والبعيد صغيرا وكذلك رؤية الاشباح الصغيرة تحت الماء ورؤية الاجسام الشفافة كثيرة ورؤية النقطة النازلة من الخط خطا مستقيما والشعلة دائرة وامثال ذلك فتبين في هذا العلم اسباب ذلك وكيفياته بالبراهين الهندسية وتبين به اختلاف المناظر في القمر باختلاف العروض الذي بني عليه معرفة رؤية الاهلة وكثير من امثال هذا وقد الف في هذا الفن كثير من اليونانيين • واشهر من الف فيه من الاسلاميين ابن الهيثم وللغير فيه ايضا تاليف وهو من صدر العلوم الرياضية وتوابعها • والله اعلم

علم الهيئة

وهو علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحيرة ويستدل بوجودها على اشكال واوضاع للافلاك لزمتها هذه الحركات المحسوسة بطرق هندسية كما يبرهن على ان مركز الارض مباين لمركز فلك الشمس بوجوده كالاقبال والادبار • وكما يستدل بالرجوع والاستقامة للكواكب على وجود افلاك لها صغيرة متحركة داخل فلكها الاعظم وكما يبرهن على وجود الفلك الثامن المحرك للكواكب الثابتة وكما يبرهن على تعدد الافلاك للكوكب الواحد بتعدد المعول له وامثال ذلك وادراك الموجود من الحركات انما هو بالرصد فانا انما علمنا حركة الاقبال والادبار وكذا تركب الافلاك في طبقاتها وكذا الرجوع والاستقامة واشكال ذلك وكان اليونانيون يعنون بالرصد كثيرا ويجدون له الآلات التي توضع لرصد بها حركة الكوكب وكانت لتمنى عندهم ذات الحلق وصناعة عملها والبرهان عليه منقول بايدي الناس وامثاله

الاسلام فلم يتم به عنايته الا في الفضل وكان في ايام المامون سنى منه وصنع الآلة المعروفة للرصد السماة ذات الحلق وشرع في ذلك فلم يتم ولما هلك ذهب رسمه واغفل واعتمد من بعد على الارصاد القديمة وليست معصومة لاختلاف الحركات باتصال الاحقاب وهذه الهيئة صناعة شريفة وليست على ما تقسم في السنعة انها تعطي صورة السموات في الحقيقة بل انما تعطي ان هذه الصور والهيئات للافلاك لزمت عن هذه الحركات وانت تعلم انه لا يعدان يكون للشئ لوازم متعددة وان قلنا ان الحركات لازمة فهو استدلال باللازم على وجود الملزوم ولا يعطي الحقيقة بوجه وهو احد ازكان التعاليم ومن احسن التواليف فيه كتاب المجسطي منسوب لبطليموس ولشر من ملوك اليونانيين الذين اسماؤهم بطليموس على ما حققه شراح الكتاب وقد اختصره الائمة من حكماء الاسلام كما فعل ابن سينا وادرجه في تعاليم الشفاء ولخصه ابن رشد ايضا من حكماء الاندلس وابن السمح وابن الصلت في كتاب الاقتصار ولابن الهيثم في هيئة ملخصة قريبا وسهل براهينها ولله

ومن فروع علم الهيئة

الازياج

وهي صناعة حسابية مبنية على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب من طريق حركته وما ادى اليه برهان الهيئة في وضعه من سرعة وبطوء واستقامة ورجوع وغير ذلك يعرف مواضع الكواكب في افلاكها لاي وقت عرض من قبل حسبان حركاتها على ذلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة وهذه الصناعة قوانين مختصة بها في معرفة الشهور والايام والتواريخ الماضية واصول مقررة من معرفة الاوج والحضيض والميول واضافة الحركات واستخراج بعضها من بعض يضعونها في جداول مرتبة تسهيلا على المتعلمين ويسمى الازياج ويسمى استخراج مواضع الكواكب تعديلا وتقويما وللناس فيه تواليف كثيرة للمتقدمين والمتاخرين مثل البتاني وابن امثالهم وقد عول المتاخرون لهذا العهد بالمغرب على زيج منسوب لابن اسحاق ويزعمون ان ابن اسحاق عول فيه على الرصد وان هودا كان بصقلية ماهرا في الهيئة والتعاليم وكان قد عنى بالرصد وكان يبعث اليه بما يقع له في ذلك من احوال الكواكب وحركاتها فكان اهل المغرب لذلك عنوا به لوثاقة مبناه ولخصه ابن البناء في آخر سماه المناخ فوقع به الناس لما سهل من الاعمال فيه وانما يحتاج الى مواضع الكواكب من اجل ذلك ليبنى عليه الاحكام النجومية وهو معرفة الامارات التي تحدث عنها وضعا في عالم الانسان من الملل والدول والمواليد البشرية كما يتبين بعد ونوضح فيه ادلتهم

المنطق

وهو قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود والمعرفات للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات وذلك ان الاصل في الادراك انما هو المحسوسات بالحواس الخمس وجميع الحيوانات مشتركة في هذا الادراك من الباطن وغيره وانما تميز الانسان عنها بادراك الكليات وهي من المحسوسات وذلك بان تحصل في الدماغ من الاشخاص المتعاقبة صورة منطبعة عن جميع تلك الاشخاص المحسوسة ثم يتطرق الذهن من ذلك الكلي ومن كل آخر نوافقه فيحصل له صورة ينطبع عليها ثم تتطرق من تلك الصورة وتبين

كل آخر يوافقه ايضا ومجرد صورة اخرى ينطبع عليها ولا يزال يرتقي في التجريد الى الكل الذي لا يحد كلما اجتمع يوافقه فيكون لا محال ذلك بسيطا وهذا مثل ما تجرد من اشخاص الانسان صورة النوع المنطبع على ثم يطرد منه وبين الحيوان ومجرد صورة الجنس المنطبع على ثم منه وبين الناس الى ان ينتهي الى الجنس العالي وهو الجوهر فلا يجد كليا يوافقه في بني صنعف العقل هنالك عن التجريد ثم ان الانسان لما خلق الله له الفكر الذي به يدرك العلوم والصنايع وكان العلم اما مصور للماهيات بمجرد ادراك بسائط واما تصديق اي حكم بثبوت امر لامر الفكر عنده اما ان جمع تلك الكليات بعضا الى بعض على جهة التاليف فيحصل في الذهن صورة كلية منطبعة على افراد في الخارج فتكون تلك الصور مفيدة لمعرفة ماهية تلك الاشخاص واما حكم بامر على امر فيثبت له ويكون ذلك تصديقا وغايته في الحقيقة راجع الى الصور كان فايدة ذلك اذا حصل فانما هي معرفة حقايق الاشياء الذي هو منتهى العلم وهذا السعي من الفكر قد يكون في طريق صحيح وقد يكون في طريق فاسد فاقتضى ذلك تمييز الطرق التي يسعى بها الفكر في تحصيل الطالب العلمية ليسلك الصحيح فيها من الفاسد فكان ذلك قانون المنطق وتكلم فيه المتقدمون اول ما تكلموا به جملا ومعرفا ولم يهذب طرقه ولم يجمع مسايله حتى ظهر ارسطو فوضعه وهذب مناحيه ورتب مسايله وفصوله وجعله اول العلوم الحكمية وفاتحتها ولذلك سمي بالعلم الاول وكتابه المخصوص بالمنطق يسمى

وهو يشتمل على ثمان كتب اربعة منها في صورة القياس مادته وذلك ان المطالب التصديقية منها ما يكون المطلوب فيه اليقين بطبعه ومنها ما يكون المطلوب فيه الظن وهو على مراتب فيحتاط في القياس من حيث المطلوب الذي يفيده وقد يحتاط في القياس باعتبار مطلوب مخصوص من جملة انتاجه المخصوص من يقين او ظن ويقال للنحو الثاني انه من حيث الصورة القياس على الاطلاق وكانت لذلك كتاب المنطق تمانية الاول في الاجناس العالية التي ينتهي اليها من المحسوسات وسمي التي ليس فوقها جنس وسمي كتاب المقولات والثاني في القضية واصنافها وسمي كتاب العبارة والثالث في القياس وصورة الحد الذي انتاجه على الاطلاق وسمي كتاب القياس وهذا اخر النظر من حيث الصورة ثم الرابع كتاب البرهان وهو النظر في القياس المنتج لليقين وكيف يجب ان يكون مقدماته يقينية ويختص بشروط تجري لافادة اليقين مذكورة وفي هذا الكتاب الكلام في المعرفات والحدود اذ المطلوب فيها انما هو اليقين فلذلك اختصت عند المتقدمين بهذا الكتاب والخامس كتاب الجدل وهو القياس المفيد قطع المشاغب وافحام الخصم وما يجب ان يستعمل فيه من ويختص ايضا من جهة هذا الغرض بشروط اخرى من حيث افادته لهذا الغرض وسمي مذكورة هناك وفي هذا الكتاب يذكر المواضع التي منها صاحب القياس قياسه وفيه علوم القضايا ايضا والسادس كتاب السفسطة وهو القياس الذي يفيد خلاف الحق ويغالط فيه المناظر صاحبه وهو فاسد وهذا انما كتب لتعرف القياس المغالط لتحذر منه والسابع كتاب الخطابة وهو القياس المفيد ترغيب الجمهور وحملهم على منفعة وما يجب ان يستعمل في ذلك من الصور والثامن كتاب الشعر وهو القياس الذي يفيد التمثيل والتخييل خاصة لقبول النفس والتهيؤ عنه وما يجب ان يستعمل فيه من القضايا التخييلية هذا المنطق النافع عند المتقدمين

ثم ان حكماء اليونان بين بعد ان تهذبت الصناعة وثبت انه لابد من الكلام في الكليات الخمس المفيدة للتصور فابتدءوا فيها مقالة تحقيقا لما مقدمة بين يدي الفن فصارت مقالات تسعا وترجمت كتبا في الملة الاسلامية وتناولها فلاسفة الاسلام بالشرح والتلخيص كما فعله الفارابي وابن سينا ثم ابن رشد من فلاسفة الاندلس وابن سينا كتاب الشفا استوعب فيه كتاب علوم الفلاسفة فلما جاء المتاخرون تفننوا واصطلاح المنطق والحقوا بالنظر في الكليات الخمس بحث وهي الكلام في الحدود والرسوم نقلوه من كتاب البرهان وحذفوا كتاب المقولات لان فطر المنطقي فيه بالعرض لا بالذات والحقوا في كتاب العبارة الكلام في العكس لانه من توابع الكلام في القضايا ثم تكلموا في القياس من حيث اتاحه للطالب على العلوم لا بحسب مادة وحذفوا النظر بحسب المادة وهي الكتب الخمسة البرهان والجدل والخطابة والشعر والسفسطة وربما يلحق بعضهم بالتبع منها ما امكن وان لم يكن المعتمد في الفن ثم تكلموا فيما وضعوه من ذلك كلاما ونظروا انه فن برأسه لا من حيث انه آلة للعلوم فطال الكلام فيه واتسع واول من فعل ذلك الامام فخر الدين بن الخطيب ومن بعده افضل الدين الخونجي وعلى كتبه معتمد المشارقة لهذا العهد وله في ذلك الصناعة كتاب كشف الاسرار وهو كتاب طويل واختصر فيه مختصر الموجز وهو حسن في التعليم ثم مختصر الجمل في قدر اوراق احد مجامع الفن واصوله وتداولها المتعلمون لهذا العهد فينتفعون به وبحرت كتب المتقدمين وطرقهم كان لم تكن وهي ممتلئة من بحر المنطق وفائدته والله الهادي الى الصواب

الطبيعيات

وهو علم يبحث عن الجسم من حيث ما يلحقه من الحركة والسكون فيتطرق الى الاجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من انسان وحيوان ونبات ومعدن وما يتكون في الارض من المعدن والزلازل وفي الجو من السحاب والرعد والبرق وغير ذلك وفي مبادئ الحركة للاجسام وهو النفس على انواعها في الانسان والحيوان والنبات وكتب ارسطو فيه موجودة بين ايدي الناس ترجمت مع ما ترجم من علوم الفلسفة ايام المامون والف الناس على حدوها واوعب من الف في ذلك ابن سينا في كتاب الشفا جمع فيه العلوم السبعة للفلاسفة كما قدمنا ثم لخصه في كتاب النجاة وفي كتاب الاشارات وكاد فيه يخالف ارسطو في اكثر من مسايلها ويجهد لنفسه واما ابن رشد فلخص كتب ارسطو وشرحها مستقلة عن مخالف والف الناس في ذلك كثيرا لكن هذه هي المشهورة والمعتبرة في الصناعة ولاهل المشرق عناية بكتاب الاشارات لابن سينا وللامام ابن الخطيب عليه شرح حسن وكذلك للآمدي وشرح للطوسي المشرقي وعلم بجوانه من اهل المشرق وحب مع الامام في كثير من مسايل شرحه فاومى عليه وبجوانه وفوق كل ذي علم

علم الطب

ومن فروع علم الطبيعيات صناعة الطب وهي صناعة يتطرق في بدن الانسان من حيث يمرض ويصح فيحاول صاحبها على حفظ الصحة وبرء المرض بالادوية والاغذية واما امام هذه الصناعة التي ترجمت كتبه من الاقدمين جالينوس يقال كان معاصرا لعيسى عليه السلام ويقال مات بصقلية في سنة

يقلب ومطلوعة اعراب وتوابعه فهي الامهات التي افتدى بها جميع الاطباء من بعده وكان في الاسلام في مصر اصناعة ايمة حكما من وراء الغاية مثل الواذي والحوسي بوابن سينا ومن بابل الاندلس ايضا كثير واشهرهم ابن زهر وعلى هذا العهد في المدن الاسلامية كلها بعضت لهوف العمران وتناقصته وهي من الصنايع التي لا يستدعيها الا الحضارة والترف كما بيناه بعد والله اعلم

الفلاحة

هذه الصناعة من فروع الطبيعيات وهي النظر في النبات من حيث تنميته ونشوه وكان للمتقدمين بها عناية كبيرة وكان النظر فيها عندهم عاما في النبات من جهة غرسه وتنميته ومن جهة خواصه ورروحانيته ومشاكلة الروحانيات الكواكب والهياكل المستعمل ذلك كله في باب السحر فعظمت عنايتهم به لاجل ذلك وترجم من كتب اليونانيين كتاب الفلاحة النبطية مشتملة من ذلك على علم كثير ولما سطر اهل الملة فيما اشتمل عليه هذا الكتاب وكان باب السحر مسدودا والنظر فيه محظورا فاقتصروا منه على الكلام في النبات من جهة غرسه وتنميته وما يعرض في ذلك وحذفوا الكلام في الفن الاخر منه جملة واختصر ابن العوام كتاب الفلاحة النبطية على هذا المنهاج وبقي الفن الاخر منها معقلا نقل منه مسئلة في كتب السحر التي امهات من مسائله كما مر ذكره عند الكلام على السحر ان شاء الله تعالى وكتب المتاخرون في الفلاحة كثيرة لا نعدو ان فيها الكلام في الغرس والتنمية وحفظ النبات من عوائقه وعوائقه وما يعرض في ذلك كله وهي موجودة والله تعالى اعلم بالصواب

علم الالهيات

وهو علم ينظر في الوجود المطلق فاولا في الامور العامة للجسمانيات والروحانيات من الماهيات والوحدة والكثرة والوجوب والامكان وغير ذلك ثم ينظر في مبادي الموجودات وانها روحانيات ثم في كيفية صدور الموجودات عنها وترتيبه ثم في احوال النفس بعد مفارقة الاجسام وعودا الى المبدا وهو عندهم مرتفع يزعمون انه يقفهم على معرفة الوجود على ما هو عليه وان ذلك غاية السعادة في زعمهم وسيأتي الرد عليهم بعد وهو مال للطبيعيات في ترتيبهم لذلك ويسمونه علم ما بعد الطبيعة وكتب العلم الاول فيه موجودة بين ايدي الناس ولخصه ابن سينا في كتاب الشفا والنجاة ولما وضع المتاخرون في علوم القوم ودونوا فيها وردت عليهم العتراض ما ينبغي ردة منها ثم خلط المتاخرون مسائل علم الكلام بمسائل الفلسفة لعروضها في مباحثهم وتشابه موضوع علم الكلام بموضوع الالهيات ومسائله بمسائلها وصارت كانها فن واحد ثم غيروا بذلك ترتيب الحكماء في مسائل الطبيعيات والالهيات فخلطوها فنا واحدا قدموا فيه الكلام في الامور العامة ثم اتبعوه بالجسمانيات وتوابعها ثم بالروحانيات وتوابعها الى اخر العلم كما فعله الامام في المباحث المشرقية وجميع من بعده من علماء الكلام وصار فن الكلام مختلطا بمسائل الحكمة وكتبه محتوية عليها كان الغرض من مسائلها واحدا والتبس ذلك على الناس وهو غير صواب لان مسائل علم الكلام انما هي عقايد مستفادة من الشريعة

قاتلها السلف من غير رجوع فيها الى العقل ولا تعويل عليه بمعونها الاتباع الا بان العقل مبرول
عن الشرع وانظاره وما حذرت فيه المتكلمون من اقامة الحجج فليس بحثا عن الحق لتعلم بالدليل بعد
وان لم يتبين معلوما فما هو شان الفلسفة بل انما هو التماس صحة عقلية لعضد عقايد الايمان ومذاهب
السلف فما بعد ان تدرس صحيحة كما فهمها السلف ووضعوها وكثر ما بين المقامين وذلك ان مدارك
صاحب الشريعة اوسع لاتساع نطاقها عن مدارك الانظار العقلية مهما فوقها ومحيط بها لاستمدادها
من الانوار الالهية فلا يدخل تحت قانون النظر الضعيف والمدارك المحاط بها فاذا مدانا الشارع
الى مدرك ينبغي ان نقدمه على مداركنا ونقف دونها ولا نتطرق في تصحيحه بمدرك العقل
ولو عارضه بل نعتمد ما امرنا به اعتقادا او عملا ونعزل العقل عنه والمتكلمون انما دعاهم
الى ذلك كلام اهل الالحاد في معارضة العقايد السلفية بالبدع النظرية فاحتاجوا الى الرد عليهم
من جنس معارضاتهم واستدعاء ذلك الحجج النظرية ومحاذاة العقايد السلفية بها واما النظر في
مسايل الطبيعيات والالهيات بالصحيح والبطلان فليس من موضوع علم الكلام ولا من جنس نظار
المتكلمين فاعلم ذلك لتميز بين الفنين فانهما مختلطان عند المتاخرين في الوضع والتاليف
والحق مغايرة كل واحد منهما لصاحبه بالموضوع والمسايل وانما جاء الالتباس من اتحاد المطالب
عند الاستدلال وصار احتجاج اهل الكلام كانه انساق وليس كذلك بل انما يورد على الملحدين والمطلوب
معروض الصدق معلومة وكذا جاء المتاخرون من علماء المتصوفة المتكلمين بالمواحد ايضا
فخلطوا مسايل الفنين بينهم وجعلوا الكلام واحدا وهو كلها كلامهم في السوى والاتحاد
والحلول والوحدة وغير ذلك والمدارك في هذه الفنون الثلاثة مغايرة مختلفة
والعجب مدارك المتصوفة لانهم يدعون فيها الوجدان ويعرضون عن الدليل وتوابعه كما بيناه
وبينه والله الهادي الى الصواب بمنه

علوم السحر والطلسمات

وهي علوم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التاثيرات في عالم العناصر اما بغير
معين او بمعين من الامور السماوية والاول هو السحر والثاني هو الطلسمات ولما كانت هذه العلوم
ممحوة عند الشرايع لما فيها من الضرر ولما يشترط فيها من الوجهة الى غير الله من كوكب او غيره كانت
كالمفقودة بين الناس الا ما وجد في كتب الامم الاقدمين فما قتل نفوس موسى عليه السلام
مثل النبط والكلدانيين فان جميع من تقدمه من الانبياء لم يشرعوا الشرايع ولا جاؤا بالاحكام
انما كانت كلامهم مواعظ وتوحيد الله وتذكيرا بالجنة والنار وكانت هذه العلوم في اهل بابل
من السريانيين والكلدانيين وفي اهل مصر من القبط وغيرهم وكان لهم فيها التواليف والاقدار
ولم يترجم لنا من كتبهم الا القليل مثل الفلاحة النبطية من اوضاع اهل بابل فاخذ الناس هذا
العلم منها وتفننوا فيه ووضعت بعد ذلك الاوضاع مثل مصاحف الكواكب السبعة وكذا
طلسم الهيدي في صور الدرج والكواكب وغيرهم ثم جاء مسلمة بن احمد المجريطي امام اهل الاندلس في

التعاليم

في التعاليم فتحص جميع تلك الكتب وجمعها وجمع طرقها في كلامه الذي سماه غاية الحكيم ولم يكن احد في هذا العلم لكن واعلم ان وجود السحر حق لا مرية فيه بين العقلاء على اصل الشرائع الذي ذكرناه وقد نطق به القرآن قال الله تعالى وكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من احد الا باذن الله وسحر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان يخيل اليه انه يفعل الشيء ولا يفعله وسحر في مشط ومشاقة ووقف في بير ذروان قال الله عليه المعوذتين ومن هذا القبيل في العقد التي عاقبته وكان الاغراض في عشرة من تلك العقد التي سحرها الا انحلت • واما وجود هذا السحر في بابل وهم الكلدانيون من النبط والنبراميين فكثير نطق به القرآن وجاءت به الاخبار وكان السحر في بابل ومصر زمان بعثة موسى عليه السلام سوق نافقة ولهذا كانت معجزته من جنس ما يعانون ويتناعون فيه وبعض من اشار ذلك في الرأي بصعيد مصر شواهد دالة على ذلك وزيادة بالعيان من صور رصدية التحص المسحور بخواص اشياء مقابلة لما نواه وحاوله موجودة بالمسحور اثناء تلك المعاني من اسماء وصفات في التاليف والتفريق يتكلم على تلك الصورة التي اقامها مقام التحص المسحور عينا او معنى ثم يتفث من ريقه بعد اتمامه في فيه بتكرار مخارج حروف ذلك الكلام السوء ويعقد على احد المعنى في سبابة لذلك نفثا ولا يعقد والزام واحدا التعمد على من اراد به من الحي في نفث وفعل ذلك استعانة للغرة بالعزم ولذلك السدو الاشاء السبعة روح جسده يخرج منه مع النفخ متعلقة بريح الخارج من فيه بالنفث فيزعها ارواح جنسه ويتبع من ذلك بالمسحور ما عاد له الساحر وبشاهد ذا ايضا كبر امن المتعاطين السحر وعمله من يشير الى كساء او جلد ويتكلم عليه في سره فاذا هو مقطوع متخرق ويشير الى مطوون الغنم كذلك في مراعيها يبحر في امعائها ساقطة من مطوها على الارض ومنه ان بارض الهند لهذا العهد من يشير الى انسان فيتحف قبله وينسفط ميتا وينقلب عن قفاه فلا يوجد فوحشاه ويشير الى الرمانة فتفتح فلا يوجد من حبها شيء وذلك بمعنى ان بارض السودان من يسحر السحاب فتمطر الارض المحصوصة • وكذلك رأينا من عمل الطلسمات عجائب في الاعداد المتحابة وهي وكذا وهذا احد العددين مائتان وعشرون والآخر مائتان واربعة وثمانون • ومعنى المتحابة ان اجزاء كل واحد الذي فيه من نصف وثلث وربع وخمس وسدس وامثالها اذا جمع كان مساويا للعدد الآخر صاحبه فيسمى اجل ذلك المتحابة • وقد اصحاب الطلسمات ان لذلك الاعداد اثرا في الالفة بين المتحابين واجتماعهما اذا وضعا بطابع الزهرة وهي في بيتها او شرفها ناظرة الى الزهرة نظر مودة وقبول والآخر يعمل طابع هذا او يوضع على صورة من الصور تحت احد العددين والآخر على الاخرى ويقصد به اكبر الذي يريد ايلافه ما ادرى الاكبر كمية او الاكبر اصالة لذلك من التاليف العظيم بين المتحابين ما لا يكاد يتفك احدهما عن الآخر قاله صاحب الغاية وغيره من ائمة شانهم ونهدت له التجربة • وكذا طابع الاسد وهو ان يصنع طابع الحمى وهو ان يرسم في فلز طاهر صورة اسد شديد الاذنبة عاضا على حمار قد قسمها بنصفين ومن بدنه صورة حية منسابة من رخليه الى قلب الراسد فاغرة فاها الى فيه وعلى ظهره صورة عقرب

ذهب وتحمر برسمه طولا لينش بالوجه الاول او الثالث من الاسد بشرط صلاح المشترين وسلامتهما من المحوس
فاذا وجد ذلك وعثر عليه طبع في مقدار الدينار فما نقص من الذهب وتمس من بعد في الزعفران المحلول بماء
الورد ورفع في رقعة حرير صفرا فانهم زعموا ان لمسكه من العون على السلاطين في مباشرتهم وحدمتهم وتحيرهم
مالا يعبر عنه ذكره ايضا اهل هذا الشان في الغاية وعزاه وشهدت له التجربة وكذلك
وفي المسدس المختص بالشمس ذكروا انه يوضع عند حلول الشمس برجها وسلامتها من المناحيس سلامة
التمر طابع ملوكي يعتبر فيه نظر صاحب الطابع نظرة مودة وقبول ويصلح فيه ما يكون
في موالية الملوك من الادلة الشريفة ويرفع في حرير حرير صفرا العنبر في الطيب فزعموا ان له اثرا في صحابة
الملوك وحدمتهم ومجالستهم وامثال ذلك كثير وكاد الغاية لمسلة من احد المحرطين هو مدة وتشهد
الصناعة فيه استيفاؤها وكمال مسايلها وذكر لنا ان الامام المحرز الخطيب وضع في ذلك كتابا سماه
السر المكتوم وانه بالمشرق يتداوله اهله ونحن لم نقف عليه والامام لم يكن من ائمة هذا الشان فيما يظن
ولعل الامر بخلاف ذلك وبالمغرب صنف من هؤلاء المنتحلين لهذه الاعمال التحريز يعزفون بالمعاصن وهم
الذين ذكرت اولا انهم يشيرون الى الكاو والجلد فيحرق ويشترون الى بطون الغنم بالبيع فتبتاع ويسمى
لهذا العهد باسم السلع لان اكثر ما يحمل بيع الانعام يرهب بذلك اهلها ليعطوه من فضلها وهم
مستترون بذلك في الغاية حوفا على انفسهم لقيت منهم جماعة وشاهدت من افعالهم هذه واخرى
ان لهم وجهة ورياضة خاصة بدعوات كفرية واشتراك لروحانيات الحروف والكواكب سطرت فيها صحيفة
عندهم تسمى الحرز سرته بتداولونها وان بهذه الرياضة والوجهة يصلون الى حصول هذه الافعال لهم وان
التاثير الذي لهم انما هو في سوي الانسان الحر من الامتعة والحيوانات والرقيق ويعبرون عن ذلك بقولهم
انما نفعل فيما يمشي فيه الدرهم اي فيما يملك ويباع ويشترى من سائر المتملكات هذا ما زعموه وسايلت
بعضهم فاخبرني بهوانما افعالهم وظاهرهم موجودة وفعلا على الكثير منها وعاينا من غرضية في ذلك
هذا شان السحر والطلسمات واثارهما في العالم واما الفلاسفة ففرقوا بين السحر والطلسمات بعد
ان اثبتوا انهما جميعا اثر للنفس الانسانية واستدلوا على وجود الاثر للنفس الانسانية بان لها اثارا
في بدنها على غير المجرى الطبيعي واسبابه الجسمانية بل انما يعارضه من كيفيات الارواح مادة كالسحر
الحادث من الفرح والسرور وكذلك يعرض لها من التوهم فان الماشي على حرف حائط او على حبل منتصب
اذا قوي عندهم توهم السقوط سقط بالتك ولهذا يجد كثير من الناس يعودون انفسهم ذلك حتى
يظهر لهم هذا التوهم فيحدثهم يمشون على حرف الحائط والحبل المنتصب ولا يخافون السقوط فثبت
ان ذلك من اثار النفس الانسانية وتصورها للسقوط من اجل التوهم واذا كان ذلك اثر النفس في
بدنها من غير الاسباب الجسمانية فحايز ان يكون لها مثل هذا الاثر في غيرها اذ نسبتها الى الابدان
في ذلك النوع من الناس واحد لا فاعل غير حالة في البدن ولا منطبعة فيه فثبت انها مؤثرة في سائر
الاجسام واما الفرقة عندهم بين السحر والطلسمات فهو ان السحر لا يحتاج الساحر فيه الى معين
وصاحب الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب واسرار الاعداد وخواص الموجودات واوضاع
الفلك المؤثرة في عالم العناصر كما يقوله المنجمون ويقولون التحام روح بروح ومعناه عندهم

ربط

ربط الطبايع العلوية السماوية بالطبايع السفلية والطبايع العلوية هي روحانيات الكواكب ولذلك يستعين صاحبه في غالب الامر بالبخامة والساحر عندهم غير مكتسب لسحره بل هو مفطور عندهم على تلك الجبلة المختصة بذلك النوع من التاثير والفرق عندهم بين المعجزة والسحر ان المعجزة قوة الهية تبعث في النفس ذلك التاثير فهو مؤيد بروح الله على فعل ذلك والساحر انما يفعل ذلك من عند نفسه وبقوة النفس منه وبامداد الشياطين في بعض الاحوال فبينهما الفرق في المعقولية والحقيقة والذات في نفس الامر وانما نستدل نحن على الفرق بالعلامات الظاهرة وهي وجود المعجزة لصاحب الخير وفي مقاصد الخير والنفوس المختصة للخير والهدى بها على دعوى النبوة والسحر انما يوجد لصاحب الشر وفي افعال الشر في الغالب من التفريق بين الزوجين وضرر الاعداء وامثال ذلك والنفوس المختصة للشر هي التي الفرق بينها وبين الحكماء الالهيين وقد يوجد لبعض المتصوفة اهل الكرامات تاثير ايضا في احوال العالم وليس معدودا من جنس السحر وانما هو بالامداد الالهي لان خلتهم وطريقتهم من اثار النبوة وتوابعها ولهم في المدد الالهي حظ على قدر حالهم واقتدائهم وتمسكهم بكلمة الشهادة اذا اقتدر واحد منهم على افعال الشر فلا لما له من مقته فيها وتبديره للامر الا بما يسامحون فيه للاذن الالهي في اشياء تونه نوعه ومن اتاه منهم عدل عن طريق الاقتداء وللكرامات المعجزة بمدد روح الله والقوى الالهية فلذلك لا تعارض شيء من السحر وانظر شان سحرة فرعون مع موسى في معجزة العصى كيف تلقفت ما يافكون بالصناعة الطبيعية والله العليم الخبير

فصل في ابطال الفلسفة وفسادها

هذا الفصل وما بعده مهم لان هذه العلوم عارضة في العمران كثيرة في المدن وطرقا في الدين كثيرة فوجب ان نضع لسانها ونكشف عن المعتقد الحق فيها وذلك ان قوما من عقلاء النوع الانساني زعموا ان الوجود كله الحسي منه وما وراء الحس يدرك ذواته واحواله باسبابها وعللها بالاحوال العقلية والاقيسة العقلية وان تصحيح العقايد الايمانية من قبل النظر الا من جهة السمع فانها بعض من مدارك العقل وهؤلاء يسمون بالفلاسفة جمع فيلسوف وهو باللسان اليوناني محب الحكمة فجحدوا عن ذلك وشمروا اليه وحوموا على اصابة الغرض منه ووضعوا قانونا لهتدي به العقل في نظره الى التمييز بين الحق والباطل ويسمى بالمنطق ومحصل ذلك ان النظر الذي يفيد تميز الحق من الباطل انما هو للذهن في المعاني المجردة من الموجودات المشخصة فيجرد اولا منها صورا مطبقة على جميع الاشخاص كما ينطبق الطابع على جميع النقوش التي يرسم فيها وتسمع وهذه المجردة من المحسوسات تسمى المعقولات الاوايل ثم يجرد من تلك المعاني الكلية اذا كانت مشتركة مع معاني اخر وقد تميزت عنها فيجرد منها معاني اخرى هي التي اشتركت بها ثم يجرد ثانيا ان شارك غيرها وثالثا الى ان ينتهي التجريد الى المعاني البسيطة الكلية المنطبقة على جميع المعاني والاشخاص ولا يكون منها تجريد بعد وهي الاجناس العالية وهذه المجردات كلها من غير المحسوسات تسمى المعقولات الثواني المجردة وطلب ما تصور الوجود ما هو فلابد للذهن من امضاء بعضها الى بعض او بقي بعضها عن بعض بالبرهان العقلي اليقيني ليحصل تصور الوجود صحيحا مطابقا اذا كان ذلك بقانون صحيح فما من وصف تصديق

الذي تتوسل الاضافة والحكم مستدم عندهم على صناعة التصور لان التصور التام عندهم هو غاية الطلب
الادراكي واما التصديق وسبيله وما يسمونه في كتب المنطقيين من تقدم التصور وتوقف التصديق
عليه فمعنى المتصور لا يعنون العلم التام وهذا هو مذهب كبير اساطينهم يزعمون ان السعادة في ادراك
الموجودات كلها ما في الحس وما وراء الحس هذا النظر وتلك البراهين وحاصل مدارکهم في الوجود على
الجملة وما آلت اليه وهو الذي نزعوا عليه قضايا النظار هم عشروا الاولية الحسم الشغلي بحكم الشهود
والحس ثم ترقى اذراكهم قليلا فشعروا بوجود الميتين من قبيل الجرد والحيين في الحيوانات ثم احسوا
من قوى النفس بسلطان العقل ووقفوا ادراكهم وتصوراتهم على الحكم العالم السماوي بحكم من القضايا على امور
الذوات الانسانية وعندهم ان يكون للانسان نفس وعقل كما للافلاك ثم اهوا ذلك بغاية
عدد الاجادة وفي الغير سبع متصلة ذوات حمل وواحد اول مجرد وهو العاشر وهو يزعمون ان السعادة
في ادراك الوجود على هذه الصور من القضايا مع تهذيب النفس وتخلقها بالفضائل وان ذلك ممكن للانسان
ولم يدر شرح تميزهم في المعقولات والمتوسلة من الافعال بمقتضى عقله وسطره ومتوسلة الى المحمود منها
والمحبب بالمذموم سطره وان ذلك اذا حصل للنفس صفات لها البهجة واللذة وان الجهل بذلك هو
الشقاء البعيد وهذا عندهم هو معنى النعيم والعذاب وفي الاخرة الى انحاط لهم في تفاصيل ذلك
معروف من كلامهم واما هذه المذاهب التي حصل عليها ودون علمها وسطر حكمها فما بلغنا
في هذه الاعصاب بوا سطة المعدودين من سلفنا الاطون وهو معلم الاسكندر وستوقد
العلم الاول على الاطلاق [illegible] يعنون معلم صناعة المنطق اذ الممكن قبل محمد هو هو الاول
من ترجمت اقاويلهم واستوفي مسايلها واحسن بسطها وقد احصى في ذلك القانون ما شاء لو تكمل
لديهم في الاعصار ثم كان بعده في الاسلام من اخذ تلك المذاهب واتسع لها صدره وانفسح
بالعقل الالهي الجليل وذلك ان كتب اولئك المتقدمين ملئت ترجمة الحكماء من بني العباس من
اللسان اليوناني الى اللسان العربي فقصدها الكثير من اهل الملة واخذ منها ما هيئ من اصله الله من متخيل
العلوم وجادلوا عنها واختلفوا في مسايل من تفاريعها وكان من اشهرهم ابو نصر الفارابي لعهد سيف الدولة
وابو علي بن سينا لعهد نظام الملك وغيرهما واعتمد عليه ان هذا الراي الذي دعوا اليه
باطل بجميع وجوهه فاما اسنادهم الموجودات كلها الى العقل الاول واكتفاؤهم به في الترقي فهو
قصور عما ورد ذلك من رتب امر الله في الوجود اوسع نطاقا من ذلك وخلق ما لا يعلمون وقانعهم في
اقتصارهم على اثبات العقل فقط والنفس عما وراءه بمثابة الطبيعيين المقتصرين على اثبات الاجسام
خاصة المعرضين عن النفس والعقل المعتقدين انه ليس وراء الجسم في حكمة الله شيء واما البراهمين
الذين يزعمون انما مدار علمهم في الموجودات وتعرضهم على معيار المنطق وقانونه فهي قاصرة
وعرواقيه بالعرض اما ما كان منها في الموجودات الجسمانية وتسمونه العلم الطبيعي فوجه قصورها ان
المطابقة بين تلك النتايج الذهنية التي تستخرج بالحدود والاقيسة كما في زعمهم وبين ما في الخارج غير بقيني
لان تلك احكام ذهنية كلية عامة والموجودات مشخصة بموادها والعقل في المواد ما منع من مطابقة
الذهني الكلي للخارجي الشخصي اللهم الا ما يشهد له الحس من ذلك فذلك شهوده تلك البراهين فاين

النفس الذي يحدونه فيها وربما يكون بتصرف الذهن ايضا في المعقولات الاول المطابقة للمحسوسات بالتصور الخيالية والمعقولات الثواني التي تحدث في الرتبة الثانية فيكون الحكم حينئذ بتبعية لمبانيه المحسوسات اذ المعقولات الاول اقرب الى مطابقة الخارج لكمال الانطباق فيها فتسلم لهم حينئذ دعاويهم في ذلك الا انه ينبغي لنا الاعراض عن النظر فيها اذ هو من توابل المسلم لما يعنيه فان مسائل الطبيعيات لا تهمنا في ديننا ولا معاشنا فوجب علينا تركها • واما ما كان منها في الموجودات التي وراء الحس وهي الروحانية وتسميه العلم الالهي وعلم ما بعد الطبيعة فان ذواتها مجهولة راسا ولا يمكن التوصل اليها والبرهان عليها لان محرمة المعقولات من الموجودات الخارجية الشخصية انما هو ممكن فيما هو مدرك لنا ونحن لا ندرك الذوات الروحانية حتى يجرد منها ما هيات اخر يحاب للحس سبيلا ويتهيأ للبرهان عليها ولا مدرك لنا في اثبات وجودها على الجملة الا ما يجده من خبايا من امر النفس الانسانية واحوال مداركها وخصوصا في الرؤيا التي هي وصراته لكل احد وما وراء ذلك من حقيقتها وصفاتها فامر غامض لا سبيل الى الوقوف عليه ولقد صرح بذلك محققوهم حيث ذهبوا الى ان ما لا مادة له فلا يمكن البرهان عليه لان مقدمات البرهان من شرطها ان يكون ذاتية وقال كبيرهم افلاطون ان الالهيات لا توصل فيها الى اليقين وانما يقال فيها بالاخلق والاولى معنى الظن • واذا كانا انما تحصل بعد التعب والنصب على الظن فقط فليعلم الظن الذي كان اولا اي فائدة لهذه العلوم في الاشتغال بها ونحن انما عنايتنا بتحصيل اليقين فيما وراء الحس من الموجودات وهذه هي غاية الافكار الانسانية عندهم • واما قولهم ان السعادة في ادراك الوجود على ما هو عليه تلك البراهين فقول مزيف مردود ومعناه ان الانسان مركب من جزئين احدهما جسماني والاخر روحاني ممتزج به وكل واحد من الجزئين مدارك مختصة به والمدرك فيهما واحد وهو الجزء الروحاني بدليل تارة مدارك روحانية • وتارة مدارك جسمانية الا ان المدارك الروحانية ندركها بذاتها بغير واسطة والمدارك الجسمانية بواسطة الالات الحسم من الدماغ والحواس • وكل مدرك فله ابتهاج بادراكه واعنيه بحال الصبي في اول مداركه الجسمانية التي هي بواسطة كيف يبتهج بما يتصور من الصور وما يسمعه من الاصوات فلا شك ان الابتهاج بالادراك الذي للنفس من ذواتها وبغير واسطة • ويكون اشد والذ فالنفس الروحانية اذا سعرت بادراكها الذي لها من ذاتها بغير واسطة حصل لها ابتهاج ولذة لا يعتريها وهذا الادراك لا يحصل بتطور ولا علم وانما يحصل بكشف حجاب الحس ونسيان المدارك الجسمانية بالجملة والمتصوفة كثيرا ما يعنون بحصول هذا الادراك للنفس بحصول هذه الشيخة فيما ولون بالرياضة امانة القوى الجسمانية ومداركها حتى تنكسر من الدماغ ليحصل للنفس ادراكها الذي لها من ذاتها عند زوال الشواغل والموانع الجسمانية فيحصل لهم لذة لا يعتريها وهذا الذي زعموا بتقدير صحته مسلم لهم وهو مع ذلك عزيز الوجود معدوم فيهم • فاما قولهم ان البراهين والادلة العقلية محصلة لهذا النوع من الادراك والابتهاج عنه فباطل كما رأيته اذ البراهين والادلة من المدارك الجسمانية انما هي لقوى الدماغية

من الخيال والفكر والذكر ولحن اذا نبغي به في تحصيل هذا الادراك اما بان هذه القوى الداعية
على الانهماك في هذه الحواس • ويحد المانع منهم فانها على ذاب السفاه والاشارات والمحاولات
ان رشد للنفس وعين يتعثر اورائها وسوف من سبر اغينها ولنلتمس هذا القطر من السعادة
بدنا ولا نعلم انه يستكثر بذلك من الموانع عنها ومستندهم في ذلك ما ينقلونه عن ارسطو والفارابي
وان سلمنا ان من حصل له ادراك العقل الفعال واتصل به فقد حصل حظه من هذه السعادة
والعقل الفعال عندهم عبارة عن اول رتبة يكتنفها الحس من رتب الروحانيات والملوك
ولم يفرقوا بين العقل الفعال على الادراك العلمي وقدرات فسادة واما يعني ارسطو
واصحابه بذلك الاتصال والادراك ادراك النفس الذي لها من ذاتها وبغير واسطة تحصل
اذا انكشف حجاب الحس • واما قولهم ان البهجة الناشية عن هذا الادراك هي عين السعادة
الموعود بها فباطل بما اقمنا من البيان لنا عاقروه ان وراء الحس مدركا آخر للنفس من غير واسطة
وانها تصيح بادراكها ذلك ابتهاجا شديدا وذلك لا يعين لنا انه عين السعادة الاخروية
ولا دليل يعين من جملة المداد التي لتلك السعادة • واما قولهم ان السعادة في ادراك هذه
الموجودات على ما هي عليه فقول باطل مبني على ما كنا قدمناه في اصل التوحيد من الاوهام
والاغلاط في ان الوجود عند كل مدرك منحصر في مداركه وبينا فساد ذلك وان الوجود
اوسع من ان يحاط به او تسوي في ادراكه جملة روحانيا او جسمانيا والذي تحصل من جميع
ما قررناه من مذاهبهم ان الجزء الروحاني اذا فارق القوى الجسمانية ادرك ادراكا ذاتيا له
مختصا بصنف من المدارك وهي الموجودات التي احاط بها علمنا وليس بعام الادراك لجميع
الموجودات قلة او لم يحصر وانه يبتهج بذلك النحو من الادراك ابتهاجا شديدا ومن لنا بعتقد
ذلك بادراك جميع الموجودات او بحصول السعادة التي وعدنا بها الشارع ان لم نفعل لها كما امر
بها هيهات هيهات لما توعدون • واما قولهم ان الانسان مستقل بتهذيب نفسه واصلاحها
بملابسة المحمود من الخلق ومجانبة المذموم فامر مبني على ان ابتهاج النفس بادراكها التي لها من
ذاتها هو عين السعادة الموعود بها لان الرذائل عائقة للنفس عن تمام ادراكها ذلك بما يحصل
لها من المدركات الجسمانية والوانها وقد بينا ان اثر السعادة والشقاوة وراء الادراكات
الجسمانية والروحانية فقد اتى المهذب الذي يوصلوا الى معرفته اما تنعم في البهجة الناشئة
عن الادراك الروحاني فقط الذي هو على مقاييس وقوانين واما ما وراء ذلك من
السعادة التي وعد بها الشارع على امتثال ما امر به من الاعمال والاخلاق فامر لا يحيط به
مدارك المدركين وقد نبه لذلك زعيمهم ابو علي بن سينا فقال في كتاب المبدأ والمعاد
ما معناه ان المعاد الروحاني واحواله هو مما يتوصل اليه بالبراهين العقلية والمعاني
لانه على نسبة محفوظ وقوة واحدة فلنا في البراهين عليه سعة واما المعاد الجسماني
واحواله فلا يمكن ادراكه بالبرهان لانه ليس على نسبة واحدة وقد بسطته لنا الشريعة
الحقة المحمدية فلينظر فيها وليراجع في احواله اليها فهذا العلم كما رايته غير وافي بمقاصدهم

الى

التي حوتموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع وطوائحها وليس لهم فيها الا هزة واحدة ويسخر الهند
في ترتيب الامور له والحجاج لتحصيل مكة احدوثة والصواب في البراهين وذلك ان معظم المقاييس
وتركيبها على وجه الاحكام والاتقان موكانوا طوع في صناعهم المنطقية ولهم بذلك في علومهم الطبيعية
لعمري من الجلا كما قررناه وهم كثيرا ما يستعملونها في علومهم الحكمية من الطبيعيات والتعاليم وما بعدها
فيستولي الناظر فيها بكثرة استعمال البراهين لشروطها على مكنة الاتقان والصواب في الحجاج والاستدلال
وان كانت غير وافية بمقصودهم فهي اصح مما علمناه من قوانين الاقطار هذه هي ثمرة هذه الصناعة
مع الاطلاع على مذاهب اهل العالم وآرائهم ومضارها ما علمت فليكن الناظر فيها متحرزا مجتهدا من
مغالطها ولكن تطرق من يطرقها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه ولا
يكن اصوليا وموغلا من علوم الملة فضل ان يسلم كذلك من مغالطها والله الموفق للحق
والهادي اليه ● وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله

فصل في ابطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غاياتها

هذه الصناعة يزعم اصحابها انهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل صدورها من قبل
معرفة قوى الكواكب وتاثيراتها في المولدات العنصرية مفردة ومجتمعة فتكون لذلك اوضاع الافلاك
والكواكب دالة على ما سيحدث من نوع نوع من انواع الكائنات الكلية والشخصية فالمقدمون منهم
يرون ان معرفة قوى الكواكب وتاثيراتها بالجزئية وهو امر متعذر الا عاما وكلا لو اجتمعت عن تحصيل
اذ الجزئية انما تحصل في المتات المتعذرة بالتكرار ليحصل عنها العلم او الظن وادوار الكواكب
هي مما هو طويل الزمن فيحتاج تكررها الى امد واحقاب متطاولة يتعاصرها اعمار العالم وربما
ومنهم ضعفا منهم الى ان معرفة قوى الكواكب وتاثيراتها كانت بالوحي وهو راي قابل وقد
يكون موتة ابطاله ● ومن اوضح الادلة فيه ان يعلم ان الانبياء بعد الناس عن الصنايع وانهم لا
يتعرضون من الاخبار بالغيب الا ان يكون من الله فكيف يدعون استنباطها بالصناعة ويشرعون
ذلك لمتبعيهم من الخلق واما بطلميوس ومن تبعه من المتاخرين فيرون ان دلالة
الكواكب على ذلك دلالة طبيعية من قبل مزاج يحصل للكواكب في الكائنات العنصرية قال
لان فعل النيرين والثوابت في العنصريات ظاهر لا يتسع احد لجحده مثل فعل الشمس في تبدل
الفصول وامرجها ونضج الثمار والزرع وغير ذلك وفعل القمر في الرطوبات والماء واصلاح
المواد المتعفنة وفواكه القثاء وسائر افعاله ثم قال ولنا فيما بعد من الكواكب طريقان
الاولى التقليد لمن تقبل ذلك عنه من ائمة الصناعة الا انه غير ممتنع للنفس النابهة الحدس والتجربة
بقياس كل واحد منها الى النيرين الذي عرفنا طبيعته وانزع معرفة ظاهرة فينظر هل يرد دلالة
الكوكب عند القران في قوته فيعرف موافقته له في الطبيعة او ينقص منها فيعرف مضادته ثم
اذا عرفنا قواها مفردة عرفنا ممتزجة ● واذا عرفنا قوى الكواكب كلها فهي موثرة في الهواء وذلك
ظاهر والمزاج الذي يحصل منها للهواء يحصل لما تحته من المولدات ويتعلق به اللطف والبرد

ونصيرها الى الشيء المتكون عنها والشيء المتعلق به الفايضة عليه المكتسبة كمالها منه ولما تبع الشمس والبدن
من الاحوال الآن كيفيات المرة والبلغة كيفيات لما يتولد عنها ويشاركها قال ومع ذلك ظني
وليس من اليقين في شيء وليس هو ايضا من القضاء الالهي انما هو من جملة الاسباب الطبيعية للكائن والفساد
الا على سائق على كل شيء محصل كلام بطليوس واصحابه وهو منصوص في كتابه الاربع وغيره ومنه يتبين ضعف
مدرك هذه الصناعة وذلك ان العلم بالكائن او الظن به انما يحصل على العلم بجملة اسبابه من الفاعل والقابل
والصورة والغاية على ما مر في موضعه والقوى النجومية لسببي الفاعل بجملتها بل هي قوى احدى فاعليه
معا في الجزء المادي مثل قوة التوليد للاب والنوع التي في النطفة وقوى الخاصة التي تميز بها صنف صنف
من النوع وعرف ذلك فالقوى النجومية اذا حصلت على كمالها وحصل العلم بها انما هي فاعل واحد
من جملة الاسباب الفاعلة للكائن ثم انه يشترط مع العلم بقوى النجوم وتاثيرها مرتد صدق وتخمين
وعند تحصل عنده الظن بوقوع الكائن والحدس والتخمين قوي الناظر في فكره وليس من علل الكائن
ولا من اصول الصناعة فاذا فقد هذا الحدس والتخمين رجعت دراجا عن الظن الى الشك هذا اذا حصل
العلم بالقوى النجومية على سداده ولم تعترضه آفة وهذا معوز لما فيه من معرفة حسبانات الكواكب
في سيرها لتتعرف به اوضاعها ولما ان اختصاص كل كوكب بقوة دليل عليه ومدرك بطليوس في
اثبات القوى للكواكب الخمسة بقياسها الى الشمس مدرك ضعيف لان قوة الشمس غالبة لجميع القوى من
الكواكب ومستولية عليها فكيف ان يستعار بالزيادة فيها او النقصان منها وهذه كلها قادحة في تعرف
الكائنات الواقعة في عالم العناصر بهذه الصناعة ثم ان تاثير الكواكب فيما تحتها باطل وقد تبين
في باب التوحيد ان الفاعل الا الله فبطل استدلالي في قراءته واحتج لذلك اهل علم الكلام بما هو مبني على البيان
ان اسناد الاسباب الى المستناف مجهول الكيفية والعقل منهم على ما يقضي به فيما يظهر بادي النظر
الرأي من التاثير فكيف استناد على عرصوة التأثير والقدرة الالهية رابطة تنتهي فيها رطب
جميع الكائنات ملوا وسفلا سببا والشرع يرد الحوادث كلها الى قدرة الله وتبرأ مما سوى ذلك والكتاب
لفيف منكر لسلطان النجوم وتاثيراتها واستقراء الشرعيات شاهد بذلك في قوله ان الشمس والقمر
لا يخسفان لموت احد ولا لحياته وفي قوله اصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي فاما من قال
مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب واما من قال مطرنا بنوء كذا فذلك
كافر بي مؤمن بالكوكب الحديث الصحيح فقد بان لك بطلان هذه الصناعة من طريق الشرع وضعف مدركها مع
ذلك من طريق العقل مع ما لها من المضار في العمران الانساني وقعت في مقتل العوام من الفساد اذا
افتقوا الصدق من احكامها في بعض الاحايين انما قال لا يرجع الى تعليل ولا تحقيق فيلتبس بذلك من لا معرفة
له ومن اطراد الصدق في سائر احكامها وليس ذلك فيقع في ورطة الاسباب التي غرضها تماسيح كثيرا
غرقى في الدول من توقع القواطع وما يبعث عليه ذلك التوقع من تطاول الاعداء والمرتصين بالدولة
الى الفتك والثورة وقد شاهدنا من ذلك كثيرا فيتعين ان تحظر هذه الصناعة على جميع اهل العمران لما
يبتنى عليها من المضار في الدين والدول ولا يقدح في ذلك كون وجود طبيعيا للبشر بمقتضى مداركهم
وعلومهم فالخير والشر طبيعتان في العالم ولتعيين اسباب الخير ومعينة واسباب الشر والمفساد

ونفعه واجب وهو الاخلق والاولى من عرفه وليعلم من ذلك انها وان كانت صحيحة في نفسها فلا يمكن
احد من اهل الملة تحصيل علمها ولا يمكنه لان تطرقها الى ظروف به الاحاطة بها هو في غاية التصور في
نفس الامر فان الشارع لما حظرت التطرق فقد الاجماع من اهل العمران لقرائها والخلق لعلمها وصاد
الموانع بها من الناس في عموم الاقل واقل من الاقل انما يطالع كتبها ومقالاتها في كرسية مستتر عن الناس
ويحترفه من الجمهور مع تشعب الصناعة وكثرة فروعها واعتراضها على الفهم فكيف يحصل منها على طائل
ونحن نحذ العقه الذي عم نفعه دينا ودنيا ونهيب ما حظره من الكتاب والسنة المتداولة بين الامة
وعكف الجمهور على قراءته وتعليمه ثم بعد التحليل والتجميع وطول المدارسة وكثرة المجالس والمذاكرة فانما
يحذق فيه الواحد بعد الواحد في الاعصار والاجيال فكيف بعلم محجور الشارع مصروف دونه سد الخطب
والتحم مكتوم عن الجمهور صعب المأخذ فمحاج بعد المدارسة والتحصيل لاصوله وفروعه الى مريد حارس
وتحمل يكتفان به من المناظرين التحمل والحذق فيه مع هذه كلها ومدعي ذلك من الناس مردود على
عقبه ولا شاهد يقوم له بذلك لغرابة الفن بين اهل الملة وقلة حملته فاعتبر ذلك ان كنت ممن
ماذهنك اليه والله عالم الغيب فلا يطلع على غيبه احدا

فصل في انكار ثمرة الكيمياء واستحالة

ان كثيرا من العاجزين عن معاشهم عما وجودها وما ينشأ من المفاسد عند انتحالها

ان كثيرا من العاجزين عن معاشهم يحملهم المطامع على انتحال هذه الصناعة ويرون انها احد مذاهب
المعاش ووجوهه وان اقتنا المال منها اليسر واسهل على مبتغيه فيركبون لاجلها من المتاعب والمشاق
ومعاناة الاصعاب وعسف الحكام وخسارة الاموال في التقلبات زيادة الى التعلل من عرضه
والعطب احيانا ان ظهر على حيلته وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا واما اطمعهم في ذلك اعتقادهم
ان المعادن تستحيل وينقلب بالصنعة بعضها اي بعض المادة المشتركة بينها فيحاولون بالعلاج صيرورة
العقة وشبا والنحاس والقصدير فضة ويحسبونها من ممكنات عالم الطبيعة ولهم في علاج ذلك
مسائل مختلفة لاختلاف مذاهبهم في التدبير وصورته وفي المادة الموضوعة للعلاج المسماة عندهم
بالجرم الكريم هل هو العذرة او الدم او الشعر او البيض او كذا او كذا مما سوى ذلك وجملة التدبير
عندهم بعد تعيين المادة ان تمهل بالنار على حجر صلد املس ويستقى اثناء ذلك بالماء بعد ان
تضاف اليها من العقاقير والادوية ما يناسب القصد منها ويوشر في انتقالها الى المعدن المطلوب
ثم يجفف بالشمس بعد السقي ويطبخ بالنار او يصعد او يكلس لاستخراج مائها او نارها فاذا رضي بذلك كله
من علاجها وتم تدبيره على ما اقتضاه اصول صنعته حصل من ذلك تراب او مائع يسمونه اكسير ويزعمون
انه يلقى على الفضة المحماة بالنار فتعود ذهبا او النحاس المحمى بالنار فتعود فضة على حسب ما قصده في عمله
ويزعم المحققون منهم ان ذلك الاكسير مادة مركبة من العناصر الاربعة حصل فيها بذلك العلاج اكمل
التدبير مزاج ذو قوى طبيعية بصرف ما حصلت فيه اليها ويقلبه الى صورتها ومزاجها وثبت فيه ما

حصل لها من الاعتشاش والمشاشة لحس يعقه في المعدة ويحمل مرعبا الى العدا وكذا الكبد الذهب
والفضة فما يحصل عنه من المعادن يقرفد اليها ويقلبه الى صورتها هذا محصل زعمهم على الجملة فبهم
عاكفين على هذا العلاج يبتغون الرزق والمعاش منه وبينا قلون احكامه وقواعده من كتب ائمة الصناعة
من قبلهم بدا اولوا بينهم وبينا طرون في فهم نصوصها وكشف اسرارها اذ هي في الاكثر تشبه المعمى
كتواليف جابر بن حيان في رسالة الستين ورسالة المجريطي في كتاب رتبة الحكيم والطغرائي والمعرفي
في قصائده الغريبة في الاحاجة وامثالها ولا يكون من بعد هذا الا له بطائل فيها فاوضت يوما
شيخا الركاب السلمي كبير مشيخة الاندلس في مثل ذلك ووقفته على بعض التواليف فيها فتصفحه طويلا
ثم رده الي وقال لي وانا اظن ان لا يعود الى بينة الا الحيسة فمنهم من يقتصر في ذلك على الدلسة
اما الظاهرة كتمويه الفضة بالذهب او الذهب بالفضة او الماس بالفضة او خلطها على نسبة خاصة او
بلائها او الحقنة كالقاء السبة بين المعادن بالصناعة مثل تبييض النحاس وتبيينه بالزرنيخ المعتقد
فيحسبها معتقدينها بالفضة ويحتكم الى النقاد فيقدر اصحاب هذه الدلس من دلسهم هذه سكة لسوقها
في الناس ويطبعونها ويطابع السلطان تمويها على الجمهور بالخلاص وهو لاء اخس الناس حرفة واتوا هم
عاقبة لدلسهم بسرقة اموال الناس فان صاحب هذه الدلسة انما يتوسل برفع الماسي في الفضة والفضة في
الذهب ليتخلص لنفسه فهو سارق او اسرق من السارق ومعظم هذا التصنع لدينا بالمغرب
من طلبة البربر المبتدين باطراف البقاع ومساكن الاعمار يادون الى مساحل البادية ويموهون
على الاعتياص منهم بان بايديهم صناعة الذهب والفضة والتوسل بوعاتها والغرور في طلبها فيحصلون
من ذلك على معاش يتم بسعي ذلك عندهم تحت الخوف والرقبة الى ان يظهر العجز وتتبع الفضيحة
فيعودون الى مكارم اخر ويستجدون حالا اخرى في استهواء بعض اهل الدنيا باطماعهم فيما لديهم وقد
رايت كذلك في اتباعه معاشهم وهذا الصنف لا كلام معهم لانهم بلغوا الغاية من الجهل
والرداءة والانحراف بالبرقة والاحاسم لعلتهم الا استداد الحكام عليهم وسناء لهم من حيث كانوا
وقطع اليدهم متى ظهر على ساحتهم لان فيه افساد السكة التي يقع بها البلوى وبني معمول الناس
كافة والسلطان مكلف باصلاحها والاحتياط عليها والاسداد على مفسدها واما من اهل هذه
الصناعة ولم يرض بحاله الدلسة بل استكنه حقيقتها وتوقه نفسه عن افساد سكة المسلمين ونقودهم
وانما يطلب اصالة الفضة الى الذهب والرصاص والنحاس والقصدير الى الفضة بذلك النحو
من العلاج وبانكسير الحاصل عنه كلما مع مولاه متكلم وبحث في مداركهم لذلك مع انا لم نعلم ان
احدا من هذا العالم تم له هذا الغرض الا حصل منه على بغيته انما يذهب اعمارهم في التدبير والتهمم
والصلابة والتصعيد والتكلس واعتسام الاحطاب لجمع العقاقير والبحث عنها وبينا قلون
في ذلك حكايات وقعت لغيرهم ممن تم له الغرض منها او وقف على الوصول يتعون باسماعها
والمفاوضة فيها ولا يستريبون في تصديقها شان المكلفين المغرمين بوساوس الاخبار فيما
يكلفون به فاذا سئلوا عن تحقيق ذلك بالمعاينة انكروه وقالوا انما سمعنا ولم نر هكذا اشاهم
في كل عصر وجيل واعلم ان انتحال هذه الصنعة مذمة في العالم وقد تعلم الناس

جاهدا والعمل المعيب اظهار شرف العقل والنقل الى المعرفة من الجهل • وقد منعه من المعرفة الامساك
عن العمل وهذا ظلم العقل • ومن ابتداء العمل قبل العلم لم يحمد معتبة رأيه ولم يزل في حيز الضلالة
خافضا • وفي بحر الضلالة راكضا • ثم تكون عاقبة امره الى الندم عند تلاف ماله وذهاب رزقه
ومن كان مفتاح عمله الخطأ • كان اخر عمله الفساد ثم لا يزداد في التجارب جهدا الا ازداد عن الطريقة بعدا
وكل عمل لا يكون له على الحقيقة في العلم ابتداء • فليس له وان طال الزمان انتهاء • لانه لا يمكن اصابة هذا العلم
بالمصادفة والظنون الساذنة الحائدة عن الحق • السالكة غير سبيل الصدق حتى يكون لطالبه معرفة بالمقدمات
وبصر بالامارات التي تودي الى معرفتها وتدل على عامض اثارها • ويحول بينه وبين الخطأ فيها • وقد زعم
بعض اهل هذه الصناعة ممن لا يصلح استماع كلامه فضلا عن مناظرته انه ليس لهذه الصناعة
مقدمات يحدث عنها ويدل عليها • ويستعين عليه بذلك فقد قال سئل الحراني انه لا بد للمحترف
من اعمال فكره فيما يريد عمله من صنعته فيتدابه ويصوره في فهمه قبل الاقدام على عمله فان المتكلف صوره
قبل تصورها في الفهم بالعلم السابع عشر بالغ حاسته ولم يستطع احد ان يتكلف عمل شيء دون سبق علم
وتقديم اصل يدبره بعقله ويصوره بوهمه وانا نجد مبادي الهندسة من السطوح • والخطوط المستقيمة
والمعوجة • والاشكال المسطحة والمجسمة • والزوايا المختلفة • ومبادي الحساب من الاعداد والطبائع
من الطبايع • والعقاقير المفردة والمركبة • والمختلفة • والموافقة • ثم قال والمقدمات

ان مضافة وح العامل بعض كل من ... وسبب ... من الشيء دون الكل فاذا اضافت القوى والكيفيات في الملاح فان زمان كونه اقصر من ذلك
ضرورة علمنا قبلك • او نحو ذلك حضور صورة مراجعة تلك المادة نفسها

وضعت لك كتابي هذا مستوفيا لما سألت وجامعا لما طلبت وبعثت به اليك مع الاكبر المتوسم منه لتعلم انه حق لا ريب فيه وذلك من اعظم الفوائد في هذه الصنعة لانك طالبها على الحقيقة انما تجد او لا على المطلوبة وجودا ثم كل ما خارج من القوة الى الفعل فواضح ذلك عنده تكلف ما اراد عمله وكان من ذلك على يقين فان نال هذا العلم فهو حكيم والا فطالب الحكمة حكيم وبعثت بالمكيف عنه في بعض رجاته ليكون لك علامة تقتدي بها اذا وصلت اليها ولم ادون به مناجاة عليك ولا ارادة التصريح على منك لان في ذلك ضررا كثيرا لكن لتعلم ان الصناعة حق والكلام فيها صدق • ولو سألت استاذنا مسلمة كما سألتنا لما استغنيت عنا • ولما مات مسلمة رحمه الله وطهرت الفتنة حالت الى الحصن الرفيع والمعقل المنيع ومع من المال كثرة وكنت من الملك بحيث شاهدت ايام كونك عندنا فوجب علي القيام بامره والدب عنه عند حضور البرابرة واجتماعهم علينا فبذلت ما عندي من المال حتى ذهب جميعه ولجات الى الاكسير وكان اقل من القليل فبلغ الصنع به مائة الف دينار اذهبا ولم يكن عندي ما انميه به ولا قدرت على عقده لقوة الحصر وشدة الامر فقمت بذلك المال كرة الرجال وطول مدة القتال فنجانا الى الصلح وخلصنا بلطف الحيل الى ساطبة • وانا حامل الذكر فيها اضدا في الزاد مشتمل الجهاد حتى وردت بكابك حزل ساكنا وذكرت النطع وكنت ناسيا وهذا كتابي وعلم الله اني لم اخف عليك من هذه الصناعة شيئا ولا كتمت فيها سرا بل اظهرت لك حقا • وشرحت لك جنسا علمته فلا تقصر في الاجتهاد واستعمل الفكرة في مقدمات اعمالك ولطف التدبير وحسن التقدير فان الحكام تفنى بكثرة العقائق وانما فخرت بحسن الراي والله يرزقك ولا تطلب ايقاك الله العجلة وسرعة الفراغ فاكثر ما يقع الخطا والفساد من ذلك فقد كان سقراط دخل يوما على ابن الملك الذي كان تعلم فوجد من بدنه علامات بدت سرا منه وكان ابن الملك عالما بكيفية الصناعة فسأله عن ذلك فاخبره انه صبغه وانه ممتحن فيه لقلة تدبيره فدعى سقراط بحمد الخاسن فدوت من بدنه والقى عليه منه شيئا كثيرا فلم يكن له من الماء شعر اكثر من تغيير حمرة النحاس فافهم ذلك ان الملك وسائر ظنة لسقراط فسأله سقراط عن المدة فاخبره انه بداه عن قرب ولم يطف الوقوف عليه فقال سقراط لا تحزن ايها ابن الملك فانه مدرك من ذلك ما احببت ثم انطلق عنه سقراط الى منزله وكتب اليه يا بني لا تطلب سرعة العمل واطلب جودته فان الناس لا يطلبون المدة وانما يطلبون الجودة فلما قرا ابن الملك علم انه صواب من عمله وانه لا ياتي الا في مدة طويلة فلزم العمل وسلك طريقة الصواب حتى اصاب ومن لم يكن له بصيرة بهذه الصنعة والعمل واللطف في العمل والحسن في الراي لم يظفر بالمطلوب ولو كان منه قريبا فاعلم ان شاء الله فينبغي لك ان تعود بنفسك النظر في كتابي وتحلص في ذلك التمييز فلاجل فانما الصناعة حكمة صناعيته نجها اصحاب العلم والتجربة فان من جرب يزيده علما ومن تعلم يزدد يقينا ومن يستغن يعمل

منها من المتقدمين والمتاخرين بمام تشيف صدر المستقل مذاهبهم في ذلك ثم سلوك باطنها
والله الموفق للصواب • فنقول • سبب الكلام في هذه الصناعة عند الحكماء على حال المعادن السبعة
المطرقة • وهي الذهب • والفضة • والرصاص • والقصدير • والنحاس • والحديد • والحارصيني • بل
هي مختلفة بالفصول وهي انواع قابلة بانفسها • وانما هي مختلفة بالخواص من الكيفيات • وهي كلها اصناف
لنوع واحد على الذي ذهب اليه ابو نصر الفارابي • وتابعه عليه حكماء الاندلس انها نوع واحد • وان اصنافها
انما هو بالكيفيات من الرطوبة واليبوسة • واللين • والصلابة • والالوان من الصفرة • والبياض
والسواد • وهي كلها اصناف لذلك النوع الواحد • والذي ذهب اليه ابن سينا وتابعه عليه حكماء
المشرق انها مختلفة بالفصول • وانها انواع متباينة كل واحد منها قائم بنفسه متحقق بحقيقته لفصل
وحس متمان سائر الانواع • وبنى ابو نصر الفارابي على مذهبه بانها انواع امكان انقلاب بعضها الى
بعض لبدل الاعراض عليه وعلاجها بالصنعة فمن هذا الوجه قالت صناعة الكيميا عنده ممكنة
مثل الماحد • وبنى ابو علي بن سينا على مذهبه في احالتها بالنوع انكار هذه الصنعة واستحالة وجودها
بنا على ان الفعل لا سبيل بالصناعة اليه وانما يخلقه خالق الاشياء ومقدرها وهو الله والفصول مجهولة
الحقائق رأسا بالتصور فكيف يحاول اعمالها بالصنعة • وعلطه الطغرائي من اكابر هذه الصنعة
في مد القول وزد عليه بان التدبير والعلاج ليس في تحليق الفعل وابداعه وانما هو في اعداد المادة
لقبوله خاصة • والفصل باق من بعد الاعداد من لدن خالقه وبارئه كما يفيض النور على الاجسام بالصقل
والاملاء ولا حاجة بنا في ذلك الى تصوره ومعرفته قال • واذ كنا قد عرفنا على تحليق بعض الحيوان
مع الجهل بفصوله مثل العقرب من التراب والتين ومثل الحيات المتكونة من الشعر ومثل ما ذكره
اصحاب الفلاحات في تكوين النحل اذا افقدت من عجاجيل البقر وتكوين العقب من قرون ذوات الظلف
وتصيير سكر بحتو العرون بالعسل بين لدي ذلك الفتح للقرون فما المانع اذا من العثور على مثل
ذلك في المعادن وهذا عمله بالصناعة وبنى انما موضوعها المادة فبعدها التدبير والعلاج الى قبول
تلك الفصول لا اكثر قال • فمن حاول مثل ذلك في الذهب والفضة فقد حاد للتدبير
والعلاج الى قبول تلك الفصول بعد ان يكون فيها استعداد لقبول صورة الذهب والفضة ثم
حاول بالعلاج الى ان يتم فيها الاستعداد لقبول فصلها انتهى كلام الطغرائي • وهذا الذي ذكره في الرد
على ابن سينا صحيح لكن لنا في الرد على اهل هذه الصناعة ما خذ آخر يتبين منه استحالة وجودها وبطلان
مزعمهم احقيق لا الطغرائي ولا ابن سينا • وذلك ان حاصل علاجهم انهم بعد الوقوف على المادة المستعدة
بالاستعداد الاول يحملونها موضوعا ويحاولون في تدبيرها وعلاجها تدبير الطبيعة في الجسم المعدني
متى حالته ذهبا او فضة وبضاعفون القوى الفاعلة والمنفعلة ليتم في زمان اقصر لانه يتبين في موضعه
ان مضاعفة قوة الفاعل ينقص من زمن فعله • وسنبين ان الذهب انما يتم كونه في معدنه بعد الف وثمانمائة
من السنين دورة الشمس الكبرى فاذا ضاعفت القوى والكيفيات في العلاج فان زمان كونه اقصر من ذلك
ضرورة على ما قلناه • او يحرون بعلاجهم ذلك حصول • صورة مزاجية لتلك المادة تصيرها

كالجبن وذلك سهل الايسير على ما تقدم **واعلم** ان كل متكون من الموالد ذات العنصرية فلا بد فيه من اجتماع العناصر الاربعة وعلى نسبة متقاومة اذ لو كانت متكافئة في النسبة لتم امتزاجها فلا بد من الحر الغالب على الكل ولا بد في كل ممتزج من الموالد من حرارة غريزية هي الفاعلة لكونه الحافظة لصورته ثم كل متكون في زمان فلا بد من اختلاف اطواره واشتماله فيها من طور الى طور حتى ينتهي الى غايته وارتقاء الانسان في طور النطفة ثم العلقة ثم المضغة ثم التصوير ثم الجنين ثم المولود ثم الرضيع ثم تم الى غايته ونسبة الاجزاء في كل طور تختلف في مقاديرها وكيفياتها والامكان الطور بعينه الاول لا يوالاه وكذا الحرارة الغريزية في كل طور مخالفة لها في الطور الاخر فانظر الى الذهب ما يكون لزمن معدنه من الاطوار مذ الف سنة وما يشتمل فيه من الاحوال ويحتاج صاحب الكيمياء ان يساوق فعل الطبيعة في المعدن ومحاولته تدبيره وعلاجه الى ان يتم ومن شرط الصناعة ابدا تصور ما يقصد اليه بالصنعة من الامثال السائرة في ذلك لنا اول العمل اخر الفكرة واخر الفكرة اول العمل فلا بد من تصور هذه الحالات في اطواره المتعددة ونسبها المتفاوتة في كل طور واختلاف الحار الغريزي عند احتلالها ومقدار الزمان في كل طور وما يتوب عنه من مقدار القوي المصانعة ويقوم مقامه حتى يحاذي بذلك كله فعل الطبيعة في المعدن او بعد لبعض المواد صورة مزاجه يكون كصورة الحمرة للجبن ويتعلق بهذه المادة بالمناسبة لقواها ومقاديرها وهذه كلها انما يحصرها العلم المحيط والعلوم البشرية قاصرة عن ذلك وانما حال من يدعي حصوله على الذهب بهذه الصنعة مشابه من يدعي الصنعة تخليق انسان من المني وحتى اذا سلمنا له الاحاطة باجزائه ونسبه واطواره وكيفية تخليقه في رحمه وعلم ذلك علما محصلا بتفاصيله حتى لا يشذ منه شيء عن علمه سلمنا له تخليق هذا الانسان وانى له ذلك ولتقريب هذا البرهان بالاختصار لنسهل منه فنقول حاصل صناعة الكيمياء وما يدعونه من هذا التدبير انه مساو في الطبيعة المعدنية بالفعل الصناعي ومحاذاتها به الى ان يتم كون الجسم المعدني او تخليق مادة بقوي وافعال وصورة مزاجية متعلق في الجسم فعلا طبيعيا فتصيره وبقلبه الى صورها والفعل الصناعي سوف بتصورات احوال الطبيعة المعدنية التي يقصد مساوقتها او محاذاتها او فعل المادة ذات القوى فيها تصورا مفصلا واحدة بعد اخرى وتلك الاحوال لا نهاية لها والعلم البشري عاجز عن الاحاطة بها دورها وموازنته من يقصد تخليق انسان او حيوان او نبات هذا مفصل هذا البرهان وهو اوثق مما علمته ولبسط الاستحالة فيه من جهة النقول فما دابة ولا من الطبيعة انما هو من تعذر الاحاطة وقصور البشر عنها وما ذكروا ان شيئا يعز عن ذلك ولا وجه اخص في الاستحالة من جهة غايته وذلك ان علة امة في المحرمين وبدودين انما هو قيم لمكاسب الناس ومتمولاتهم فلو حصل عليها بالصنعة لبطلت علة الله في ذلك وكثر وجودها حتى لا تحصل لاحد على اقتنائها ولا وجه اخص من الاستحالة ايضا وذلك ان الطبيعة لا تترك اقرب الطرق في افعالها وتركب الاعوص والابعد فلو كان هذا الطريق الصناعي الذي يزعمون انه صحيح وانه اقرب من طريق الطبيعة في معدنها واقل زمانا لما تركته الطبيعة الى الطريق الذي سلكته في كون الفضة والذهب وتخليقهما واما تشبيه الطغرائي هذا التدبير بما عز عليه من معجزات الانبياء في الطبيعة كالعقرب والحل والحية وتخليقها فامر صحيح في هذه

ادى اليه العثور فاز عم • واما الكيمياء فلم يعقل ان احدا من اهل العالم عثر عليها ولا على طريقها وما زال مخلطون يخبطون فيها عشواء الى يومهم ولا ينطقون مطوون الا بالحكايات الكاذبة ولو صح ذلك لاحد منهم لخصه غيبة ولده او تلميذه او اصحابه وسوء قبل ان اقدم آباء وصمن تصديقه صحة العمل يعود الى ان نشر وبلغ الينا او الى غيرنا واما قولهم ان الاكسير بمنابة الجمرة وانه مركب يحمل ما حصل فيه وينقله الى ذاته فاعلم ان الجمرة انما تلتهب العين وتعده للهضم وهو فساد والفساد في المواد يعقب بانتهى من اعمال الطبائع والمطلوب بالاكسير قلب المعدن الى ما هو اشرف منه واعلى وهو كون وصلاح والكون اصعب من الفساد فلا يقاس الاكسير على الجمرة • وتحقيق الامر في ذلك ان الكيمياء صح وجودها فاز عم الحكماء المتكلمون فيها مثل جابر بن حيان ومسلمة بن احمد المجريطي واما لهم فليست من باب الصنايع الطبيعية ولا تتم بامر صناعي وليس كلامهم فيها من معنى الطبيعيات انما هو من معنى كلامهم في الامور الالهية وسائر الخوارق وما كان من ذلك كالحلاج وغيره وقد ذكر مسلمة في كتاب الغاية ما نسبته ذلك فيما نقل عن الحلاج ونحو كلامهم فيه معروف ولا حاجة بنا الى شرحه • وبالجملة فانها عندهم من كلمات الوالد الخارجة عن حكم الصنايع فكما لا يتولد مما منه الحسن والحيوان في يوم او شهر حسن ان حيوان مما عدا مجرى تخليق ذلك طفيل سبق من مادة الذهب في يوم وليلة ولا يتغير طريق عادة الابار فادما وراء عالم الطبائع وعمل الصنايع فكذلك من طلب الكيمياء طلب طبيعيا صناعيا ضيع ماله وعمله لان بيان ان كان صحيحا فهو وافع ما وراء الطبائع والصنايع وهو كالمشي على الماء وامتطاء الهواء والعقود في كتائب الاعمال حساب ونحو ذلك من كرامات الاولياء الخارقة للعادة او مثل تحليق الطير ونحوها من معجزات الانبياء قال تعالى واذ تخلق من الطين كهيئة الطير فتكون طيرا باذن الله وعلى ذلك لسنا نسلم انها مختلف بحسب حال من موتانا فربما اوتيها غير الفالح ويوتيها غير فيكون عند معاودة وربما اوتيها الفالح ولا يملك اتيانها فلا تتم في يد غيره • ومن هذا الباب يكون علاج السحر والموظف العادة غير منحصرة ولا يقصد احد الى تحصيلها والله بما يعملون محيط • واكثر ما يحمل على التماس هذه الصناعة واستحالها هو ما تلتاه العجز عن الطرق الطبيعية للمعاش وابتغائه من غير وجوهه الطبيعية من الفلاحة او التجارة او الصناعة فيستصعب العاجز ابتغاءه من هذه ويروم الحصول على المال من دفعه بوجوه غير طبيعية من الكيمياء وغيرها واكثر من يعنى بذلك الفقراء من اهل العمران حتى من الحكماء المختلفين في امكانها واستحالتها فان ابن سينا القائل باستحالتها كان من عليه الوزراء وكان من اهل الغنى والثروة والغارابي القائل بامكانها كان من اهل الفقر الذين يعوزهم ادنى شيء من المعاش واسبابه وهذه تهمة لاحقة في النفوس المولعة بطرقها واستحالتها والله الرازق ذو

المقدمة العشرون

فصل في ان كثرة التواليف في العلوم عائقة عن التحصيل

اعلم انه مما اضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التواليف واصطلاحات المصنفين في التعليم وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والمبتدئ باستحضار ذلك وصيرورته ملكة له منصب التحصيل فيحتاج المتعلم الى حفظها كلها او اكثرها ومراعاة طرقها ولا يفي عمره

بما كتب في صناعة واحدة اذا بحث ولها فيتسع العصور ولا يدون لذلك من التحصيل ومن مثل ذلك من
شأن النحو في كتاب المدونة مثلا وما كتب عليها من الشروحات النحوية مثل ابن يونس والبجمي
وابن بشير والسيورية والمقدمات والبيان والتحصيل على العتبية وكذلك كتاب ابن الحاجب
وما كتب عليه وميز الطريقة العراقية من المغربية والبغدادية والمصرية وكتب المتأخرين
عنهم والاحاطة بذلك كله وحينئذ يسلم له منصب الفتيا وهي ملكة متكررة والمعنى واحد
والمتعلم طالب باستحضار جميعها وتمييز ما بعدها والعمر يقضي في واحدة منها ولو اقتصر المعلمون
المتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الامر دون ذلك بكثير فكان التعليم سهلا وما احسن
قريبا ولكنه لا ينفع ومثل ايضا في علم العربية من كتاب سيبويه وجميع ما كتب عليه وطرق
البصريين والكوفيين والبغداديين والاندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين
مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك وكيف يطالب به المتعلم ويقضي عمره دون
ولا يطلع احد في نهاية منه الا في القليل النادر ومثل ما وصل الينا لهذا العهد من فحول الرجال من اهل
صناعة العربية من اهل مصر يعرف بابن هشام ظهر من كلامه فيها انه استولى على غاية من صناعة العربية ثم تحصل
الاسيوطي وابن حي واهل طبقتهما لعظم ملكته وما احاط به من اصول ذلك الفن وتفاريعه وحسن تفرقه
فيه ودل ذلك على ان الفضل غير منحصر في المتقدمين بسبب ما قررناه من كثرة الشواغل بتعدد
المذاهب والطرق والتواليف ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا نادر من نوادر الوجود ولا
والا فالظاهر ان المتعلم اذا قطع عمره في هذا كله انما له تحصيل علم العربية الذي هو آلة من الآلات
ووسيلة فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة والله يهدي من يشاء

فصل في ان كثرة الاختصارات في العلوم مخلة بالتعليم

ذهب كثير من المتأخرين الى اختصار الطرق والاتجاه في العلوم مواقعون منها ويدونون منها ما يحا محصرا
في كل علم يشتمل على حفظ رسائله واوليه باختصار في الالفاظ وحصر المسائل في المعاني الكثيرة من
ذلك الفن تقريبا للحفظ على عادتهم مما فعله ابن الحاجب في الفقه وابن مالك في العربية والخونجي في المنطق
وامثالهم وهو فساد من التعليم وقلة احلال بالتحصيل وذلك ان فيه خلطا على المبتدئ بالغايات
الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد وهو من سوء التعليم كما سنبينه ثم فيه مع ذلك
شغل كثير على المتعلم بتتبع الفاظ الاختصار الغريبة للفهم براجم المعاني عليها وصعوبة استخراج
المسائل من بينها لان الفاظ المختصرات بحد ذلك صعبة غريبة فيستغرق في فهمها حظا صالحا من الوقت
ثم بعد ذلك فله فالملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات اذا تم على سداده ولم تعقبه افة هي ملكة
قاصرة عن الملكات التي تحصل عن الموضوعات البسيطة المطولة لكثرة ما يقع في تلك من التكرار والاطناب
المعين لحصول الملكة التامة واذا اقتصر عن التكرار قصرت الملكة بسببه فكان هذه الموضوعات
المختصرة قصد والى تسهيل الحفظ على المتعلمين فاركبوهم صعبا بقطعهم عن تحصيل الملكات

ومن يهد الله فلا مضل له

فصل

فصل في وجه الصواب في تعلم العلم وطريق افادته

اعلم ان تلقين المتعلمين للعلوم انما يكون مفيدا اذا كان على التدريج شيئا فشيئا وقليلا قليلا يلقى عليه اولا مسائل في كل باب من الفن هي اصول ذلك الباب ويقرب له في شرحها على جمل الاجمال ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي الى آخر الفن وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم الا انها قريبة وضعيفة وغايتها انها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله ثم يرجع به الى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة الى اعلا منها ويستوفي الشرح والبيان ويخرج عن الاجمال ويذكر له ما هناك من الخلاف ووجه الى ان ينتهي الى آخر الفن فتجود ملكته ثم يرجع به ويردد افلاته غوصا ولا منها ويستغلقا الا اوضحه وفتح له مقفله فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته هذا وجه التعليم المفيد وهو مكررات انما تحصل في ثلاث تكرارات وقد يحصل للبعض في اقل من ذلك بحسب ما خلق له وتيسر عليه وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذين ادركنا هم يجهلون طرق التعليم وافادته ويحضرون المتعلم في اول تعليمه المسائل المستغلقة من العلم مطالبونه باحضار ذهنه في حالها ويحسبون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه ويكلفونه وعي ذلك وتحصيله فيخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها وقبل ان يستعد لفهمها فان قبول العلم والاستعداد لفهمه ينشأ تدريجا ويكون المتعلم اول الامر عاجزا عن الفهم بالجملة الا بالقليل من المسائل على سبيل التقريب والاجمال وبالمثل الحسية ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالطة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من القريب الى الاستيعاب الذي فوقه حتى يتم الملكة في الاستعداد ثم التحصيل وتحيط بمسائل الفن واذا التبست عليه الغايات في البداية وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه فكاسل عنه والحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه واما ان ذلك من سوء التعليم ولا ينبغي للعلم ان يرد متعلمه على فهم كلامه الذي اكب عليه المتعلم منه بحسب طبيعته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئا كان او متمسكا ولا يخلط مسائل الغايات بغيرها من اوله الى آخره وتحصل امراضه ويستولي منه على ملكة بها يقتدر على فهم ان المتعلم اذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقي وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض الى ما فوق حتى يستولي على غايات العلم واذا خلط عليه الامر عجز عن الفهم وادركه الكلال وانطمر وكره ويئس من التعليم وبحر العلم والتعليم والله يهدي من يشاء

ومن المذاهب الجملة والطرق الواضحة في التعليم ان لا يخلط على المتعلم علمان معا فانه حينئذ قل ان يظفر بواحد منهما لمخالفة مسائل كل واحد منهما الى نظيرتها من الآخر فيستغلقان معا ويستصعبان ويعود منهما بالخيبة واذا اقرع الفكر لتعلم ما هو بسبيله منتصرا عليه فربما كان ذلك احد تحصيله والله الموفق للصواب

فصل في تعليم الولدان واخلاق منازعهم الاصار الاسلام وطرقه

تعلم ان تعليم الولدان القرآن شعار من شعائر الدين اخذ به اهل الملة ودرجوا عليه في جميع امصارهم لما يسبق فيه الى القلوب من رسوخ الايمان وعقائده من آيات القرآن وتفخ متون الاحاديث وصار القرآن اصل التعليم الذي يبتني عليه ما حصل بعده من الملكات وسبب ذلك ان تعليم الصغير اشد رسوخا وهو اصل لما بعده لان انشاء الاول في القلوب كالاساس للملكات وعلى حسب الاساس واساليبه يكون حال ما يبنى عليه • واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم في اعتبار ما يتشاء عن ذلك التعليم من الملكات فاما اهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار في تعليم القرآن فقط واخذهم بمدارسته واستظهار على قراءة وورش او الدوري عليها ضبط مصاحفهم ثم اخذهم انشاء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب الى ان يحذق في ذلك او ينقطع دونه فيكون انقطاعه انقطاعا في الغالب عن العلم بالجملة هذا مذهب اهل الامصار بالمغرب ومن تبعهم من قراء البربر اهم المغرب في ولدانهم الى ان يجاوز واحد البلوغ الى الشيبة وكذا في الكبير اذا راجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره فهم لذلك اقوم على رسم القرآن واحفظ ممن سواهم

واما اهل الاندلس فمذهبهم تعليم القراءة واكتب من حيث هو وهذا الذي رأيناه في التعليم الا انه لما كان القرآن اصل ذلك كله وينبوع الدين والعلوم جعلوه اصلا في التعليم فلا يتصرفون لذلك عليه فقط بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل واقدهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب ولا يحتفلون عنايتهم في التعليم بالقرآن دون غيره من هذه كل عنايتهم فيه بالخط اكثر من حفظه الى ان يخرج الولد من عمر البلوغ الى الشيبة • وقد شاهدنا بعض المتأخرين في العدوة • والسبب في ذلك ما رأيناه من ان الخط والكتاب وتعلق باذيال العلم على الجملة لوكان فيها سند لتعليم العلوم لكنهم ينقطعون عند ذلك لانقطاع سند التعليم في افاقهم ولا يحصل بايديهم الا ما حصل من ذلك التعليم الاول • وفيه كفاية لمن اراد الله واستعداد اوصر المعلم • واما اهل افريقية فيخلطون في تعليمهم الولدان القرآن بالحديث في الغالب ومدارسة قوانين العلوم ويلقنون بعض مسائلها ان عنايتهم بالقرآن واستظهار الولد اياه ووقوفه على اختلاف رواياته وقراءاته اكثر مما سواه وعنايتهم بالخط مع ذلك

واما اهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك على ما بلغنا ولا ادري بم عنايتهم منها والذي ينقل لنا ان عنايتهم بالعلم والخط اكثر • فاما اهل افريقية والمغرب فانما دأبهم الاقتصار على القرآن المقصور عن ملكة اللسان جملة • وذلك ان القرآن لانشائه عن الغالب ملكة لما ان البشر صرفون عن الاتيان بمثله فهم مصروفون عن الاستعمال على اساليبه والاصداء بها فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي وحفظ الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام وربما كان اهل افريقية في ذلك اخف من اهل المغرب لما يخلطون في تعليمهم القرآن بالحديث وعبارات العلوم في قوانينها كما قلناه فيصدون على شيء من التصرف ومحاولة المثل والمثل الا ان ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة لما ان اكثر محفوظهم عبارات العلوم الحائلة عن البلاغة كما سيأتي في قصبة

واما اهل الاندلس فاقوم التعليم في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة

العربية من اول العمر حصول ملكة صار رواها اعرق في اللسان العربي وقصر وافى سائر العلوم لبعدهم
عن القرآن والحديث الذي هو اصل العلوم واساسها وكانوا لذلك اهل حفظ وآلف بادع او متقصر على
حسب ما يكون لتعليم الناشئ من بعد تعليم الصبيان ولعمري وهب القاضي ابو بكر رحمه العربي في كتاب
رحلته الى عهده في وجه التعليم واعاد في ذلك وابدا وقدم تعليم العربية والسمع على سائر العلوم كما هو
مذهب اهل الاندلس قال لان السمع ديوان العرب ومدعاة الى تعديه ولتقديم العربية في التعليم
ضرورة فساد اللغة ثم ينتقل منه الى الحساب فيمرن فيه حتى يرى القوانين ثم ينتقل الى درس القرآن
فانه تيسر عليك بهذه المتقدمة ثم قال وبا غفلة اهل بلادنا فان الوحد الطفل بكتاب الله في اول
امره تعرا ما لا يفهم وينصب في امر غيبي انهم عليه منه ثم ينظر في اصول الدين ثم
اصول الفقه ثم الحديث وعلومه وهي مع ذلك ان يخلط في التعليم علمان الا ان يكون
التعليم قليلا لذلك بجودة الزمن والنشاط هذا ما اشار اليه القاضي ابو بكر رحمه الله وهو لعمري مذهب
حسن الا ان العوائد لا تساعد عليه وهي املك بالاحوال ووجه ما اختصت به العوائد من تقديم القرآن
ان شاء الله هو والثواب وحسبه ما تعرض للولد في ضمن الصبا من الافات والقواطع عن العلم فيصوفه
القرآن لانه ما دام في الحجر متعاد للحفظ فاذا تجاوز البلوغ والتحل من ربقة العجز فربما عصفت به رياح
الشبيبة فالقته صباحل البطالة فيغتنمون في زمان الحجر رقة الحفظ يحصل القرآن له لا يكاد يخلو امنه
ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلوم وقبول التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي
اول ما احدثه اهل المغرب والمشرق ولكن الله يحكم ما يشاء لا معقب لحكمه

فصل في ان الشدة على المتعلمين مضرة بهم

وذلك ان ارهاب الحدث في التاديب مضر بالمتعلم سيما في اصاغر الولد لانه من سوء الملكة ومن كان
مربا بالعنف والقهر من المتعلمين والمماليك او الخدم سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها
وذهب بنشاطها ودعى الى الكسل وحمل عليه الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفا من
انبساط الايدي بالقهر عليه وعلمه المكر والخديعة لذلك وصارت له هذه عادة وخلقا وفسدت
معاني الانسانية التي له من حيث الاجتماع والتمدن وهي الحمية والمدافعة عن نفسه وصار عيالا
على غيره في ذلك كل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل فانقبضت عن غايتها ومدارستها
فارتكس وعاد في اسفل سافلين وهكذا وقع لكل امة حصلت في قبضة القهر وقال منها
العسف واعتبره في كل من يملك امرك عليه ولا يكون الملكة الا قليلا لذلك رفعه به تحدد ذلك منهم استقرا
واقطه من اليهود وما حصل فيهم بذلك من خلق السوء حتى انهم يوصفون في كل افق وعصر بالخبث
ومعناه في الاصطلاح المشهور الخداع والكيد وسببه ما قلناه **ومن احسن** مذاهب
التعليم ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده قال حلف الاحمر يعلم الى الرشيد لتاديب ولده
محمد الامين وقال يا احمر ان امير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصير
يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة فكن له بحيث وضعك امير المؤمنين اقرئه القرآن

وعرفه الاخيار وروح الاسعاد وعلم السنن وبعث مواقع الكلام ومدبه وامنعه الضمات
الا من عناية وحد بتعظيم مشايخ بيتك إذا دخلوا عليه ورفع مجالس العلم واذا حضر واجلسه
ولا يمرن بك ساعة الا وانت معتنم فيها فائدة تقتبسها من حرمة فتميت ذهنه ولا يمعن في
مسامحة فتستحلي الفراغ وتالفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فان اباها فعليك بالشدة
والغلظة

فصل في ان الرحلة في طلب العلوم لقاء المشيخة

• يؤيد كما لا في التعليم •

والسبب في ذلك ان البشر يأخذون معارفهم واخلاقهم وما يتعاونه من المذاهب والفضائل
تارة علما وتعليما والقاء وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة الا ان حصول الملكات عن المباشرة
والتلقين اسد استحكاما واقوى رسوخا فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكة ورسوخها
والاصطلاحات انما في تعليم العلوم مختلط على المتعلم حتى لعدد يطن كثير منهم انها جزء من العلم ولا يدفع
عنه ذلك الا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين فكثيرا ما يلقى اهل العلوم ولعدد المشايخ فتميز
تميز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها فيجرد العلم عنها ويعلم انها انحاء تعليم وطرق توصيل
وتنهض قواه الى الرسوخ والاستحكام في الملكات وصحح معارفه وتميزها عن سواها مع قوة الملكة
بالمباشرة والتلقين وكذلك من المشيخة عند لعدديهم وسوقهم وهذا من يسر الله عليه طرق العلم
والهداية فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال لقاء المشايخ ومباشرة
الرجال • والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم •

فصل في ان العلم من بين البشر بعد عن البداوة ومذاهبه

والسبب في ذلك انهم يعتادون بالسطر الفكري والغوص على المعاني وانتزاعها من المحسوسات
وتجريدها في الذهن امورا كلية عامة يحكم عليها بالعموم لا بخصوص مادة ولا شخص ولا جيل
ولا امة ولا صنف من الناس ويطبعون من بعد ذلك الكلي على الجزئيات وايضا يقيسون الامور
على اشباهها وامثالها فاعتادوه من القياس الفقهي فلا تزال احكامهم وانظارهم كلية في الذهن
ولا تصير الى المطابقة الا بعد الفراغ من البحث والنظر والاصرة بالجملة الى مطابقة وانما سقرع ما في
الخارج عما في الذهن من ذلك كالاحكام الشرعية فانها وقوع عما في المحفوظ من ادلة الكتاب والسنة
فتطلب مطابقتها في الخارج فهم متعودون في سائر انظارهم الامور الذهنية وان انظار الفكرية
لا يعرفون سواها والسياسة تحتاج صاحبها الى مراعاة ما في الخارج وما يلحقها من الاحوال وما
يتبعها فانها حقيقة وتعلل ان يكون فيها ما يمنع من الحاقها بشبهها او مثالها وبناء الكلي الذي يحاول
تطبيقه عليها ولا يقاس شيء من احوال العمران على الاخر اذ كل استها في امر واحد فلعلها اختلفا
في امور فتكون الكلي لا حامل ما تعودوه من تعميم الاحكام وقياس الامور بعضها على بعض اذا طرقوا
في السياسة اعرضوا ذلك في قالب انظارهم وقوع استدلالهم فيقعون في الغلط كثيرا او لا من

عليهم ويلحق بهم لهذا الذكاء والكيس من اهل العمران لانهم يرعون بملكاتهم اذا ايمنهم الى مثل شان البشاء
من الموقوف على المعاني والقياس والمحاكاة فيقعون في الغلط والعاني اليهم ايطبع الكيس المحصور فكره
عن ذلك وعدم اعتباره اياه فيقصر لكل ملكة على حكمها وفي كل صنف من الاحوال او الاستحاض
ما اختص به ولا تعدي الحكم بقياس ولا تعميم ولا تفارق في الكثير مطرد المواد المحسوسة و لا
يجاوزها في ذهنه كالسابح لا يفارق الموج عند البر قال

• فلا توغلن ان اما سبحت • فان السلامة في الساحل •

فيكون مأمونا من الغلط في سياسته مستقيم النظر في معاملة ابناء جنسه فيحسن معاشه ويدفع
افاته ومضاره باستقامة نظره • وفوق كل ذي علم عليم • ومن هنا تعلم ان صناعة المنطق غير
مأمونة من الغلط لكثرة ما فيها من الانتزاع وبعدها من المحسوس فلا تظهر في المعقولات الثواني
ولعل المواد فيها ما يانع تلك الاحكام وينافيها عند مراعاة التطبيق اليقيني • واما
الغلط في المعقولات الاول وهي التي تجريدها قريب فليست كذلك لانها جبلية • وصور المحسوس
حافظة لموذنة بتصديق انطباقه •

فصل في ان حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم

من الغريب الواقع ان حملة العلم في الملة الاسلامية اكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من
العلوم العقلية الا في القليل النادر مع ان الملة عربية وصاحب شريعتها عربي والقران
الذي نبعت منه علومها كلها عربي • والسبب في ذلك ان الملة في اولها لم يكن فيها علم ولا صناعة
لعفي احوال البداوة والبداوة واما احكام الشريعة التي هي اوامر الله ونواهيه كان
الرجال ينقلونها في صدورهم وقد عرفوا اماخذها من الكتاب والسنة بما ملكوه من صاحب
الشرع والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا امر التعليم والتاليف والتدوين ولا دعوا الحاجة
ولا دعتهم له حاجة • وجرى الامر على ذلك زمن الصحابة والتابعين وكانوا يتمون المختصين
بحمل ذلك ونقله القراء الذين يقرؤون الكتاب ولسوا اميين فيهم قرأ الكتاب
والسنة المانوة عن نبيه لانهم لم يعرفوا الاحكام الشرعية الا منه ومن الحديث الذي كان
تفسيرا له وشرحا قال صلى الله عليه وسلم تركت فيكم امرين لن تضلوا ما تمسكتم
بهما كتاب الله وسنتي • فلما بعد العهد من لدن دولة الرشيد اصبح الى وضع المعارف
القرانية وتقييد الحديث بمعرفة صحاحه ثم اصبح الى معرفة الاسانيد وتعديل الرواة
للتمييز بين الصحيح وما دونه في الحديث ثم قرر استخراج احكام الواقعات من الكتاب
والسنة وفشا مع ذلك اللسان فاصبح الى وضع القوانين النحوية وصارت العلوم الشرعية
كلها ملكات في الاستنباط • والاستخراج • والقياس • واضافت الى علوم اخرى
من وسائل لها من معرفة قوانين العربية • وقوانين ذلك الاستنباط والقياس • والدفع عن
العقايد الايمانية بالادلة فصارت هذه كلها علوما ذات ملكات محتاجة الى التعليم فاندرجت

من جملة الصنايع • وقد كنا قدمنا ان الصنايع من مستحل الحضر وان العرب ابعد الناس عنها وصار العلوم لذلك حضرية وبعد العرب عنها وعن سوقها والحضر لذلك لعهدهم بالنجم او من في معناهم من الموالي واهل الخواطر الذين هم يومئذ سوق العلم في الحضارة واحقها من الصنايع والحرف لانهم اقوم للحضارة الراسخة فهم منذ دولة الفرس وكانت صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما وكلهم عجم • وحملة الحديث الذين صنفوه في الاسلام اكثرهم ايضا عجم او مستعجمون وكان علما اصول الفقه كلهم عجما كما تعرف وكذا جملة علم الكلام وكذا ائمة المفسرين ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه الا الاعاجم وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم لو تعلق العلم باعناق الثريا لنالته قوم من فارس **واما العرب** الذين ادركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا اليها عن البداوة فشغلتهم الرياسة في الدولة العباسية وما دفعوا اليه عن القيام بالملك عن القيام بالعلم والتطرف فانهم كانوا اهل الدولة وحاميتها واولي سياستها مع ما بلغهم من الاعراض عن استحمال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنايع والرؤساء ابدا يستنكفون عن الصنايع والمهن وما جرابها ويدفعون ذلك الى من قام به من العجم والمولدين وما زالوا يرون انهم حتى القيام به فانه دينهم وعلومهم ولا يحسنون حمله الا الاقل الاحقر حتى اذا خرج الامر من العرب جملة وصار للعجم صارت العلوم الشرعية غريبة النسبة عند اهل الملك بما هم عليه من البعد عن نسبها وصار حاملا من جملة اهل الحرف فامتهنوهم وامتهنوا مراتبهم كما ذكرناه في ذكر المراتب الدينية فهذا الذي قررناه هو السبب في ان كان حملة علوم الشريعة كلهم او عامتهم عجما **واما العلوم العقلية** ايضا فلم تظهر في الملة الا بعد ان صار حملة العلم ومولفوه واستقر العلم كله صناعة واختصت بالعجم واستنكفها العرب واستنكفوا عن انتحالها او عدت في جملة الصنايع فلم نجد لهذا العهد الا المعربون من العجم سان الصنايع كما قلناه اولا فاعتبر ذلك وتامله سري عجيب في احوال الخليقة والله يخلق ما يشاء لا اله الا هو •

فصل في علوم اللسان العربي

واركانها اربعة • وهي اللغة • والنحو • والبيان • والادب • ومعرفتها ضرورية على اهل الشريعة اذ مأخذ الاحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهما بلغة العرب ونقلها من الصحابة والتابعين عرب وشرح مستقل من لغتهم فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن اراد علوم الشريعة وبيناوت في التاكد بتفاوت مراتبهم في مقصود الكلام حسبما يتبين في الكلام على كل فن والذي يحصل ان الاهم المقدم منها هو النحو اذ به يتبين اصول المقاصد بالدلالة فتعرف الفاعل من المفعول والمبتدا من الخبر ولولاه لجهل ذلك وكان من حق اللغة التقديم لو لا ان اكثر الاوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الاعراب الدال على الاسناد والمسند والمسند اليه فانه تغير بالجملة ولم يبق له اثر فلذلك كان علم النحو اهم من اللغة اذ في جهله الاخلال [illegible] بالتفاهم جملة وليس

كملت اللغة والله اعلم

النحو

اعلم ان اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة فعل لساني فلا بد ان تصير ملكة مقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان وهي في كل امة بحسب اصطلاحهم وكانت الملكة الحاصلة من ذلك للعرب احسن الملكات واوضحها ابانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني مثل الحركات التي تميز الفاعل من المفعول من المجرور ومثل الحروف التي تصير الافعال الى الدوات من عير تكلف الفاظ اخر وليس يوجد ذلك الا في لغة العرب واما غيرها من اللغات وكل معنى وحال لابد له من الفاظ تخصه بالدلالة ولذلك تجد كلام العجم في مخاطباتهم اطول مما يقدره بكلام العرب وهذا هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم اوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا وصار للحروف في لغتهم والحركات اعتبار في الدلالة على المقصود عن متكلمين فيه لصناعة يستفيدون ذلك منها اعني ملكة في السمع باخرة الاخر من الاول كما باحد صبيانا لهذا العهد لغاتهم فلما جاء الاسلام وغارقوا الحجاز لطلب الملك الذي في ايدي الامم والدول وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما القى اليها السمع من المخالفات التي للمتغربين من العجم والسمع ابو الملكة اللسانية فتشذت عما القى اليها مما يغايرها لجنوحها البتة باعتياد السمع وحتى اهل الحلوم منهم ان تفسد تلك الملكة راسا وطول العهد فيتعلق القرآن والحديث على الفهوم فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة فبطروه سنة الكلمات والقواعد يتعسون عليها شاهد انواع الكلام مثل ان الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع ثم زاد لتغيرت الدلالة بتغير هذه الحركات فاصطلحوا على تسمية اعرابا وتسمية الموجب لذلك التغير عاملا وامثال ذلك وصارت كلها اصطلاحات خاصة فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو واول من كتب فيها ابو الاسود الدؤلي من بني كنانة بامارة علي رضي الله عنه فيما زعموا لانه رأى تغير الملكة فاشار عليه بحفظها فقرع الى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقراة ثم كتب فيها الناس من بعده الى ان انتهت الى الخليل ابن احمد ايام الرشيد اخرج ما كان الناس اليها ذاهب تلك الملكة من التغير جملة فهذب الصناعة واحدها عنه سيبويه وكمل بقاديها واستكمل واستكثر من ادلتها وشواهدها ووضع فيها كتابه المشهور الذي كان كل ما كتب من بعده ثم وضع ابو علي الفارسي وابو القاسم الزجاجي كتبا مختصرة للمتعلمين يحذون فيها حذو الامام في كتابه ثم جاء الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين الناس من اهل الكوفة والبصرة المصرين القديمين للعرب وكثرت الادلة والحجاج بينهم وسايب الطرق في التعليم وكثر الاختلاف في الاعراب كثير من الايات القرانية باختلافهم في مسائلها وطال ذلك على المتعلمين وجاء المتاخرون بذاهبهم في الاختصار فاصروا اكثر من ذلك الطول مع استيعاب

جميع ما نقل كما فعله ابن مالك في كتاب التسهيل • وامثاله او اقتصارهم على المبادي للمتعلمين كما فعله الزمخشري في المفصل • وابن الحاجب في المقدمة • وربما نظموا ذلك نظما مثل ما فعل ابن مالك في ارجوزتين له الكبرى والصغرى وابن معط في ارجوزته الالفية • وهذا هو الذي ارجح عندي لان هذا القدر لا يحصى او يحاط به • وطرق المتعلم في مختلفة فطريقة المتقدمين مغايرة لطريقة المتاخرين واللغويون والنحويون • والبغداديون • والاندلسيون مختلفة طرقهم كذلك • وقد كادت هذه الصناعة ان تودن بالاعراب لما رايناه من انتقص في سائر العلوم والصنايع من نقص القرآن • ووصل الينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من نحو منسوب الى جمال الدين بن مسطام اسود فيه احكام الاعراب مجمله ومفصله • وتكلم على الحروف والمفردات وحذف ما في هذه الصناعة من المتكرر في كثير من ابوابها • وهو ربع هذه الصناعة منها • والله يزيد في الخلق ما يشاء

علم اللغة

وهذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية • وذلك انه لما فسدت ملكة اللسان في الحركات المسماة عند اهل النحو بالاعراب واستبطت القوانين لحفظها بما قلناه • ثم استرسل ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم حتى تادى الفساد الى موضوعات الالفاظ فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم مما مع هجنة المتعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية فاحتيج الى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس • وما نشا عنه من الجهل بالقرآن والحديث فشمر كثير من ائمة اللسان كذلك واملوا فيه الدواوين فكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن احمد الفراهيدي الف فيها كتاب العين فحصر فيه من كلام حروف المعجم من الثنائي • والثلاثي • والرباعي • والخماسي • وموضوعاته ما ينتهي اليه التركيب من اللسان العربي • وما في حصر ذلك من وجوه عديدة ظاهرة وذلك ان جملة الكلمات الثنائية خارج من جميع الاعداد على التوالي من واحد الى سبعة وعشرين وموضوعاتها بحروف المعجم باحد الان الحرف الواحد هو جزء مع الستة والعشرين فتكون سبعة وعشرين كلمة ثم توجد الثاني مع الستة والعشرين • ثم الثالث • والرابع • ثم توجد السابع والعشرون مع الثامن والعشرين فتكون واحدا فتكون كلها اعدادا اولا على توالي العدد من واحد الى سبعة وعشرين جمع ذلك بالعمل المعروف عند اهل الحساب ثم يضاعف لاجل قلب الثاني لان المتقدم والمتاخر من الحروف معتبر في التركيب فتكون الخارج جملة الثنائيات • وخارج الثلاثيات من ضرب عدد الثنائيات في جميع من واحد الى ستة وعشرين لان كل ثنائية يزيد عليها حرفا فتكون ثلاثية فتكون النسبة بمنزلة الحرف الواحد مع كل واحد من الحروف الباقية وهي ستة وعشرون حرفا بعدد الثنائية يجمع من واحد الى ستة وعشرين على توالي العدد وتضرب فيه جملة الثنائيات ثم تضرب الخارج في ستة جملة متعلقات الكلمة الثلاثية فيخرج مجموع تراكيبها

من

من حرف المعجم وكذلك في الرباعي والخماسي فلخصت له التراكيب مبدأ الوضع وبوبته على حروف المعجم بالترتيب المتعارف واعتمدت فيه ترتيب المخارج فبدأت بحرف الحلق ثم ما يقرب منه من حروف الحلق ثم الأضراس ثم الشفة وجعل حروف العلة آخرا وهي الحروف الهوائية وبدأت من حروف الحلق بالعين لأنه أول ذلك حتى كملته بالعين لأن المتقدمين كانوا يسمون كتبهم في تسمية دواوينهم الى مثل هذا وسموا تسميتها بالعين جميع ما يقع فيه من الكلمات والالفاظ ثم تبين المهمل منها من المستعمل وكان العمل في الخماسي والرباعي أكثر لقلة استعمال العرب له لثقله وحق به المسان لقلة دورانه وكان الاستعمال في الثلاثي أكثر فكانت أوضاعه أكثر لدورانه وضمن الخليل ذلك كله كتاب العين واستوعبه أحسن استيعاب وافاه وجاء أبو بكر الزبيدي مكتب هشام الزبيدي بالاندلس في المائة الرابعة فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب فحذف منه المهمل كله وكثيرا من شواهد المستعمل ولخصه بلخبط أحسن تلخيص وألف الجوهري من المشارقة كتاب الصحاح على الترتيب المتعارف حروف المعجم فجعل البداية منها بالهمزة وجعل الترجمة للحرف الأخير من الكلمة لاضطرار الناس في الأكثر الى أواخر الكلم وحصر اللغة أقتداء بحصر الخليل ثم ألف فيها من الاندلسيين ابن سيده من أهل دانية في دولة علي بن مجاهد كتاب المحكم على ذلك المنحى من الاستيعاب وعلى نحو ترتيب كتاب العين وزاد فيه التعرض لاستقامات الكلم وتصاريفها فجاء من أحسن الدواوين ولخصه محمد بن أبي الحسن الحاجب للمستنصر من ملوك الدولة الحفصية وقلب ترتيبه الى ترتيب كتاب الصحاح في اعتبار أواخر الكلم وبناء الترجمة عليها وكانا توخيا تسهيل الوقوف على ما يطلب من هذه أصول كتب اللغة فيما علمناه وهناك مختصرات أخرى ملخصة تصنف من الكلمات مستوعبة لبعض الأبواب أو لكلها الا أن وجه الحصر فيها حقيق ووجه الحصر في تلك حلي من قبل التراكيب كما رأيت

ومن الكتب الموضوعة أيضا في اللغة كتاب الزمخشري في المحاسن فيه فيما حورت به العرب من الالفاظ وفيما جوزت به من المدلولات وهو كتاب شريف الافادة ثم لما كانت العرب تضع الشيء للمعنى على العموم ثم تستعمل في الأمور الخاصة الفاظا هي خاصة بها وذلك عند تباين الوضع والاستعمال فاضطر اللغة في اللغة عبر الماحد كما وضع الابيض بالوضع العام لكل ما فيه بياض ثم اختص ما فيه البياض من الخيل بالأشهب ومن الانسان بالأزهر ومن الغنم بالأملح حتى صار استعمال الابيض في هذه كالحقائق وخاض لسان العرب واختص هذا المنحى بالثعالبي وأفرده في كتاب له سماه فقه اللغة وهو من أكد ما يأخذ به اللغوي نفسه ان عرف استعمال العرب عن مواضعه فليس معرفة الوضع الأول بكاف في التركيب حتى تنضاف اليه استعمال العرب له لذلك فاكثر ما يحتاج اليه ذلك الأديب في فني نظمه ونثره عند ما ان يكثر حفظه في الموضوعات اللغوية في مفرداتها وتراكيبها وهو أساس من اللحن في الاعراب والفصيح وكذلك ينفعل المتوسع في الالفاظ المشتركة ويكثر حفظه وان لم يبلغ الى الغاية في ذلك فهو مستوعب للاكثر وأما المختصرات الموجودة في هذا الفن المخصوصة بالمتداول من اللغة الكثيرة الاستعمال لتسهيل الحفظ على الطالب فكثيرة مثل الالفاظ لابن السكيت والفصيح وغيرها ولبعضها أقل لغة من بعض باختلاف تطويهم في الامم على الطالب بالحفظ والله الخلاق العليم

علم البيان

هذا العلم جارٍ في الملة بعد حدوث علم العربية واللغة وهو من العلوم اللسانية لانه متعلق بالالفاظ وما يفيده ويقصد به الدلالة عليه من المعاني وذلك ان الامور التي يقصدها المتكلم افادة السامع بها من كلامه هي اما مفردات كالمسند والمسند اليه وبعض بعضها الى بعض والدالة على هذه هي المفردات من الاسماء والافعال والحروف واما تغيير المسندات والمسند اليها والاسناد والدلالة عليها بتغيير الحركات وهو الاعراب وابنية الكلمات وهذه كلها هي صناعة النحو وسبق من الامور المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدلالة احوال المخاطبين او الفاعلين وما يقتضيه حال الفعل وهو محتاج الى الدلالة عليه لانه من تمام الافادة واذا حصل للمتكلم فقد بلغ غاية الافادة من كلامه واذا لم يشتمل كلامه منها على شيء فليس من جنس كلام العرب فان كلامهم واسع ولكل معانٍ عندهم مقال يختص به بعد كمال الاعراب والدلالة الا ترى ان قولهم زيد جاني معاكس لقولهم جاني زيد من قبل ان المقدم منهما هو الاهم عند المتكلم فمن قال جاني زيد افاد اهتمامه بالمجيء قبل المخبر المسند اليه ومن قال زيد جاني افاد اهتمامه بالمخبر قبل المجيء المسند وكذلك قولهم زيد قائم وان زيدا قائم وان زيدا لقائم متعاقبين كلها للدلالة وان استوت من طريق الاعراب فان الاول الخالي عن التأكيد انما يفيد الخالي الذهن والثاني المؤكد بان يفيد المتردد والثالث يفيد المنكر وهي مختلفة وكذلك تقول جاني الرجل ثم تقول كأنه بعينه جاني رجل اذا قصدت بذلك التنكير تعظيمه وانه رجل لا يعادله احد من الرجال ثم قد تدل بالنطق ولا تريد منطوقه وهو اذا كان مفردا انما تقول زيد اسد فلا تريد حقيقة الاسد المنطوقة وانما تريد شجاعة اللازمة ولسمها الى زيد وتسمى هذه استعارة وقد تريد باللفظ المركب الدلالة على ملزومه كما تقول زيد كثير رماد القدر وتريد به ما يلزم ذلك عنه من الجود وقوى الصيف ان كثرة الرماد ناشئة عنها فهي دالة عليها وهذه كلها دلالات زائدة على دلالة اللفظ المفرد والمركب وانما هي هيئات واحوال للواقعات جعلت للدلالة على احوال وهيئات في الالفاظ كل بحسبما يقتضيه مقامه فاشتمل هذا العلم المسمى ببيان على البحث عن هذه الدلالة التي للهيئات والاحوال في المقامات وجعلت على ثلاثة اصناف الصنف الاول بحث فيه عن هذه الهيئات والاحوال حتى يطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال وسمي علم البلاغة والصنف الثاني بحث فيه عن الدلالة على لازم اللفظ او ملزومه وهي الاستعارة والكناية كما قلناه وسمي علم البيان والحق انها صنف اخر ونوع المطرق بين الكلام وتحسينه بنوع من التميز اما بتنبيع بصله او حس بسابه من الفاظه او توسيع يتطلع او دانه او بوده عن المعنى المقصود بارادة معنى احق منه او امثال ذلك وسمي هذا عندهم علم البديع واطلق على الاصناف الدلالة عند المحدثين من اسم البيان وهو اسم الصنف الثاني لان الاقدمين اول ما تكلموا فيه من ملاحظة مسايل الفن واحدة بعد اخرى وكتب

فيما جعفر بن حسن والخطيب وقدامة وامثالهم املاء على حواشيه لهم لم يترك مسائل الفن مجملة بل فصلها الا ان محض الاتكال على ذهنه وعذب سلسبيل وزبد ابرائه على نحو ما ذكرناه انما هو من الترتيب واللفظ الذي كتابه المسمى بالمفتاح في النحو والتصريف والبيان فجعل هذا الفن من بعض اخوانه واحد المفاتيح ومن هذا الفن من كتابه ولخصوا منه امهات ما يحتاج اليه المتداولة لهذا العهد كما فعله السكاكي في كتاب التبيان وابن مالك في كتاب المصباح وجلال الدين القزويني في كتاب الايضاح وكتاب التلخيص وهو اختصر جمعا من الايضاح والعناية به لهذا العهد عند اهل المشرق في الشرح والتعليم منه اكثر من غيره وبالجملة فالمشاركة اقوم على هذا الفن من المغاربة وسببه والله اعلم انه كمالي في العلوم اللسانية والصنائع الكمالية هي بحسب وفور العمران والمشرق اوفر عمرانا كما ذكرناه واما اختص اهل المغرب من اصناف علم البديع خاصة وجعلوه من جملة علوم الادب الشعرية وفرعوا له الغايات وعددوا ابوابا ونوعوا انواعا عموا انهم احصوها من لسان العرب وانما حملهم على ذلك الولوع بما من الالفاظ وان علم البديع مثل الحاجة وصعب عليهم ما حده البلاغة والبيان لدقة انظارها فتحجوا فواتها ومن الف في البديع من اهل افريقية ابن رشيق وكتاب العمدة له مشهور وجرى كثير من اهل افريقية والاندلس على منحاه

واعلم ان عمدة هذا الفن انما هي في فهم الاعجاز من القرآن لان اعجازه في وفاء الدلالة منه بمقتضيات الاحوال منطوقة ومفهومة وهي اعلى مراتب الكلام مع ذلك فيما يختص بالالفاظ في اشعارها وجودة رصفها وتركيبها وهذه امور الاعجاز الذي يقصر الافهام عن درك واما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق في مخالطة اللسان العربي وحصول ملكته فمدرك من اعجازه على مقدار درجة فهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من بلغائه اعلا مقاما في ذلك لانهم فرسان الكلام وهاذيه واحوج ما يكون الى هذا الفن المعتنون واكثر تفاسير المعتمدين عمل منه حتى ظهر جار الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير وتتبع اي القرآن باحكام هذا الفن بما يبدي البعض من اعجازه فاتم ذلك بهذا الفصل على جميع التفاسير لولا انه يوجد عند اهل البدع اقتباسا من القرآن بوجوه البلاغة والاصل هذا انحاء كثير من اهل السنة مع وفور بضاعته من البلاغة من احكم عقائد السنة وشارك في هذا الفن بعض المشاركة حتى يقتدر على الرد عليه من ضمن كلامه او يعلم انها بدعة فيسكت عنها فانه يتعين عليه المطرح في هذا الكتاب للتطفل بشيء من الانحاء مع السلامة من البدع والاهواء والله الهادي من يشاء

علم الادب

هذا العلم موضوع له يتطرق الى اثبات عوارضه وانما المقصود منه ثمرته وهو من كلام العرب ما عساه ما يحصل به الملكة من بين عالي الطبقة وبحيث مسموع في الاجادة ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة انا ذلك مستقرة لسمع الناظر في الغالب معظم قوانين العربية مع ذكر بعض من ايام العرب لعلهم به ما يقع في اشعارهم هنا وكذلك ذكر المهم من الانساب المشهورة

والاجادة العامة والمقصود بذلك كله ان لا يخفى على الناظر شيء من كلام العرب واساليبهم ومناحي بلاغتهم اذا اصغى لانه لا يحصل الملكة من حفظ الاسفار فيحتاج الى تقديم جميع ما يوقف عليه منهم اذا اراد واحد من هذا الفن قالوا الادب يحفظ اشعار العرب واخبارها والاحد من كل علم يطوف يريدون من علوم اللسان او العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهي القرآن والحديث انه لا بد من حصول ذلك من العلوم في كلام العرب الا ما ذهب اليه المتاخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التوسعة في استعاراتهم وترسلهم بما اصطلاحات العلمية فاصبح صاحب هذا الفن حينئذ الرعة واصطلاحات العلوم لكون قائما على فنها وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم ان اصول هذا الفن واركانه اربعة دواوين وهي ادب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لابي علي القالي البغدادي وما سوى هذه الاربعة فتبع لها وفروع عنها وكتب المحدثين في ذلك كثيرة وقد كان الغناء في الصدر الاول من اجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر اذ الغناء انما هو تلحينه وكان الكتاب والعقلاء من الخواص في الدولة العباسية يحرصون اشد الحرص على تحصيل اساليب العرب وفنونهم فلم يكن استحالة قادحا في العدالة والمروءة وقد الف القاضي ابو الفرج الاصبهاني وهو ما هو كتابه في الاغاني جمع فيه اخبار العرب واشعارهم وانسابهم وايامهم ودولهم وجعل مبناه على الغناء في الجارية صوت التي اجاد المغنون للرشيد فاستوعب فيه ذلك اتم استيعاب واوفاه وكذلك ديوان العرب وجامع اسمات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الاحوال ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نقله وهو الغاية التي يسمو اليها الادب ويقف عندها وامامها ونحن الآن نتوجه بالبحث على ما نتكلم عليه من علوم اللسان والله الهادي للصواب

فصل في ان اللغة ملكة صناعية

اعلم ان اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة اذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة او نقصانها وليس ذلك بالنظر الى المفردات انما هو بالنظر الى التراكيب فاذا حصلت الملكة التامة في تركيب الالفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصود ومراعاة التاليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذ الغاية من افادة مقصوده للسامع وهذا هو معنى البلاغة والملكات لا تحصل الا بتكرار الافعال لان الفعل يقع اولا ويعود منه للذات صفة ثم تتكرر فتكون حالا ومعنى الحال انه صفة غير راسخة ثم يرد التكرار فتكون ملكة اي صفة راسخة فاذا تكلم من العرب من كانت اللغة العربية موجودة فيهم سمع كلام اهل جيله واساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها اولا ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك ثم لا يزال سماعهم لذلك يتعدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر الى ان تصير له تلك ملكة وصفة راسخة ويكون كاحدهم هكذا صارت الالسن في اللغات ثم تحيل الى جيل

وسببها العجم والاطفال وهذا معنى ما نقوله العامة من ان اللغة للعرب بالطبع اي بالملكة ثم اعلم
لما فسدت هذه الملكة لهذه الطبقة الاعاجم وسبب فسادها انها التي هي من اصل صار بسبع في العبارة
عن المقاصد كيفيات اخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب فيحصل بها عن مقصوده وبسبع كيفيات العرب
انضاف حاصل عليه الامر واخذ من هذه ومن هذه فاسدت ملكة وكانت ناقصة عن الاولى وهذا معنى
قولهم ان اللسان العربي ولهذا كانت لغة قريش افضح اللغات العربية واصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من
جميع جهاتهم ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وعطفان ثم بني اسد وبني تميم
والازد واما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وايادٍ وقضاعة وعرب اليمن
المجاورين لامم الفرس والروم والحبشة فلم تكن لغتهم تامة الملكة مخالطة الاعاجم وعلى نسبة
بعدهم عن قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند اهل صناعة العربية والله اعلم

فصل في ان لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة بنفسها

مغايرة للغة مضر ولغة حمير وذلك انا نجدها في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضري
ولم يفقد منها الا دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول فاعتاضوا منها بالتقديم والتاخير وبقرائن
الاحوال الا ان البيان والبلاغة في اللسان المضري اكثر واعرق لان الالفاظ باعيانها دالة على
المعاني باعيانها وبسبب ما يقتضيه الاحوال وبسبب انبساط الحال محتاجا الى ما يدل عليه وكل معنى
لا بد وان يكتنفه احوال لحضة فيجب ان يعتبر تلك الاحوال في تادية المقصود بها صفاة وتلك
الاحوال في جميع الالسنة كثيرة ما يدل عليها بالفاظ تخصها بالوضع واما في اللسان العربي فانما
يدل عليها باحوال وكيفيات في تراكيب الالفاظ وكيفياتها وتاليفها من تقديم او تاخير او حذف
او حركة اعراب وقد تدل عليها بالحروف غير المستقلة ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في
اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك الكيفيات فما قدمناه وكان الكلام العربي لذلك
اوجز واقل الفاظا وعبارة من جميع الالسن وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم اوتيت
جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا واعتبر ذلك بما حكي عن عيسى بن عمر
وقد قال له بعض النحاة اني اجد في كلام العرب تكرارا في قولهم زيد قائم وان زيدا قائم
وان زيدا لقائم والمعنى واحد فقال له ان معانيها مختلفة والاول افادة الحالي الذهن
عن قيام زيد والثاني لمن سمعه فانكره والثالث لمن اصر على الانكار فاختلفت الدلالة
باختلاف الاحوال وما زالت هذه البلاغة والبيان بين العرب ومذهبهم ولهذا العهد وهو
ملتبس في ذلك الى حرفة النحاة اهل الصناعة الاعراب العاصمة مدارکهم عن التحقيق فهم
يزعمون ان البلاغة لهذا العهد ذهبت وان اللسان العربي فسد اعتبارا بما وقع اواخر الكلم من
فساد الاعراب الذي يتدارسون قوانينه وهي معاملة منها المتنعة في طباعهم والقاها العصور في
افئدتهم والامر بخلاف اليوم الكثير من الفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الاولى والعصر
من المقاصد والتفاوت فيه بتفاوت الابانة موجود في كلامهم لهذا العهد واساليب البيان

وقوله من النظم والنثر موجود في مخاطباتهم وفهم الخطب المصنع في محافلهم ومخاطباتهم والسائد
المتداول في مجالسهم والذوق الصحيح والطبع السليم شاهد ان لذلك وما يتعلق باحوال
اللسان المدون الاعراب من اواخر الكلم فقط الذي لزم في لسان مضر طريقة واحدة
لا تتغير معروفة وهو الاعراب وهو بعض من احكام اللسان واما وقعت العناية باللسان مقصورة
لما قصد عجم الطهم الاعاجم حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب وصارت ملكة
على غير الصور التي كانت اولا فانتدبت لغة اولي وكان القرآن منزلا به والحديث النبوي منقولا
بلغته وهما اصل الدين والملة فحتى بسببهما واغلاق الافهام عنهما بفقدان اللسان الذي
نزلا به فاضيح الى تدوين احكامه ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه وصار علما وفصول
واحكام ومقدمات ومدارس شاء اهل العلم العربية واصح فنا
محفوظا وعلى مكتوبا وسلما الى فهم كتاب الله وسنة نبيه راقيا ولعلنا اعتنينا بهذا
اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا احكامه بعيانا من اكثر الاعرابية في دلالتها
بهو واجري موجودة فيه ويكون لها قوانين تحصها او لعلها تكون هي واجرى على غير المنهاج الاول
في لغة مضر فلست اللغات ومذاكيها محاما ولقد كان اللسان المضري مع اللسان الحميري بعيد
المنابذ ولعثرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتعريف كلمة تشهد بذلك
الانتقال الموجودة لدينا خلافا لمن جعل التصور على انها لغة واحدة وليس اجرا اللغة الحميرية
على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها كما يزعم بعضهم في استنباط قيل انه من القول
وكثير من اشباهه هذا وليس ذلك بصحيح ولغة حمير لغة اجري معاوية للتعصب في الكلية من اوضاعها
وتصاريفها وحركات اعرابها كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر الا ان العناية بلسان مضر
من اجل الشريعة كما قلناه حمل على ذلك الاستقرا والاستنباط وليس عندنا نحن ما يحملنا على مثل
ذلك وندعونا اليه وما وقع في لغة هذا الجيل العربي لهذا العهد حيث كانوا من الامطار
منابتهم في النطق بالقاف فانهم لا يطقون بها من مخرج القاف عند اهل الامصار كما هو مذكور
في كتب العربية من اقصى اللسان وما فوقه من الحنك الاعلى ولا يطقون بها ايضا من مخرج الكاف
وان كان اسفل من موضع القاف وما يليه من الحنك الاعلى كما هي لدى الحضر متوسطة
بين الكاف والقاف وهذا موجود لكل اجيال حيث كانوا من غرب او شرق حتى صار علما
عليهم من بين الامم والاجيال ومقتضى ذلك بهم لا يسارعهم بها عربهم حتى ان من يريد
التعرب والانتساب الى الجيل والدخول فيه يحاكيهم في النطق بها وعندهم انها اتم سمات العرب
الصحيح الصريح من الدخول في العروبية والحضري الامن النطق بهذه القاف ويظهر
من ذلك انها لغة مضر لعهدها فان هذا الجيل الباقين معظمهم ورياسهم شرقا وغربا في
ولد منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر بن منصور وبنو عامر بن
صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور وهم لهذا العهد اكثر الامم في المعمور
واغلبهم وهم من اعراب مضر وسائر الجيل معهم في النطق بهذه القاف اسوة وهذا اللغة

لم يتدعها هذا الجيل بل هي متوارثة فيهم متعاقبة ويظهر من ذلك انها لغة مضر الاولين ولغة النبي عليه الصلاة والسلام بعينها وقد ادعى ذلك فقهاء البيت وابن سعيد وزعموا ان من قرأ في ام القرآن القراط المستقيم بغير الف التي لهذا الجيل فقد لحن وافسد صلاته وما ادري من اين جاء هذا فان لغة اهل الامصار ايضا لم يستحدثوها وانما تلقوها من لدن سلفهم وكان اكثرهم من مضر ما نزلوا الامصار من لدن الفتح واهل الجيل ايضا لم يستحدثوها وانما تلقوها من لدن سلفهم وكان اكثرهم من مضر ما نزلوا الامصار من لدن الفتح واهل الجيل ايضا لم يستحدثوها الا انهم البعد عن مخالطة الاعاجم من اهل الامصار فهذا ارجح فانه وجد من اللغة لديهم ابعد من لغة سلفهم هذا مع اتفاق اهل الجيل كلهم شرقا وغربا في النطق بها وانها الخاصية التي يتميزون بها العربي من العجمي والحضري فيهم ذلك والله

المبين الهادي

فصل في ان لغة اهل الحضر والامصار لغة قائمة بنفسها

مخالفة للغة مضر

اعلم ان عروق المخالطة في الامصار وبين الحضر ليس بلغة مضر بل هي اخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجيل العربي الذي لهذا زماننا وهي عن لغة مضر ابعد فاما انها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر لما تدله ما قلناه من التغاير الذي بعد عن اهل صناعة النحو لحنا وهي مع ذلك تخالف باجلاف الامصار في اصطلاحاتهم فلغة اهل المشرق مباينة لبعض الشيء لغة اهل المغرب وكذا اهل الاندلس معهم وكل منهم متوصل بلغته التي ناداه مقصودة والابانة عما في نفسه وهذا معنى اللسان واللغة وقد ان الاعراب ليس بعض لهم كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد واما انها ابعد عن اللسان الاول فاما هو مخالطة العجمة فمن خالط العجم اكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الاصلي ابعد ان المكدا لما حصل بالتعليم كما قلناه وهذه ممتزجة من الملكة الاولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي للعجم فعلى مقدار ما يستحوذ من العجمة ويرسون عليه يبعد من الملكة الاولى واعتبر ذلك في امصار اقريقية والمغرب والاندلس والمشرق واما اقريقية والمغرب فمخالط العرب فيها البربر من العجم لوفود عمرانها بهم ولم يكد يخلو عنهم مصر واصل فغلبت العجمة على اللسان العربي الذي كان لهم وصارت لغة اخرى ممتزجة والعجمة فيها اغلب لما ذكرناه فهي عن اللسان الاول ابعد وكذا المشرق لما غلب المغرب على امة من فارس والترك فخالطوهم وبدأوا بينهم لغاتهم في الاكره والعلاص والسبي الذي احدثوهم حرا وذايات ومرضعات فتفسدت لغتهم بمعاداة الملة حتى تغلبت لغة اخرى وكذا اهل الاندلس مع عجم الجلالقة والافرنجة وصار اهل الامصار كلهم من هذه الاقاليم اهل لغة اخرى مخصوصة بهم تخالف لغة مضر وتخالف ايضا بعضها بعضا كما ذكرنا ولكل لغة اخرى لاستحكام ملكاتها في اجيالهم

واسع لطف الله

فصل في تعليم اللسان المضري

اعلم ان ملكة اللسان العربي لهذا العهد قد ذهبت وفسدت فلو لغة اهل الجيل وما
مغاير للغة مضر الذي نزل به القرآن والحديث وما بقي لغة اخرى من امزاج العجمة فما قد سمعت الان
اللغات لما كانت ملكات كما مر وكان تعلم محاسن شاير الملكات وطرق التعليم لمن يسعى هذه
الملكة ويروم تحصيلها ان يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على اساليبهم من القرآن والحديث
وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب في اسجاعهم واشعارهم • وكلمات المولدين ايضا في سائر
فنونهم حتى تنزل بكثرة حفظ الكلام من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة
عن المقاصد منهم فمتى نبغت بعد ذلك في العبارة عما في ضميره على حسب عبارتهم وتراكيبهم
وما وعاه وحفظ من اساليبهم وترتيب الفاظهم فتحصل له هذه الملكة بذلك الحفظ والاستعمال
ويزداد بكثرتها رسوخا وقوة وتجاج مع ذلك الى سلامة الطبع والتفهم الحسن لمدارك العرب
واساليبهم في التراكيب ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الاحوال والذوق يشهد
لذلك ويؤنسنا ما بين هذه الملكة والطبع السليم وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال يكون
جودة القول المصنوع نظما ونثرا • ومن حصل على هذه الملكة فقد حصل على لغة مضر
وهو الناقد البصير بالبلاغة فيها وهكذا ينبغي ان يكون تعلمها • والله يهدي من يشاء •

فصل في ان ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية

ومستغنية عنها في التعليم •

والسبب في ذلك ان صناعة العربية انما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة
فليست نفس الملكة وانما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنايع علما وان يحكمها علما مثل ان يقول
البصير بالخياطة عبر لملكة الخياطة هي ان يدخل الخيط في خرق الابرة ثم يعوزها في لفقتي الثوب
مجتمعين ويخرجها من الجانب الاخر بمقدار كذا • ثم يردها الى حيث ابتدأت ويخرجها قدام مقعدها
الاول بمطرح ما بين الفتيلين الاولين ثم تمادي على ذلك الى اخر العمل ويعطي صورة الخلل والفتيح
وسائر وجوه الخياطة واعمالها وهو اذا طولب ان يعمل ذلك بيده ولا يحكم منه شيئا وكذا لو سئل
ان يعبر عنه بلفظه عن تفصيل الحسب فيقول هو ان يضع المسطار على راس الحسبة ويميل مطرفه
واخر قبالك ممسك مطرفه الاخر وتقاتانه بينكما واخراسه تقطع ما مرت عليه ذاهبة وجائية
الى ان ينتهي الى اسفل الحسبة وهو لو طولب بمثل هذا العمل اولى منه لم يحكه وهكذا ابواب العلم
بقوانين الاعراب مع ان ملكة في نفسها فان العلم بقوانين الاعراب انما هو علم بكيفية العمل وليس
هو نفس العمل • وقد ذكر ابن جهبذة النحاة والمرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك
القوانين اذا سئل في كتابة سطرين الى اخيه او ذوي مودته او قصد من رصين الخطاب فيها
عن الصواب واكثر من اللحن ولم يجد كيف الكلام والعبارة عن المقصود على اساليب اللسان
العربي • وكذلك اذا سئل ان يخطب خطبة عن ملكة وجيد الفتيل من المنظوم والمنثور وهو
يحسن اعراب المفعول الفاعل والمفعول ولا المرفوع من المجرور ولا شيئا من قوانين

صناعة

صناعة العربية فمن هنا يعلم ان الملكة التي هي صناعة العربية هو لها مستغنية عنها بالجملة وقد يحدث من المهرة في صناعة الاعراب بصر بحال هذه الملكة وهو قليل وهكذا الايقاف فانه ما يقع في المخالطين لكتاب سيبويه فانه لم يقتصر على قوانين الاعراب فقط بل ملاكه من امثال العرب وشواهد اشعارهم وعيارهم وكان فيه حرج صالح من تعليم هذه الملكة فتحد العاكف عليه والمحصل له قد حصل على خط من كلام العرب وادرج على في محفوظه من امثالهم وشواهد حاجاته وتنبه لسان الملكة فاستوى في تعليمها وكان ابلغ في الافادة • ومن هؤلاء المخالطين لكتاب سيبويه من يقف على السقط لهذا فحصل على علم اللسان صناعة ولم يحصل عليه ملكة • واما المخالطون لكتب المتاخرين العارية من ذلك الامن القوانين النحوية مجردة عن اشعار العرب وكلامهم فقل ما ينتفع ولا تكاد بمن هذه الملكة او يتبينون لسانا فتجدهم يحسبون انهم حصلوا على رتبة في لسان العرب وهم ابعد الناس عنه • واهل صناعة العربية بالاندلس ومعلمها اقرب الى تحصيل هذه الملكة وتعليمها من سواهم لقيامهم منها على شواهد العرب وامثالهم والتقعر في الكثير من التراكيب في مجالس تعليمهم فيسبق الى المبتدي كثير من الملكة اذا التعليم فينطبع النفس لها وتستعد لتحصيلها وقبولها • واما من سواهم من اهل المغرب وافريقية فاخروا صناعة العربية مجرى العلوم بحتا وقطعوا النظر عن التقعر في كلام العرب الان اعربوا شاهدا او رجحوا معنى من جهة الاقتضاء الذهني لا من جهة محامل الالسن وتراكيبه فاصبحت صناعة العربية كانها من جملة قوانين المنطق العقلية او الجدل وبعدت عن مناحي اللسان وملكته وافاد ذلك جملة في هذه الآفاق واما مطلقا مصارها البعد عن الملكة اللغوية وكانهم لا يطلعون في كلام العرب وما ذلك الا بعدولهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبه وتميز اساليبه وعقلهم عن المران في ذلك المتعلم فهو احسن ما يفيد الملكة في اللسان وبتلك القوانين انما يحاول ويسابل للتعليم لكنهم اجروا على غير ما قصدوا واصاروها علما بحتا وبعدوا عن مزلة •

والله تعالى هو المقدر للامور •

فصل في ان اهل الامصار على الاطلاق قاصرون

في تحصيل هذه الملكة اللسانية التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم ابعد عن اللسان العربي كان حصولها اصعب عليه واعسر • والسبب في ذلك ما يسبق الى المتعلم من حصول ملكة مضادة للملكة المطلوبة تحاسب الله من اللسان الحضري الذي اداته اللغة حتى يرد اللسان عن ملكته الاولى الى ملكة اخرى هي لغة الحضر لهذا العهد ولهذا نجد المعلمين يعسرون الى المسابقة بتعليم اللسان للولدان ويعتقد النحاة ان هذه المسابقة بضاعتهم وليس كذلك وانما يتعلم منهم الملكة بمخالطة اللسان وكلام العرب نعم صناعة النحو اقرب الى مخالطة ذلك وما كان من لغات اهل الامصار اعرق في العجمة وابعد عن لسان مضر فطريق صاحبه عن تعلم اللغة المضرية وحصول ملكتها لتمكن المضادة حينئذ واعتبر ذلك في اهل الاقطار فاهل افريقية والمغرب لما كانوا اعرق في العجمة وابعد عن اللسان الاول كان لهم قصور تام في تحصيل ملكته بالتعليم وبعد تنقل

ابن الدقيق ان بعض كتاب القيروان كتب الى صاحب له يا اخي ومن لا عدمت فقده اعلمني ابو سعيد
كلامنا انك كنت ذكرت انك مع الربيع ماش وعاقنا اليوم فلم نهيئ انفسنا للخروج واما اهل المرسل
اذا غلاب من ابو البقر فقد كذبوا هذا ما لا يلبس من هذا حرفا واحدا او كما في الكتاب وانا مساق
الكلام ان شاء الله وهكذا كانت ملكتهم في اللسان العربي وسيته ما ذكرناه وكذلك استعاروهم
كانت نازلة عن الطبقة لبعده من الملكة ولم تزل كذلك ولهذا العهد وما كان بافريقية
من مشاهير الشعراء الا ابن رشيق وابن شرف واكثر ما يكون الشعراء طارئين عليها ولم تزل طبقتهم في
البلاغة حتى الآن مائلة الى القصور • واهل الاندلس اقرب منهم الى تحصيل هذه الملكة بكثرة محفوظاتهم
واملائهم من المحفوظات اللغوية نظما ونثرا • وكان فيهم ابن ضان المورخ امام الصناعة
في هذه الملكة ورافع الراية لهم فيها • وابن عبد ربه والصقلي واضرابهم من شعراء ملوك
الطوائف لما رحلت فيها رحال اللسان والادب وتداول ذلك فيهم مئين من السنين حتى كان الانتقاص
والخلل امام بعلب النقر اليه وسعلوا عن تعلم ذلك وتناقص العمران فتناقص بذلك شان الصنائع
كلها فقصرت الملكة فيهم عن شانها حتى لعبت الحضيض • وكان من اخرهم صالح بن شريف وملك بن المرحل
من سلمية الطبقة الاستليين لسبته وكما • دولة بني الاحمر في اولها والف الاندلس اولاد
كبدها من اهل تلك الملكة بالجلاء العدوة من اشبيلية الى سبته ومن شرق الاندلس الى افريقية
ثم لم يكبوا ان انقرضوا وانقطع سند تعليمهم في هذه الصناعة لعسر قبول اهل العدوة وصعوبته
عليهم بعوج السنتهم ورسوخهم في العجمة البربرية وبني منافيه فاقتناه • ثم عادت الملكة بعد
ذلك الى الاندلس كما كانت وتحمها ابن رشيق وابن جابر • وابن الجياب وعاصرهم ابن الخطيب
من بعدهم الهالك لهذا العهد شهيد السعاية اعداءه وكان له في اللسان ملكة لا تدرك واتبع
اثره تلميذه من بعده وبالجملة فشان هذه الملكة بالاندلس اكثر وتعليمها اسهل والتيسير بها عليه
لهذا العهد كما قدمناه من معاناة علوم اللسان ومحافظتهم عليها وعلى سند تعليمهم وانما ابطل
اللسان العجمي الذي يفسد ملكتهم انما هم طارئون عليهم ولست عجمتهم اضلالا للغة اهل الاندلس
والبربر في هذه العدوة منهم الا في الاقل لسانها الامصار وقطر وهو متمكن بين
ظهر عجمتهم ورطانتهم البربرية فتصعب عليهم بحصيل الملكة الساشية بالتعليم بخلاف اهل
الاندلس • واما المشرق لعهد الامويين والعباسيين فكان شانه شان الاندلس في تمام هذه
الملكة وانحاده لبعدهم لذلك العهد عن الاعاجم ومخالطتهم الا في القليل فكان امر هذه
الملكة لذلك العهد اقوم • وكان تحول الشعراء والكتاب لعهدهم او قريبا لتوفر العرب
واتباعهم بالمشرق • واضبط ما اشتمل عليه كتاب الاغاني من نظمهم ونثرهم فان ذلك الكتاب
هو كتاب العرب وديوانهم فيه لغتهم واخبارهم وايامهم وملتهم العربية وسير سلفهم وآثار
خلفائهم وملوكهم واشعارهم • ومغانيهم وجميع احوالهم فلا كتاب اوعب منه
لاحوال العرب وبقي امر هذه الملكة مستحكما بالمشرق في الدولتين وربما كانت فيهم ابلغ من
سواهم ممن كان في الجاهلية كما نذكره بعد حتى تلاشى امر العرب ودرست بغيتهم وفسد لسانهم

انتهى

وانتضى امرهم ودولهم وصار الامر للاعاجم والملك في ايديهم والتغلب لهم وخالطوا اهل الامصار وكثروهم فاملات اقطار المشرق بلغاتهم واستولت العجمة على اهل الامصار والحواضر حتى بعدوا عن اللسان العربي وملكته وصار متعلمها منهم متصرا من تحصيلها وعلى ذلك عد لسانهم لهذا العهد في المنظوم والمنثور وان كانوا امكن منه والله يخلق ما يشاء ويختار

فصل في انقسام الكلام الى فني النظم والنثر

اعلم ان لسان العرب وكلامهم على فنين فن الشعر والمنظوم وهو الكلام الموزون المقفى ومعناه انه الذي يكون اوزانه كلها على روي واحد وهو القافية وفن النثر وهو الكلام غير الموزون وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام فاما الشعر فمنه المدح والنسيب والرثاء واما النثر فمنه المسجع وهو الذي يؤتى به قطعا قطعا ويلتزم فيه او في كلتين منه قافية واحدة يسمى سجعا ومنه المرسل وهو الذي ينطلق فيه الكلام اطلاقا ولا يقطع اجزاءه بسجع لكن يسترسل من غير تقييد بقافية ولا غيرها ويستعمل في الخطب والدعاء وترهيبهم وترغيبهم واما القرآن وان كان من المنثور الا انه خارج عن الوصفين وليس يسمى مرسلا مطلقا ولا مسجعا بل هو مفصل آيات تنتهي الى مقاطع يستهد الذوق انها الكلام عندها ثم يعاد الكلام في الآية الاخرى وهي من غير التزام حرف يكون سجعا ولا قافية وهو معنى قوله الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ولقد فصلناه آيات وسمى احد الامات فيه فواصل اذ لم تكن اسجاعا ولا التزام فيها ما يلتزم في السجع ولا سمي ايضا قوافي واطلق اسم المثاني على آيات القرآن كلها على العموم لما ذكرناه واختصت باسم القرآن للغلبة فيها كما نجم للثريا وهذا اطلق علما بالغلبة على السبع المثاني وانظر هذا مع ما فعلم القرون في تعليل تسميتها بالمثاني لتهتدي بتوفيق ما قلناه

واعلم ان لكل واحد من هذه الفنون اساليب تختص به عند اهله ولا يصلح للفن الآخر ولا يستعمل فيه مثل النسيب المختص بالشعر والحمد والدعاء المختص بالخطب والدعاء المختص بالمخاطبات والمراسلات وذلك وقد استعمل المتأخرون بعض اساليب الشعر ومذاهبه في المنثور مذكرة الا بجاع والالتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدي الاغراض وصار هذا المنثور اذا تاد ملكة من باب الشعر وفنه ولم يفترقا الا في الوزن واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال في المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وخلطوا الاساليب فيه وبحروا المرسل وتناسوه وخصوصا اهل المشرق وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب العمل جار على هذا الاسلوب الذي اشرنا اليه وهو غير صواب من جهة البلاغة بما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من احوال المخاطب والمخاطب وهذا الفن المنثور المقفى اوغل المتأخرون فيه اساليب الشعر فوجب ان يره المخاطبات السلطانية عند اذ اساليب الشعر تاج فيه اللوذعة وخلط الجد بالهزل والاطناب من الاوصاف والصفات الامثال والتشبيهات والاستعارات حتى لا مدعولة لذلك كله ضرورة في الخطاب والالتزام

السنية ايضا من الوداعة والرزين وجلال الملك والسلطان وخطاب جمهور عنه بالرهيب والرغيب
تبا في ذلك وتباينه والمحمود في المخاطبات السلطانية الرئيس وهو اطلاق الكلام وارساله من غير
تتبع الا في الاقل النادر وحث ترسله الملكة ارسالا من غير تكلف له ثم اعطا الكلام حقه في مطابقته
لمقتضى الحال فان المقامات مختلفة ولكل مقام اسلوب يخصه من اطناب او ايجاز او حذف او اثبات
او تصريح او اشارة او كناية او استعارة واما اجرا المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو
على اساليب الشعر مذموم وما حمل عليه اهل العصر الا استيلا العجمة على السنتهم وقصورهم لذلك عن اعطا
الكلام حقه في مطابقته بمقتضى الحال فحرجوا الى الكلام المرسل لبعد امده في البلاغة واتساع خطوه
ولعوا بهذا المنحى لمعقول به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه وحرموا
بذلك القدر من الترتيب بالاسجاع والاثناب البديعة والمعقول عن ما وراء ذلك واكثر من اخذ
بهذا المذهب وبالغ فيه في سائر اقطار كلامهم قتاب المشرق حتى انهم يحاولون بالاعراب في العلمات
والتصريف اذا امكنت لهم في لمنس او مطابقة الاستعانة معا فيحوون ذلك الصنف من التجنيس
ويدعون الاعراب ويفسدون فيه بنية الكلمة عسا ان تصادف التجنيس فتاه بمثل ذلك واستند
بما قدمنا لك نقف على صحة ما ذكرناه والله تعالى الموفق آمين

فصل في انه لا يتفق الاجادة في فني المنظوم والمنثور معا الا للاقل

والسبب في ذلك انه كما بيناه ملكة في اللسان فاذا استقبل محله ملكة اخرى قصرت بالمحل عن تمام
الملكة الراسخة لان قبول الملكات وحصولها للطباع التي على الفطرة الاولى اسهل واقرب واذا
تقدم الملكات اخرى كانت منازعة لها في المادة القابلة وعائقة عن سرعة القبول فوقعت المنافاة
وهذي التمام في الملكة وهذا موجود في الملكات الصناعية كلها على الاطلاق وقد برهنا عليه في موضع
يحوم من هذا البرهان فاعتبره تجده مثله في اللغات فان ملكات اللسان وهي بمنزلة الصناعة وانظر
من تقدم له سنن من العجمة كيف يكون قاصرا في لسان العرب بدا فالهودي الذي سبقت له اللغة
العبرانية لا يستولي على ملكة اللسان العربي ولا يزال قاصرا عنه ولو تعلم وتعلم وكذا الرومي
والبربري قل ان تجد احدا منهم محكما لملكة اللسان العربي وما ذلك الا لما سبق الى السنتهم
من ملكة اللسان الاخر حتى ان طالب العلم من اهل هذه الالسن اذا طلبه بين اهل اللسان العربي
ومن كتبهم جاء متقاصرا في معارفه عن الغاية والتحصيل وما اوتي الا من قبل اللسان وقد
تقدم لك من قبل ان الالسن واللغات تتنزل بالصنائع وتعدم ان الصنائع وملكاتها لا ترسخ
وان من سبقت له اجادة ملكة قل ان يجيد اخرى او يستولي فيها على الغاية

فصل في صناعة الشعر وحد تعلمه

هذا الفن من فنون كلام العرب وهو المسمى بالشعر عندهم ويوجد في سائر اللغات
الا ان الآن انما نتكلم في الشعر الذي للعرب فان امكن ان يحذو فيه اهل الالسن الاخرى مقصودهم

والاكمل لسان احكام في البلاغة حضة وهو في لسان العرب عرب الرغة عز بو المخ اذ هو كلام
مفصل قطعا قطعا متساوية في الوزن متحدة في الحرف الاخير من كل بيت وليس كل وزن اتفق في
الطبع يستعملونه في هذا الفن وانما هي اوزان مخصوصة حصرها الخليل وعينها ولم يحدوا العرب في مرها
نظما وسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتا وسمى الحرف الاخير الذي يتفق فيه رويا وقافية
ويسمى كل قطعة منه بانفرادها واسلوبا حيث كانت كلمة واحدة مستقلة فيستغني عما قبلها وما بعدها
واذا انشد فان تاما بيت بانه من مديح او نسيب اورثاء فيعرض الشاعر على اعطاء ذلك القطعة ما يستقل بها
في افادة ثم يسابق في البيت الاخر كذلك فلذلك كان مزيا عند العرب وجعلوه ديوان
علومهم واخبارهم وشاهد صوابهم وخطائهم واصلا يرجعون اليه في اكثر من علومهم وحكمهم وهو معنى
الماخذ باستقلال كل بيت منه بانه كلام تام في مقصوده الذي سيق الكلام من اوله لاجله محتاج فيما
وقع ملتبس بالمكنة صين نفرعا في قافيه فتصير جملة الكلام في البعض وهو البيت الواحد ثم كلام اخر في
بيت اخر الى اخر المقصود وبناسب بين البيوت وذلك كان محكما للقرائح في استحادة اساليبه فيحتاج
الى تحذ القريحة في الجانة لعزابة فنه وان حصول الملكة الساذنة على الاطلاق لا تكفي بمفرد بل يحتاج
بخصوصة الى تلطف ومحاولة ورعاية الاساليب التي استعملها العرب فيها واذا اساليب ليست
على الاطلاق لغير هم بل هو معروف في لسان العرب مثل سؤال الطلول بسؤال التعجب كما في قوله
قفا وقوله لمع الم تسئل فتخبرك الرسوم وقوله يا دار مية وبمثل البداءة في شكوى
المحبة مثل يا لقومي من ذا الهوى العذاري ومثل عتاب الشيب على ما حمل من الهوى
وفي المدح مثل بنكت الاستاه عن مساماة الممدوح وبعضهم احاله عنه وفي الرثاء مثل اطلال
الحول للعقد وبكاء الاكوان بالعزا والنجع وكل ذلك بالفاظ مخصوصة به واساليب
يحب مراعاتها كما استعملها العرب فان اضاع ذلك المعنى في غير القالب الذي استعملته فيه العرب
وبقطه على غير ذلك الاسلوب كان نازلا عن طبقة البلاغة في ذلك الفن وفي عمله واحكام
صناعته بشروط اقلها الحفظ من جنسه اما من شعر العرب حتى ينشأ في المتن ملكة تنسج على منواله
او بحر المحفوظ من الحر الى الكثير الاساليب ومعنى الاسلوب الصفة المودية بالكلام
والاقتال على ناوية مقتضاه والا يكون معطوفا بعضه على بعض اذ العطف مناقض لحقيقة
من استقلال كل جزء فما قبله واقطع لبعضه من بعض كان البلغ في الاستقلال وفي شعر العرب
اساليب مخصوصة بالشعر لا توجد في فصيح الكلام مثل يا دار مية وودعان الهوى
وقفا نبك وسل بالطلول وهذا المحفوظ المختار اقله شعر شاعر من الفحول
الاسلاميين مثل جرير والبحتري او الرضي اوابن ابي ربيعة او ابو نواس واكثر شعر
كتاب الاغاني انما جمع شعر اهل الطبقة الاسلامية كله ومن كان عالما بالمحفوظ فنظمه رديء
والعطية الرونق والحلاوة الاكثرة المحفوظ فمن قل حفظه او عدم لم يكن له شعرا وانما هو
نظم سائك فط ولجناب الشعر اول من لم يكن له محفوظ فيه ثم بعد الاستكثار من المحفوظ
وتحد القريحة للنسج على المنوال فقيل على النظم وبالكمال منه استحكم ملكة ونسج وزعا على اك

ان من شرط لسان ذلك الخطوط التي يسوغ فيه الطاهر اذ هي حاده وعن اسماعها نفسها فاذا
لسها وقد كشفت النفس بها واستغنى لا سلوب فيها كانه متوال او في الشبع عليه بامثالها من كلمات
اخرى ضرورة ثم لا بد له من الحلو واجتناده المكان والمنظور فيه من اتساعه وانارته وكذلك
من المسموع والاستارة الترجيعية باجتماعها وتشطيرها بملاءة السرور مع هذا كله شرط ان يكون
على حمام ونشاط فذلك اجمع له واشد استثارة للقريحة الى مثل ذلك المنوال الذي في خطه
قالوا وحرة ذلك اوقات انكر عند الصوب من النوم وفراغ المعدة ونشاط الفكر وربما قالوا
ان من مواعنه العشق والاستماع ذكر ذلك ابن رشيق في كتاب العمدة وهو الكتاب الذي الترجمة
الصناعة واعطى حقها ولم يكتب قبله ولا بعده قالوا فان استصعب عليه بعد هذه كلها
فليتركه الى وقت آخر ولا يكثر نفسه عليه ولكن مهانة البيت على القافية صعب عليه وضعها في محلها
وربما عرى باقي كلفة واذا الخاطر بالبيت ولم يناسبه الذي عند فليتركه الى موضعه اللائق
به فان كل بيت مستقل بنفسه ولم يتوالى المناسبة فيحتمل فيها ما شاء ولا يتبع سجع بعد الخلاص
منه بالتسجيع والتقفية ولا [illegible] على الترك اذا لم يبلغ الاجادة فان الانسان مفتون بشعره
اذ موزونات فكره واختراع قريحته ولا يستعمل فيه من الكلام الا افصح من التراكيب والخالص من
الضرورات السائغة اذ هي قصور في الملكة السائبة فليحترز فانها مزلة للكلام عن طبقة البلاغة
وقد خط ائمة اللسان على المولد ارتكاب الضرورة اذ هو في سعة منها بالعدول الى الطريقة المثلى من الملكة
وليجتنب العقد من التراكيب جهده وانما يقصد منها ما كانت معانيه تسابق الفاظه الى الفهم وكذلك
كثرة المعاني في البيت الواحد فان فيه نوع تعقيد على الفهم وانما المختار منه ما كانت الفاظه طبقا على
معانيه اذا دنى منها فان كانت المعاني كثيرة كانت حشوا واستغل الذهن بالعرض عليها فمنع الذوق
من استيفاء مدركه من البلاغة ولا يكون الشعر سهلا الا اذا كانت معانيه تسابق الفاظه الى الذهن
ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعر ابي اسحاق بن خفاجة شاعر شرق الاندلس لكثرة
معانيه وازدحامها في البيت الواحد وكانوا يعيبون شعر المتنبي والمعري لعدم النسج على
الاساليب العربية وكان شعرهما كلام منظوم نازل عن طبقة الشعر والحاكم في ذلك هو الذوق
وليجتنب الشاعر الحوشي من الالفاظ والمتعر وكذلك المستوفي المبتذل فانه يزل
بالكلام عن طبقة البلاغة وكذلك المعاني المبتذلة بالتداول فان الكلام يزل بها عن البلاغة
ايضا فيصير مبتذلا ويقرب من عدم الافادة لقولهم البارحة والسماوة والبعد
ما يقرب من طبقة عدم الافادة سيما عن رتبة البلاغة اذ هما طرفان ولهذا كان الشعر
في الدارات والسوانح قليل الاجادة في الغالب ولا يجيد فيها الا المحول وفي القليل
وعلى العموم ان معانيها مبتذلة من الجمهور فتصير [illegible] لذلك واذا انعقد الشعر
لعدة هذه كلها فليراوضه ويعاوده فان القريحة مثل الضرع مدر [illegible] الترك
والامهال وبالجملة فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى في كتاب العمدة لابن رشيق وقد ذكرنا منها
ما حضرنا بحسب الجهد ومن اراد استيفاء ذلك فعليه بذلك الكتاب فقيه البغية من ذلك

وهذه بذرة كافية • والله المعين •

فصل في ان صناعة النظم والنثر انما هي في الالفاظ

اعلم ان صناعة الكلام نظما ونثرا انما هي في الالفاظ لا في المعاني وانما المعاني تبع لها وهي اصل فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر انما يحاول بها في الالفاظ لحفظ امثالها من كلام العرب لكثرة استعمالها او حرية على لسانه حتى يستقر له الملكة في لسان مضر ويتخلص من العجمة التي ربي عليها في صباه ويعرض نفسه مثل ولد نشأ في جيل العرب ولقن لغتهم كما ملكنا للصبي حتى يصير كانه واحد منهم في لسانهم ذلك وذلك انا قدمنا ان اللسان ملكة من الملكات في النطق تحاول تحصيلها تكرارها على اللسان هي تحصل الملكة والذي في اللسان والنطق انما هو الالفاظ والمعاني في الضمائر • واما فالمعاني موجودة عند كل احد • وفي طوع كل فكر منها ما تشاء وبرهن فلا تحتاج الى صناعة وتاليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه وهو بمثابة القوالب للمعاني فكما ان الاواني التي تعترف بها المدر من الخزف انية الذهب وانية الفضة • والقدح والزجاج • والحرف والماء واحد في نفسه ويختلف الجودة في الاواني المملوة بها باختلاف صنعها لا باختلاف الماء كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تاليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد والمعاني واحدة في نفسها وانما الجاهل بتاليف الكلام والسالبة على مقتضى ملكة اللسان اذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن بمثابة المقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه • والله يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون • •

فصل في ان حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ

وجودتها بجودة المحفوظ •

قد قدمنا انه لابد من كثرة الحفظ لمن يروم تعلم اللسان العربي وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في نفسه وكثرته من قلته تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ فمن كان محفوظه شعر حبيب او البحتري • او ابن المعتز • او ابن هانئ • او الشريف الرضي • او رسائل ابن المقفع او سهل بن هرون او ابن الدمينة • او البديع • او الصابي تكون ملكته اجود واعلى مقاما ورتبة في البلاغة ممن يحفظ شعر ابن جهل من المتاخرين او ابن السبيه او السائي • او العماد الاصفهاني لتردد طبقة هؤلاء عن او لئك نظير ذلك للبصير الناقد صاحب الذوق على مقدار جودة المسموع او المحفوظ تكون جودة الاستعمال من بعد ثم اجادة الملكة من بعدهما وتارتقا المحفوظ في طبقته من الكلام ترتقي الملكة الحاصلة لان الطبع انما ينسج على منوالها وينمو قوى الملكة بعدها وذلك ان النفس وان كانت في جبلتها واحدة بالنوع فهي تختلف في البر بالقوة والضعف في الادراكات واصلاتها انما هو باختلاف ما يرد عليها من الادراكات والملكات والالوان التي تكيفها من خارج فهذه يتم وجودها وتخرج من القوة الى الفعل صورتها والملكات

التي تحصل لها انما تحصل على التدريج كما قدمناه فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر وملكة الكتابة
بحفظ الاسجاع والترسل والعلة مخالطة العلوم والادراكات والاحاطة والفهمة
بمخالطة الفقه وتطير مسايل وتفريعها وتخريج الفروع على الاصول والصوفية الرياضة
بالعبادات والاذكار وتعطيل الحواس الظاهرة بالخلوة والانفراد عن الخلق ما استطاع حتى تحصل
له ملكة الرجوع لحاسة الباطن وروحه وينقلب ربانيا وكذا سايرها والمتمرس من كل واحد منها
لون يتكيف به وعلى حسب ما نشأت الملكة معلمه من جودة او رداءة تكون بي في بقيتها فملكة
البلاغة الغالبة الطبقة في جنسها انما تحصل بحفظ العالي في طبقته من الكلام ولهذا كان الفقهاء
واهل العلوم كلهم قاصرين في البلاغة وما ذلك الى محفوظهم ومتملى به من قوانين العلمية والعبارات
الفقهية الخارجة عن اسلوب البلاغة والنازلة عن الطبقة لان العبارات عن القوانين والعلوم
لا حظ فيها للبلاغة فاذا سبق ذلك المحفوظ الى الفكر وكثر وملؤت به النفس جاءت الملكة الناشئة
عنه في غاية القصور والخروج عبارته عن اساليب العرب في كلامهم وهكذا نجد سجع الفقهاء
والنحاة والمتكلمين والنظار وغيرهم ممن لم يتملى من حفظ الحر السني من كلام العرب **اجرى**
ما حبنا الفصل ابو القاسم بن رضوان كاتب العلامة بالدولة المرينية قال ذاكرت يوما
ما حبنا ابو العباس من شعيب كاتب السلطان ابا الحسن في البصر بالسان لهذه فاستدته
مطلع قصيده ابن النحوي ولم انشها له

لم ادر حين رقعت بالاطلال ما الفرق بين جديده والبالي

فقال لي على البديهة هذا شعر فقيه فقلت له ومن اين لك ذلك فقال من قوله ما الفرق
اذ هي من عبارات الفقهاء واين من كلام العرب فقلت له لله ابوك انه ابن النحوي
واما الكتاب والشعرا فليسوا لذلك لتحيرهم في محفوظهم ومخالطتهم كلام العرب
واساليبهم في الترسيل واسقايهم له الجيد من الكلام **وذكرت يوما** ما حب
ابي عبد الله بن الخطيب وزير الملوك بالاندلس من بني الاحمر رحمه الله وكان المقدم بالشعر
والكتابة فقلت له احد اسبقهما على في نظم الشعر منذ زمنه مع بصري به وحظي للجيد من الكلام
من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب وان كان محفوظي قليلا وانما اسست وانا لم
قليل ما حصل في محفوظي من الاشعار العلمية والقوانين البليغة فانى حفظت قصيدة في الشاطبي
في القراآت الكبرى والصغرى واستظهرتها وتدارستها مع ابن الحاجب في النحو والاصول
وحفظ الجوهري في المنطق وبعض كتاب التسهيل وكثيرا من قوانين التعليم في المجالس فاصبح
محفوظي من ذلك وحدس وجه الملكة التي استفدتها بالمحفوظ الجيد فضاق الفرجة عن بلوغها
فنظر الي ساعة مغيثا ثم قال لله انت وهل يقول هذا الا مثلك وتظهر لك من هذا
الفضل وما تعرفه ستراخ وتواعطا السبب في ان كلام الاسلاميين من العرب اعلى طبقة في
البلاغة واذواقا من كلام الجاهلية في منثورهم ومنظومهم فانا نجد شعر حسان بن ثابت
وعمر بن ابي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وغيلان والاحوص

وابن

وانتشار من كلام الشاعر من العرب في الدولة الاموية وصدرا من الدولة العباسية في خطبهم ورسايلهم ومحاورتهم فالملوك ارفع طبقة في البلاغة بكثير من شعراء الطبقة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد ومن كلام اهل الجاهلية في منثورهم ومحاوراتهم والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة والسبب في ذلك ان مولانا الدين اذا ركبوا الاسلام سموا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث التي عجز البشر عن الاتيان بمثلها لفظا ولحت قلوبهم وتسامت على اساليبها نفوسهم فنعتت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة عن ملكات من قبلهم من الجاهلية ممن لم يسع هذه الطبقة ولا شاكلها وكان كلامهم في منظومهم ومنثورهم اصفى رشاقة واصفى رونقا من اوائل واوصف مبانيا واعدل سبكا بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة وتامل ذلك يشهد لك به ذوقك ان كنت من اهل الذوق والمعرفة بالبلاغة **وسالت يوما** شيخنا الشريف ابا القاسم فاضي غرناطة لعهدنا وكان شيخ هذه الصناعة اصالة نفسه عن منتحاها من تلميذ الملوسين واستشهد في علم اللسان وجاء من وراء الغاية فيه فسالته يوما مالك العرب الاسلاميين اعلى طبقة في البلاغة من الجاهليين ولم يكن ليستكره ذلك بذوقه فسكت طويلا ثم قال لي والله ما ادري فقلت اعرض علمك سناء ظهري ولعله السبب في ذلك وذكرت له هذا الذي كتبت فسكت مفكرا ثم قال لي بقيه هذا كلام من حقه ان يكتب بالذهب وكان من بعدها لم يثر محلي ويصيخ في مجالس التعليم الى قولي ويشهد لي بالنباهة في العلوم والله خلق الانسان وعلمه البيان

فصل في ترفع اهل المراتب عن انتحال الشعر

اعلم ان الشعر كان ديوانا للعرب فيه علومهم واخبارهم وكان رؤساء العرب مستنين فيه وكانوا يتفوقون بسوق عكاظ لانشاده وعرض كل واحد منهم ما ساجته على فحول الشعراء واهل البصر لتميزه حتى انتهوا الى المناغاة في تعليق استعاريهم بارفع البيت الحرام موضع حجهم وبيت ابيهم ابراهيم كما فعل امرؤ القيس بن حجر والنابغة الذبياني وزهير بن ابي سلمى وعنترة ابن شداد وطرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة والاعشى وغيرهم من اصحاب المعلقات التسع فانه انما كان يتوصل الى تعليق الشعر بها من كان له قدرة على ذلك بتقويمه وعصبيته ومكانه في مضر على ما قيل في تسميتها بالمعلقات ثم انصرف العرب عن ذلك اول الاسلام بما شغلهم من امر الدين والعبادة وما اذهلتهم من اسلوب القرآن وتطه فاخرسوا عن ذلك وسكتوا من الخوض في النظم والنثر زمانا ثم لما استقر ذلك واونس الرشد من الملة ولم يتوقع من تحريمه وحظره وشيعة النبي صلى الله عليه وسلم واتباعه عليه رجعوا حينئذ الى ديدنهم وكان لهم من ذلك نبعة كبير وفضل لذلك العهد فيه مقامات عالية وطبقة مرتفعة وكان كثير اما يعرض شعره على ابن عباس فيقف لاسماعه ويجتابه ثم جاء من بعد ذلك الملك العضد والدولة العزيز فتقرب اليهم العرب باستعاريهم يمتدحونهم ويجزلهم الحلقات باعظم الجوايز على نسبة الجودة

فى استعاريهم ومكانهم من قومهم وحرصون على اسماعهم استعاريهم يطلعون مواقع الاجاز والاشارة واللمحة وشرف اللسان والعرب وبيط البون وبينهم بحطها هو لم يزل اللسان هذا الامر فى امية وصدة رامى ودونى اللسان **وانظر ما نقله** صاحب العمدة فى محاضرة الرشيد للاصمعى فى باب الشعر والشعراء تجد ما كان عليه الرشيد من المعرفة بذلك والرسوخ فيه والعناية باسبابه والقدم بحيد الكلام ورديه وكثرة محفوظه منه ثم ما خلف من بعدهم لم يكن اللسان لسانهم من اجل العجمة ونقصها باللسان وانما تعلموا صناعة ثم مدحوا باستعاريهم امراء العجم الذين ليس اللسان لهم طالبين معروفهم فقط لا لسوى ذلك من الاغراض مما فعله حبيب والبحترى والمتنبى وابن هانى ومن بعدهم الى هلم فصار غرض الشعر فى الغالب انما هو للكذبة والاستخذاء للذهاب المنافع التى كانت فيه للاولين مما ذكرناه وانف منه لذلك اهل الهمم من المتاخرين وتغير الحال فيه وامسى بقاطيه بحيث فى الرياسة ومذمة لاهل المناصب الكبيرة وانه مقدر الليل والنهار

فصل فى ان كثير من العرب واهل الامصار لهذا العهد اعلم

ان الشعر لا يختص باللسان العربى فقط بل هو موجود فى كل لغة ستوا كانت عربية او عجمية وقد كان فى الفرس شعراء وفى يونان كذلك وذكر منهم ارسطو فى كتاب المنطق له او سرش الشاعر واثنى عليه وكان فى حمير شعراء متقدمون ولما دون لسان مضر ولغتهم التى دونت مقاييسها وقوانين اعرابها واختلفت اللغات من بعدهم بحسب ما خالطها ومازجها من العجمة فكانت جيل العرب باسرهم لغة خالفت لغة سلفهم من مضر فى الاعراب جملة وفى كثير من الموضوعات اللغوية وبنا الكلمات وكذلك الحضر اهل الامصار نشات فيهم لغة اخرى خالفت لسان مضر فى الاعراب والكلام والسماع والتصاريف وخالفت ايضا لغة الجيل لهذا العهد من العرب واصلحت بى فى نفسها حسب اصطلاحات اهل الذوق فلاهل المشرق وامصاره لغة غير لغة اهل المغرب وامصاره وكذلك لهما ايضا لغة اهل الاندلس وامصاره ثم لما كان الشعر موجودا بالطبع فى اهل كل لسان لان الموافق على نسبة فى اعداد المحركات والسواكن وبعدها موجودة فى طباع البشر كلهم صار الشعر بفقدان لغة واحدة وهى لغة مضر الذين كانوا حوله وفرسان مدانه حينما استحوذ من اهل الخليقة على كل جيل واهل كل لغة من العرب المستحدثين واكثر اهل الامصار يغلطون منه ما يطيقونه لبعدهم فى التخيل ووصف ما هو على سمت كلامهم فاما العرب اهل هذا الجيل المستحدث على لغة سلفهم من مضر فيهم فنون الشعر لهذا العهد فى سائر الاقاليم على ما كانت عليه لسلفهم المستعربين وبانون منها بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر واغراضه على مذاهب النسيب والمدح والرثاء والهجاء والاستطرادون فى الخروج من فن الى فن فى الكلام وربما يجمعون الى المقصود الاول كلامهم واكثر ابتدائهم فى قصائدهم باسم الشاعر ثم من بعد ذلك يثنون ويثلثون هذه القصائد بالمقطعات تسمى الى الاصمعى راوية العرب فى استعاريهم المطولة ولهم فن اخر كثير التداول فى نظمهم يحدون به منحى على

ازلة اجزا يخالف اجزا الملاقة فى دوره ويلزمون العاشية الرابعة فى كل بيت الى آخر القصيدة
تسميتها بالمربع والمحدث الذى احدثه المولدون من المتأخرين وهؤلاء العرب فى هذا الشعر ملاعبة
عابثة وضيم النحول والمتأخرون والكثير من المتحلين بطلب هذا العلم يستكرهون هذه الفنون
التى لهم اذا سمعوها وصح نظمهم اذا انشد ويعتقدان ذوقا انما يباعها لا متحانها وفقدان الاعراب
منها وسواء اتى من فقدان الملكة فى لغتهم فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لتمهد له ذوقه وطبعه بلاغتها
ان كان سليما من الافات فى فطرته وطبعه والى الاعراب لا مدخل له فى البلاغة انما البلاغة مطابقة
الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود فيه سواء كان الرفع دالا على الفاعل والنصب على
المفعول او بالعكس وانما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو فى لغتهم حين فالدلالة
بحسب ما يصطلح عليه اهل الملكة فاذا عرف اصطلاح فى ملكة واستمر صحب الدلالة ولا عبرة
بقوانين النحاة فى ذلك واساليب الشعر وفنونه موجودة فى اشعارهم حين ما عدا حركات
الاعراب فى اواخر الكلمات فان غالب كلماتهم موقوفة الاخر وتميز عندهم الفاعل من المفعول
والمبتدا من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الاعراب من اشعارهم على لسان الشريف
ابن هاشم يبكى الجارية بنت سرحان ويذكر طعنها مع قومها الى المغرب الشريف

الشريف بن هاشم • على الى طرائد سكنت من دفيرها •
بمزلاء علام ان مارات حاظ • برد علام البد وبلوى عقيرها •
وما ذا سكات الروح مما طرالها • عدات ورابع بلف الله حمرها •
بحس ان طعاما رى صبرها • بمشرطنو هند اوصانى ذكرها •
وعادت ما حوان فى بدغاسل • على مثل سنول الطلح عمو لسنرها •
بجابدوها اسنن والفرع بينهم • على سنو كوعيد وبقايا حرورها •
وجات دموعى دارفات لكنها • سدن دوار السوانى بدورها •
بدارك منها الحم حدرا وزادها • مرون بحى مترا كنا من صيرها •
بقصب من التعان من جانب الصفا • عوفا وبحار العرق فى عزورها •
هذا العنا منى لساب عروق • ماضت من بغداد حتى قفيرها •
وناذى المنادى بالرحيل وشوا • وعرج عاريها على مستعيرها •
وسدا لها الادنا زادين غانم • على ادن ماصى بن مغرب بنيرها •
وقال لهم حسن بن سرحان عربوا • وسرفوا النجوع ان كان باى عقيرها •
وبركض وسدها بالنسايح • وبالمن لا تحروا فى مغيرها •
عدرى برمان السميح بن عاتس • وما كان برضى دين حمر ومنرها •
غدرتى ومون عاصدينى وصاحبى • وبالله ما من رفقتى ما بدورها •
ورجع بقول لهم بلادين هاشم • بحر البلاد المعطشا ما بحرها •
حراما على بابا بغداد وارضها • ذا ظر ولا عاود ركوبى بغيرها •

وهذه القصيدة وما بعدها لما وجدناهم في غاية السقم تركنا كتابتهم وبهم يتم هذا الكتاب
وكذلك جميع هذا المؤلف من أوله إلى آخره في غاية السقم وعدم الصحة
من كاتب نسخة الأصل فلا حول ولا قوة إلا بالله ٥